العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
مركز الفكر والإبداع

شهر رجب
شهر شعبان
شهر رمضان
شهر شوال
شهر ذي القعدة
شهر ذي الحجة

Al-Sada
Cgltgral Qgavterly Jogrnal For Hegira Events
Issged by the al _abbas holey shrine Department of Intellectgal and
Cgltgral Affairs Division of thogght and creativity

بسم الله الرحمن الرحيم

صدق الله العلي العظيم
سورة الزلزلة: الآية/ ٧.

الإشراف العام
السيد عقيل عبدالحسين الياسري

رئيس التّحرير
صباح نعيم الصافي

مدير التّحرير
محمد الأسدي

هيأة التّحرير
رضوان عبد الهادي
حيدر فائق هادي
عباس صباح مرشد
حيدر الدفاعي
محمد يوسف

المراجعة اللغوية
محمد رضا جاسم

المشاركون
السيد شبيب الخرسان
السيد حسين الحيدري
د. خديجة حسن علي الفصير
د. زهراء نور الدين
أ.م. د. حيدر لفتة سعيد

التصميم و الإخراج
حسين عقيل

التنفيذ الطباعي
دار الكفيل
للطباعة والنشر والتوزيع

للاشتراك

تستقبل مجلة الصدى المشاركات (البحوث والمقالات) باللغة العربية، ووفق المحاور التي تغطي أحداث السنة الهجرية وتتناول السيرة العطرة للنبي الأكرم ﷺ، وأهل بيته عليهم السلام.

ترسل المشاركات على العنوان الآتي:
العراق / كربلاء المقدسة / مجمع الكفيل الثقافي / شارع الاسكان / خلف متنزه الحسين عليه السلام الكبير

التواصل مع المجلة:

alsadda@alkafeel.net
info@alkfeel.net

رقم الايداع في دار الكتب و الوثائق العراقية
٢١٩٤ لسنة ٢٠١٦م

في البدء

بسم الله الرحمن الرحيم

الرّقابة الذّاتية حاجة ملحّة للإنسان، وشهور العبادة من أهم الشهور التي تُساهم في تقوية هذا الخلق؛ فالذي يصوم ينبغي أن لا يصوم عن الطّعام والشّراب فقط، بل يصوم عن جميع الرّذائل والمحرّمات، فطموح الإنسان المؤمن أن يسعى كي يكون صادقاً مع ربِّه في جميع عباداته، سواء؛ في الصِّيام أو الصّلاة، أو الحج والزَّكاة؛ بل كلّ تحرّكاته وسكناته، فيخشى الرّقابة الإلهية قبل كلِّ شيء، ويجعل الرّقابة الإلهية سندًا للرقابة الذَّاتيّة، وأنَّ الله تعالى نصب عينيه دائمًا، أينما كان وأينما حلّ؛ يرقب حركاته وسكناته؛ لأنَّه أقرب إليه من حبل الوريد. بل وجعل الله سبحانه على الإنسان مجموعة من الشهود والرقباء، فإنَّ الملائكة ترقب الإنسان؛ بل وحتى جوارحه، وأعضاءه، وتشهد عليه.

فأين المفر؟

وكيف النَّجاة؟

ولا طريق إلى النَّجاة إلَّا أن يجهد ويتعب الإنسان نفسه في هذه الشّهور الكريمة.. بأن يجعل كلَّ شيء وكلَّ عمل لله تعالى.. وأن يكون رقيبًا على تصرّفاته وأعماله؛ لتكون بعيدة عن الهفوات والآثام، وأن يستثمر هذه الشهور الفضيلة لترويض النَّفس، وبرمجتها وفق برامج تربويّة دينيّة.

ولعلَّ أوَّل خطوة في هذا السّبيل: أن يتعلّم محاسبة نفسه، وإحصاء مساوئها، والخطوة الثانية: يلزم أن تكون أوقاته هادفة وأعماله مدروسة، فيقوم بتقسيم أعماله على ساعات اليوم، وهذا برنامج آخر يمكن الاستفادة منه؛ لتجنّب المعاصي والآثام أيضاً.

هذه البرامج الرّقابية معظمها وقائية تُحصّن النّفس من الوقوع في الخطأ، وتمسّكها عن فعل القبيح، وعمّا يهتك حرمة هذه الشهور، وحرمة الإنسان المؤمن نفسه، وهذا قبل فعل العمل

وارتكابه.

وهناك برامج رقابية بعد فعل العمل، أي لو عمل الإنسان عملاً، ولا يعرف مصيره فهنا رقابة أخرى ترشده في هذا السبيل، فالمحاسبة والوزن مرّة تكون قبل العمل، ومرّة تكون بعد العمل.. لكن الأفضل أن يزن الإنسان نفسه قبل العمل؛ ليكون أقرب إلى الصَّواب، والمؤمن قوّام على نفسه كما يُقال، فيحاسبها حتى يخفّ حسابه يوم القيامة.

إنَّ المواظبة الدَّائمة على النّفس، ومحاسبتها، والتّخطيط لأعمالها وبرامجها سيكون طريقًا جيّدًا لاجتناب الهفوات والآثام، كما سيكون بابًا واسعًا لتوفيق الله سبحانه في هذا الاتجاه؛ لأنَّ الله عز وجل إذا رأى العبد جادًّا في سبيل الهداية والصّلاح فإنَّه سوف يوفّقه، ويعينه ليصل إلى منازل المقرّبين.

إنَّ ادّعاء الإيمان ونسبته إلى النَّفس ليس من القضايا السّهلة التي يمكن أن ندّعيها؛ ونقول آمنّا؛ لأنَّ الإيمان عمل كله، والقول جزء منه؛ لذا لا يمكننا ادّعاء الإيمان إلَّا إذا ترجمنا ذلك سلوكًا بحيث يتجسّد في تصرّفاتنا، وعلاقاتنا مع المجتمع، وكُنّا كما أراد الله سبحانه وكما أراد به؛ فسلوك الإيمان يتطلّب منّا التزامًا دقيقًا في الأحكام التي وضعتها الشريعة لنا، وحينما نريد أن نلتزم بالأحكام أكبر الالتزام سيكلّفنا ذلك العناء الجسدي، والإرهاق الفكري، ونسيان الذّات، والتضحية بكلّ ما يربط الإنسان بالدّنيا من مال أو عيال أو منصب، إلَّا أنّه يعطينا نتيجة لذلك الهدوء والاطمئنان، والاستقرار النّفسي، والاجتماعي في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنّة، وواضح أنَّه ليس في الدَّار الآخرة فقط يوجد (فائزون وخاسرون) بل في هذه الدّنيا أيضًا حيث يكون الانتصار والنّجاة والهدوء من نصيب المؤمنين المتّقين، كما أنَّ الهزيمة والانكسار في الدَّارين تكون من نصيب الغافلين.

إذًا متى ما نفض العبد يديه وقلبه من النّتائج الشّكلية للعمل الدنيوي، ونظر بنظرة أعمق، شاعراً أنّه أخذ بواجبه، وسينال جزاءه الحقيقي إذا كان مؤدّيًا لمهمّته ورسالته بالشكل المطلوب فلن تبقى في نفسه بعد ذلك بقية أطماع وأهواء لتدفعه إلى التّكالب على حطام الدّنيا.

إنَّ الأئمّة المعصومين ﷺ، كما نَشروا معارف الإسلام وعلومه المختلفة، كذلك اهتمّوا بتهذيب النّفوس وإصلاحها من خلال تقوية عوامِل الخير والإيمان في النفوس، وتجفيف ينابيع الشّر؛ من خلال تقوية العلاقةِ بالله تعالى، والارتباطِ به، والسّير على خطاهم ﷺ والإخلاص في النّيّة والفعل، وما سيرتهم وكلماتهم وأخلاقهم إلَّا تجسيد للحق الذي يأخذ بيد الإنسان نحو سعادة الدّنيا والآخرة.

المحتوى

شـــهر رجـــب

دور الإمام محمد الباقر عليه السلام في تأسيس الاجتهاد الفقهي ١١
الإمام الهادي عليه السلام وبناء المجتمع ٣٩
خطب الحوراء زينب عليها السلام وأثرها في المواجهة مع داعش ٥٣
مظلومية الإمام الكاظم عليه السلام ٦٧

شـــهر شعبان

الإمام الحسين عليه السلام في حقوق الإنسان ٧٩
الإمام السجاد عليه السلام رائد الإصلاح الاجتماعي في العصر الأموي ٩١
مسؤوليتنا في زمان صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف ١٢٣

شـــهر رمـضان

رمضان شهر البركات ١٣٥
إمامة الحسن عليه السلام في ضوء نهج البلاغة ١٤٩
أموال السيدة خديجة بنت خويلد عليها السلام وآثارها الاقتصادية في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ١٦٩
قبسات من نور المرتضى عليه السلام ١٩١

شـــهر شـــوال

جامعة الإمام الصادق عليه السلام وبعض تلامذته ٢١٥

شـــهر ذي القعدة

من حكم الإمام محمد الجواد عليه السلام ٢٣٣

شـــهر ذي الحجة

في ظِلالِ بيتِ فاطمة عليها السلام إضاءاتٌ تقويميّةٌ في المنهجِ الأسريّ ٢٤٥

القصيدة

أم البنين وقربة العباس عليهما السلام ٢٦٩

شهر رجب

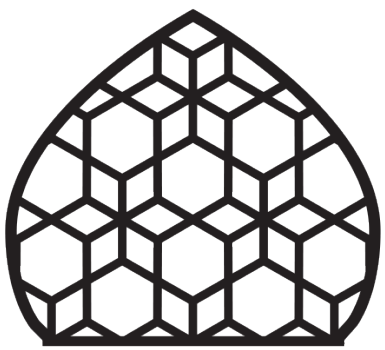

- دور الإمام محمد الباقر عليه السلام في تأسيس الاجتهاد الفقهي
- الإمام الهادي عليه السلام وبناء المجتمع
- خطب الحوراء زينب عليها السلام وأثرها في المواجهة مع داعش
- مظلومية الإمام الكاظم عليه السلام

دور الإمام محمد الباقر عليه السلام في تأسيس الاجتهاد الفقهي

أ.م.د جبار محارب عبد الله

تشتمل المنظومة الدينية الإسلامية على ثلاثة أبعاد رئيسة: العقائد، الفقه، الأخلاق، وقد أولى أئمة أهل البيت عليهم السلام عموماً والإمام محمد الباقر عليه السلام خصوصاً البعد الفقهي إلى جانب البعدين الآخرين، عناية فائقة؛ نظراً لأهمّيّة الفقه في حياة الإنسان، فإنّ الفقه هو الذي يتكفّل تنظيم حياة الإنسان وتحديد الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعاله وتروكه.

وعلى الرغم من الظّروف الصَّعبة التي عاشها الإمام الباقر عليه السلام؛ نتيجة مضايقة السّلطة الأمويّة للإمام عليه السلام، ومراقبة تحرّكاته، ومحاولة فصله عن قواعده الشّعبية من جهة، ومن جهة أخرى التنكيل بأصحابه، وتتبّع آثارهم، وتعذيبهم بأبشع أنواع التعذيب، نجد أنَّ الإمام عليه السلام استطاع أنْ يُمارس دوره في بيان الفقه والأحكام، ولم يدّخر جهدًا في هذا المجال، حيث كانت له عليه السلام جهودٌ واضحةٌ في مجال إعداد فقهاء لهم القدرة على بيان الأحكام الشّرعية، وإيصالها إلى المكلّفين بطرق مختلفة، وتأسيس قواعد أصول الفقه، التي من خلالها يستطيع الفقيه استنباط الحكم الشرعي.

وقد تمخّض عن تلك الجهود مجموعة من الرّوايات التي تتعلّق بالجانب الفقهي، والتي أصبحت محطّ نظر الفقهاء، حيث تناولوها بالبحث والتحقيق، والاستناد إليها في مقام الإفتاء، وفي أبوابٍ مختلفة من الفقه، ومجموعة من الرّوايات التي تتعلّق بالجانب الأصوليّ، ومجموعة من الفقهاء العاملين الذين كان لهم دور ريادي في مجال التّثقيف الفقهيّ.

والحديث في هذا الموضوع يقع في ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: حياة الإمام الباقر عليه السلام.

المبحث الثاني: في تأريخ الاجتهاد الفقهي عند الشيعة الإماميّة.

المبحث الثالث: جهود الإمام الباقر عليه السلام في تأسيس الاجهاد الفقهي.

المبحث الأوّل: حياة الإمام الباقر عليه السلام.

ولادته عليه السلام: ولد الإمام عليه السلام سنة ٥٧ من الهجرة النبوية الشّريفة، في المدينة المنورة، واستشهد فيها في السابع من ذي الحجة عام ١١٤هـ.، وقبره بالبقيع في مدينة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

نسبه عليه السلام: من جهة الأب أبوه الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وجدُّه الإمام الحسين سيّد الشهداء بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

ومن جهة الأم أمّه فاطمة بنت الإمام الحسن بن علي عليه السلام، فهو سليل أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، جدًّا وأبًا وأمًّا، فهو هاشمي من هاشميين، وعلوي من علويين[1].

بدأ الإمام عليه السلام يتلقّى علومه على يد أبيه عليه السلام، ونشأ وترعرع في ظلال أبيه الإمام زين العابدين عليه السلام، يحيا حياته في الزّهد، والعبادة، والعرفان، ويعيش آلامه ومآسيه.

كان الباقر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام بين إخوته خليفة أبيه علي بن الحسين عليهما السلام، ووصيّه والقائم بالإمامة من بعده، وبرز على جماعتهم بالفضل في العلم، والزّهد، والسّؤدد، وكان أنبههم ذكرًا، وأجلّهم في العامّة والخاصّة، وأعظمهم قدرًا، ولم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين عليهما السلام من علم الدين والآثار والسنة وعلم القرآن والسيرة وفنون الآدب، ما ظهر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام[2].

ويذكر المؤرّخون في سيرة الإمام الباقر عليه السلام الشخصية، أنّه كان كثير الذِّكر، كان يمشي وإنّه ليذكر الله، ويأكل الطَّعام وإنّه ليذكر الله، ولقد كان يُحدّث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكان يجمع ولده فيأمرهم بالذّكر حتى تطلع الشّمس، ويأمر مَنْ كان يقرأ منهم بقراءة القرآن، ومَنْ لا يقرأ منهم أمره بالذّكر، وكان ظاهر الجود في الخاصّة والعامّة، مشهور الكرم، معروفًا بالتفضّل والإحسان مع كثرة عياله وتوسّط حاله.

لقد توفّرت في شخصيّة الإمام أبي جعفر عليه السلام جميع الصّفات الكريمة التي أهّلته لزعامة هذه الأمّة، حيث تميّز الإمام عليه السلام بمواهبه الرّوحيّة والعقلية العظيمة، وفضائله النفسية والأخلاقية السامية، فكان عليه السلام جامعًا للكمالات الإنسانية في سيرته وسلوكه، ممّا جعل صورته صورة متميّزة من بين العظماء والمصلحين، فكان أهلاً للإمامة الكبرى بعد أبيه الإمام زين العابدين عليه السلام.

عاش الإمام الباقر عليه السلام منذ طفولته جحيم الأحداث المتوالية ضد أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، فقد عاصر حكم يزيد، وكان حاضراً في الطّف، وشهد ما جرى من أحداث دامية، ومحنة الأسر، وشهد حكم عبد الملك بن مروان، وحكم الوليد وهشام ابني عبد الملك.

تلك الفترة التي كانت من أصعب الفترات على أهل البيت عليهم السلام وعلى أتباعهم وشيعتهم، فرأى الحصار الذي فرض على أبيه الجليل، ورأى كيف كان الناس يتحرّكون بكامل حرّيّتهم؛ إلاّ أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وشيعتهم، فالحرّيّة محظورة عليهم، والناس لا يجرؤون على الاقتراب من بيت الإمام عليه السلام، أو سؤاله عن أيّ مسألة، دينيةٍ

كانت أم غير ذلك، لأنّ زين العابدين هو ابن الحسين وحفيد علي بن أبي طالب ﷺ.

روى ميمون القداح عن جعفر بن محمد ﷺ، عن أبيه قال: دخلتُ على جابر بن عبد الله فسلّمت عليه فردَّ عليَّ السلام، قال لي: مَنْ أنت؟ ـ وذلك بعدما كفّ بصره، فقلتُ: محمد بن علي بن الحسين، قال: يا بنيّ ادنُ منّي، فدنوت منه فقبّل يدي، ثمّ أهوى إلى رجليّ يُقبّلها، فتنحّيت عنه، ثمّ قال لي: رسول الله يقرئك السلام، فقلتُ: وعلى رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته، فكيف ذاك يا جابر؟.

فقال: كنتُ معه ذات يوم فقال لي: يا جابر لعلّك تبقى حتى تلقى رجلاً من ولدي يُقال له محمد بن علي بن الحسين، يهب الله له النّور والحكمة فاقرأه مِنّي السلام[٣].

وفي رواية أخرى أنّ جابرًا قال: أنت والله الباقر عن العلم حقّاً...[٤].

وروي عن أبي خالد أنَّه قال: قلتُ لعلي بن الحسين' من الإمام بعدك؟، قال: محمد ابني يبقر العلم بقرًا، ومن بعد محمد جعفر...[٥].

ومن هنا لُقّب الإمام محمد بن علي ﷺ بالباقر، أي المتبحّر بالعلم، المستخرج لغوامضه ولبابه وأسراره والمحيط بفنونه.

رحل الإمام السجاد ﷺ إلى جوار ربِّه سبحانه سنة ٩٥ هـ، شهيداً مظلوماً، فنهض الإمام الباقر ﷺ بأعباء إمامة المسلمين وقد امتدّت إمامته تسع عشرة سنة، وقد عانى الإمام الباقر ﷺ من ظلم الأمويين منذ أنْ ولد وحتى استشهد، ما عدا فترة قصيرة جدًّا هي مدّة خلافة عمر بن عبد العزيز التي ناهزت السنتين والنّصف، فعاصر أشدّ أدوار الظّلم الأموي.

لقد عاش الإمام محمد الباقر ﷺ طيلة حياته في المدينة المنوّرة يفيض من علمه على الأمّة المسلمة، ويرعى شؤون الجماعة الصّالحة، مقدِّمًا لها كلَّ مقوّمات تكاملها وأسباب رشدها وسموّها، فكان ﷺ مقصد العلماء من كلِّ بلاد العالم الإسلامي، ولم يزر المدينة أحد إلا عرّج على بيته يأخذ من فضائله وعلومه، وكان يقصده كبار رجالات الفقه الإسلامي، كسفيان الثّوري وأبي حنيفة، وروى عنه معالم الدين بقايا الصحابة ووجوه التّابعين ورؤساء فقهاء المسلمين.

وأشار إلى مثل ذلك أحد كبار الرّواة في ذلك العصر، وهو عبد الله بن عطاء المكي[٦]، بقوله: «ما رأيتُ العلماء عند أحد قط، أصغر منهم عند أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ﷺ، ولقد رأيت الحكم بن عتيبة ـ مع جلالته في القوم ـ بين يديه كأنّه صبيّ بين يدي معلِّمه»[٧].

ورغم تلك الظّروف المأساوية استطاع الإمام ﷺ، أنْ يربّي أعدادًا كثيرة من الفقهاء والعلماء والمُفسّرين، حيث كان المسلمون يقصدونه من شتّى بقاع العالم الإسلامي، وقد دانوا له بالفضل بشكلٍ لا نظير له، ولم يعش ﷺ منعزلاً عن أحداث السّاحة الإسلامية، وخاض الإمام الباقر ﷺ صراعاً مريراً ضدّ العقائد المنحرفة التي

نشطت في عصره، وساهم بشكلٍ إيجابيّ في توعية الجماهير ضدّ هذه الانحرافات الفكريّة والعقائدية، وتحريك ضمائرها، وسعى لرفع شأنها وإحياء كرامتها بالبذل المادّي والعطاء المعنوي كآبائه الكرام وأجداده العظام عليهم السلام، ولم يقصر عنهم عبادة وتقوى وصبرًا وإخلاصًا وجهادًا، وكان قدوة شامخة للجيل الذي عاصره ولكلّ الأجيال التي تلته.

لقد كان عصر الإمام الباقر عليه السلام من أدقّ العُصور الإسلامية، وأكثرها حساسيّةً، فقد نشأت فيه كثير من الفِرق الإسلاميّة، وتصارعت فيه الأحزاب السياسيّة، كما عمّت النّاس ردّة قويّة إلى الجاهلية وأمراضها، فعادوا إلى الفخر بالآباء والأنساب، ممّا أثار العصبيّات القبلية وعادت الصّراعات القبلية إلى الظهور، وهذا ما شجّع عليه حكّام بني أميّة، كما انتشرت مظاهر التّرف واللهو والغناء، والثّراء الفاحش غير المشروع.

وأمام هذه الانحرافات لم يسع الإمام الباقر عليه السلام إلا التّصدّي لهذه الانحرافات، لكي يحفظ لدين جدِّه نقاءه وصفاءه، وكان ذلك بأساليب وطرق مختلفة، فأقام مجالس الوعظ والإرشاد، والمناظرة والحوار لأصحاب الفرق المنحرفة، واهتمّ برعاية العلماء الحقيقيين الذين التفوا حوله عليه السلام، نهلوا من صافي علومه ومعارفه في الفقه والعقيدة والتّفسير وعلوم الكلام.

يذكر الشّيخ المفيد رحمة الله تعالى عليه في الإرشاد أنَّ هشام بن عبد الملك حجَّ، فدخل المسجد الحرام متّكئًا على يد سالم مولاه، ومحمد الباقر بن علي بن الحسين عليه السلام جالسٌ في المسجد، فقال له سالم مولاه: يا أمير المؤمنين، هذا محمد بن عليّ بن الحسين، فقال له هشام: المفتونُ به أهلُ العراق؟، قال: نعم...[٨].

إنّ هذه الرواية تظهر لنا كم كان المسلمون يلجأون إلى أهل البيت عليهم السلام في قضاياهم العقائدية والاجتماعية والفقهية، وكم كان الحكّام يحاصرونهم ويصدّونهم عن التّحرّك في تبليغ ما أمر الله تعالى، فالحكّام الأمويّون عملوا على منع الإنسان من أنْ يُفكّر بحريّة، وفي الوقت نفسه منعوا المفكّر من أنْ يعلن عن فكره بحرّيّة، فهم يحاصرون الحريّة من جميع الجهات، لأنّهم يخافون منها ومن الفكر عندما يُعبّر عن نفسه في مستوى الفكر والعقيدة، وقضايا الناس في العدالة الاجتماعية وحرّيّة التّعبير عن الرّأي.

في أواخر الحكم الأمويّ حيث كان الأمويّون في صراعهم مع العبّاسيين مشغولين عن الإمام عليه السلام من أجل الحفاظ على ملكهم، اندفع الإمام الباقر عليه السلام، ليغني الساحة الإسلامية بما وهبه الله تعالى من علم، ومن الواضح أنَّ علمه عليه السلام هو من علم رسول الله صلى الله عليه وآله، فالله عزّ وجلّ أعطى رسوله صلى الله عليه وآله علم ما أراد أنْ يبلّغه مما يحتاجه الناس، والأئمة عليهم السلام أخذوا من رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك كلّه.

وفي تلك الفترة، كان الإمام الباقر ومعه ولده الإمام جعفر الصادق عليه السلام، يتحرّكان في مدرسة مفتوحة على الواقع الإسلامي كلِّه، فبالرغم من أنّهما كانا يمثّلان في موقعهما المميّز عنوانًا مذهبيًّا فيما يعتقده الكثيرون من المسلمين بأنّهما إمامان منصوص عليهما من رسول الله صلى الله عليه وآله، لكنهما في مدرستهما الواسعة التي بدأها الإمام الباقر

عليه السلام، كانا منفتحين على الواقع الإسلامي كلِّه، فنرى أنَّ مختلف العلماء ممّن يلتزمون اجتهاداً معيّناً، سواء أكان ذلك في خطِّ المذهبيّة الكلامية مما يختلف فيه الناس في علم الكلام، أو المذهبيّة الفقهيّة مما يتنوّع فيه الناس في مذاهبهم الفقهية، أو في بعض حركيّة المفاهيم في الواقع الاجتماعي الذي كان يعيشه الناس، نرى أنّ كلَّ هؤلاء العلماء كانوا تلامذة هاتين المدرستين اللتين تمثّلان مدرسة الإسلام الأصيل.

عاش الإمام الباقر عليه السلام، زهاء السنتين من فترة إمامته التي امتدّت تسع عشرة سنة، في حكم الوليد بن عبد الملك، وسنتين في عهد سليمان بن عبد الملك ـ هي مدّة حكمه، ثمّ تولى عمر بن عبد العزيز قيادة الحكم الأموي، وقد حدث في أيامه تحوّل كبير في سياسة الدّولة، وعلى الرّغم من قصر أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز في الحكم.

فمن أعماله أنّه رفع السبَّ عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من على المنابر، تلك البدعة التي سنّها معاوية بن أبي سفيان، فكان معاوية يختم خطابه بهذه الكلمات: « اللهم إنّ أبا تراب ألحد في دينك، وصدَّ عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعذبه عذاباً أليماً»[٩]، ويصرّ على هذه البدعة الى أنْ يصل الى مراده الذي صرّح به، وهو "حتى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلاً" [١٠].

ولمّا ولي الأمر عمر بن عبد العزيز أسقط اللعن من الخطب[١١]، وجعل مكانه قوله تعالى: **{إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}**[١٢].

وتولى الحكم بعده يزيد بن عبد الملك المشهور تاريخياً بلهوه وخلاعته وغزله الماجن، وربما كان انشغاله بأعماله الصّبيانية ومجونه لم يعطه فرصة للتصدّي لمسيرة الإسلام التاريخية التي يقودها الإمام الباقر عليه السلام.

ثمّ جاء هشام بن عبد الملك الذي تولّى الحكم الأموي، وعمل على إعادة سياسة معاوية بن أبي سفيان المنحرفة، فكان خشن الطّبع شديد البخل فظًّا جاهلي الطّباع، ناقمًا على المسلمين من غير العرب، فضاعف من حجم الضّرائب الماليّة عليهم، وقد تصدَّى له الشهيد زيد بن علي بن الحسين عليه السلام من خلال انتفاضته التي كانت صدى لنهضة الإمام الحسين عليه السلام وامتدادًا لها، فاستشهد هو وأصحابه، وأمر الطَّاغية هشام بصلب جثّته، ومن ثمَّ حرقها وذرّ رمادها في نهر الفرات.

وأخذ هشام بن عبد الملك يُلاحق أنصار الإمام الباقر عليه السلام ومريديه واحداً بعد الآخر، ومن الشواهد على ذلك أنّه أصدر أمرًا إلى واليه على الكوفة يقضي بقتل جابر بن يزيد الجعفي، الذي كان من كِبار العلماء، ومن أبرز تلامذة الإمام الباقر عليه السلام.

ومن باب الحفاظ على جابر أمره الإمام الباقر عليه السلام بالتّظاهر بالجنون كطريق وحيد لضمان نجاته من القتل، وأخذ جابر يلعب مع الصبيان متظاهرًا بالجنون، فسأل الوالي جلساءه عن جابر فقالوا له: « كَانَ رَجُلاً لَه عِلْمٌ وفَضْلٌ وحَدِيثٌ وحَجَّ فَجُنَّ وهُوَ ذَا فِي الرَّحَبَةِ مَعَ الصِّبْيَانِ عَلَى الْقَصَبِ يَلْعَبُ مَعَهُمْ، قَالَ فَأَشْرَفَ عَلَيْه، فَإِذَا

هُوَ مَعَ الصِّبْيَانِ يَلْعَبُ عَلَى الْقَصَبِ، فَقَالَ الْحَمْدُ لله الَّذِي عَافَانِي مِنْ قَتْلِه»[١٣]، وبذلك نجا جابر من القتل.

إنّ هشام بن عبد الملك كان واثقاً من أنَّ مصدر الوعي الإسلامي الصحيح إنّما هو الإمام الباقر عليه السلام، وأنّ وجوده حرًّا طليقاً يمنحه مزيداً من الفرص لرفد الحركة الإصلاحية في الأمّة، لذا اتجه هشام نحو اعتقال الإمام الباقر عليه السلام، وإبعاده عن عاصمة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، وفعلاً حمل الإمام عليه السلام، وابنه الصادق عليه السلام معه إلى دمشق بأمر من هشام، لإيقاف تأثيره في الأمّة المسلمة، وأودع في أحد سجون الحكم هناك، ثمّ أطلقوا سراحه.

وبعد إدراك السّلطة الأمويّة بأنّ المضايقة لم تحقّق غاياتها الدّنيئة ضدّ الإمام الباقر عليه السلام عن النّهوض بمهامه الرّسالية، فقد قرّرت السلطة المنحرفة أنْ لا بديل من اغتيال الإمام عليه السلام.

وهكذا دسّ إليه السّم بواسطة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بأمر من هشام بن عبدالملك، فرحل الإمام عليه السلام إلى ربِّه سبحانه شهيدًا صابرًا محتسبًا، وذلك يوم الاثنين السابع من ذي الحجّة سنة ١١٤ هجريّة على المشهور، وعمره الشريف يومذاك سبعة وخمسون عامًا، فدُفن في البقيع بالمدينة خلف أبيه زين العابدين وعمّ أبيه الحسن بن عليّ عليهما السلام.

وفقدت الأمّة الإسلامية بذلك إماماً من أهل بيت النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وغصنًا شامخًا من هذه الشّجرة الطّاهرة.

المبحث الثاني: في تاريخ الاجتهاد الفقهي عند الشّيعة الإماميّة.

والحديث في هذا المبحث يقع في مطلبين:

المطلب الأوّل: في تحديد معنى الاجتهاد الفقهي.

١- الاجتهاد.

الاجتهاد في اللغة: مصدر من باب الافتعال، وهو مأخوذ من الجَهْدُ أو الجُهْد بمعنى الطاقة والمشقّة، وقيل: الجَهْدُ بالفتح المشقّة، والجُهْد الوسع. والجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو...، والاجتهاد: بذل الوسع في طلب الأمر، وهو افتعال من الجُهْد: الطاقة...[١٤].

وعليه فالاجتهاد يعني بذل الوسع والطّاقة سواء أخذناه من الجَهْد ـ بالفتح، أم من الجُهد ـ بالضم، وذلك لأنّ بذل الطاقة لا يخلو من مشقّة، وهما أمران متلازمان[١٥].

وأمّا في الاصطلاح فقد ذكروا له تعريفات كثيرة وبصياغات متعدّدة، ولكنْ يمكن أنْ تصنّف تلك التعريفات إلى صنفين، وعلى ضوء معيارين:

المعيار الأوّل: هو أخذ الملكة بنظر الاعتبار في التعريف، والمعيار الثاني: هو أخذ الفعلية في الاستنباط بنظر الاعتبار.

فمَنْ لاحظ المعيار الأوّل عرّف الاجتهاد بأنّه: «ملكة يقتدر بها على استنباط الحكم الشرعي الفرعي من

الاصل فعلاً أو قوةً قريبة»[١٦]، ومَنْ لاحظ المعيار الثاني عرّفه بأنّه: «استفراغ الوسع في تحصيل الحجّة على الاحكام الشرعية أو تعيين الوظيفة عند عدم الوصول إليها»[١٧].

والذي يبدو أنّ مراعاة المعيار الثاني، وأخذ الجانب الفعلي لعملية الاستنباط في تعريف الاجتهاد هو الاوفق بالقواعد، وذلك للأسباب التالية:

١ـ إنّ وظيفة المجتهد هي البحث عن الحكم الشرعي أو الوظيفة العملية من المصادر المقررة لأجل الوصول إلى ذلك ومعرفته للعمل به، وبالتالي الخروج من عهدة المسؤولية أمام الله تعالى، فمراعاة المعيار الثاني تعني ملاحظة الجانب الوظيفي للاجتهاد، وهو ممارسة عملية الاستنباط.

٢ـ إنّ مراعاة الممارسة الفعلية للاستنباط تستلزم مراعاة جانب الملكة دون العكس، على أنّ الاستنباط لا يكون إلا عن قدرة علمية عالية على استنباط الحكم الشرعي أو الوظيفة العملية بعد مراجعة الأدلّة، فلا يرجع الفقيه الى النصّ الشرعيّ الذي هو الدليل إلا بعد أنْ يفرغ من إثبات حجّية الدليل وثبوت صحّة الاستدلال به، وعنده قدرة على تطبيق القواعد على مواردها.

٣ـ إنّ تعريف الاجتهاد بأنّه: استفراغ الوسع...، لم يبتعد كثيرًا عن المعنى اللغوي لكلمة (الاجتهاد)، فالإضافة الجديدة هي تطبيق ذلك المعنى على خصوص الشرعيّات، ولا يضيف معنى جديدًا إلى المعنى اللغوي للاجتهاد.

٤ـ إنّ ملاحظة المعيار الأوّل لا يلازم الاستنباط الفعلي، مع أنّ عناوين الأدلّة التي عنونت المجتهد في المصطلح الفقهي والأصولي بأنّه: (الفقيه، والراوي، والعارف بالأحكام، والناظر في الحلال والحرام) تقتضي أنْ يكون المجتهد مستنبطاً بالفعل، لا مجرّد الواجد للملكة وإنْ لم يستنبط، والاجتهاد بمعنى الاستنباط بالفعل هو الذي يكون المتّصف به موضوعًا لولاية الإفتاء والقضاء، كما أنّه بهذه الصفة موضوع لحرمة التقليد لغيره في الأحكام الشرعية، وأمّا مجرد وجدان الملكة فالظاهر أنّه ليس موضوعاً لهذه الأحكام[١٨].

٥ـ إنّ تعريف الاجتهاد بالملكة أمر حادث، حيث لا وجود لهذا التعبير في كلمات الأصوليين والفقهاء قبل الشيخ البهائي رحمه الله ت: ١٠٣٠هـ، فلا وجود لكلمة (الملكة) في التعريفات التي ذكرت من الشيخ المفيد رحمه الله ت: ٤١٣هـ[١٩]، الى السيد المرتضى رحمه الله ت: ٤٣٦هـ[٢٠]، الى الشيخ الطوسي رحمه الله ت: ٤٦٠هـ[٢١]، مروراً بكلمات المحقّق الحلّي رحمه الله ت: ٦٧٦هـ، والعلامة الحلّي رحمه الله ت: ٧٢٦هـ، ولم يأخذ (الملكة) في تعريف الاجتهاد بعد الشيخ البهائي رحمه الله إلا بعض الأصوليين[٢٢].

وعلى ضوء هذه النقاط يظهر أنّ تعريف الاجتهاد على أساس مراعاة جانب الاستنباط الفعلي يشتمل على الجانب المعرفي والوظيفي معاً، ولذلك تجد أنّ المحقّق الاصفهاني رحمه الله، ت: ١٣٦١هـ، ينفي كون الاجتهاد بمعنى الملكة، وأنّ الاستنباط لا يكون إلا عن ملكة، حيث قال: «هو استنباط الحكم عن دليله، وهو

لا يكون إلا عن ملكة، فالمجتهد هو المستنبط عن ملكة، وهو موضوع الأحكام، باعتبار انطباق الفقيه والعارف بالأحكام عليه، لا أنّه من الملكات واستفادة الحكم من آثارها، كما في ملكة العدالة والسخاوة والشجاعة»[٢٣].

نعم، ينبغي أنْ يكون استفراغ الوسع منصبّاً على تحصيل الحكم الشرعي أو الوظيفة العملية، فإنّ هذا هو وظيفة المجتهد والفقيه، لا استفراغ الوسع لأجل تحصيل الحجّة على الحكم الشرعي أو الوظيفة، لأنّ هذا يقتضي أنْ يكون الحكم معلوماً مسبقاً لدى المجتهد، وليس عليه إلا تحصيل الدليل الذي يثبت شرعية ومشروعية العمل به[٢٤].

وينبغي أيضاً أنْ يُؤخذ في التعريف قيد (القدرة العلمية)، لرفع توهّم تحقّق الاجتهاد في حال ممارسة ومزاولة عملية الاستنباط حتى في حال لم تكن هناك قدرة علمية على استنباط الحكم الشرعي أو الوظيفة العملية، ولم تكن هناك معرفة بأدلّة الأحكام الشّرعيّة والعقلية، والحال أنّ الاعتراف بكون الاجتهاد درجة علميّة يفرض في اعتبار تحقّقه وترتّب الآثار الشرعية تحقّق القدرة العلمية النّاشئة من دراسة وتحقيق قواعد علم أصول الفقه إلى حدٍّ تجعل الفقيه قادراً على تطبيق القواعد على مواردها، وردّ الفروع إلى أصولها.

وعلى ضوء ذلك يكون المناسب في تعريف الاجتهاد بأنّه: **استفراغ الوسع في تحصيل الأحكام الشرعية أو تعيين الوظيفة عند عدم الوصول إليها عن قدرة علميّة.**

وعلى أيّ حال إنّ الاجتهاد بهذا المعنى أشار إليه المحقق الحلّي رحمه الله ت: ٦٧٦هـ، حيث قال: «المسألة الاولى: في حقيقة الاجتهاد... وهو في عرف الفقهاء: بذل الجهد في استخراج الأحكام الشّرعية. وبهذا الاعتبار يكون استخراج الأحكام من أدلّة الشرع اجتهادًا، لأنّها تبنى على اعتبارات نظرية ليست مستفادة من ظواهر النّصوص في الأكثر، وسواء كان ذلك الدّليل قياساً أو غيره، فيكون القياس على هذا التقرير أحد أقسام الاجتهاد.

فإنْ قيل: يلزم على هذا أنْ يكون الإمامية من أهل الاجتهاد.

قلنا: الأمر كذلك، لكنْ فيه إيهام من حيث إنّ القياس من جملة الاجتهاد، فإذا استثني القياس كُنّا من أهل الاجتهاد في تحصيل الأحكام بالطرق النّظريّة التي ليس أحدها القياس»[٢٥].

وفي هذا النصّ يكشف المحقّق الحلّي رحمه الله عن حقيقة كانت سائدة آنذاك، وهي أنَّ الاجتهاد في مدارس أصوليّة كبيرة عند أهل السنة على رأسها مدرسة أبي حنيفة، كان يعني التّفكير الشخصي للفقيه، فالفقيه إذا أراد أنْ يستنبط حكمًا شرعيًّا ولم يجد نصّاً يدلّ عليه في الكتاب أو السّنّة يرجع الى تفكيره الخاصّ، ويستلهمه ويبني على ما يرجّح في فكره الشّخصي من تشريع، فالاجتهاد بهذا المعنى يُعدّ من مصادر التّشريع[٢٦]، ويعبّر عن ذلك بالاجتهاد بالرأي[٢٧].

والروايات المأثورة عن أئمّة أهل البيت ﷺ التي تذم الاجتهاد تريد به ذلك المبدأ الفقهي، الذي يتّخذ

من التّفكير الشخصي مصدرًا من مصادر الحكم[٢٨]، وبذلك اكتسبت الكلمة لونًا مقيتًا وطابعًا من الكراهية في الذّهنية الفقهية الإمامية، فكان فقهاء الشيعة الإمامية يتحفّظون من استعمال هذه الكلمة، وينفرون منها؛ بسبب معارضتهم لذلك المبدأ وإيمانهم ببطلانه[٢٩]، واستمرّ الحال على ذلك منذ عصر الأئمّة عليهم السلام الى القرن السّابع تقريباً[٣٠].

٢- الفِقه:

وهو بكسر الفاء: العلم بالشيء، والفهم له، والفطنة[٣١].

وفي الاصطلاح: هو العلم بالأحكام الشرعية الفرعيّة عَنْ أدلّتها التفصيلية[٣٢].

توضيح التَّعريف:

أ) إنَّ تقييد العلم بالأحكام يُخرج العلم بالذّوات، مثل العلم بالنباتات والجمادات والحيوانات.

ب) والتقييد بالشَّرعيّة يُخرج العلم بالأحكام غَير الشَّرعيّة، كالأحكام النحوية والتأريخية والطبيعية وغيرها مِنْ الأحكام المعلومة للإنسان ولم تكن مأخوذة مِنْ الشارع المُقدّس.

ج) وتقييد الشَّرعيّة بالفرعيّة يُخرج مِنْ التعريف العلم بالأحكام الشَّرعيّة الأُصولية، كالعلم بأصول الدين أو العلم بأصول الفقه، أو غيرهما.

د) والتقييد بـ(عَنْ أدلّتها) يُخرج علم الله تعالى وعلم النبي صلى الله عليه وآله بالأحكام الشَّرعيّة الفرعيّة، لأنَّ علمهما بالأحكام لمْ يكن عَنْ الدَّليل؛ لأنَّ علم الله تعالى عين ذاته المُقدّسة، وعلم الرسول مُستفاد مِنْ الوحي، ولذا لا يُسمّى الله ولا النبي فقيهاً في الاصطلاح.

هـ) وأخيراً قيّد التعريف الأدلّة بكونها تفصيلية؛ لإخراج علم المُقلّد فالمُقلّد يعلم بالأحكام الشَّرعيّة ليعمل بها، ودليله على كُلّ مسألة هُو دليل إجمالي لا تفصيلي وهو: إنَّ هَذا الحكم أفتى به مُقلِّدِي المجتهد العادل، وَكُلّ ما أفتى به مقلِّدِي فهو حجّة في حقِّي.

بينما نجد الفقيه يلتمس لكلِّ مسألة دليلها الخاص مِنْ الكتاب أو السنَّة أو غيرهما ممّا يصلح للاستدلال، فأدلّته على الأحكام بهذا الاعتبار أدلّة تفصيليّة.

وبعد اتضاح معنى الاجتهاد والفقه يقال: إنّ الاجتهاد يُعدّ منبع الإبداع، وعنصر التجديد، وديناميّة الحركة؛ إذ الاجتهاد هو الذي كشف سرّ عظمة الإسلام وثباته وخلوده وتكامله ومرونته، فإنّ فلسفة الاجتهاد هو أنْ يستوعب الفقه الإسلامي متغيّرات الحياة، ويواكب تطوّراتها، ويلاحق الزمن المتجدد وما يفرزه من قضايا ومشكلات فكرية، وسياسية، واجتماعية، وتربوية وغيرها، يقنن هذه المتغيرات والتطورات والقضايا تشريعياً وينظمها فقهياً، حتى تتمثل فيها مقاصد الإسلام وغايته[٣٣].

المطلب الثاني: تأريخ الاجتهاد عند الشيعة الامامية.

مِنْ المؤكَّد أنَّ فكرة بعنوان الاجتهاد أو الكشف عَنْ الحكم الشرعي لم تراود أذهان المُسْلمين الأوائل، سواء الّذين عاشوا في زمن حضور النبيّ الأكرم ﷺ والحقبة التي أعقبت ارتحاله الشَّريف (بالنسبة لأهل السنّة)، أو المُسْلمين الذين كانوا في عصر حضور الأئمة المعصومين (بالنّسبة للشّيعة)؛ لأنّه متى ما واجهتهم مُشكلة كانوا يسألون النبي ﷺ بشخصه أو الإمام المعصوم ﷺ، أو الأصحاب العارفين الذين لازموه؛ وكانوا يحصلون على الجواب ولم يكونوا بحاجة إلى الاستنباط وكشف الحكم بالطّرق الاجتهادية.

إضافة إلى ذلك، لمْ تظهر مشاكل مُحدّدة في هذهِ الحقبة؛ بسبب عدم اتِّساع البلاد الإسّلامية وسهولة المسائل التي ابتلي بها المسلمون لوجود أحكام معروفة ومنصوص عليها، لكن تدريجياً مع توسّع المجتمع الإسلامي وتطوره، وطرح مسائل مُعقدة لا سابقة لها، دفع الأصحاب والمُجتهدين إلى المزيد مِنْ البحث والتّدبر في القُرآن الكريم والنصوص الشّريفة للإجابة على المسائل الجديدة.

ومع مُضي أكثر مِنْ مائة عام على زمان النبي ﷺ، شعر الفُقهاء الّذين كانوا يستخرجون الأحكام الفقهية مِنْ المتون الدينية، بالحاجة إلى ضرورة تدوين قواعد كُلِّيّة وعناصر مشتركة؛ لأنَّهم أصبحوا أكثر بُعداً عَنْ عصر التّشريع وفقدان القرائن الحالية وأحياناً القرائن المقاليّة لكلام الشّارع، ليتمكّنوا بواسطتها مِنْ استنباط أحكام المسائل الجديدة، وَمِنْ الواضح أنَّه في المراحل الأُولى كان الصحابة وعُلماء المُسْلمين يستنبطون الأحكام الفقهية بيسر وسهولة واضحة، وكان يلزمهم فقط مجموعة مِنْ القواعد البسيطة، لكنْ مع مرور الزّمن ومع تشعب المسائل المُستجدة أكثر فأكثر احتاج الفُقهاء إلى تأسيس المزيد مِنْ القواعد المُتشعِّبة.

ويمكن القول: إنَّ العُلماء وَمُنْذُ بداية اشتغالهم بالبحث عَنْ الأحكام الفقهية، استفادوا مِنْ عناصر وقواعد كُلِّية، حيث كانت بسيطة ومُتواضعة لسهولة العمل الفقهي بداية الأمر، وعلى أثر ازدياد التّعقيد في العمل الاستنباطي وتطور الفقه، أصبحت تلك القواعد أكثر نضجًا، واتّخذت منحى أكثر عُمقًا واتّساعًا، وهذهِ النقطة تُشير بوضوح إلى تقارن مسار تطوّر علمي الفقه والأُصول معًا[٣٤].

وينبغي القول: أنَّه لابُدَّ لأُصول الفقه ـ باعتباره مُقدّمة للفقه ـ مِنْ أنْ يتكامل في ظلّ تنامي علم الفقه أيضاً[٣٥].

وما قِيلَ ـ حول ظروف وكيفية نشأة علم الأُصول ـ يصدق على أُصول الفقه السّنّي والشّيعي على السّواء، وليسَ صحيحاً أنَّ الشِّيعة لمْ يكونوا مُحتاجين إلى الاجتهاد لوجود الأئمّة المعصومين ﷺ بينهم، وإنْ كانت حاجتهم إليه أقل ممّا هي عليه عِنْدَ أهل السُّنّة؛ بلْ اضطروا إلى الأخذ بالاجتهاد للكشف عَنْ الأحكام الشَّرعيّة والاستناد إلى القواعد العامَّة لوجود مجموعة ظروف وعوامل مُختلفة؛ منها:

العامل الأوّل: لمْ يكن أصحاب الأئمّة ﷺ في جميع الأحوال على اتّصال دائم بالأئمة، خاصَّة الأصحاب

الّذين عاشوا في مُدن نائية كشيعة خراسان واليمن وغيرهم، فقدْ تعذّر عليهم الحضور عِنْدَ أئمّتهم وطرح ما يعترضهم مِنْ أسئلة؛ وبالرغم مِنْ أنّهم كانوا يكتبون رسائلهم في موارد كثيرة ويرسلونها مع الحجّاج، وتأتيهم الأجوبة، لكن لمْ يكن أمامهم بدَ في مجالات أُخرى سوى العمل بالاجتهاد باتّباع الأُصول الكلّيّة التي تعلموها مِنْ الأئمة عليهم السلام حتّى أنّه كان على بعض الأصحاب الّذين رافقوا الإمام عليه السلام أنْ يجتهدوا في بعض الموارد نظراً للإقامة الجبريّة التي فُرضت على الإمام عليه السلام مِنْ قبل السُّلطات الحاكمة.

العامل الثاني: إنّ الأئمّة عليهم السلام أنفسهم شجّعوا أصحابهم مِنْ ذوي الكفاءة والنّباهة على الاجتهاد في الأحكام والافتاء؛ فكان الأئمّة عليهم السلام يأمرون فُضلاء أصحابهم وتلامذتهم بالتّصدّي للفُتيا واستنباط الأحكام، كأمر الإمام الصادق عليه السلام أبان بن تغلب أنْ يجلس في المجلس ويُفتي الناس حتّى قال عليه السلام: «اجلس في مسجد المدينة وافت الناس فإنِّي أحبّ أنْ يُرى في شيعتي مثلك»[٣٦].

وفي موضع آخر يسأل الامام عليه السلام معاذ بن مُسْلِم، حيث جاء في الرّواية أنّه عليه السلام قال: «بلغني أنَّكَ تقعد في الجامع فتفتي النّاس» قلت: نعم وقدْ أردت أنْ أسألك عَنْ ذلك قبل أنْ أخرج، إلى أنْ قال الإمام عليه السلام: «اصنع كذا فإنّي كذا أصنع»(٣٧).

مِنْ جهة أُخرى، كان الأئمة عليهم السلام يوصّون أتباعهم بأخذ أحكامهم مِنْ هؤلاء الأشخاص، فكانوا يأمرون الناس بالرجوع إلى الفُقهاء العالمين بالفُتيا، فقدْ روى عبد العزيز بن المُهتدي عَنْ الإمام الرِضا عليه السلام قال: سألته فقُلت: إنِّي لا ألقاك في كُلّ وقت فعمّن آخذ معالم ديني؟ فقال عليه السلام: «خُذْ عَنْ يونس بن عبد الرحمن»[٣٨]، ويُونس بن عبدالرحمن كان مِنْ فُقهاء أصحاب الإمام عليه السلام[٣٩].

هَذا وقدْ أرجع الأئمةعليهم السلام الناس بالتقليد في الأحكام إلى الفُقهاء العدول، ففي رواية الطبرسي رحمه الله في الاحتجاج بسنده عَنْ أبي مُحمَّد الحسن العسكري عليه السلام: «فأمّا مَنْ كان مِنْ الفُقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مُخالفاً على هواه مُطيعاً لأمر مولاه فللعوام أنْ يُقلّدوه»(٤٠).

العامل الثالث: أجاز الأئمة عليهم السلام الاجتهاد الصّحيح لأصحابهم، حيث دعوا عليهم السلام العالِمين العارفين بطريقة الاستنباط إلى تفريع الفروع عَنْ أصولها، وتطبيق القواعد الكُلِّية على مصاديقها، وهي مُهمّة الفقيه المُجتهد، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّما علينا أنْ نُلقي إليكم الأُصول وعليكم أنْ تُفرّعوا»[٤١]، وفي كتاب أحمد بن مُحمَّد بن أبي نصر عَنْ الرضا عليه السلام قال: «علينا إلقاء الأُصول وعليكم التفريع»[٤٢] وقدْ عرفت أنَّ الأصل هُو القاعدة التي يُبتنى عليها غيرها.

ولعلَّ مِنْ هُنا قام الفُضلاء مِنْ تلامذة الأئمة عليهم السلام بتأليف المصنّفات في أُصول الفقه ومبادئ الاستنباط.

منهم: هشام بن الحكم المُتوفى عام ١٩٩هـ شيخ المُتكلمين، حيث صنّف في علم الأُصول كتاب «الألفاظ ومباحثها»، وهو مِنْ أهم مباحث علم الأُصول[٤٣].

ومنهم: يونس بن عبدالرحمن المُتوفى عام٢٠٨هـ صنَّف كتاب «اختلاف الحديث ومسائله» وهو مبحث تعارض الحديثين وترجيح الراجح منهما على الآخر، وهو أيضاً مِنْ أهم مباحث أُصول الفقه(٤٤).

ومنهم: الحسن بن موسى النوبختي مِنْ عُلماء القرن الثَّالث، صنَّف في أصول الفقه كتابين هُما: «خبر الواحد والعمل به» وكتاب «الخصوص والعُموم»(٤٥).

العامل الرابع: الرّوايات المنقولة عَنْ الأئمّة عليهم السلام فيما يتعلّق بعلاج الأخبار المُتعارضة، وحُجيّة خبر الثِّقة، وأصالة البراءة، وبطلان القياس والاجتهاد بالرأي، وحجية الاستصحاب ومسائل أصوليّة أُخرى، التي جمعت ودوّنت فيما بَعْدَ على يد ثلّة مِنْ العُلماء(٤٦)؛ وفي كُلّ ذلك دلالة واضحة على جواز الاجتهاد مُطلقاً.

والحاصل: إنَّ حركة التّدوين في الأُصول لدى عُلماء الفريقين قدْ سارت بشكل متوازٍ ـ بلْ الشّيعة سبقوا أهل السنّة في ذلك، لكن عُلماء السنّة كانوا أسبق مِنْ غيرهم مِنْ حيث المُتابعة والاستمرار، والاهتمام بتطوير هَذا العلم، بغية الاستفادة منه في الاستنباط؛ لأسباب منها:

أوَّلاً: فقدوا بوفاة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أحد أهمّ مصادر الأحكام التي هي السّنّة النّبويّة، بينما كانت الشيعة ما تزال تعيش عصر النّص.

وثانياً: إنَّ ما وصل إليهم بطريق صحيح عَنْ النّبي صلى الله عليه وآله لمْ يكن كافياً لرفع كُلّ حاجاتهم الدّينية(٤٧).

المبحث الثالث: جهود الإمام عليه السلام في تأسيس الاجتهاد الفقهي.

إنّ الحديث عن تأسيس الاجتهاد الفقهي يعني الحديث عن الفقه وأصوله، فإنَّ الاجتهاد كما تقدّم معناه هو **(استفراغ الوسع في تحصيل الأحكام الشرعية أو تعيين الوظيفة عند عدم الوصول إليها عن قدرة علميّة)**، ويعدّ علم أصول الفقه من أبرز العلوم التي يتوقّف عليها استنباط الحكم الشَّرعي، وعليه فالحديث عن الاجتهاد الفقهي يعني الحديث عن علم أصول الفقه، وأيضاً يرافقه الحديث عن التشريعات التي هي عبارة عن الرواية الصادرة عن المعصومين عليهم السلام.

واستيفاء البحث في هذا الموضوع، وتسليط الضوء على جهود الإمام الباقر عليه السلام في مجال الفقه وأصوله، ويقع الحديث أوّلاً عن أصول الفقه باعتباره مقدِّمة لعلم الفقه، والمقدّمة سابقة على ذي المقدّمة طبعاً فناسب ذلك تقديمها وضعاً، وعليه فالحديث يقع في مطلبين:

المطلب الأوّل: جهود الإمام عليه السلام في مجال أصول الفقه.

إنَّ علم أصول الفقه مِنْ العُلوم التي واكبت نشأة الشريعة مُنْذُ العُصور الأُولى، وقدْ حذَّر النبي صلى الله عليه وآله غَير المُجتهدين مِنْ الفُتيا بغير علم، فقال: «مَنْ أفتى الناس بغير علم وهو لا يعلم الناسخ والمنسوخ والمُحكم مِنْ المُتشابه فقدْ هلك وأهلك»(٤٨)، وتدلُّ هذه الرواية على أنَّه لو كان يعلم بموازين الفُتيا فلا بأس عليه، وَمِنْ موازينها هُو العلم بالناسخ والمنسوخ والمُحكم والمُتشابه، وهي مِنْ قواعد علم الأصول، وعن الإمام أمير

المؤمنين ﷺ: «أنَّ في أيدي الناس حقّاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعامّاً وخاصّاً، ومُحكماً ومُتشابهاً»(٤٩).

ولابُدَّ للعالِم بالفُتيا والقضاء أنْ يُحيط علماً بهذهِ القواعد مِنْ حيث مداليلها، وَمِنْ حيث تطبيقها على مواردها.

قال السيد حسن الصدر رحمه الله أنّ الإمامين الباقر والصادق ﷺ هما أوّل مَنْ أسّس هذا العلم، حيث قال رحمه الله ما نصّه: «اعلم أنَّ أوّل مَنْ فتح بابه وفتق مسائله هُو باقر العُلوم الإمام أبو جعفر محمَّد بن علي الباقر ﷺ، وبعده ابنه أبو عبدالله الصّادق ﷺ، وقدْ أمليا فيه على جماعة مِنْ تلامذتهما قواعده ومسائله...، وأوّل مَنْ افرد بعض مباحثه بالتصنيف هشام بن الحكم...»(٥٠).

وقال رحمه الله ـ في سياق هَذا الموضوع ـ ردّاً على جلال الدِّين السِّيوطي القائل بأنَّ الشَّافعي أوَّل مُصنِّف في الأُصول: «هَذا القول غَير صحيح؛ لأنَّه إنْ أراد مِنْ التصنيف التّأسيسَ والابتكار، فكلامه باطل؛ لأنَّ الباقرين ﷺ هُما مُؤسسا علم الأُصول؛ وإنْ كان مُراده أنَّ الشَّافعي أوَّل مِنْ وضع مُصنّفاً في أُصول الفقه، فكلامه أيضاً غَير مُستقيم؛ لأنَّ أوَّل مِنْ دوّن وألّف في أُصول الفقه هُو هشام بن الحكم المُتكلِّم المعروف»(٥١).

بهذا البيان يتّضح مِنْ نظريَّة السّيِّد حسن الصَّدر ما يلي:

أوَّلاً: هُناك فرق بين تأسيس العلم وبين تدوينه.

وثانياً: إنَّ الإمامين الباقرين ﷺ مُؤسسا علم الأُصول، وهشام بن الحكم ـ مِنْ أصحاب الإمام الصادق ﷺ ـ أوَّل منْ كتب فيه.

هذا، ولكنْ ذكر الشيخ أبو زُهرة أنَّ «الإمامية يدّعون أنَّ أوّل مَنْ دوّن علم الأصول وضبطه الإمام محمد الباقر بن زين العابدين، وجاء من بعده ابنه الإمام أبو عبدالله جعفر الصادق»(٥٢)، ثم يأتي على نقد هذهِ النَّظريّة.

ولكنْ هذه النسبة محلّ تأمّل؛ إذ لم يذكر أحد من الشيعة الإمامية أنّ الإمامين الصادقين ﷺ هُما أوّل مَنْ دوّن في علم الأُصول، بلْ صرّح السيد حسن الصدر رحمه الله ـ كما نقلنا نصّ عبارته ـ أنّهما ﷺ أوّل مَنْ أسّس هذا العلم.

وعلى أي حال كانت للإمام الباقر ﷺ جهود واضحة في مجال تأسيس قواعد أصول الفقه، وقد حفلت كتب الحديث بالأخبار التي أضحت دليلاً على قواعد علم الأصول، كقاعدة الاستصحاب، والترجيح عند تعارض الأخبار، والتعادل، والتجاوز، والفراغ، والبراءة الشرعية وغيرها، وانتقد الإمام الباقر بعض المباني الأصولية التي اعتمدها بعض أئمة الفقه كمسألة القياس والاستحسان.

وإنّما أدلى الإمام بتلك القواعد إلى طلاّبه، كي يخلق فيهم القدرة العلمية على الاستقراء والاستنتاج، فيزود من يراه أهلاً بالمزيد ويأمره بالتفريع على القاعدة، والتطبيق على مواردها.

وفي هذا المجال نذكر من تلك الأصول والقواعد العامة:

١- ما ورد عنه عليه السلام في قواعد الترجيح بين الأدلة.

إنّ قواعد الترجيح بين الأدلة تعين على التمييز بين الصحيح وغيره في حال تعارض الأخبار، وذلك بالردّ إلى كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله، فلا يؤخذ إلا بما وافق كتاب الله أو سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي هذا المجال وردت عدّة روايات عن الإمام الباقر عليه السلام، نذكر منها:

أ- ما رواه جابر عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: « انظروا أمرنا وما جاءكم عنّا، فإنْ وجدتموه للقرآن موافقاً فخذوا به، وإنْ لم تجدوه موافقاً فردّوه، وإنْ اشتبه الأمر عليكم فقفوا عنده، وردّوه إلينا، حتى نشرح لكم من ذلك ما شرح لنا»[٥٣].

ب- ما روي عن أبي جعفر عليه السلام من أنّه قال: " إذا جاءكم عنّا حديث، فوجدتم عليه شاهدًا، أو شاهدين من كتاب الله فخذوا به، إلا فقفوا عنده، ثمّ ردّوه إلينا، حتى يستبين لكم"[٥٤]، وما روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: «لا تصدّق علينا إلاّ ما وافق كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله»[٥٥].

ج- ما روي عنه عليه السلام في قواعد الترجيح الأخرى، وهي الأخذ بالمشهور، والنظر إلى حال الراوي من حيث الوثاقة والعدالة، حيث روى زرارة بن أعين قال: «سألتُ الباقر عليه السلام فقلتُ: جعلتُ فداك، يأتي عنكم الخبران أو الحديثان المتعارضان فبأيهما آخذ؟، فقال: يا زرارة، خذ بما اشتهر بين أصحابك، ودع الشاذ النادر. فقلتُ: يا سيدي، إنّهما معا مشهوران مرويان مأثوران عنكم؟، فقال عليه السلام: خذ بقول أعدلهما عندك، وأوثقهما في نفسك»[٥٦].

د- ولهذه الرواية تتمة فيها إشارة الى قاعدة من قواعد الترجيح الأخرى، وهي الأخذ بما خالف العامة، حيث قال زرارة له عليه السلام: " فقلتُ: إنّهما معاً عدلان مرضيان موثقان، فقال عليه السلام: أنظر ما وافق منهما مذهب العامة فاتركه، وخذ بما خالفهم، قلتُ: ربما كانا معا موافقين لهم، أو مخالفين، فكيف اصنع ؟، فقال عليه السلام: إذن فخذ بما فيه الحائطة لدينك، واترك ما خالف الاحتياط..."[٥٧].

٢- ما ورد عنه عليه السلام في قاعدة الاستصحاب، حيث جاء في صحيحة زرارة عن الباقر عليه السلام، « قلتُ: فإنْ ظننتُ أنّه قد أصابه، ولم أتيقّن ذلك، فنظرتُ فلم أرَ شيئاً، ثمّ صلّيتُ فرأيتُ فيه؟، قال: تغسله ولا تعيد الصلاة، قلتُ: لِمَ ذلك؟، قال: لأنّك كنتَ على يقينٍ من طهارتك، ثمّ شككتَ، فليس ينبغي لك أنْ تنقض اليقين بالشكّ أبداً، ... قلتُ: إنْ رأيته في ثوبي وأنا في الصلاة؟، قال: تنقض الصلاة وتعيد إذا شككت في موضعٍ منه ثمّ رأيته، وإنْ لم تشكّ ثمّ رأيته رطباً قطعت الصلاة وغسلته، ثمّ بنيت على الصلاة، لأنّك لا تدري لعلّه شيء أُوقع عليك، فليس ينبغي أنْ تنقض اليقين بالشك» [٥٨].

٣- ما ورد عنه عليه السلام في قاعدة الفراغ[٥٩]، لحديث محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «كلّما شككتَ فيه ممّا قد مضى فأمضه كما هو»[٦٠]، ولقوله عليه السلام: «كلّ شيءٍ شكّ فيه ممّا قد جاوزه ودخل في غيره فليمضِ عليه»[٦١].

المطلب الثاني: جهود الإمام عليه السلام في علم الفقه والتشريع.

إنّ الإمام الباقر عليه السلام يشكل مدرسة قد تنوّعت مسارب العلم فيها، وتعدّدت آفاقها المعرفية، واتّسعت اتّساعاً هائلاً، فكانت ضروباً وألواناً شتّى من العلم، وقد بلغت علوم الشريعة فيها ـ من فقه وتفسير وحديث وكلام ـ ذروتها في تلك المدرسة الشريفة.

وبفضل انفتاح مدرسة الإمام عليه السلام وعدم انغلاقها اتسع نطاق روّاد مدرسته، فنرى صنوفاً شتّى من تلامذتها، فلم يكونوا كلّهم أرباب فكر واحد أو اعتقاد واحد، حيث كانت مدرسة الإمام عليه السلام تُمثّل في واقعها الإسلام المحمدي الأصيل، تلك المدرسة استطاعت أنْ تجمع اولئك التلاميذ في صعيد واحد، بعد أنْ جمعهم الانتماء إلى الإسلام، وفرّقتهم مدارس المسلمين، الأمر الذي شهدت عليه بكل وضوح سيرة الإمام عليه السلام وتاريخه.

لقد كان للإمام الباقر عليه السلام دورٌ كبيرٌ في نشر الفقه، وأعاد له نضارته، وحافظ على أصوله من الضياع، في وقت درج فيه الناس على إهمال شؤون الدّين، والجهل بمسائل الحلال والحرام.

قال ابن أبي الحديد المعتزلي: « كان محمد بن علي بن الحسين سيّد فقهاء الحجاز، ومنه ومن ابنه جعفر تعلّم الناس الفقه»[٦٢].

وقال الشيخ المفيد رحمه الله: " كتب عنه الناس المغازي وأَثَروا عنه السنن، واعتمدوا عليه في مناسك الحجّ التي رواها عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وكتبوا عنه تفسير القرآن، وروت عنه الخاصّة والعامة الأخبار، وناظر مَنْ كان يرد عليه من أهل الآراء، وحفظ عنه الناس كثيراً من علم الكلام"[٦٣].

وعدّ باقر العلم من قبل أعلام أهل السنة كالنسائي وغيره في فقهاء التابعين من أهل المدينة [٦٤]، واتفق الحفاظ على الاحتجاج بأبي جعفر[٦٥].

وإذا أردنا أنْ نتحدث عن إنجازاته عليه السلام في هذا المجال، فيمكن بلورتها من خلال المحاور التالية:

المحور الأوّل: لقد ترك الإمام الباقر عليه السلام تراثاً ضخماً يغطي معظم أبواب الفقه والتشريع، تمثل ذلك بالروايات التي حفلت بها موسوعات الفقه والحديث الإمامية، وكانت ولا تزال رافداً ومعيناً للفقهاء.

المحور الثاني: الدرس والتدريس:

كان للإمام عليه السلام حلقة درس في بيته وفي مسجد مكة والمدينة، ولاسيما في موسم الحجّ، وكان درسه عليه السلام بمثابة مدرسة سيارة في افتاء الناس وحلّ المسائل المعضلة، وكان يفد عليه العلماء من جميع المذاهب، فيسألونه عن مسائل في الحلال والحرام، وكان عليه السلام يجيبهم، ومنهم: نافع بن الأزرق[٦٦]، والحكم بن عتيبة[٦٧]، والحسن الزيات[٦٨]، وقتادة بن دعامة السدوسي[٦٩]، ومن الوفود وفد من أهل خراسان[٧٠]، ووفد من أهل فلسطين[٧١].

وكان يجلس حوله عليه السلام كثير من الناس، فلا يبرح مكانه حتى يفتي في ألف مسألة، وهو في الساعة الأخيرة

من يومه، قالت حبابة الوالبية: رأيته بمكة أصيلاً[٧٢] في الملتزم، أو بين الباب والحجر، على صعدة من الأرض، وقد حزم وسطه على المئزر بعمامة خز، والغزالة[٧٣] تخال على قلل الجبال كالعمائم على قمم الرجال، وقد صاعد كفه وطرفه نحو السماء ويدعو، فلما انثال الناس عليه يستفتونه عن المعضلات، ويستفتحون أبواب المشكلات، فلم يرم[٧٤] حتى أفتاهم في ألف مسألة، ثمّ نهض يريد رحله[٧٥].

المحور الثالث: وردت في حديث الإمام عليه السلام جملة من الإرشادات في مجال الفقه والتشريع.

منها: إنّ على الفقيه أنْ يعتمد الكتاب والسنة فيما يصدر من أحكام، ولا يعتمد رأيه واستحسانه، حيث جاء عن أبي بصير، قال: قلتُ لأبي جعفر عليه السلام: «ترد علينا أشياء لا نجدها في الكتاب والسنة، فنقول فيها برأينا؟، فقال: أما إنّك إنْ أصبتَ لم تؤجر، وإنْ أخطأتَ كذبتَ على الله»[٧٦].

ومنها: أنّ الإمام عليه السلام نهى الفقهاء عن الفتوى بغير علم، لأنّها سبب للضلال والانحراف، وعلى أساس ذلك يستحق فاعلها لعنة الملائكة، حيث قال عليه السلام: «مَنْ أفتى الناس بغير علم ولا هدى من الله، لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولحقه وزر مَنْ عمل بفتياه»[٧٧].

ومنها: ما تحدث عليه السلام به من صفات يجب توافرها في الفقيه، فعن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «قال أمير المؤمنين: أَ لَا أُخْبِرُكُمْ بِالْفَقِيهِ حَقِّ الْفَقِيهِ، مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَ لَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ عَذَابِ الله، وَ لَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي الله، وَ لَمْ يَتْرُكِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ»[٧٨].

وعن أبان بن تغلب، عن أبي جعفر عليه السلام، أنّه سئل عن مسألة فأجاب فيها، قال: فقال الرجل: «إنّ الفقهاء لا يقولون هذا، فقال: يا ويحك، وهل رأيتَ فقيهاً قط؟!، إنّ الفقيه حقّ الفقيه؛ الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، المتمسّك بسنّة النبي صلى الله عليه وآله»[٧٩].

المحور الرابع: تربية الفقهاء.

لقد استطاع الإمام الباقر عليه السلام على أساس هذا الاتجاه من الوعي والمعرفة، وعلى ضوء هذه الإرشادات أنْ يُربّي جيلاً من الفقهاء الرواة، فكان عليه السلام يحثّ شيعته ولاسيما شبابهم على التفقّه في الدين، قال عليه السلام: «تفقهوا في الحلال والحرام، وإلاّ فأنتم أعراب»[٨٠]، وقال عليه السلام: «لو أتيت بشاب من شباب الشيعة لا يتفقه في الدين لأوجعته»[٨١].

وتخرج على يده جمهرة كبيرة من مراجع الفتيا، ممن أجمعت الطائفة على تصديقهم، وكونهم أفقه الأولين، أمثال زرارة، ومعروف بن خربوذ، وبريد بن معاوية، وأبي بصير الأسدي، والفضيل بن يسار، ومحمد بن مسلم الطائفي، وأبان بن تغلب، وغير هؤلاء كثير[٨٢].

وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى جلالة الفقهاء من أصحاب أبيه عليه السلام، حيث قال جميل بن دراج: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: " أوتاد الأرض، وأعلام الدين أربعة: محمد بن مسلم، وبريد بن معاوية، وليث بن البختري

المرادي، وزرارة بن أعين"[٨٣].

وكان الإمام عليه السلام يخلق فيهم حوافز الاهتمام بالفقه والاجتهاد به وإفادة الناس منه، عن طريق ممارسة التوثيق للنابهين منهم، على مستوى الشهادة له بالفقاهة وجواز الإفتاء، ومن ذلك قوله عليه السلام لأبان بن تغلب: «اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس، فإنّي أُحبّ أنْ يُرى في شيعتي مثلك»[٨٤].

وكان التنوع صفة بارزة في مدرسته الفقهية، ولذلك كان العلماء يقصدونه من كلّ البلاد الإسلامية، وفيهم من أئمّة الفقه والحديث كثيرون، فأخذ منه ومن ولده الصادق عليه السلام، أعلام الأُمّة آنذاك كأبي حنيفة، ومالك، وسفيان الثوري، وأبي إسحاق السبيعي، والأوزاعي، وحجاج بن أرطاة، وحفص بن غياث، والحكم بن عتيبة، وربيعة الرأي، والزهري، وعبد الملك بن جريج، وعطاء بن أبي رباح، ووكيع، وغيرهم.

المحور الخامس: رجوع الفقهاء إلى رأيه في المسائل الغامضة من أحكام الشريعة، منهم أبو أسحاق السبيعي، في مسألة المسح على الخفين[٨٥]، وعبد الله بن عمر حين سأله رجل عن مسألة، فلم يدرِ بما يجيبه، فأرسله إلى الإمام الباقر عليه السلام[٨٦].

وروي أنّه جاءت امرأة إلى محمد بن مسلم الثقفي فقالت له: «لي بنت عروس ضربها الطلق، فما زالت تطلق حتى ماتت، والولد يتحرك في بطنها، ويذهب ويجيء، فما أصنع؟، فقال: يا أَمَة الله، سئل الباقر عن مثل ذلك فقال: يشق بطن الميت ويستخرج الولد، أفعلي مثل ذلك يا أَمة الله، أنا في ستر، مَنْ وجّهك إليّ؟، قالت: سألتُ أبا حنيفة فقال: عليك بالثقفي، فإذا افتاك فأعلميني»[٨٧].

وروي عن ابن أبي ليلى أنّه قدّم إليه رجل خصماً له، فقال: إنّ هذا باعني هذه الجارية فلم أجد على ركبها حين كشفتها شعراً، وزعمت أنه لم يكن لها قط.

فقال له ابن أبي ليلى: إنّ الناس ليحتالون لهذا بالحيل حتى يذهبوا به، فما الذي كرهت؟، قال: أيها القاضي، إنْ كان عيباً فاقضِ لي به.

قال: حتى أخرج إليك، فإنّي أجد أذىً في بطني، ثمّ دخل وخرج من باب آخر، فأتى محمد بن مسلم الثقفي، فقال له: أي شيء تروون عن أبي جعفر في المرأة لا يكون على ركبها شعر، أيكون ذلك عيباً؟، فقال له محمد بن مسلم: أمّا هذا نصّاً فلا أعرفه، ولكنْ حدثني أبو جعفر، عن أبيه، عن آبائه، عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: كلّ ما كان في أصل الخلقة فزاد أو نقص فهو عيب.

فقال له ابن أبي ليلى: حسبك، ثمّ رجع إلى القوم، فقضى لهم بالعيب»[٨٨].

وهنا نلاحظ كيف استفاد محمد بن مسلم من هذا الحديث كقاعدة فقهية عينت موضوع الحكم.

الهوامش

١) المفيد، الإرشاد، ٢/ ١٥٨.

٢) المصدر نفسه، ٢/ ١٥٧.

٣) المجلسي، بحار الانوار، ٤٦/ ٢٢٧، حد٨.

٤) المصدر نفسه، ٤٦/ ٦٠، حد١٨.

٥) المصدر نفسه، ٤٧/ ٩، حد٤.

٦) عبدالله بن عطاء المكي، من اصحاب الامامين الباقر والصادق عليهما السلام. ابوالقاسم الخوئي، معجم رجال الحديث، ١٠/ ٢٥٧، رقم ٦٩٩٤. وقال الذهبي في ترجمته: " عبد الله بن عطاء المكي: صدوق إنْ شاء الله". ميزان الاعتدال، ٢/ ٤٦١، رقم ٤٤٥١.

٧) المفيد، الارشاد، ٢/ ١٦٠.

٨) المجلسي، بحار الانوار، ٤٦/ ٣٣٢، حد١٤.

٩) المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٥٧.

١٠) المصدر نفسه، ٤/ ٥٧.

١١) ذكر ابن ابي الحديد المعتزلي أنّ السبب الذي جعل عمر بن عبد العزيز يترك لعن علي عليه السلام، هو أنّ عمر قال: " كنتُ غلاماً أقرأ القرآن على بعض ولد عتبة بن مسعود، فمرَّ بي يوماً وأنا ألعب مع الصبيان، ونحن نلعن علياً، فكره ذلك ودخل المسجد، فتركتُ الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وردي، فلما رآني قام فصلى وأطال في الصلاة شبه المعرض عني حتى أحسستُ منه بذلك، فلما انفتل من صلاته كلح في وجهي، فقلتُ له: ما بال الشيخ؟، فقال لي: يا بني أنت اللاعن علياً منذ اليوم؟، قلتُ: نعم، قال: فمتى علمتَ أنّ الله سخط على أهل بدر بعد أن رضي عنهم!، فقلتُ: يا أبت، وهل كان علي من أهل بدر!، فقال ويحك! وهل كانت بدر كلّها إلا له!، فقلتُ: لا أعود، فقال: الله أنّك لا تعود!، قلتُ: نعم فلم ألعنه بعدها.

ثمّ كنتُ أحضر تحت منبر المدينة، وأبي يخطب يوم الجمعة ـ وهو حينئذٍ أمير المدينة ـ فكنتُ أسمع أبي يمر في خطبه تهدر شقاشقه، حتى يأتي إلى لعن علي عليه السلام فيجمجم، ويعرض له من الفهاهة والحصر ما الله عالم به، فكنتُ أعجب من ذلك، فقلتُ له يوماً: يا أبت أنت أفصح الناس وأخطبهم، فما بالي أراك أفصح خطيب يوم حفلك، حتى إذا مررتَ بلعن هذا الرجل صرت ألكن عليّا!، فقال: يا بني، إنّ مَنْ ترى تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم، لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد. فوقرت كلمته في صدري مع

ما كان قاله لي معلمي أيام صغري، فأعطيتُ الله عهداً، لئن كان لي في هذا الأمر نصيب لأغيرنه، فلما منّ الله علي بالخلافة أسقطت ذلك، وجعلتُ مكانه: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}۞، وكتب به إلى الآفاق فصار سنة". شرح نهج البلاغة، ٤/ ٥٨ ـ ٥٩.

۞ النحل: ٩٠.

١٢) النحل: ٩٠.

١٣) الكليني، الكافي، ١/ ٢٩٧.

١٤) ابن الاثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ١/ ٣١٩، الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ٣٥١، مادة (جهد)، الفيومي، المصباح المنير، ١١٢.

١٥) علي الغروي، التنقيح في شرح العروة الوثقى (الاجتهاد والتقليد) ـ تقرير بحث السيد ابوالقاسم الخوئي، ٢٠.

١٦) البهائي، زبدة الاصول، ١٥٩. وانظر: محمد بحر العلوم، الاجتهاد والتقليد، ٣٦ عن جمال الدين الكلبايكاني في الرسائل.

١٧) محمد سرور الواعظ البهسودي، مصباح الاصول ـ تقرير بحث السيد أبي القاسم الخوئي، ٣/ ٤٣٤، وانظر: العاملي، معالم الدين وملاذ المجتهدين، ٣٨١، محمد كاظم الخراساني، كفاية الاصول، ٤٦٣، محمد تقي البروجردي، نهاية الافكار ـ تقرير بحث الشيخ ضياء الدين العراقي، ٤/ ٢١٧.

١٨) محمد مهدي شمس الدين، الاجتهاد والتقليد، ٧٣.

١٩) انظر ترجمته: الصفدي، الوافي بالوفيات، ١/ ١٠٨، الذهبي، سير اعلام النبلاء، ١٧/ ٣٤٤، الحر العاملي، أمل الآمل، ٢/ ٣٠٤، عبدالله افندي، رياض العلماء، ٥/ ١٧٦ ـ ١٧٩، خيرالدين الزركلي، الاعلام، ٧/ ٢١، محمد باقر الخوانساري، روضات الجنات، ٦/ ١٥٣ ـ ١٧٨، عباس القمي، الكنى والالقاب، ٣/ ١٩٧ ـ ١٩٩، محمد رضا الحكيمي، تأريخ العلماء، ٤٨٥ ـ ٤٩٨، التنكابني، قصص العلماء، ٦٩٠ ـ ٧٠٩.

٢٠) انظر ترجمته: الصفدي، الوافي بالوفيات، ٢١/ ٦ ـ ١٠، الذهبي، سير اعلام النبلاء، ١٧/ ٥٨٨ ـ ٥٩٠، عبدالله افندي، رياض العلماء، ٤/ ١٤ ـ ٦٤، محمد رضا الحكيمي، تأريخ العلماء، ٣٧٩ ـ ٣٩٣، التنكابني، قصص العلماء، ٧١٠ ـ ٧١٦.

٢١) انظر ترجمته: الصفدي، الوافي بالوفيات، ٢/ ٢٥٨، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥، محمد باقر الخوانساري، روضات الجنات، ٦/ ٢١٦ ـ ٢٤٩، خير الدين الزركلي، الاعلام، ٦/ ٨٤، محمد رضا

الحكيمي، تأريخ العلماء، ٥١١ ـ ٥١٥، التنكابني، قصص العلماء، ٧٢٢ ـ ٧٢٧.

٢٢) عدنان فرحان، تطور حركة الاجتهاد عند الشيعة الامامية، ٥٢.

٢٣) محمد حسين الاصفهاني، نهاية الدراية في شرح الكفاية، ٣/ ١٩١.

٢٤) عبدالهادي الفضلي، التقليد والاجتهاد، ١٨٤.

٢٥) معارج الاصول، ٢٥٣.

٢٦) محمد باقر الصدر، المعالم الجديدة للاصول، ٣٩، دروس في علم الاصول، ١/ ٥٥، مرتضى المطهري، الاجتهاد في الاسلام ـ رؤى جديدة في الفكر الاسلامي، ٧/ ١٠٤، عبدالهادي الفضلي، تأريخ التشريع الإسلامي، ١٤٤، عدنان فرحان، تطور حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية، ٥٥، محمد صنقور، المعجم الاصولي، ١/ ٣٥.

٢٧) محمد تقي الحكيم، الاصول العامّة للفقه المقارن، ٥٦٥، عن مصطفى عبدالرزاق، تمهيد لتأريخ الفلسفة الاسلامية، ١٣٨.

٢٨) انظر: الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج/ ١٨، با/ ٣٥ من أبواب صفات القاضي.

٢٩) قال السيد المرتضى رحمه الله: «إنّ الاجتهاد باطل، وإنّ الإمامية لا يجوز عندهم العمل بالظن ولا الرأي ولا الاجتهاد». الذريعة الى اصول الشريعة، ٢/ ٣٠٨. وقال الشيخ الطوسي: «أمّا القياس والاجتهاد فعندنا أنّهما ليسا بدليلين، بل محضور استعمالهما...». العدّة في اصول الفقه، ١/ ٨.

٣٠) محمد باقر الصدر، المعالم الجديدة للاصول، ٣٩، دروس في علم الاصول، ١/ ٥٥.

٣١) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ٤/ ٢٨٩، باب الهاء، فصل الفاء.

٣٢) حسن بن زين الدين الشَّهيد الثّاني، معالم الدين وملاذ المُجتهدين، ٢٢.

٣٣) زكي الميلاد، الفكر الاسلامي بين التأصيل والتجديد، ٤٢٠.

٣٤) هُناك رأي للسيّد مُحَمَّد باقر الصدر، حيث يقول إنَّ علم الأصول نشأ في أحضان علم الفقه، كما أنَّ علم الفقه نشأ بداية في أحضان علم الشريعة المُتقدّم الأوّل. راجع: المعالم الجديدة، ٥٢.

٣٥) أبو زهرة، أصول الفقه، ٨ ـ ١٠.

٣٦) النجاشي، الرجال، ١/ ٧٣، الطوسي، الفهرست، ١٧، الرقم ٥١.

٣٧) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ٢٧/ ١٤٧، حد٣٦.

٣٨) النجاشي، الرجال، ٣١١، الحر العاملي، وسائل الشيعة، ٢٧/ ١٤٩، با/ ١٧ مِنْ أبواب صفات

القاضي، حد٣٤.

٣٩) انظر رجال النجاشي، ٤٤٦، رقم (١٢٠٨).

٤٠) المجلسي، بحار الانوار، ٢/ ٨٨، حد١٢.

٤١) عباس القمي، سفينة البحار، ١/ ٢٢.

٤٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ٢٧/ ٦٢، با/ ١١ مِنْ أبواب صفات القاضي، حد٥٢.

٤٣) انظر: الطوسي، الفهرست، ١٧٤ ـ ١٧٥، رقم ٧٦١.

٤٤) المصدر نفسه، ١٨١، رقم ٧٨٩.

٤٥) المصدر نفسه، ٤٦، رقم ١٥٠.

٤٦) قام جمعٌ مِنْ أعلام الفُقهاء والأصوليين بجمع ما وَرَدَ عَنْ الأئمةﷺ مِنْ قواعد أصولية في مُصنّفات خاصّة رتّبوها على حسب تبويب علم الأُصول.

منهم: السّيِّد هاشم بن زين العابدين الخونساري الأصفهاني المُتوفى عام ١٣١٨هـ، حيث جمع كتاباً فيما وَرَدَ عَنْ الأئمةﷺ في ذلك، ورتّبه على ترتيب مباحث أُصول الفقه الدائر في عصورنا هذهِ، أسماه «أُصول آل الرسول٩» وقدْ جمع فيه أزيد مِنْ أربعة آلاف حديث تضمّنت قواعد أصولية هامّة. ومنهم: السّيِّد عبدالله شُبّر المُتوفى عام ١٢٤٢هـ، حيث جمع في كتاب أسماه «الأُصول الأصيلة» مائة وأربعاً وثلاثين آية، وألفاً وتسعمائة وثلاث روايات واردة في مُهمّات المسائل الأصولية. ومنهم: الشَّيخ الحرّ العاملي المُتوفى عام ١١٠٤هـ، حيث جمع القواعد الُأصولية الكُلِّية المنصوصة في كتاب واحد أسماه «الفصول المُهمّة في أُصول الأئمةﷺ».

٤٧) أبو القاسم كرجي، تأريخ الفقه والفُقهاء، ٣١١.

٤٨) الكليني، أُصول الكافي، ١/ ٦٢، باب النهي عَنْ القول بغير علم، حد١٠٣.

٤٩) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ٢٧/ ٢٠٧، با/ ١٤ مِنْ أبواب صفات القاضي، حد١.

٥٠) الشيعة وفنون الاسلام، ٣٢٥ ـ ٣٢٧.

٥١) تأسيس الشيعة، ٣١٠.

٥٢) اصول الفقه، ١٦. هذا وقد ذكر الشيخ ابو زهرة في كتابه الإمام الصادق، ٢٦٩ «أنّ القواعد الاصولية قد تمّ إملاؤها من قبل أئمة الشيعة، وقد ألّف بعض أصحاب الإمام الصادقﷺ ـ مثل هشام بن الحكم ـ كتاباً في هذا المورد...»، وأخذ يذكر بعض الروايات التي تشتمل على القواعد الكلية في هذا المجال.

٥٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ٢٧/ ١٢٠، با/ ٩ من ابواب صفات القاضي، حد٣٧.

٥٤) المصدر نفسه، ٢٧/ ١١٢، با/ ٩ من ابواب صفات القاضي، حد١٨.

٥٥)المصدر نفسه، ٢٧/ ١٢٣، با/ ٩ من ابواب صفات القاضي، حد٤٧.

٥٦) حسين النوري، مستدرك وسائل الشيعة، ١٧/ ٣٠٣، با/ ٩ من ابواب صفات القاضي، حد٢.

٥٧) المصدر نفسه، ١٧/ ٣٠٣، با/ ٩ من ابواب صفات القاضي، حد٢.

٥٨) الطوسي، تهذيب الأحكام، ١/ ٤٢٢، حد١٣٣٥.

٥٩) قاعدة الفراغ: "هي حكم المكلف بصحّة عمله بعد الفراغ عنه والشكّ في صحّته، فللقاعدة موضوع ومحمول، موضوعها العمل المفروغ عنه المشكوك في صحته وفساده، ومحمولها الحكم بالصحة وترتيب آثارها عليه<. علي المشكيني، اصطلاحات الاصول، ١٩٩.

٦٠) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ٨/ ٢٣٧، با/ ٢٤ من ابواب الخلل الواقع في الصلاة، حد٣.

٦١) المصدر نفسه، ٦/ ٣١٨، ، با/ ١٣ من ابواب الركوع، حد٤.

٦٢) شرح نهج البلاغة، ١٥/ ٢٧٧.

٦٣) الارشاد، ٢/ ١٦٣.

٦٤) الذهبي، تذكرة الحفّاظ، ١/ ١٢٤، السيوطي، طبقات الحفّاظ، ٥٦.

٦٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤/ ٤٠٣.

٦٦) انظر: الكليني، الكافي، ٨/ ٩٣، ١٢٠، الصدوق، التوحيد، ١٧٣، المفيد، الإرشاد، ٢/ ١٦٤، الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ٢٠٤.

٦٧) الكليني، الكافي، ٦/ ٤٤٦.

٦٨) المصدر نفسه، ٦/ ٤٤، ٢٧٥.

٦٩) المجلسي، روضة المتقين، ١٢/ ٢٥٧.

٧٠) المصدر نفسه، ١٢/ ٢٥٧.

٧١) الصدوق، التوحيد، ٩٢، معاني الأخبار، ٧.

٧٢) أي وقت الأصيل.

٧٣) أي الشمس.

٧٤) أي لم يبرح مكانه.

٧٥) المجلسي، بحار الأنوار، ٤٦، ٢٥٩.

٧٦) البرقي، المحاسن، ١/ ٣٣٩، حد٩٨.

٧٧) المصدر نفسه، ١/ ٣٢٦، حد٦٠.

٧٨) الصدوق، معاني الأخبار، ١/ ٢٢٦.

٧٩) الكليني، الكافي، ١/ ٧٠، حد٨.

٨٠) البرقي، المحاسن، ١/ ٢٢٧، حد١٥٨.

٨١) المصدر نفسه، ١/ ٢٢٨، حد١٦١.

٨٢) الكشي، الرجال، ٢/ ٥٠٧.

٨٣) المصدر نفسه، ٢/ ٥٠٧.

٨٤) النجاشي، الرجال، ١٠.

٨٥) الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ٢٠٢.

٨٦) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ٣/ ٣٢٩.

٨٧) المصدر نفسه، ٣/ ٣٣١.

٨٨) الكليني، الكافي، ٥/ ٢١٥، حد١٢.

فهرست المصادر والمراجع.

القرآن الكريم

أبوالقاسم الموسوي الخوئي، ت: ١٤١٣هـ.

١ـ معجم رجال الحديث، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.

أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي، ت: ٤٥٠هـ.

٢ـ رجال النجاشي، تحقيق: السيد موسى الشبيري الزنجاني، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط٩، ١٤٢٩هـ. ق.

أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، ت: ٧٧٠هـ.

٣ـ المصباح المنير، الناشر: مؤسسة دار الهجرة، ط٣، مطبعة سرور.

جعفر بن الحسن المحقق الحلّي، ت: ٦٧٦هـ.

٤ـ معارج الأصول، تحقيق: السيد محمد حسين الرضوي الكشميري، المطبعة: سرور، قم المقدسة، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

حسن الصدر، ت: ١٣٥٤هـ.

٥ـ الشيعة وفنون الاسلام، تحقيق: السيد مرتضى المير سجادي، الناشر: مؤسسة السبطين' العالمية، المطبعة محمد، ايران ـ قم، ط١، ١٤٢٧هـ.ق ـ ١٣٨٥هـ.ش.

زكي الميلاد.

٦ـ الفكر الاسلامي بين التأصيل والتجديد، دار الصفوة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٧ـ تجديد اصول الفقه، الناشر: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠١٣م.

عبدالحميد بن هبة الله المعتزلي، ت: ٦٥٦هـ.

٨ـ شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفاضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط٢: ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

علي المشكيني.

٩ـ اصطلاحات الاصول، منشورات الرضا، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

علي الغروي التبريزي.

١٠ـ التنقيح في شرح العروة الوثقى ـ تقرير بحث السيد ابوالقاسم الخوئي، الناشر: دار المعارف الاسلامية،

مطبعة الآداب، العراق ـ النجف الاشرف.

عدنان فرحان، ابو انس.

١١ـ تطور حركة الاجتهاد عند الشيعة الامامية، دار السلام، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

عبدالهادي الفضلي، الدكتور.

١٢ـ التقليد والاجتهاد، مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت: ٧٤٨هـ.

١٣ـ تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١٤ـ سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، ط١١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

محمد بن إدريس الشافعي، ت: ٢٠٤هـ.

١٥ـ الرسالة، تحقيق: الشيخ خالد السبع العلمي، والشيخ زهير شفيق الكبي، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

محمد باقر الموسوي الخوا نساري الأصبهاني، ت: ١٣١٣هـ.

١٦ـ روضات الجنات، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

محمد باقر الصدر، المحقق، ت: ١٤٠٠هـ.

١٧ـ المعالم الجديدة للاصول، شريعت ـ قم، ١٤٢٩هـ، اعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للامام الشهيد الصدر رحمه الله.

محمد باقر بن محمد تقي المجلسي، ت: ١١١١هـ.

١٨ـ بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، ط٣: ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، بيروت ـ لبنان.

محمد تقي الحكيم، العلامة.

١٩ـ الأصول العامّة للفقه المقارن، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط١: ١٩٦٣م، بيروت ـ لبنان.

محمد بن سليمان التنكابني.

٢٠ـ قصص العلماء، المطبعة: ستارة، ايران ـ قم، ط٢، ١٤٢٩هـ، الناشر: ذوي القربى، ترجمة: الشيخ مالك وهبي.

محمد بن الحسن الطوسي، شيخ الطائفة، ت: ٤٦٠هـ.

٢١ـ العدة في أصول الفقه، تحقيق: محمد رضا الأنصاري القمي، المطبعة: ستارة، قم المقدسة، ط١،

١٤١٧هـ.ق.

٢٢ـ تهذيب الاحكام، تصحيح وتعليق: علي اكبرالغفاري، طهران: مكتبة الصدوق ١٤١٧هـ.

٢٣ـ الفهرست، تصحيح وتعليق: السيد محمد صادق آل بحر العلوم، من منشورات المكتبة المرتضوية ومطبعتها، العراق ـ النجف الاشرف.

٢٤ـ رجال الطوسي، تحقيق: جواد القيومي الاصفهاني، مؤسسة النشر الاسلامي، ايران ـ قم، ط٥، ١٤٣٠ هـ.ق.

محمد بن الحسن الحر العاملي، ت: ١١٠٤هـ.

٢٥ـ أمل الآمل، دار احياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

٢٦ـ وسائل الشيعة، طهران، المطبعة الإسلامية ١٣٧٥ش.

محمد حسين الأصفهاني، ت: ١٣٦١هـ.

٢٧ـ نهاية الدراية في شرح الكفاية، تحقيق: مؤسسة أهل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم: ياران، شوال، ١٤١٤هـ.

محمد رضا المظفر، المجدد.

٢٨ـ أصول الفقه، ط٤، ١٩٩٢م، طبع وتوزيع جبار الحاج عبود.

٢٩ـ المنطق، الناشر: دار الغدير، ط٥، ١٤٢٧هـ، مطبعة سرور، قم.

محمد صنقور علي.

٣٠ـ المعجم الأصولي، المطبعة عترت، الطبعة الثانية.

محمد بن علي الصدوق، إمام المحدثين، ت: ٣٨١هـ.

٣١ـ الخصال، تصحيح وتعليق: علي اكبر الغفاري، الناشر: مكتبة الصدوق، ايران ـ طهران، ١٣٨٩هـ.ق ـ ١٣٤٨هـ.ش.

٣٢ـ من لا يحضره الفقيه، تحقيق: السيد حسن الخرسان، دار الاضواء، بيروت ـ لبنان، ط٦، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

محمد بن يعقوب الكليني، ثقة الإسلام، ت: ٣٢٩هـ.

٣٣ـ الأصول من الكافي، تصحيح وتعليق: علي اكبر الغفاري، دار الاضواء، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٣٤ـ الفروع من الكافي، تصحيح وتعليق: علي اكبر الغفاري، دار الاضواء، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م.

محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ت: ٨١٧هـ.

٣٥ـ القاموس المحيط، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، بيروت ـ لبنان.

محمد مهدي شمس الدين.

٣٦ـ الاجتهاد والتجديد في الفقه الاسلامي، المؤسسة الدولية، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٣٧ـ الاجتهاد والتقليد، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

محمد سرور الواعظ البهسودي، ت: ١٣٥٧ هـ ش.

٣٨ـ مصباح الاصول ـ تقرير بحث السيد ابوالقاسم الخوئي، الناشر: مكتبة الداوري، المطبعة: العلمية، ايران ـ قم، ط٦، ١٤٢٠هـ.ق.

محمد ابو زهرة.

٣٩ـ اصول الفقه، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

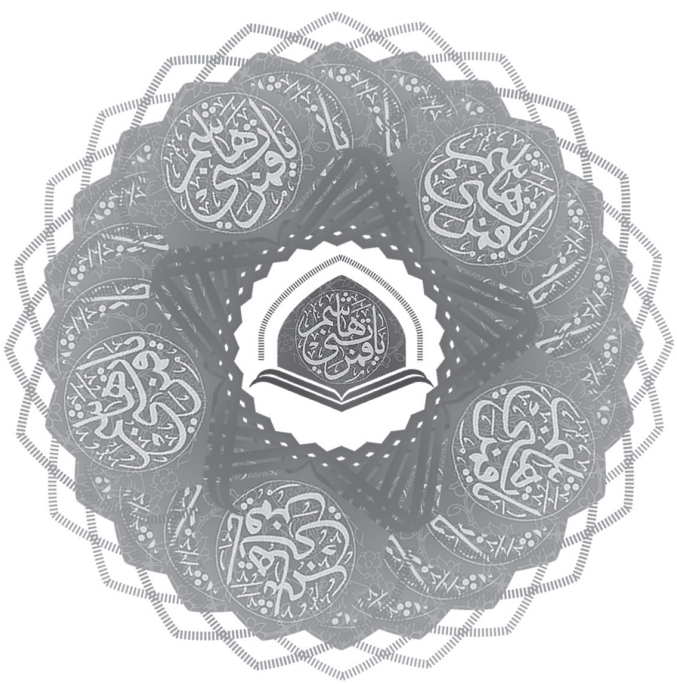

الإمام الهادي عليه السلام وبناء المجتمع

الشيخ صلاح قاسم

إنَّ المتتبع لسيرة الإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام يستنتج أنَّ الإمام عليه السلام من أجل بناء مجتمع يتصف بالصلاح؛ استخدم منهجاً تربوياً متكاملاً لمواجهة خطوط الانحراف، وبيان الخط المعصوم الذي يجب أن يسلكه الخلق؛ والمتمثّل بأهل البيت عليهم السلام.

وعمل الإمام عليه السلام على محورين في سبيل تحقيق هذا الهدف:

المحور الأول: تزكية النفوس.

المحور الثاني: التّعامل وفق متطلبات العصر.

المحور الأوّل: تزكية النفس.

وقد حقق الإمام عليه السلام ذلك؛ من خلال رفد المجتمع بالفكر الأصيل من خلال طريقين:

الطَّريق الأوّل: كلمات الإمام عليه السلام، وخطبه ووصاياه، التي ضمت العديد من المفاهيم التي لها علاقة ببناء النفس، ومنها:

معرفة الدنيا، والفرق بينها وبين الآخرة، وأنّ الدنيا دار ممر لا مستقر، فقال عليه السلام: "الدُّنْيَا سُوقٌ رَبِحَ فِيهَا قَوْمٌ وَخَسِرَ آخَرُونَ"(١)، وقال عليه السلام: "النَّاسُ فِي الدُّنْيَا بِالأَمْوَالِ وَفِي الآخِرَةِ بِالأَعْمَالِ" (٢).

- **معرفة النَّفس**، والشعور بالتقصير، وعدم الرّضا عنها؛ فذلك مما يمنع تكاملها، فقال عليه السلام: « مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُونَ عَلَيْهِ»(٣)

وقال عليه السلام مبيناً الصفات التي يجب أن تتوفر لإصلاح النّفس، والحذر من الإفراط او التفريط، وأخذ طريق الاعتدال: « الْقَوُا النِّعَمَ بِحُسْنِ مُجَاوَرَتِهَا، وَ الْتَمِسُوا الزِّيَادَةَ مِنْهَا بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا، وَ اعْلَمُوا أَنَّ النَّفْسَ أَقْبَلُ شَيْءٍ لَمَّا أُعْطِيَتْ، وَأَمْنَعُ شَيْءٍ لَمَّا سُئِلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى مَطِيَّةٍ لَا تُبْطِئُ إِذَا رُكِبَتْ، وَلَا تُسْبَقُ إِذَا تَقَدَّمَتْ، أَدْرَكَ مَنْ سَبَقَ

(١) تحف العقول: ص ٣٦١.

(٢) بحار الأنوار: ٧٥ / ٣٦٨.

(٣) المصدر نفسه: ٧٥ / ٣٦٨.

إِلَى الْجَنَّةِ، وَنَجَا مَنْ هَرَبَ إِلَى النَّارِ»[1] .

- **التركيز على الآفات المهلكة**: إنَّ بناء النّفس وتزكيتها لا يمكن تحصيله والآفات موجودة في النفس، فقال عليه السلام: «الْحِكْمَةُ لَا تَنْجَعُ فِي الطَّبَائِعِ الْفَاسِدَةِ»[2] .

وقال عليه السلام: «الْحَسَدُ مَاحِقُ الْحَسَنَاتِ، وَالزَّهْوُ جَالِبُ الْمَقْتِ، وَالْعُجْبُ صَارِفٌ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ، دَاعٍ إِلَى التَّخَبُّطِ فِي الْجَهْلِ، وَالْبُخْلُ أَذَمُّ الْأَخْلَاقِ، وَالطَّمَعُ سَجِيَّةٌ سَيِّئَةٌ» [3].

كما اعتمد الإمام وسائل كثيرة للبناء الروحي للمجتمع منها: الرّسائل المكتوبة، والرّبط بالمعصومين عليهم السلام عبر ظاهرة الزيارة، فقد صدر عنه: (الزيارة الجامعة، وزيارة أمير المؤمنين عليه السلام يوم الغدير، وزيارات متعددة للأئمة عليهم السلام).

الطَّريق الثّاني: سلوك الإمام عليه السلام وأخلاقه:

فقد كان الإمام عليه السلام يرفد الناس بالقيم، والفكر المستقيم المؤدي الى سلوك طريق الجنة، والفوز برضا الله تعالى، من خلال ما روي عنه عليه السلام، ونقله التاريخ من فضائل، ومآثر، وأخلاق؛ حتى إنّه عليه السلام عرف بألقاب عديدة، وبعض تلك الألقاب كانت من الله تعالى، وأهمّها:

الهادي: فقد كان عليه السلام عَلَماً لـهداية الناس نحو، الخير، والفضيلة، والتقوى.

النّقي: فقد كان عليه السلام معصوماً كآبائه الطّاهرين عليهم السلام ومنزّهًا عن كلّ عيب وذنب، ونقيًّا من كلّ دنس.

المرتضى: فقد ارتضاه الله عز وجل ليكون حجّةً على عباده، وخليفةً لرسوله صلى الله عليه وآله.

العالم: فقد كان عليه السلام أعلم أهل زمانه، وهو العالم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وشرائع دينه، بعلم لدُنّي، وبما ورثه من جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وآبائه الطاهرين عليهم السلام.

الفقيه: فقد كان عليه السلام فقيه عصره، العارف بالأحكام الواقعية من الحلال والحرام.

الأمين: فقد كان عليه السلام أميناً على شرع الله تعالى.

المؤتمن: فقد كان عليه السلام مؤتمناً من قبل الباري عز وجل في إبلاغ رسالات الله سبحانه.

الطيّب: فقد كان عليه السلام طيباً، وطاهراً من كلِّ عيب ودنس.

العسكري: فقد كان عليه السلام تحت الإقامة الجبرية في ثكنة عسكرية بسامراء، وعرف هو وابنه الإمام الحسن عليهما السلام بالعسكريين.

---

(١) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٤١.

(٣) المصدر نفسه: ١٤٠.

فإنَّ طغاة العباسيين أرادوا أن يكون الإمام عليه السلام تحت المراقبة الدّائمة في ذهابه، وإيابه، ولقاءاته، وما أشبه. وهذا شأن الطغاة قديماً وحديثاً؛ فإنَّهم إذا خافوا من أحد فرضوا عليه الإقامة الجبرية في بيته، أو أسكنوه في معسكر ونحوه.

وقال الشيخ الصدوق رحمة الله عليه في (علل الشرائع): (سمعت مشايخنا رضي الله عنهم أنَّ المحلة التي يسكنها الإمامان علي بن محمد والحسن بن علي عليهما السلام بسر من رأى كانت تُسمّى عسكر؛ فلذلك قيل لكلّ واحد منهما: العسكري)[1].

وقال بعض[2]: العسكري نسبة إلى عسكرا ـ أي سر من رأى ـ الذي بناه المعتصم لّما كثر عسكره وضاقت عليه بغداد وتأذّى به الناس، فانتقل إلى هذا الموضع بعسكره، وبنى به البنيان المليح وسُمّي سر من رأى، ويقال: سامرة وسامرا، وسُمّيت العسكر؛ لأنَّ عسكر المعتصم نزل بها وذلك في سنة ٢٢١ هـ.

وهذه جملة من أخلاقه وفضائله:

كان الإمام علي الهادي عليه السلام كآبائه الطَّاهرين عليهم السلام أفضل الناس خُلُقاً، وأكرمهم أخلاقاً.

وقد اعترف بفضله حتَّى الأعداء، فهذا عبيد الله بن يحيى بن خاقان – من عمّال العبّاسيين والنواصب – يقول في وصف الإمام الحسن العسكري عليه السلام وأبيه عليه السلام: « لو رأيت أباه[3] لرأيت رجلًا جليلًا نبيلًا خيراً فاضلاً»[4].

كرم وسخاء

كان الإمام علي الهادي عليه السلام كآبائه الكرام عليهم السلام أكرم خلق الله تعالى؛ لأنَّ من صفات الإمام عليه السلام أن يكون الأعلم والأتقى والأشجع والأكرم، أي أن يكون قمَّة في الفضائل، وأن يكون أوحدي عصره.

دخل أبو عمرو عثمان بن سعيد ـ وهو أحد النّواب الأربعة ـ وأحمد بن إسحاق الأشعري، وعلي بن جعفر الهمداني، على أبي الحسن العسكري عليه السلام. فشكا إليه أحمد بن إسحاق دَيناً عليه.

فقال عليه السلام: « يا أبا عمرو ـ وكان وكيله ـ ادفع إليه ثلاثين ألف دينار، وإلى علي بن جعفر ثلاثين ألف دينار، وخذ أنت ثلاثين ألف دينار».

---

(١) علل الشرائع: ج١/ ص٢٤١ .

(٢) راجع معاني الأخبار/ ص٦٥.

(٣) أي الإمام علي الهادي عليه السلام.

(٤) كمال الدين: ج١ / ص٤٢.

قال: فهذه معجزة لا يقدر عليها إلّا الملوك وما سمعنا بمثل هذا العطاء[1].

ولا يخفى أنَّ مثل هذا الكرم الذي كان يتفضّل به الإمام عليه السلام على البعض ليس إسرافاً وبداراً؛ لأنَّه كان يعلم بأنَّ هذا الشخص سيصرفه في الموارد المقرّرة شرعاً، وأنّه سيقسمه على الفقراء والمساكين، لا أنه يستبدّ ويستفرد بالأموال. ومن المتعارف أن يُعطى لشيخ العشيرة ـ مثلاً ـ مبلغاً كبيراً حتَّى يقسمه على أفراده، وأقربائه، وأهل بلدته وعشيرته.

وقال محمد بن طلحة: خرج الإمام الهادي عليه السلام يوماً من سر من رأى إلى قرية لمهمّ عرض لـه، فجاء رجل من الأعراب يطلبه، فقيل لـه: قد ذهب إلى الموضع الفلاني، فقصده، فلمّا وصل إليه.. قال عليه السلام لـه: ما حاجتك؟.

فقال: أنا رجل من أعراب الكوفة المتمسّكين بولاء جدّك علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد ركبني دَين فادح أثقلني حمله، ولم أرَ من أقصده لقضائه سواك.

فقال لـه أبو الحسن عليه السلام: « طب نفساً وقر عيناً»، ثم أنزله..

فلما أصبح ذلك اليوم قال لـه أبو الحسن عليه السلام: « أريد منك حاجة، الله الله أن تخالفني فيها».

فقال الأعرابي: لا أخالفك.

فكتب أبو الحسن عليه السلام ورقة بخطّه معترفاً فيها أنَّ عليه للأعرابي مالاً عيّنه فيها يرجح على دينه، وقال: "خذ هذا الخط؛ فإذا وصلت إلى سر من رأى احضر إليَّ وعندي جماعة فطالبني به، وأغلظ القول عليَّ في ترك إبقائك إياه، الله الله في مخالفتي".

فقال: أفعل. وأخذ الخط، فلما وصل أبو الحسن عليه السلام إلى سر من رأى وحضر عنده جماعة كثيرون من أصحاب الخليفة وغيرهم، حضر ذلك الرجل، وأخرج الخط، وطالبه، وقال كما أوصاه.

فألان أبو الحسن عليه السلام لـه القول ورفّقه، وجعل يعتذر، ووعده بوفائه، وطيبة نفسه. فنُقل ذلك إلى المتوكل، فأمر أن يحمل إلى أبي الحسن عليه السلام ثلاثون ألف درهم.

فلمّا حملت إليه عليه السلام تركها إلى أن جاء الرجل، فقال: "خذ هذا المال واقض منه دينك، وأنفق الباقي على عيالك وأهلك وأعذرنا".

فقال لـه الأعرابي: يا ابن رسول الله، والله إنَّ أملي كان يقصر عن ثلث هذا، ولكن (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)[2] وأخذ المال، وانصرف[3].

---

(١) المناقب: ج٤/ ص٤٠٩.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٤.

(٣) كشف الغمة: ج٢ / ص٣٧٤-٣٧٥.

ولا يبعد أن تكون التقية هي السبب في عمل الإمام عليه السلام ذلك؛ لأنَّ الحاكم كان يزعم بأنَّ الإمام عليه السلام يجمع الأموال، ويشتري السّلاح، للخروج عليه، فأراد الإمام عليه السلام أن يُبيّن لـه كذب هذه المزاعم، وأنّه عليه السلام لا يملك حتى عشرة آلاف درهم.

صلة الأرحام

في (المناقب): قال إسحاق الجلاب: اشتريت لأبي الحسن – الهادي – عليه السلام غنماً كثيرة يوم التروية فقسمها في أقاربه[1].

عبادة الإمام عليه السلام وزهده

كان الإمام الهادي عليه السلام أعبد أهل زمانه، وأزهدهم.

عن يحيى بن هرثمة، قال: وجّهني المتوكّل إلى المدينة لإشخاص علي بن محمد بن علي بن موسى عليهم السلام، وفتّشت منزله فلم أصب فيه إلَّا مصاحف ودعاء وما أشبه ذلك.

وكان الإمام عليه السلام كثير الدّعاء والتّضرّع إلى الله عزّ وجل..

وكان نقش خاتمه عليه السلام: "الله ربي وهو عصمتي من خلقه".

يقول سعيد الحاجب ـ وقد أرسله المتوكّل للقبض على الإمام عليه السلام وتفتيش داره ـ: صرت إلى دار أبي الحسن عليه السلام بالليل ومعي سُلّم، فصعدت منه إلى السطح ونزلت من الدرجة إلى بعضها في الظّلمة، فلم أدرِ كيف أصل إلى الدار، فناداني أبو الحسن عليه السلام من الدار: "يا سعيد، مكانك حتى يأتوك بشمعة! فلم ألبث أن أتوني بشمعة"[2].

وهذا يدل على عظيم أخلاق الإمام عليه السلام حتى مع أعدائه؛ فإنّه وارث جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله الذي مدحه الله عزوجل بقولـه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3].

علم الإمام عليه السلام

كان الإمام الهادي عليه السلام أعلم أهل زمانه، فهو الأعلم بالقرآن الكريم والسّنّة المطهّرة، وبجميع المسائل في مختلف العلوم، وذلك بالعلم اللدُنّي الذي منحه الله تعالى، وبما ورثه من آبائه الطاهرين عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقد روي عنه عليه السلام من علوم القرآن، والفقه، والأخلاق، وعلم التوحيد ومعرفة الباري عزوجل، وغيرها الكثير.

كما كان عليه السلام يجيب عن مختلف الأسئلة وأنواع العلوم.

---

(١) المناقب: ج٤ / ص٤١١.

(٢) راجع الكافي: ج١ / ص٤٩٩.

(٣) سورة القلم: ٤.

قال المتوكل لابن السكيت: سل ابن الرضا – أي الإمام الهادي عليه السلام –مسألة عوصاء بحضرتي.

فسأله فقال: لِمَ بعث الله موسى عليه السلام بالعصا، وبعث عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وبعث محمداً صلى الله عليه وآله بالقرآن والسيف؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: " بعث الله موسى عليه السلام بالعصا، واليد البيضاء في زمان الغالب على أهله السحر، فأتاهم من ذلك ما قهر سحرهم، وبهرهم، وأثبت الحجّة عليهم..

وبعث عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله في زمان الغالب على أهله الطّب، فأتاهم من إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، فقهرهم وبهرهم..

وبعث محمداً صلى الله عليه وآله بالقرآن والسيف في زمان الغالب على أهله السيف والشعر، فأتاهم من القرآن الزّاهر، والسيف القاهر ما بهر به شعرهم، وبهر سيفهم، وأثبت الحجّة به عليهم".

فقال ابن السكيت: فما الحجة الآن؟

قال: العقل، يعرف به الكاذب على الله فيكذب.

فقال يحيى بن أكثم: ما لابن السكيت ومناظرته، وإنّما هو صاحب نحو وشعر ولغة، ورفع قرطاساً فيه مسائل.

فأملى علي بن محمد عليه السلام على ابن السكيت جوابه من دون أن يقرأ مسائله – فلمّا قرأه ابن أكثم قال للمتوكل: ما نحب أن تسأل هذا الرجل عن شيء بعد مسائلي، فإنه لا يرد عليه شيء بعدها إلّا دونها، وفي ظهور علمه تقوية للرافضة[1].

المحور الثاني: التعامل وفق متطلّبات العصر.

كانت حياة الإمام عليه السلام تسير وفق رقابة شديدة من قبل طغاة ذلك العصر، وعلى الرغم من ذلك كان للإمام عدة أساليب لنشر الفكر المحمدي في كلِّ العالم، وتعامل وفق تلك الظّروف ضمن مجموعة من الجهات:

الجهة الأول: عدم التّصادم مع الحكّام

إذ لم يُبدي الإمام أي انزعاج من تصرّفات الطغاة في ذلك الوقت فيما يخصّ نفسه، وطريقة السّلوك، ومحاولة النيل من الإمام عليه السلام، وكان في كل ذلك يعمل وفق خطّة منظّمة تضمن المحافظة على شيعته وأتباعه، ومن جهة أخرى يعمل على نشر هدى الرسول الأعظم محمد وأهل بيته عليهم السلام، ولعلَّ من أبرز هذه المصادق، وربما كان سبب

(١) راجع المناقب: ج٤/ ص٤٠٣-٤٠٥.

تلقيبه ﷺ بالعسكري، وذلك أنَّ الحاكم العباسي أمر العسكر ـ وهم تسعون ألف فارس من الأتراك الساكنين بسر من رأى ـ أن يملأ كلّ واحد مخلاة فرسه من الطّين الأحمر، ويجعلوا بعضه على بعض في وسط برية واسعة هناك ففعلوا. فلما صار مثل جبل عظيم صعد فوقه واستدعى أبا الحسن ﷺ واستصعده، وقال: استحضرتك لنظار خيولي. وقد كان أمرهم أن يلبسوا التجافيف، ويحملوا الأسلحة، وقد عرضوا بأحسن زينة، وأتمّ عدّة، وأعظم هيبة؛ وكان غرضه أن يكسر قلب كل من يخرج عليه، وكان خوفه من أبي الحسن ﷺ أن يأمر أحداً من أهل بيته أن يخرج عليه. فقال لـه أبو الحسن ﷺ: "وهل تريد أن أعرض عليك عسكري؟ قال: نعم. فدعا الله سبحانه فإذا بين السماء والأرض من المشرق إلى المغرب ملائكة مدججون فغشي على الحاكم العباسي، فلمّا أفاق قال أبو الحسن ﷺ: «نحن لا ننافسكم في الدنيا، نحن مشتغلون بأمر الآخرة، فلا عليك شيء مما تظن». [1].

الجهة الثانية: ردُّ الشبهات الفكرية.

فقد شهد عصر الإمام الهادي ﷺ ظهور العديد من التيارات، والخطوط الفكرية المنحرفة، وخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم، وبعض القضايا العقائدية، مثل الجبر، والتفويض، والاختيار، فقد روي في (المناقب): لما سُمّ المتوكل نذر لله إن رزقه الله العافية أن يتصدق بمال كثير، فلما عوفي اختلف الفقهاء في (المال الكثير).

فقال لـه الحسن حاجبه: إن أتيتك يا أمير بالصواب فما لي عندك؟

قال: عشرة آلاف درهم، وإلَّا ضربتك مائة مقرعة.

قال: قد رضيت.

فأتى أبا الحسن ـ الهادي ـ ﷺ فسأله عن ذلك؟

فقال: قل لـه: (يتصدق بثمانين درهماً).

فأخبر المتوكل، فسأله: ما العلة؟ فأتاه فسأله.

قال ﷺ: (إنَّ الله تعالى قال لنبيه ﷺ: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ)[2] فعددنا مواطن رسول الله ﷺ فبلغت ثمانين موطناً).

فرجع إليه فأخبره، ففرح وأعطاه عشرة آلاف درهم[3].

كأنّ الإمام ﷺ بيّن مصداقاً من مصاديق (الكثير)، أي: إنَّ الثمانين يصدق عليه الكثير، لا أنَّ أقلّ الكثير الثمانين، ولا أن أكثر من الثمانين لا يكون كثيراً. وتفصيل المسألة في الفقه.

---

(١) راجع الخرائج والجرائح: ج١ / ص٤١٤-٤١٥.

(٢) سورة التوبة: ٢٥.

(٣) المناقب: ج٤/ ص٤٠٢.

وبما أنَّ الأئمّة ﷺ كان من دأبهم نشر ثقافة القرآن الكريم، فحتّى في مثل هذه المسألة الفقهية كانوا يستندون فيها إلى القرآن ويستدلّون به، وذلك لبيان دور القرآن في استنباط الحكم الشرعي؛ مضافاً إلى ضرورة التّمسّك بالعترة الطاهرة ﷺ.

ومما نقل أنَّ قيصر ملك الروم كتب إلى خليفة من خلفاء بني العباس كتاباً يذكر فيه: إنّا وجدنا في الإنجيل أنّه من قرأ سورة خالية من سبعة أحرف حرّم الله تعالى جسده على النار. وهي: الثاء والجيم والخاء والزّاي والشين والظاء والفاء، فإنّا طلبنا هذه السورة في التوراة فلم نجدها، وطلبناها في الزبور فلم نجدها، فهل تجدونها في كتبكم؟

فجمع الخليفة العلماء وسألهم في ذلك، فلم يجب منهم أحد عن ذلك إلّا النقي علي بن محمد بن الرضا ﷺ، فقال: إنّها سورة الحمد، فإنّها خالية من هذه السبعة أحرف. فقيل: الحكمة في ذلك أنّ الثاء من الثبور، والجيم من الجحيم، والخاء من الخيبة، والزاي من الزقوم، والشين من الشقاوة، والظاء من الظلمة، والفاء من الفرقة أو من الآفة. فلمّا وصل إلى قيصر وقرأه فرح بذلك فرحاً شديداً، وأسلم لوقته، ومات على الإسلام، والحمد لله رب العالمين»[1].

الجهة الثالثة: اجتياز اختبارات السلطة.

ولعلَّ هذه النّقطة من أكثر النقاط التي كان يلعبها الحكّام الظالمون في سبيل كسر شخصيّة الإمام ﷺ بسبب عدم إجابته على سؤال أو مسألة، فكانوا يجمعون العلماء، والمفكّرين، وعلماء المذاهب، والطّوائف الأخرى حتى غير المسلمين؛ ليظفروا ولو بمسألة واحدة يقفون أمامها معترفين بالعجز؛ ثم بعد ذلك ينشرون تلك الواقعة في كلّ البلاد؛ وغايتهم: (**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**) سورة التوبة/ الآية: 32.

وبعد إجراء أيّ اختبار علميّ تحاول السّلطة الحاكمة التعتيم عليه لئلّا يستفيد أتباع أهل البيت ﷺ من هذه الورقة المهمّة ضدّ السّلطة الحاكمة.

ولكن المصادر التاريخية قد حفظت لنا نصوص هذه الاختبارات وفيها ما يدلّ على الرّدّ القاطع من أهل البيت ﷺ على جميع التّحدّيات العلميّة التي خطّطت لهم وانتصارهم في هذا الميدان الذي كان يعيد لهم مرجعيّتهم الدّينية في الأُمّة الإسلامية.

قَالَ مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الرِّضَا لَقِيتُ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ فِي دَارِ الْعَامَّةِ فَسَأَلَنِي عَنْ مَسَائِلَ فَجِئْتُ إِلَى أَخِي عَلِيِّ بْنِ

(١) شرح شافية أبي فراس: ص٥٦٣.

مُحَمَّدٍ ﷺ فَدَارَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَوَاعِظِ مَا حَمَلَنِي وَبَصَّرَنِي طَاعَتَهُ فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنَّ ابْنَ أَكْثَمَ كَتَبَ يَسْأَلُنِي عَنْ مَسَائِلَ لِأُفْتِيَهُ فِيهَا

فَضَحِكَ ﷺ ثُمَّ قَالَ: فَهَلْ أَفْتَيْتَهُ؟

قُلْتُ: لَا؛ لَمْ أَعْرِفْهَا

قَالَ ﷺ: وَمَا هِيَ:

قُلْتُ: كَتَبَ يَسْأَلُنِي:

عَنْ قَوْلِ الله (قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) نَبِيُّ الله كَانَ مُحْتَاجاً إِلَى عِلْمِ آصَفَ؟

وَعَنْ قَوْلِهِ(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً) سَجَدَ يَعْقُوبُ وَوُلْدُهُ لِيُوسُفَ وَهُمْ أَنْبِيَاءُ؟

وَعَنْ قَوْلِهِ (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ) مَنِ الْمُخَاطَبُ بِالْآيَةِ فَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَدْ شَكَّ وَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ غَيْرَهُ فَعَلَى مَنْ إِذاً أُنْزِلَ الْكِتَابُ؟

وَعَنْ قَوْلِهِ (وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ الله) مَا هَذِهِ الْأَبْحُرُ؟ وَأَيْنَ هِيَ؟

وَعَنْ قَوْلِهِ (وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) فَاشْتَهَتْ نَفْسُ آدَمَ ﷺ أَكْلَ الْبُرِّ فَأَكَلَ وَأَطْعَمَ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ فَكَيْفَ عُوقِبَ؟

وَعَنْ قَوْلِهِ (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً) يُزَوِّجُ الله عِبَادَهُ الذُّكْرَانَ وَقَدْ عَاقَبَ قَوْماً فَعَلُوا ذَلِكَ؟

وَعَنْ شَهَادَةِ الْمَرْأَةِ جَازَتْ وَحْدَهَا وَقَدْ قَالَ الله(وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)؟

وَعَنِ الْخُنْثَى وَقَوْلِ عَلِيٍّ ﷺ يُورَثُ مِنَ الْمَبَالِ فَمَنْ يَنْظُرُ إِذَا بَالَ إِلَيْهِ مَعَ أَنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ امْرَأَةً وَقَدْ نَظَرَ إِلَيْهَا الرِّجَالُ أَوْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَجُلًا وَقَدْ نَظَرَتْ إِلَيْهِ النِّسَاءُ وَهَذَا مَا لَا يَحِلُّ؟

وَشَهَادَةُ الْجَارِّ إِلَى نَفْسِهِ لَا تُقْبَلُ؟

وَعَنْ رَجُلٍ أَتَى إِلَى قَطِيعِ غَنَمٍ فَرَأَى الرَّاعِيَ يَنْزُو عَلَى شَاةٍ مِنْهَا فَلَمَّا بَصُرَ بِصَاحِبِهَا خَلَّى سَبِيلَهَا فَدَخَلَتْ بَيْنَ الْغَنَمِ كَيْفَ تُذْبَحُ وَهَلْ يَجُوزُ أَكْلُهَا أَمْ لَا؟

وَعَنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ لِمَ يُجْهَرُ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ وَهِيَ مِنْ صَلَاةِ النَّهَارِ وَإِنَّمَا يُجْهَرُ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ؟

وَعَنْ قَوْلِ عَلِيٍّ ﷺ لِابْنِ جُرْمُوزٍ (بَشِّرْ قَاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ) فَلَمْ يَقْتُلْهُ وَهُوَ إِمَامٌ؟

وَأَخْبِرْنِي عَنْ عَلِيٍّ ﷺ لِمَ قَتَلَ أَهْلَ صِفِّينَ وَأَمَرَ بِذَلِكَ مُقْبِلِينَ وَمُدْبِرِينَ وَأَجَازَ عَلَى الْجَرْحَى وَكَانَ حُكْمُهُ يَوْمَ

الْجَمَلِ أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْ مُوَلِّياً وَلَمْ يُجِزْ عَلَى جَرِيحٍ وَلَمْ يَأْمُرْ بِذَلِكَ، وَقَالَ مَنْ دَخَلَ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ لِمَ فَعَلَ ذَلِكَ فَإِنْ كَانَ الْحُكْمُ الْأَوَّلُ صَوَاباً فَالثَّانِي خَطَأٌ؟

وَأَخْبِرْنِي عَنْ رَجُلٍ أَقَرَّ بِاللِّوَاطِ عَلَى نَفْسِهِ أَ يُحَدُّ أَمْ يُدْرَأُ عَنْهُ الْحَدُّ؟

قَالَ عليه السلام: اكْتُبْ إِلَيْهِ

قُلْتُ وَمَا أَكْتُبُ؟

قَالَ عليه السلام: اكْتُبْ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَأَنْتَ فَأَلْهَمَكَ اللهُ الرُّشْدَ أَتَانِي كِتَابُكَ فَامْتَحَنْتَنَا بِهِ مِنْ تَعَنُّتِكَ لِتَجِدَ إِلَى الطَّعْنِ سَبِيلًا إِنْ قَصَرْنَا فِيهَا وَاللهُ يُكَافِيكَ عَلَى نِيَّتِكَ وَقَدْ شَرَحْنَا مَسَائِلَكَ فَأَصْغِ إِلَيْهَا سَمْعَكَ وَذَلِّلْ لَهَا فَهْمَكَ وَاشْغَلْ بِهَا قَلْبَكَ فَقَدْ لَزِمَتْكَ الْحُجَّةُ وَالسَّلَامُ.

سَأَلْتَ عَنْ قَوْلِ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ(قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ) فَهُوَ آصَفُ بْنُ بَرْخِيَا وَلَمْ يَعْجِزْ سُلَيْمَانُ عليه السلام عَنْ مَعْرِفَةِ مَا عَرَفَ آصَفُ لَكِنَّهُ صلى الله عليه أَحَبَّ أَنْ يُعَرِّفَ أُمَّتَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَنَّهُ الْحُجَّةُ مِنْ بَعْدِهِ وَذَلِكَ مِنْ عِلْمِ سُلَيْمَانَ عليه السلام أَوْدَعَهُ عِنْدَ آصَفَ بِأَمْرِ اللهِ فَفَهَّمَهُ ذَلِكَ لِئَلَّا يَخْتَلِفَ عَلَيْهِ فِي إِمَامَتِهِ وَدَلَالَتِهِ كَمَا فُهِّمَ سُلَيْمَانُ عليه السلام فِي حَيَاةِ دَاوُدَ عليه السلام؛ لِتُعْرَفَ نُبُوَّتُهُ وَإِمَامَتُهُ مِنْ بَعْدِهِ لِتَأَكُّدِ الْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ.

وَأَمَّا سُجُودُ يَعْقُوبَ عليه السلام وَوُلْدِهِ فَكَانَ طَاعَةً للهِ وَمَحَبَّةً لِيُوسُفَ عليه السلام كَمَا أَنَّ السُّجُودَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ عليه السلام لَمْ يَكُنْ لِآدَمَ عليه السلام وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ طَاعَةً للهِ وَمَحَبَّةً مِنْهُمْ لِآدَمَ عليه السلام فَسُجُودُ يَعْقُوبَ عليه السلام وَوُلْدِهِ وَيُوسُفَ عليه السلام مَعَهُمْ كَانَ شُكْراً للهِ بِاجْتِمَاعِ شَمْلِهِمْ أَ لَمْ تَرَهُ يَقُولُ فِي شُكْرِهِ ذَلِكَ الْوَقْتَ(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ) فَإِنَّ الْمُخَاطَبَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وَلَمْ يَكُنْ فِي شَكٍّ مِمَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ وَلَكِنْ قَالَتِ الْجَهَلَةُ كَيْفَ لَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيّاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِذْ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ نَبِيِّهِ وَبَيْنَنَا فِي الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَشْيِ فِي الْأَسْوَاقِ فَأَوْحَى اللهُ إِلَى نَبِيِّهِ(فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ) بِمَحْضَرِ الْجَهَلَةِ هَلْ بَعَثَ اللهُ رَسُولًا قَبْلَكَ إِلَّا وَهُوَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ وَلَكَ بِهِمْ أُسْوَةٌ وَإِنَّمَا قَالَ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ وَلَمْ يَكُنْ شَكٌّ وَلَكِنْ لِلنَّصَفَةِ كَمَا قَالَ (تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ) وَلَوْ قَالَ عَلَيْكُمْ لَمْ يُجِيبُوا إِلَى الْمُبَاهَلَةِ وَقَدْ عَلِمَ اللهُ أَنَّ نَبِيَّهُ يُؤَدِّي عَنْهُ رِسَالَاتِهِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فَكَذَلِكَ عَرَفَ النَّبِيُّ أَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا يَقُولُ وَلَكِنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْصِفَ مِنْ نَفْسِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ (وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ الله) فَهُوَ كَذَلِكَ لَوْ أَنَّ أَشْجَارَ الدُّنْيَا أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ وَانْفَجَرَتِ الْأَرْضُ عُيُوناً لَنَفَدَتْ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ الله وَهِيَ عَيْنُ الْكِبْرِيتِ وَعَيْنُ النَّمِرِ وَعَيْنُ الْبَرَهُوتِ وَعَيْنُ طَبَرِيَّةَ وَحَمَّةُ مَاسَبَذَانَ وَحَمَّةُ إِفْرِيقِيَةَ يُدْعَى لسنان وَعَيْنُ بحرون وَنَحْنُ كَلِمَاتُ الله الَّتِي لَا تَنْفَدُ وَلَا تُدْرَكُ فَضَائِلُنَا.

وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ فِيهَا مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَاهِي مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَبَاحَ الله ذَلِكَ كُلَّهُ لِآدَمَ عليه السلام وَالشَّجَرَةُ الَّتِي نَهَى الله عَنْهَا آدَمَ عليه السلام وَزَوْجَتَهُ أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا شَجَرَةُ الْحَسَدِ عَهِدَ إِلَيْهِمَا أَنْ لَا يَنْظُرَا إِلَى مَنْ فَضَّلَ الله عَلَى خَلَائِقِهِ بِعَيْنِ الْحَسَدِ فَنَسِيَ وَنَظَرَ بِعَيْنِ الْحَسَدِ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً.

وَأَمَّا قَوْلُهُ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً أَيْ يُولَدُ لَهُ ذُكُورٌ وَيُولَدُ لَهُ إِنَاثٌ يُقَالُ لِكُلِّ اثْنَيْنِ مُقْرِنَيْنِ زَوْجَانِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا زَوْجٌ وَمَعَاذَ الله أَنْ يَكُونَ عَنَى الْجَلِيلُ مَا لَبَّسْتَ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ تَطْلُبُ الرُّخَصَ لِارْتِكَابِ الْمَآثِمِ (وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً) إِنْ لَمْ يَتُبْ.

وَأَمَّا شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ وَحْدَهَا الَّتِي جَازَتْ فَهِيَ الْقَابِلَةُ جَازَتْ شَهَادَتُهَا مَعَ الرِّضَا فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رِضًا فَلَا أَقَلَّ مِنِ امْرَأَتَيْنِ تَقُومُ الْمَرْأَتَانِ بَدَلَ الرَّجُلِ لِلضَّرُورَةِ لِأَنَّ الرَّجُلَ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَقُومَ مَقَامَهَا فَإِنْ كَانَتْ وَحْدَهَا قُبِلَ قَوْلُهَا مَعَ يَمِينِهَا.

وَأَمَّا قَوْلُ عَلِيٍّ عليه السلام فِي الْخُنْثَى فَهِيَ كَمَا قَالَ يَنْظُرُ قَوْمٌ عُدُولٌ يَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِرْآةً وَتَقُومُ الْخُنْثَى خَلْفَهُمْ عُرْيَانَةً وَيَنْظُرُونَ فِي الْمَرَايَا فَيَرَوْنَ الشَّبَحَ فَيَحْكُمُونَ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ النَّاظِرُ إِلَى الرَّاعِي وَقَدْ نَزَا عَلَى شَاةٍ فَإِنْ عَرَفَهَا ذَبَحَهَا وَأَحْرَقَهَا وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهَا قَسَمَ الْغَنَمَ نِصْفَيْنِ وَسَاهَمَ بَيْنَهُمَا فَإِذَا وَقَعَ عَلَى أَحَدِ النِّصْفَيْنِ فَقَدْ نَجَا النِّصْفُ الْآخَرُ ثُمَّ يُفَرِّقُ النِّصْفَ الْآخَرَ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى تَبْقَى شَاتَانِ فَيُقْرِعُ بَيْنَهُمَا فَأَيَّتُهَا وَقَعَ السَّهْمُ بِهَا ذُبِحَتْ وَأُحْرِقَتْ وَنَجَا سَائِرُ الْغَنَمِ.

وَأَمَّا صَلَاةُ الْفَجْرِ فَالْجَهْرُ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ لِأَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله كَانَ يُغَلِّسُ بِهَا فَقِرَاءَتُهَا مِنَ اللَّيْلِ.

وَأَمَّا قَوْلُ عَلِيٍّ عليه السلام بَشِّرْ قَاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ فَهُوَ لِقَوْلِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وَكَانَ مِمَّنْ خَرَجَ يَوْمَ النَّهْرَوَانَ فَلَمْ يَقْتُلْهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِالْبَصْرَةِ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ يُقْتَلُ فِي فِتْنَةِ النَّهْرَوَانِ.

وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنَّ عَلِيّاً عليه السلام قَتَلَ أَهْلَ الصِّفِّينَ مُقْبِلِينَ وَمُدْبِرِينَ وَأَجَازَ عَلَى جَرِيحِهِمْ وَإِنَّهُ يَوْمَ الْجَمَلِ لَمْ يَتْبَعْ مُوَلِّياً وَلَمْ يُجِزْ عَلَى جَرِيحٍ وَمَنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ آمَنَهُ وَمَنْ دَخَلَ دَارَهُ آمَنَهُ فَإِنَّ أَهْلَ الْجَمَلِ قُتِلَ إِمَامُهُمْ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِئَةٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا وَإِنَّمَا رَجَعَ الْقَوْمُ إِلَى مَنَازِلِهِمْ غَيْرَ مُحَارِبِينَ وَلَا مُخَالِفِينَ وَلَا مُنَابِذِينَ رَضُوا بِالْكَفِّ عَنْهُمْ فَكَانَ الْحُكْمُ فِيهِمْ رَفْعَ السَّيْفِ عَنْهُمْ وَالْكَفَّ عَنْ أَذَاهُمْ إِذْ لَمْ يَطْلُبُوا عَلَيْهِ أَعْوَاناً وَأَهْلُ صِفِّينَ كَانُوا يَرْجِعُونَ

إِلَى فِئَةٍ مُسْتَعِدَّةٍ وَإِمَامٍ يَجْمَعُ لَهُمُ السِّلَاحَ الدُّرُوعَ وَالرِّمَاحَ وَالسُّيُوفَ وَيُسْنِي لَهُمُ الْعَطَاءَ يُهَيِّئُ لَهُمُ الْأَنْزَالَ وَيَعُودُ مَرِيضَهُمْ وَيَجْبُرُ كَسِيرَهُمْ وَيُدَاوِي جَرِيحَهُمْ وَيَحْمِلُ رَاجِلَهُمْ وَيَكْسُو حَاسِرَهُمْ وَيَرُدُّهُمْ فَيَرْجِعُونَ إِلَى مُحَارَبَتِهِمْ وَقِتَالِهِمْ فَلَمْ يُسَاوِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْحُكْمِ لِمَا عَرَفَ مِنَ الْحُكْمِ فِي قِتَالِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ لَكِنَّهُ شَرَحَ ذَلِكَ لَهُمْ فَمَنْ رَغِبَ عُرِضَ عَلَى السَّيْفِ أَوْ يَتُوبَ مِنْ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي اعْتَرَفَ بِاللِّوَاطِ فَإِنَّهُ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ وَإِنَّمَا تَطَوَّعَ بِالْإِقْرَارِ مِنْ نَفْسِهِ وَإِذَا كَانَ لِلْإِمَامِ الَّذِي مِنَ اللهِ أَنْ يُعَاقِبَ عَنِ اللهِ كَانَ لَهُ أَنْ يَمُنَّ عَنِ اللهِ أَ مَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللهِ (هذا عَطاؤُنا) الْآيَةَ، قَدْ أَنْبَأْنَاكَ بِجَمِيعِ مَا سَأَلْتَنَا عَنْهُ فَاعْلَمْ ذَلِكَ[1].

٤ ـ التوسع في نظام الوكالة

فقد كان الوكلاء يتولون تنظيم عملية الاتصال بين الإمام عليه السلام والشيعة، خصوصاً في العناوين التالية:

- **استلام الخمس من الشيعة وإيصاله للإمام عليه السلام.**
- **الإجابة عن المسائل الفقهية والعقائدية.**
- **التعريف بالإمام عليه السلام وتمهيد الأرضية له.** وكان ارتباط هؤلاء بالإمام عليه السلام يتم غالباً من خلال كتب يرسلونها إليه مع من يوثق به، ولقد نظم الإمام عليه السلام العلاقة بين الوكلاء أنفسهم، بحيث يبقى كل وكيل ضمن دائرة عمله بشكل منظم من دون التعرض لدائرة عمل الآخر، .

كما نظم عليه السلام كذلك العلاقة بين الوكيل وبين الشيعة الموجودين في ناحيته.

لقد استطاع الإمام عليه السلام من خلال المحاور السابقة أن يحافظ على شريعة جده المصطفى صلى الله عليه وآله من الانحراف، وأن يربي العديد من الشخصيات التي أخذت على عاتقها حمل الرسالة الإسلامية، وتقديم التضحيات تلو التضحيات حتَّى تصل من جيل إلى جيل.

---

(١) تحف العقول: ص: ٤٧٦.

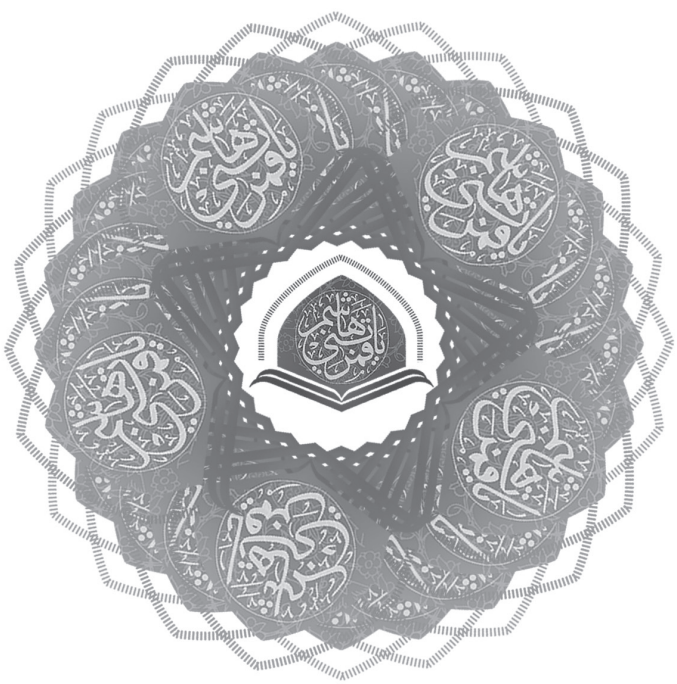

خطب الحوراء زينب عليها السلام وأثرها في المواجهة مع داعش

د. خديجة حسن علي القصير

المطلب الأوَّل: نبذه تعريفية عن داعش التسمية والنشأة

توصل أغلب الباحثين إلى الجزم أنّ كلمة داعش إنَّما ترجع الى كلمة (داعي إش) وهي ترجمة عن الكلمة العبرية التي تعني (المزيد من النار)[1] ...أمّا كلمة داعش فهي اختصار لأوائل كلمات «الدولة الإسلامية في العراق والشام» وهو اسم إعلامي يُروّج له في الفضائيّات؛ لغرض ترسيخه في أذهان أبناء العالم، لما يحمله من حقد وكراهية على البشرية، وبالتالي يحقّقوا غايتهم الخبيثة المرسومة، من تشويه صورة الإسلام عند جميع أهل الدّيانات، وإسقاطه من قلوب من يحب الإسلام ومن يرى فيه حقيقة التّحرّر والتّطوّر الروحي والكوني معًا[2]

نشأة داعش:

تعود البذرة الأولى لنشأة داعش إلى بدايات سنة ١٩٨٨م حيث ظهر تيّار فكريّ إسلاميّ جديد، عُرِف بتيّار الجهاد أو قاعدة الجهاد، وقد كان ظهور هذا التّيّار على يد أسامة بن لادن، ومجموعة من الشّباب الإسلاميّين من بعض الأقطار العربية والإسلامية، وكان هدفه المعلن إقامة خلافة إسلامية تشمل بلدان العالم الإسلامي، وقد نهض حينذاك أسامة بن لادن ومن معه للردِّ على ما وصفوه امتهان الأمريكان لكرامة الأمّة الإسلامية، منطلقين من مبدأ مجاهدة الكفار الذين يعتدون على ديار المسلمين واستقلالها، فكان لهذا العمل ظهور أول مجموعة جهادية أنشأها أسامة بن لادن ودرَّبها في أفغانستان، ثمَّ بدأت هذه المجموعة تعمل علناً في العديد من بلدان العالم الإسلامي باسم تنظيم «قاعدة الجهاد»، أو باسم تنظيم القاعدة» اختصاراً[3]. ثم تدريجيا ظهر تنظيم القاعدة في العراق باسم «جماعة التوحيد والجهاد» التي أسّسها أبو مصعب الزّرقاوي، كردٍّ فعلٍ على الغزو الأمريكي للعراق، وقد بدأت هذه الكتائب بأعداد قليلة حددت بـ ٧٠ شخصاً، في بدايتها أعلنت جماعة التوحيد والجهاد وقوفها بشكلٍ علنيّ ضدّ الوجود الأمريكي في المنطقة العربية والإسلامية بعد الاحتلال

(١) الجعيفري، دكتور مصطفى صالح، داعش، العالمية الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، والتجليد الفني، النجف الأشرف، ٢٠١٥، ص١٠٥ .

(٢) الجعيفري، داعش، ص ١٠٦ .

(٣) الباحثة بتصرف :الهاشمي، هشام، عالم داعش، دار الحكمة، لندن، دار بابل للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ٢٠١٥، ص١٤-١٥ .

الأمريكي للعراق مطلع نيسان ٢٠٠٣م، ثم ظهر اسم جماعة قاعدة الجهاد في بلاد الرّافدين، في عام ٢٠٠٤م، عقب إعلان الزرقاوي لأسامة بن لادن، وهذا الإعلان أمدّ الزرقاوي بالمزيد من القوة العسكرية حيث انجذب إليه كل المتعاطفين والمتحمسين لقاعدة الجهاد العالمي، وأيضاً ازدادت قوّته المالية من خلال الدّعم المباشر من القاعدة الأم الذي كان يقارب حوالي ٦٨٠ ألف يورو شهرياً بالإضافة الى التبرعات من الزكوات والصدقات ...، وأيضاً انتفع الزرقاوي من التّقدم الإعلامي والمواقع والمنتديات الالكترونية التابعة للقاعدة، وأيضًا انتفع من المناهج التنظيرية التي تعتمدها القاعدة، وأصبح كلّ من ينظر ويُدافع عن القاعدة يشمل الزرقاوي [1].

ثم تم اختيار أبو عمر البغدادي أميراً لمجلس شورى المجاهدين في العراق خلفاً لأبي مصعب الزرقاوي، وفي يوم الاثنين ١٩/ ٤/ ٢٠١٠م تمَّ اغتيال الخليفة «أبو عمر البغدادي» ونائبه ووزير حربه «عبد المنعم عز الدين علي البدوي» والمصري الجنسية المعروف بـأبي حمزة المهاجر، وبعد ذلك أصبح أبو بكر البغدادي زعيماً لهذا التنظيم، وشهد عهد أبي بكر البغدادي توسّعاً في العمليات العسكرية النوعية المتزامنة، كعملية البنك المركزي، ووزارة العدل، واقتحام سجني أبي غريب والحوت . وقد نالت الدَّولة الإسلامية في العراق عندما أعلنت عن نفسها موافقة تنظيم القاعدة، يوضّح ذلك موقف الدكتور الظواهري الذي أكّدَ فيه على مرجعية «الدَّولة» في العراق، ونفى وجود القاعدة فيها بعد الإعلان عن قيام الدَّولة، وهذا يعني إحلال الدَّولة بدل تنظيم القاعدة، وقال ما نصُّه: «أودُّ أنْ أوضِّح أنَّه ليس هناك شيء الآن في العراق اسمه القاعدة، ولكنَّ تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين اندمج بفضل الله مع غيره من الجماعات الجهادية في دولة العراق الإسلامية حفظها الله، وهي إمارة شرعية تقوم على منهج شرعيّ صحيح، وتأسّست بالشورى، وحازت على بيعة أغلب المجاهدين والقبائل في العراق»[2].

المطلب الثاني: خطبة السيدة زينب ﵂ في أهل الكوفة وأثرها في المواجهة مع داعش

تأتي خطبة السيدة زينب ﵂ من حيث المساحة الأدبية في الدرجة الثانية بالقياس الى الشعر؛ نظراً لاقترانها بكثافة انفعالية أقل من الشعر، وذلك بسبب خلوّها من الإيقاع المنتظم ورتابته، وبسبب من مواجهتها المباشرة للجمهور حيث إن مراعاتها لآداب المخاطبة وتنظيم الموضوع، تحدّ من درجة الغلو العاطفي دون أن تسمح الغلو نفسه، أمّا خلا ذلك، فإنّ البعد العاطفي يظل ملحوظاً في الخطبة نظراً لاعتمادها على عنصر الإثارة للجمهور وهي إثارة عاطفيّة؛ لأنَّ الجمهور وهذا ما يرصده أي ملاحظ اجتماعي عندما ينتظم في حشد، ينسلخ

---

(١) الباحثة بتصرف : عالم داعش، ص٢٤-٢٨ .

(٢) الباحثة بتصرف : الرقب، أ. د صالح حسين، الدَّولة الإسلامية «داعش»، رسالة ماجستير، كلية أصول االدين الجامعة الإسلامية، بلا.ت، ص٨-٩ .

عن شخصيته الفردية، وينزع الى العقل الجمعي وما يواكبه من الإيحاءات التي تنتقل عدواها من واحد لآخر، وذلك بسبب الإثارة العاطفية التي يحقّقها الخطيب، يضاف إلى ذلك أنَّ الصراعات التي كانت تحياها القبائل انذاك تفرض على الشخصية بعدا عاطفياً يستطيع من خلاله المساهمة في اذكاء او اخفاء الصراعات القبلية وهذا من حيث الحجم العاطفي للخطبة، كما أن هناك سببًا اجتماعيًّا مضافاً الى السبب المتقدم يقف وراء ذلك أي جعلها دون الشعر من حيث الكم، وهو أنَّ الخطابة تتوقّف على وجود جمهور مستمع تتطلبه إحدى المناسبات مما يجعل ظهورها محدودًا بوجود المناسبة كما هو واضح[1]. اختلف المؤرخون في نسب هذه الخطبة للسيدة زينب ﵄ فمنهم من نسبها إلى أم كلثوم[2]، ومنهم من أرجعها إلى السّيّدة زينب﵄ [3]، ويبدو أنَّ سبب هذا الاختلاف كما أوردنا في بداية هذا البحث هو أنَّ السّيّدة زينب ﵄ كنيت بأمّ كلثوم وكانت هذه الكنية سببًا في أن يقع كثير من المؤرخين في خطأ بين زينب وبين بنت أخرى للإمام علي ﵇ اسمها أم كلثوم .

أمّا عن تحديد الفترة الزَّمنية التي ألقت فيها ﵄ هذه الخطبة فقد حدَّدت بين العاشر من المحرم عام ٦١هـ تاريخ وقعة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين ﵇ وأهل بيته وأصحابه وسبي نسائه، وتحدّد فترة نتائج الخطب بردود الفعل على المستوى الفردي والتي ترافقت مع إلقاء الخطب مباشرة عام ٦١ هـ إلى الفترة التي شهدت ردود الفعل على المستوى الجماعي والتي تمثّلت بثورة التّوّابين عام ٦٤هـ وثورة المختار عام ٦٦هـ[4] .

إنَّ الملاحظ لخطبة السيدة زينب ﵄ في أهل الكوفة يجدها مشابهة لخطبة أمّها فاطمة الزهراء ﵄ التي خطبتها بعد حادثة السّقيفة وقد كان لها ﵄ خطبتان؛ الأولى في الجامع بحضور المهاجرين والأنصار ... والثّانية في بيتها حين اجتمعت نساء الأصحاب، ليعدنها في المرض الذي ماتت فيه . وقد ارتكزت أقوالها في الخطبتين على أنَّ ابن عمّها عليًّا ﵇ هو صاحب الحقّ في الخلافة بعد رسول الله ﷺ، وأنَّ الذين حالوا بينه وبينها قد خانوا العهد والميثاق، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل . وأنّها ترميان إلى هدف واحد، وهو بثّ الدّعوة لأهل البيت ﵈، ونشر فضائلهم ومحاسنهم، ومثالب غيرهم ومساوئهم .. وافهام الناس جميعاً أنَّ الإسلام في حقيقته لا يقوم على التّلفّظ بالشهادة، وتأدية الفرائض المكتوبة، وكفى، بل لا بُدَّ أوّلاً وقبل كلّ شيء من التصديق بكلّ ما جاء به محمد ﷺ، ومما جاء به وجوب التّمسّك بالكتاب والعترة "بنصّ حديث الثقلين الذي رواه مسلم وأحمد"

---

(١) البستاني، الدكتور محمود، تاريخ الادب العربي في ضوء المنهج الاسلامي، ط٣، مجمع البحوث الاسلامية، المطبعة دقت، ١٣٩٣ ش – ١٤٣٥ق، ص ١٢-١٣ .

(٢) ابن طيفور، احمد بن ابي طاهر طيفور (ت: ٢٨٠هـ)، بلاغات النساء، ط٢، انتشارات مكتبة الحيدرية، ١٣٧٨، ص٣٧-٣٩ .

(٣) ابن طاووس، رضي الدين ابي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت: ٦٦٤هـ)، الملهوف على قتلى الطفوف، تحقيق وتقديم: الشيخ فارس تبريزيان الحسون، دار الاسرة للطباعة والنشر، مطبعة اسوة، الناشر :دار الاسوة للطباعة والنشر، ١٤١٤هـ.ق، ص ١٩٢ .

(٤) عيسى، الخطاب الرسالي للسيدة زينب ﵄ بعد وقعة كربلاء، ص ١٩٤ .

ولكن المسلمين بعد نبيهم نبذوا الكتاب، وأضاعوا العترة ((١)).

وهذا الامر مشابهة لما أوضحته السيدة زينب ﷺ في خطبتها التي ألقتها أمام أهل الكوفة فبمخاطبتها لهم بالقول: أي كبد لرسول الله فريتم الخ.... إنما تعني من ظلم أهل البيت، ورضي بظلمهم، وشايع وتابع، وهذا الأمر إنَّما ذو علاقة وثيقة بواقع حالنا الآن حيث نجد أنَّ الفساد والشرور التي ينشرها داعش والقتل والتّهجير الذي يتّبعه ضد الناس الأبرياء إنَّما هو ظلم واقع على الناس لابُدَّ من توحيد الصّفوف من أجل مواجهته والقضاء عليه .

وبما أنَّ السيدة زينب ﷺ في خطبتها هذه قد ألقت الحجج على أنَّ أهل البيت هم أصحاب الحق في خلافة الرسول، وأولى بالطاعة، وإنَّ من عارض وعاند فقد ردّ على الله ورسوله ((٢)).

لا شكَّ أنَّ الكلام كان صعبًا جدًّا على زينب لأنَّ أباها كان الحاكم في هذه المدينة لسنوات عديدة والناس ينظرون إلى زينب بوصفها بنت خليفة المسلمين، ولها حرمتها الخاصّة من جهة وفي المقابل فقد أدخلوا آل بيت النبي مثل سبيّ الكفّار الى الكوفة، ورؤوس الشّهداء على الرماح، وقد اجتمع الناس في الطرقات يتفرّجون عليهم، وعندما وصلوا إلى الكوفة سألتهم إحدى النساء: من أيّ الأسارى أنتم؟ فكان الجواب: نحن أسارى آل محمد. يقول أحد الرواة دخلت إلى الكوفة فوجدت حال المدينة في اضطراب فسألت شيخًا: ماذا في المدينة؟ فقال الشيخ: بعض الناس فرحة لانتصار يزيد، وبعض حزين لمقتل الحسين ﷺ وهذا الوضع في الكوفة يشير الى أنَّ بعض الناس في الكوفة يعرف أهل البيت، بينما لايعرفهم آخرون في هكذا وضع كان لابد أن تكلّم الناس وتخرجهم من غفلتهم لهذا أمرتهم بالسكوت ثم من بعد حمد الله والصلاة على نبي الاسلام ﷺ وصفت اهل الكوفة بالختل والغدر ((٣)) .

والملاحظ هنا إنَّ السيدة زينب ﷺ قد ألقت خطبتها هذه بنحوٍ كأنَّ الإمام عليًا ﷺ يخطب في مسجد الكوفة، وكانت كلماتها كالسيل الذي هدر من قلبها الملتهب، يقول بشير بن خذيم الأسدي «فو الله ما رأيت خفرة أنطق منها كأنها تفرغ عن لسان أبيها أمير المؤمنين علي»((٤)) .

بهذا نجد أنَّ أهل البيت ﷺ عمومًا والسيدة زينب ﷺ خصوصًا قد أقاموا الحجّة بالدليل والمنطق على

---

(١) مغنية، الحسين وبطلة كربلاء ﷺ، ص ٢٠٩ .

(٢) المصدر نفسه، ص٢١٤.

(٣) مجموعة من الباحثين، دراسات تاريخية في فاجعة الطف، دار المعارف الحكمية، اشراف:السيد علي رضا الواسعي، تعريب: علي ال دهر الجزائري، بيروت – لبنان، ٢٠١٤، ص ٣١٠-٣١١.

(٤) ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف، ص ١٩٢.

أعدائهم وهم أوّل من أقام البراهين على وجوب التّمسّك بحبلهم، والبراءة من أعدائهم، ولذلك فمن سار على هذا النهج فهم الموالون والمحبون لله ولرسوله محمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، ومن خالف ذلك فهم الخاسرون المخذولون، وللحيلولة دون التحريف وفضح جرائم الأمويين فقد قامت السيدة زينب بشرح واقعة الطف وكيفية شهادة الإمام الحسين، ومنعت تحريف الثورة؛ لأنّ الأمويين صوّروا الحسين عليه السلام بأنَّه خارجي ومصدر تفرقة الأمّة الإسلامية، ولهذا عبّرت السيدة زينب عن الحسين بأنَّه فلذة كبد رسول الله ﷺ، وقتله جريمة غضبت لها الأرض والسماء . لاشكّ أنَّ كلمات السيدة زينب كانت مثل صاعقة نزلت على قصر يزيد وكل كلمة منها كانت مثل دماء شهداء الطّف قاطعة (تاكد) ومعينة وكان هناك شيخ يعتقد بسبب دعايات الأمويين أنّ أهل البيت خوارج، وبعد سماع خطبتها قال: بأبي أنتم وأمّي، كهولكم خير كهول، وشبابكم خير شباب، ونساؤكم خير نساء[1] . وحالنا هنا في التّصدّي لداعش لابُدّ أن يكون مُشابهًا لموقف أتباع أهل البيت عليهم السلام فعلينا أن نُحارب، ونندّد بكلّ محاولات داعش وأعوانه الرّامية الى القضاء على تعاليم الدّين الإسلامي الحنيف، وبثّ القتل والإرهاب في نفوس الناس، وتشوية صورة الإسلام، ومحاربتهم بكلّ ما أوتينا من قوّة . فداعش من منظور إنسانيّ بحت ما هو إلّا مغتصب لأرضنا وخيراتنا، يعيث فيها فسادًا ويُحاول أن يهدم معالمنا، ويقتص منّا بكل ما يحصل عليه من دعم مادّيّ ومعنويّ.

وممّا يُلاحظ على هذه الخطبة أسلوب الحوار المباشر الذي اتّبعته السّيّدة زينب عليها السلام مع أهل الكوفة، حيث كان هناك طرفان يقف أحدهما أمام الآخر، الأوّل هو الطّرف المتلقّي للخطبة، وهم أهل الكوفة، والثّاني هو الطّرف المُلقي للخطبة والمتمثّل بالسيدة زينب عليها السلام، وهذا أعطى النّصّ حيويّة لأنَّ الحوار كان مباشرًا، فكان كفيلاً بإظهار الحقائق بصورة واضحة بعيدا عن الغموض، وحتى تكون الحقائق مكشوفة أمام الجميع؛ ليعرف العالم زيف الأمويّين وأحقّيّة أهل البيت عليهم السلام، فقد لجأت السيدة زينب عليها السلام إلى أسلوب الشّجب والتأنيب في ذمّ الناس، والتقريع لأهل الكوفة بسبب تخاذلهم عن نصرة الإمام الحسين عليه السلام وغدرهم وقعودهم عنه، بل خروجهم لقتاله، ومشاركتهم في محاربته أشدّ ما يكون الشجب والتقريع بعدما دعوه، وكاتبوه، ووعدوه أن ينصروه، ويقفوا معه، وتواترت إليه كتبهم، فتقول بحرقة وألمٍ ما بعده ألم «يا أهل الكوفة يا أهل الختل والخذل(الغدر)»[2] .

فكانت الحقائق تتدفق على لسانها عليها السلام فأغرقت المتجمعين منذ بدء الخطبة بوحل العار والهزيمة حينما خاطبتهم بأسلوب نعتتهم فيه بالختل أي الغدر؛ لتبيّن طبيعة المجتمع الكوفي آنذاك الذي استدعى الإمام

(١) مجموعة من الباحثين، دراسات تاريخية في فاجعة الطف، ص٣١٢-٣١٣ .

(٢) الاصفي، محمد مهدي، الخطاب الحسيني، ط٢، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لاهل البيت، مطبعة مجاب، ١٤٣١ هـ، ص٥٤-٥٥ .

الحسين وأرسل إليه الرسل يدعوه لمناصرته ومآزرته ثم تخلى عنه، وكان نتيجة هذا التّخلّي استشهاد مسلم بن عقيل ﷺ الرسول الذي أرسله الإمام الحسين ﷺ إليهم، ومن ثم الفاجعة الكبرى في يوم عاشوراء.

وهذا يتوافق مع واقع حالنا، فنحن نجد أنَّ داعش إنّما هو نتاج لظاهرة الغدر، فهو في الأساس ناتج عن تكالب العديد من الأطراف التي أسهمت في بزوغ هذه الظاهرة التي أخذت تنحى منحى إجراميًّا قائمًا على القتل، وسفك الدّماء، وهتك الأعراض، بعيداً عن أيّ مظهر من مظاهر الإنسانيّة، يتكلّمون باسم الإسلام، وهم لا يعرفون من الإسلام غير اسمه، وينسبون أنفسهم إليه، وكأنّهم يتكلّمون عن دين لا يعرفه المسلمون، ويهدفون إلى تشويه الإسلام ومبادئه السّمحاء التي جاء بها.

وهذا الجانب المباشر في الحوار الذي قامت به السيدة زينب من خلال خطبتها في أهل الكوفة إنَّما دليل على قوّة الجانب التبليغي الذي مارسته المرأة في أحداث عصرها، وكما هو معروف بأنَّ أسلوب التبليغ كان يُمثّل أحد أبعاد النّهضة الحسينية، والتبليغ هنا بالمعنى الواقعيّ للكلمة وليس بالمعنى المتداول حاليًّا بين الناس، أي إيصال النداء والرسالة التي هي رسالة الإسلام وصوت الإسلام للناس[1]. وهذا يتّضح بشكلٍ جلّي في خطبتها ﷺ في الكوفة، حيث كان عليّ ﷺ قد خطب فيها قبل عشرين عامًا خلت، وطوال خمس سنوات من خلافته ﷺ كان قد أورد عددًا كثيرًا من الخطب، لاتزال مضرب أمثال الناس، يقول الراوي: عندما نطقت زينب تبادر إلى ذهن الناس جميعًا خطبة علي ﷺ حيث يقول: « كأنّما تفرع عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ..» ويقول الراوي: "وما أن أتمّت زينب خطبتها (وهي لم تكن بالخطبة الطويلة) حتى رأيت الناس يومئذ حيارى يبكون وقد وضعوا أيديهم في أفواههم... فهنا تتجلّى زينب وتصل أوج عروجها أنّها بنت علي وفاطمة وها هي صاحبة الشّخصيّة الفريدة التي بقيت امرأة لكنّها كريمة، وثمينة للغاية تورد خطبتها الشهيرة أمام الملأ يقول الرواة:

إنَّ زينب كانت تنتظر تلك اللحظة وعندما شخّصت اللحظة المناسبة بالضبط : "وقد أومأت الى الناس ان اسكتوا فارتدّت الأنفاس، وسكتت الأجراس" وهكذا تكون الشّخصية التاريخية إذ بإيماءة منها سكت الجميع، وهدأ الكلّ، وتسمرت حتى الدواب في أماكنها، وامتنعت الحركة بتاتًا يقول الراوي: ولم أرَ والله خفرة قط أنطق منها...» وخفرة هذه كلمة فوق العادة مهمّة وقيّمة، فهي أي زينب خطبت في الناس وكانت في منتهى الحياء والعفّة والعظمة، وبذلك تكون قد عجنت في شخصيتها حياء المرأة وشجاعة علي ﷺ . فالملاحظ هنا أنَّ السيدة زينب ﷺ قد ألقت خطبتها هذه بنحو كأنَّ الإمام عليًّا ﷺ يخطب في مسجد الكوفة، وكانت

(١) المطهري، الاستاذ مرتضى، الملحمة الحسينية، مطبعة فيضية، ايران، ١٤٢٥هـ.ق، ج٢، ص١٨١.

كلماتها كالسيل الذي هدر من قلبها الملتهب يقول بشير بن خذيم الأسدي «فو الله ما رأيت خفرة انطق منها كانها تفرغ عن لسان ابيها امير المؤمنين علي»[1] . هنا يبرز لنا دور المرأة بالشكل الذي يريده الإسلام يريد لها الشّخصية والإرادة القويّة الصّلبة ولكن في ذات الوقت الحفاظ على الحياء والعفّة والعفاف والطّهارة والحرمة ولهذا السبب يمكن القول إنَّ تاريخ كربلاء تاريخ الذّكور والإناث معًا، تاريخ اشترك في صنعه الذكور ولكن في إطار ذكورتهم ومدارها، والإناث، ولكن في إطار أنوثتهنّ ومدارها، إنّه التاريخ الذي صنعه الجنان معا[2]، ونحن كنساء نعيش في هذا الظّرف الأليم لابُدَّ لنا من أن يكون موقفنا مستمدًا للقوة من السّيّدة زينب ﷺ أي نتحلّى بالصّبر والشّجاعة والحياء، ونستمد القوّة منها في مواجهة عدوّنا الحاضر المتمثّل بداعش الذي ينهش بأبنائنا، ويقتصّ من إرثنا وحاضرنا، ويستبيح دماءنا، ويهتك حُرماتنا، ويستنزف خيراتنا، ويقضي على كلّ معالمنا الحضارية والدينية، فلابُدَّ للمرأة هنا أن تشحذ الهمم في الرجال من أجل الدّفاع عن ديننا وعقيدتنا، وترسيخ مثلنا ومبادئنا في النفوس.

كان هدف الأمويين والسلطة الجائرة ليزيد بن معاوية بالدرجة الأولى هو إسقاط أهداف ثورة الإمام الحسين ﷺ، وذلك من خلال قتل رموزها والمشاركين فيها، لكنّه لم يتحقّق بسبب ما أدّته السيدة زينب ﷺ ومن معها، وكما قال بعضهم: لقد انتصرت الثورة الحسينية بدماء سيّد الشهداء ﷺ وإعلام السيدة زينب ﷺ، بما شكّلت هذه السيدة الجليلة من رمزيّة نسائية تصعب مواجهتها من قبل جماعة يزيد، ومن أداء تعبوي وصل إلى كلّ الأقطار ولم يكن بإمكان السلطة منعه، خصوصًا أنَّ إجرام الحاكم وزبانيّته لم يتوقّف عند مأساة كربلاء، بل تواصل بعده، فعندما أحضر القوم السبايا وآل الحسين ﷺ إلى قصر الإمارة سأل ابن زياد الإمام زين العابدين ﷺ عن اسمه، فقال: أنا علي بن الحسين. فقال: أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟ فقال: قد كان لي أخ يُسمّى علياً قتله الناس.

فقال: بل الله قتله[3].

فقال الإمام ﷺ: الله يتوفّى الأنفس حين موتها. فأشار ابن زياد لقتله، فتعلّقت به زينب ﷺ وقالت: يابن زياد، حسبك من دمائنا، والله لا أفارقه فإن قتلته فاقتلني معه؟ فتركه. وأراد ابن زياد أن يُعلن نتيجة المعركة فجمع الناس في مسجد الكوفة، وقال: الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل "الكذاب" الحسين بن علي وشيعته . فتصدّى له عبد الله بن عفيف الأزدي وقال له: يابن مرجانة

---

(١) ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف، ص ١٩٢.

(٢) المطهري، الاستاذ مرتضى، الملحمة الحسينية، ج٢، ص٢٥٦-٢٥٧.

(٣) الطبري، محمد بن جرير (ت:٣١٠هـ)، تاريخ الامم والملوك، الاميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ٢٠٠٥، ج ٣، ص ٤٨٣ .

إنَّ الكذّاب ابن الكذّاب أنت وأبوك والذي ولّاك وأبوه، أتقتلون أبناء النّبيّين وتكلمون بكلام الصّدّيقين. فأمر ابن زياد بقتله وصلبه[1]، من هنا فإنَّ أهّميّة الدور الزّينبي يتمثّل في قدرتها على التصريح والتّوضيح والتعبئة، فهي شاهدة على ما جرى، وهي تملك شجاعة تؤهّلها للتصدّي، وهي عالمة يمكنها شرح الموقف وتحليل أبعاده ونتائجه، وهي صاحبة النسب الشريف المؤثّر في النّفوس، وهي امراة يصعب على السّلطة قتلها ولا يمنعها الأسر والتّضييق من إيصال صوتها[2]، فالسّيّدة زينب ﷺ في خطبتها قامت بالتعريف بالحسين ﷺ وأهل بيته ﷺ إذ لم تكن الدّعايات الواسعة ليزيد عديمة التأثير في الكوفة وربما لم يعرف كثير من شباب الكوفة الإمام الحسين جيّدًا، ولم يعلموا أنّه فلذة كبد رسول الله ﷺ، وأنّ قتله أفجع قلب رسول الله، ورغم أنَّ هؤلاء لم يعرفوا أسباب ثورته ومن هم أعداؤه، ولماذا قتلوه بتلك الوحشية، ولهذا كان من الضّروريّ أن تكون هناك عدة خطب تعرّف بالإمام وأهل بيته[3]، ولابُدّ أن يكون دور المرأة هنا يستمدّ قوّته من دور السيدة زينب فكما وظّفت السيدة زينب ﷺ الإعلام كوسيلة لتوضيح أهداف ثورة الحسين ﷺ بعد استشهاده فلابُدّ للمرأة في وقتنا الحاضر وهي تعيش هذه الظّروف المتمثّلة في الحرب المقدّسة التي تخوضها القوّات الأمنية وفصائل الحشد الشعبي ضد تنظيمات داعش الإرهابية أن توظّف الجانب الإعلامي المتاح لها لشحذ الهمم وخاصّة هنا ما يكون على نطاق الأسرة من حثّ وتشجيع الرّجل سواء كان زوجًا أو ابنًا أو أخًا في التّطوّع والقتال للدفاع عن الوطن والمقدّسات .

ومن الأمور الواضحة للعيان في خطبة السيدة زينب ﷺ استهلالها خطبها بآي من القرآن الكريم وذلك أمرٌ مسلّم به لأنَّها تربّت في بيت نزل فيه جبرائيل يرتل الذكر الحكيم، وتخلّقت بخلق النبوة والثقافة الإسلامية الرائعة، فكانت القيادية الواعية التي لم تؤثّر فيها عوادي الزمن، ومصائب كربلاء، فالبدء بالقرآن الكريم هو حقيقة دامغة تضرب بها رؤوس الطّغاة، وتستعيد الوعي الى جموع الناس الذين غابت عن أذهانهم مكانة هذه الأسرة بسبب الإعلام الأموي المضاد[4]، وإنَّ هذا الاستشهاد بالنّص القرآني في خطبها إنَّما هو لارتقاء النص القرآني إلى أعلى مراتب السّلم الحجاجي، كونها القوّة الحجاجية الأكثر تأثيرًا والأبلغ في القصد، وتعدد مواطن الآيات القرآنية في الخطاب، فتأتي في بنية الافتتاح وهي حالة قليلة جدًّا وفي متن الخطاب ممثّلة لوظيفتي (المواجهة والمدافعة) وفي خاتمته، والاحتجاج بالقرآن الكريم يرد في موضوعات عدّة في التراث الإسلامي

(١) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ٣، ص ٤٨٣ .

(٢) قاسم، الشيخ نعيم، عاشوراء مدد وحياة، دار الهادي، بيروت-لبنان، ٢٠٠٢، ص٢١٦ .

(٣) مجموعة من الباحثين، دراسات تاريخية في فاجعة الطف، ص ٣١٢.

(٤) الركابي، قراءة نقدية في خطبة السيدة زينب ﷺ، ص١٥٣.

من قبيل المحاججات السياسة مثل محاججة ابن عباس للخوارج: (فقال ابن عباس: لا ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه الكفر . قالوا: إنَّه قد حكم . قال: إنَّ الله عزّ وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل سيد، فقال عزّ وجل((يحكم به ذو عدل منكم)) (سورة المائدة، الآية: ٩٥)، فكيف في إمامة أشكلت على المؤمنين؟ فقالوا: إنّه قد حكم عليه، فلم يرضَ، فقال بعضهم لبعض: لاتجعلوا احتجاج قريش حجّة عليكم، فإنَّ هذا من القوم الذي قال الله فيهم ((بل هم قوم خصمون)) (سورة الزخرف، الآية:٥٨) . وقال عز وجل: **(وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا)** .(سورة مريم، الآية:٩٧)((١)). وجاءت الشّواهد القرآنيّة في الخطاب الزّينبي في العديد من المواضع منها في التنكيل بأهل الكوفة: **(وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)** ((٢)). وأنّ أسلوب الخطاب الجدلي أو الاحتجاجي يُعدّ واحدًا من أهمّ الأساليب التي يستعملها العقل البشري في محاوراته ومخاطباته، والقصد منه (الاتيان بالدليل والحجّة والبرهان في إثبات الحقّ وإلزام الخصم بها) في أسلوب حواريّ سلميّ بعيدًا عن العنف باللجوء الى لغة الحوار المخاطب للعقول بوساطة الاستدلال المنطقي، إذ إنَّ المحاورة مع الآخر والمجادلة معه تكون بأسلوبٍ حسن، فالنّبي ﷺ حين جادل المشركين وهم كفّار جادلهم بأسلوب يحترم فيه إنسانيّتهم، وهو منهج رسمه القرآن الكريم له فالموعظة الحسنة تكون مع الموافقين أمّا الجدال مع المخالفين((٣)).

الخاتمة

استأثر الحديث عن السيدة زينب ﷺ اهتمام العالم فقد كانت ﷺ صاحبة اليد الطولى في تكملة أشواط الحسين ﷺ ونشر دعوته، وإعلان مظلوميته على الملأ، فهي والحق شريكته في نهضته، وصوته المدوّي في الآفاق .

وقد كانت خطب السّيّدة زينب ﷺ قد غيّرت الاتجاة العام، وأقامت الدّنيا على الأمويّين، حتى اضطرّ يزيد إلى لعن ابن زياد متبريًّا من دم الحسين ﷺ، وأقام المأتم عليه في داره، رعاية للشعور العام الذي تركته العقيلة ﷺ في الشام.

وبما أنَّ تاريخ كربلاء تاريخ الذكور والإناث معًا، تاريخ اشترك في صنعه الذكور ولكن في إطار ذكورتهم ومدارها، والإناث ولكن في إطار انوثتهنّ ومدارها، إنَّه التاريخ الذي صنعه الجنسان معًا، وبما أنَّ السّيّدة زينب

---

(١) رسن، أ.م.دفاطمة كريم، المنهج التربوي لخطاب الزهراء ﷺ في توجية الامة (سلطة الحجاج بالشاهد القرآني انموذجا)، وقائع المؤتمر السنوي التخصصي السابع حول فكر السيدة الزهراء ﷺ، مؤسسة الغدير للثقافة والاعلام، بغداد، ٢٠١٤، ص١١٢.

(٢) سورة النحل، الآية:٩٢ .

(٣) العقيدي، الاستاذ المساعد الدكتورة جنان محمد مهدي، لغة الحكمة واقناع المخاطب في اسلوب الخطاب النبوي، العتبة العباسية المقدسة، البحوث التي القيت في مهرجان ربيع الرسالة الثقافي العالمي السابع، مطبعة دار الكفيل للطباعة، كربلاء المقدسة، ٢٠٠٠، المجلد الاول، ص١٢٧.

ﷺ ونساء عصرها كان لهم الدّور البارز في تلك الملحمة الخالدة، فلا بُدّ لنا كنساء نعيش في هذا الظرف الأليم من أن يكون موقفنا مستمدّ للقوة من السّيّدة زينب ﷺ أي نتحلّى بالصّبر والشّجاعة والحياء ونستمد القوّة منها في مواجهة عدوّنا الحاضر المتمثّل بداعش الذي ينهش بأبنائنا وينهب خيراتنا .

كما أكّدت السيدة زينب ﷺ دور المرأة المؤمنة الصابرة الملتزمة بحجابها والمتميزة بالحياء والعفّة في مواجهة من يناصبها العداء، فهي ﷺ كانت مثالاً تحتذي به المرأة في عفّتها وحجابها ومواجهة أعدائها بلا خوف ولا تردّد .

المصادر:

- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت:٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر النمر القرطبي (ت: ٤٦٣ ه)، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ١٣٢٨هـ.
- ابن طاووس، رضي الدين ابي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت: ٦٦٤هـ)، الملهوف على قتلى الطفوف، تحقيق وتقديم: الشيخ فارس تبريزيان الحسون، دار الاسرة للطباعة والنشر، مطبعة اسوة، الناشر: دار الاسوة للطباعة والنشر، ١٤١٤هـ.ق .
- ابن طيفور، احمد بن أبي طاهر طيفور (ت:٢٨٠ه)، بلاغات النساء، ط٢، انتشارات مكتبة الحيدرية، ١٣٧٨.
- ابن كحالة، عمر رضا، إعلام النساء، المطبعة الهاشمية، دمشق-سورية، ١٩٤٠م، ج١ .
- ابو سعيدة، السيد حسين، هكذا انت.. يا بطلة كربلاء، ط٤، مؤسسة عاشوراء، مؤسسة المكتبة الوثائقية التاريخية، النجف الاشرف، ٢٠٠٤.
- أبي علي الفضل بن الحسن، إعلام الورى، قدم له : العلامة الجليل السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، ط٣، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها في النجف، النجف الأشرف، ١٩٧٠ .
- الأزهري، أبو منصور محمد بن احمد (ت:٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، إشراف: محمد عوض مرعب، علق عليها: عمر سلامي، عبد الكريم حامد، تقديم: الأستاذة فاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ٢٠٠١ .
- الاصفي، محمد مهدي، الخطاب الحسيني، ط٢، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت، مطبعة مجاب، ١٤٣١ هـ .

- بحر العلوم، محمد، في رحاب السيدة زينب، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ١٩٧٥ .
- البدوي، الشيخ إبراهيم، فن الخطابة، ط٣، دار المحجة البيضاء، بيروت-لبنان، ٢٠٠٨ .
- البستاني، الدكتور محمود، تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي، ط٣، مجمع البحوث الاسلامية، المطبعة دقت، ١٣٩٣ ش – ١٤٣٥ق .
- بن طاووس، رضي الدين ابي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد (ت: ٦٦٤هـ)، التشريف بالمنن في التعريف بالفتن (الملاحم والفتن)، ط٣، الناشر: محمد كاظم الكتبي، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، بلا.ت .
- التهانوي، الشيخ العلامة محمد علي بن علي بن محمد الحنفي(ت: ١١٥٨هـ)، كشاف اصطلاحات الفنون، وضع حواشيه: احمد حسن سبج، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٩٩٨ .
- الجعيفري، دكتور مصطفى صالح، داعش، العالمية الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، والتجليد الفني، النجف الأشرف، ٢٠١٥ .
- حساني، محمد شراد، قصص السيدة زينب ﷺ، منشورات الفجر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ٢٠٠٨ .
- خالد القريشي، الإلقاء الخطابي، دار العاصمة، ٢٠٠١م .
- رسن، أ.م.دفاطمة كريم، المنهج التربوي لخطاب الزهراء ﷺ في توجيه الأمة (سلطة الحجاج بالشاهد القرآني انموذجا)، وقائع المؤتمر السنوي التخصصي السابع حول فكر السيدة الزهراء ﷺ، مؤسسة الغدير للثقافة والاعلام، بغداد، ٢٠١٤ .
- الرقب، أ. د صالح حسين، الدَّولة الإسلامية «داعش»، رسالة ماجستير، كلية أصول االدين الجامعة الإسلامية، بلا.ت .
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: الدكتور نواف الجراح، مراجعة: الدكتور سمير شمس، دار صادر، بيروت- لبنان، ٢٠١١ .
- الزركلي، خير الدين، الاعلام، ط٣، بلا مط، بلام، بلا.ت.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، أساس البلاغة، ت: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة،

بيروت، د.ت.

- شلبي، عبد الجليل، الخطابة وإعداد الخطيب، ط٢، دار القلم، ١٩٨٢ .
- الشيخ حسين بن محمد بن الحسن، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، بلا.ت .
- الطبري، محمد بن جرير (ت:٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ٢٠٠٥ .
- عبد الرحمن، عائشة(بنت الشاطئ)، بطلة كربلاء زينب بنت الزهراء ﷺ، ط٢، منشورات مكتبة الأندلس، بيروت-لبنان، بلا.ت .
- العقيدي، الأستاذ المساعد الدكتورة جنان محمد مهدي، لغة الحكمة وإقناع المخاطب في أسلوب الخطاب النبوي، العتبة العباسية المقدسة، البحوث التي ألقيت في مهرجان ربيع الرسالة الثقافي العالمي السابع، مطبعة دار الكفيل للطباعة، كربلاء المقدسة، ٢٠٠٠ .
- عيسى، د.زينب محمد، الخطاب الرسالي للسيدة زينب ﷺ بعد وقعة كربلاء، أطروحة دكتوراه منشورة، الجامعة الإسلامية، جمعية السيدة زينب ﷺ الخيرية، ٢٠١٢ .
- الفتلاوي، الشيخ علي، المرأة في حياة الامام الحسين ﷺ، العتبة الحسينية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، ٢٠٠٨.
- الفيروز آبادي، العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب (ت: ٨٠٧هـ)، معجم القاموس المحيط، رتبه وصححه: إبراهيم شمس الدين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ٢٠١٢.
- قاسم، الشيخ نعيم، عاشوراء مدد وحياة، دار الهادي، بيروت-لبنان، ٢٠٠٢.
- القرشي، باقر شريف، السيدة زينب ﷺ رائدة الجهاد في الإسلام، بلا.مط، بلا.م، بلا.ت .
- القزويني، السيد محمد كاظم، زينب الكبرى ﷺ من المهد الى اللحد، حققه وعلق عليه ولده: السيد مصطفى القزويني، ط٢، الناشر : دار الغدير، قم المقدسة – إيران، ٢٠٠٣ .
- الكوفي، ابن اعثم، مقتل الحسين ﷺ وقيام المختار، انتشارات انوار الهدى، ط٢، المطبعة مهر، ١٤٢٤ هـ.ق .
- المجلسي، الشيخ محمد باقر، ط٣، مؤسسة الوفاء، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ١٩٨٣ .
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى، احمد حسن الزيات، حامد عبد

القادر، محمد علي النجار، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول- تركيا، بلا.ت .

- مجموعة من الباحثين، دراسات تاريخية في فاجعة الطف، دار المعارف الحكمية، إشراف: السيد علي رضا الواسعي، تعريب: علي ال دهر الجزائري، بيروت – لبنان، ٢٠١٤ .
- مزة، الدكتور عبد اللطيف، الاعلام والدعاية، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨ .
- المطهري، الاستاذ مرتضى، الملحمة الحسينية، مطبعة فيضية، ايران، ١٤٢٥هـ.ق .
- مغنية، محمد جواد، الحسين وبطلة كربلاء عليه السلام، دار التعارف للمطبوعات، بيروت-لبنان، ١٩٧٣ .
- مغنية، محمد جواد، بطلة كربلاء، ط٤، دار التيار الجديد، بيروت، ١٩٨٤ م .
- النقدي، الشيخ جعفر، زينب الكبرى عليها السلام بنت الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ط٣، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، بلا.ت .
- الهاشمي، هشام، عالم داعش، دار الحكمة، لندن، دار بابل للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ٢٠١٥ .
- ابن منظور، العلامة ابن منظور (ت:٧١١هـ)، لسان العرب، نسق وعلق عليه ووضع فهارسه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٩٨٨.

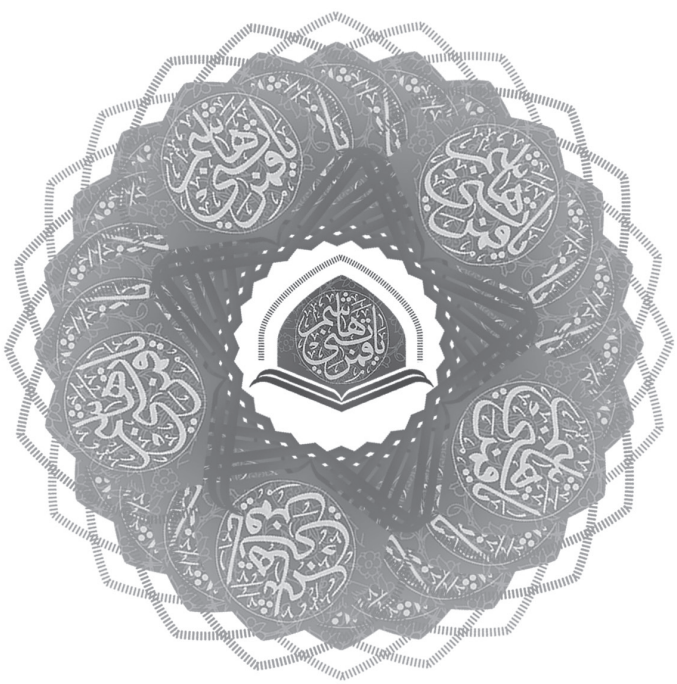

مظلومية الإمام الكاظم عليه السلام

الشيخ حيدر حسن

إنَّ أهل البيت المعصومين عليهم السلام هم أكثر من وقع عليهم الظلم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، قال الإمام الباقر عليه السلام: "لما نزلت هذه الآية **(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ)**[1] قال المسلمون: يا رسول الله، ألست إمام الناس كلهم أجمعين؟.

قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا رسول الله إلى الناس أجمعين، ولكن سيكون من بعدي أئمة على الناس من الله من أهل بيتي يقومون في الناس فيُكَذَّبون ويَظلمهم أئمّة الكفر والضلال وأشياعهم، فمن والاهم، واتبعهم، وصدّقهم فهو منّي ومعي وسيلقاني، ألا ومن ظلمهم، وكذَّبهم فليس منّي ولا معي، وأنا منه بريء"[2].

ومن هؤلاء المظلومين مولانا الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حيث قضى أكثر من عشر سنوات[3] في سجون بني العباس المظلمة، وتحت التّعذيب القاسي؛ حتَّى قضى نحبه مسمومًا في سجن هارون ببغداد.

وقد ورد في زيارته عليه السلام: " اللهم صلّ على محمد وأهل بيته، وصلّ على موسى بن جعفر وصي الأبرار، وإمام الأخيار، وعيبة الأنوار، ووارث السّكينة والوقار، والحكم والآثار... المضطهد بالظُّلم، والمقبور بالجور، والمعذَّب في قعر السّجون وظُلَم المطامير، ذي الساق المرضوض بحلق القيود، والجنازة المنادى عليها بذُل الاستخفاف، والوارد على جدّه المصطفى وأبيه المرتضى وأمّه سيدة النساء، بإرث مغصوب، وولاء مسلوب، وأمر مغلوب، ودم مطلوب، وسم مشروب. اللهم وكما صبر على غيظ المحن، وتجرع فيك غصص الكرب، واستسلم لرضاك، وأخلص الطّاعة لك، ومحض الخشوع، واستشعر الخضوع، وعادى البدعة وأهلها، ولم يلحقه في شيء من أوامرك ونواهيك لومة لائم، صلّ عليه صلاة نامية منيفة زاكية، توجب له شفاعة أمم من خلقك، وقرون من برايك..."[4].

والسؤال هو: لماذا جرى هذا الظلم الكبير على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، مع أنَّ الكل كانوا يعرفون

---

(١) سورة الإسراء: ٧١.

(٢) الكافي: ج١/ ص٢١٥.

(٣) راجع بحار الأنوار: ج٤٨/ ص٢٠٦.

(٤) بحار الأنوار: ج٩٩/ ص١٦ .

ويعترفون بفضله وعلمه وزهده وتقواه وورعه، وأنّه ابن رسول الله ﷺمضافاً إلى كونه حجّة الله على الخلق، وأنّه من أئمّة المسلمين بنصّ رسول الله ﷺوقد كان الشيعة آنذاك بكثرة في بغداد، وسائر المسلمين من غير الشيعة أيضاً كانوا يعلمون بعظيم منزلة الإمام عليه السلام، فلماذا هذه الظلامات؟.

في الجواب نقول: إنَّ أبناء الأمّة الإسلامية سكتوا على ظلم الظلمة، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخذ كلّ واحد منهم يُفكّر في مصلحته الشخصية، مضافاً إلى أنَّ البعض منهم تركوا عترة رسول الله ﷺ الذين وصّى بهم النبي ﷺ، فاجترأ طغاة العصر على ظلمهم وسفك دمائهم بالسيف والسم، ومنهم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي بقي مسجوناً؛ حتى قضى نحبه مسموماً شهيداً في سجن هارون العباسي.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى سائر الأئمة الطاهرين عليهم السلام.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى شيعتهم المظلومين إلى يومنا هذا.

علماء السنة يعترفون بفضل الإمام عليه السلام

قال الخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد): (كان موسى بن جعفر عليهما السلام يُدعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده، روى أصحابنا أنّه عليه السلام دخل مسجد رسول الله ﷺفسجد سجدة في أوّل الليل، وسمع وهو يقول في سجوده: "عظم الذنب عندي فليحسن العفو عندك، يا أهل التقوى، ويا أهل المغفرة"، فجعل يردّدها حتّى أصبح)[1].

وقال محمد بن طلحة الشافعي في كتابه (مطالب السؤول): (أبو الحسن موسى بن جعفر الكاظم عليهما السلام هو الإمام الكبير القدر، العظيم الشأن، المجتهد الجاد في الاجتهاد، المشهور بالعبادة، المواظب على الطّاعات، المشهور بالكرامات، يبيت الليل ساجداً وقائماً، يقطع النهار مُتصدقاً وصائماً، ولفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين عليه دُعي كاظماً، كان يجازي المسيء بإحسانه، ويقابل الجاني بعفوه عنه، ولكثرة عبادته كان يُسمّى بالعبد الصالح، ويعرف في العراق بباب الحوائج إلى الله، لنجح مطالب المتوسّلين إلى الله تعالى به، كراماته تحار منها العقول، وتقضي بأنّ له عند الله قدم صدق لا تزلّ ولا تزول.. وكانت له ألقاب كثيرة: الكاظم وهو أشهرها، والصّابر، والصّالح، والأمين..

ثم يذكر بعض كراماته ويقول: فهذه الكرامات العالية الأقدار، الخارقة العوائد هي على التّحقيق جليّة المناقب، وزينة المزايا، وغرر الصفات، ولا يعطاها إلَّا من فاضت عليه العناية الرّبّانية، وأنوار التأييد، ومرّت

---

(١) تاريخ بغداد: ج١٣/ ص٢٧.

لـه أخلاف التوفيق، وأزلفته من مقام التّقديس والتطهير، وما يلقّاها إلّا ذو حظٍّ عظيم)[1].

وقال ابن الصباغ المالكي في (الفصول المهمة): (الكاظم هو الإمام الكبير القدر، والأوحد الحجّة الحبر، الساهر ليله قائماً، القاطع نهاره صائماً، المسمّى لفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين كاظماً، وهو المعروف عند أهل العراق بباب الحوائج إلى الله، وذلك لنجح قضاء حوائج المسلمين.. وكان موسى الكاظم عليه السلام أعبد أهل زمانه، وأعلمهم، وأسخاهم كفّاً، وأكرم نفسًا، وكان يتفقّد فقراء المدينة ويحمل إليهم الدّراهم والدّنانير إلى بيوتهم والنّفقات، ولا يعلمون من أيّ جهة وصلهم ذلك، ولم يعلموا بذلكَ إلّا بعد موته عليه السلام، وكان كثيراً ما يدعو: "اللهمَّ إنّي أسْألُكَ الرحمَةَ عنْدَ الموْت، والعفْوَ عندَ الحِساب"[2].

وقال الرشدي الدّمشقي في (الروضة الندية): (الإمام موسى الكاظم أبو إبراهيم، كان يبيت الليل ساجداً وقائماً، ويقطع النّهار متصدّقاً وصائماً، كان حليماً يتجاوز عن المعتدين عليه، وكريماً يقابل المسيء بالإحسان إليه ولذا لقّب بالكاظم، ولكثرة عبادته سمّي بالعبد الصالح، ويعرف في العراق بباب الحوائج إلى الله تعالى لنجح المتوسّلين به إليه سبحانه، عباداته مشهورة، تقضي بأنّ لـه قدم صدق عند الله لا يزول، وكراماته مشهورة تحار منها العقول)[3].

هارون العباسي يعترف بإمامته عليه السلام

روى الشيخ سليمان القندوزي في (ينابيع المودّة)[4]، قال: (روى المأمون، عن أبيه الرشيد، أنّه قال لبنيه في حقّ موسى الكاظم عليه السلام: هذا إمام الناس، وحجّة الله على خلقه، وخليفته على عباده، أنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر، وإنّه والله أحقّ بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله مني ومن الخلق جميعاً، والله لو نازعني في هذا الأمر لآخذنّ بالذي فيه عيناه، فإنّ الملك عقيم.

وقال الرشيد للمأمون: يا بُنيّ، هذا وارث علم النبيين، هذا موسى بن جعفر عليه السلام إن أردت العلم الصحيح تجد عند هذا).

إلى غير ذلك مما هو كثير.

قال تعالى: **(وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)**[5].

---

(١) مطالب السؤول: ص٨٣ .

(٢) الفصول المهمة: ص٢١٣.

(٣) الروضة الندية: ص١١.

(٤) انظر ينابيع المودة: ج٣ ص١٦٥.

(٥) سورة النمل: ١٤.

الدّنيا دار العمل

قال مولانا الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يوميه شرّهما فهو ملعون، ومن لم يعرف الزيادة في نفسه فهو في نقصان، ومن كان إلى النقصان فالموت خير له من الحياة»[1].

إنَّ الدنيا كانت وما زالت محلًّا للعمل، يعني إنَّ الله تبارك وتعالى خلق الدّنيا هكذا، فكل من يعمل ويسعى فيها يتقدّم، وكلّ من لا يعمل ولا يسعى فيها لا يتقدّم بل يتأخّر، وهذه هي السّنّة الكونية والقاعدة العامّة للدنيا.

قال تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا)[2].

وفي آية أخرى: (إِنَّا عَامِلُونَ)[3].

وهذا من الضرورات والبديهيات التي يجدها الإنسان من نفسه، حيث يرى مكانة العامل وتقدّمه في الحياة، بخلاف الكسول والذي لا يعمل.

فكلّ فرد يعمل ويسعى أكثر، يكون هو المتقدّم أكثر.. وكلّ جماعة تعمل وتسعى أكثر تكون هي المتقدمة أكثر، وكذلك كلّ أمّة تعمل وتسعى أكثر تكون هي المتقدّمة أكثر.

ولا فرق في متعلق سعي الإنسان سواء كان عمليًّا أم علميًّا من هذه الناحية.

تقدم المسلمين الأوائل

في يوم ما كان المسلمون يعملون بجدٍّ فأصبحوا حينذاك سادة الدّنيا، وفي يوم آخر أصبح الآخرون يعملون بجدّ فغدوا سادة الدنيا، أما المسلمون اليوم فليسوا سادة؛ لأنّهم تركوا العمل، وواقع الحال يشهد بأنَّ سادة الدنيا الآن هم الآخرون.

والسر في ذلك هو: العمل واللاعمل، فيوم كان المسلمون يعملون أصبحوا السادة في الدنيا، ويوم أخذ الآخرون يعملون أصبحوا هم السادة في الدنيا.

السكوت القاتل

نحن نعلم جميعاً بأنَّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قد فارق الدنيا مسمومًا شهيدًا في سجون بني العباس، وقد

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٥ ص٣٢٧.

(٢) سورة التوبة: ١٠٥.

(٣) سورة هود: ١٢١.

كان هارون العباسي أمر شخصاً يُدعى السندي بن شاهك[1] ـ وكان يهوديًّا على القول المشهور ـ أن يسجن الإمام عليه السلام ويضيّق عليه ويعذّبه إلى أن أمره بقتل الإمام عليه السلام بالسم.

وهنا سؤال يطرح نفسه: لماذا تمكّن هارون من هذا الظّلم الكبير؟.

الجواب: لأنَّ قسمًا كبيرًا من الناس تركوا أهل البيت عليهم السلام ولم يعملوا بوصية النبي الأعظم صلى الله عليه وآله في أهل بيته الطاهرين.

وكذلك الشيعة في بغداد، فإنَّ بغداد كانت معروفة بالتّشيّع ومليئة بالشيعة، ولكن الشيعة أنفسهم كانوا متقاعسين، ولا يعملون.

فلم نسمع أو نقرأ بأنّ الشيعة في بغداد أو غيرهم من المسلمين اجتمعوا يومًا لإنقاذ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، كما لم يردنا أنّهم ذهبوا إلى هارون أو السندي بن شاهك ليكلموه، ويضغطوا عليه لصدّه عن ظلم الإمام عليه السلام.

نعم، إنَّ الظالم إنَّما يتسلّط على الأبرياء وعلى الأخيار بتقاعس الناس وترك العمل، فإذا ترك الناس العمل الصالح سُلّطت عليهم الظلمة والأشرار، ثم يدعون فلا يُستجاب لهم، كما تذكر الرّواية الشريفة الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام[2].

فقد كان الجميع آنذاك مشغولاً بكسبه وتجارته، يخرج من بيته ويذهب إلى محلّ عمله أو مزرعته ثم يعود إليه، من دون أن يفكّر في موضوع الإمامة وظلم الحكّام وقضايا الأمّة.

---

(١) هو الجلاد وصاحب شرطة وحرس هارون العباسي، لم يتعرض المؤرخون له لوضاعته وخسة طبعه سوى ما ذكروه من أعماله المشينة، فقد كان معروفاً بشدة عدائه ونصبه لأهل البيت عليهم السلام، وقد تولى سجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في داره بأمر هارون وتقيده بثلاثة قيود من حديد يبلغ وزنها ثلاثة أرطال وحبسه في سجن ببطن سجن آخر والتي عرفت كما في زيارته عليه السلام بقعر السجون وظلم المطامير. وكان السندي يتولى تنفيذ عقوبة من يغضب عليهم هارون، فقد ضرب الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي مائة سوط بعدما وسَّع على الإمام الكاظم عليه السلام وأكرمه واحترمه عندما كان محبوساً عنده لما رأى منه كثرة الصلاة والصيام والخشوع، كما تولى ضرب محمد بن أبي عمير من موالي الأزد مائة وعشرين خشبة أمام هارون بسبب تشيعه، وكان محمد هذا من أوثق الناس عند الخاصة والعامة، وأشدهم نسكاً وأكثرهم ورعاً وعبادة، وقد ذكر الجاحظ أنه كان أوحد أهل زمانه في الأشياء كلها. وقد تولى هذا الناصبي اللعين قتل الإمام الكاظم عليه السلام بدس السم له في الرطب وإجباره على أكله بأمر من هارون العباسي، فقبض عليه السلام مسموماً ببغداد في حبس السندي بن شاهك لست بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة، وقيل: يوم الجمعة لخمس خلون من رجب سنة إحدى وثمانين ومائة، ودفن في مقابر قريش حيث مشهده المقدس الآن بالكاظمية المشرفة.

(٢) راجع تهذيب الأحكام: ج٦ ص١٧٦.

قصور الحكام

كان هارون العباسي يكنّ العداء للشيعة بشكلٍ لا مثيل له، وإن لم يشتهر بعدائه كما اشتهر المتوكّل بذلك، فقد كان هارون أكثر عداءً للشيعة من المتوكل.

قال شخص من النواصب يومًا لهارون: الحمد لله لقد تم القضاء على الشيعة وقد انتهوا. وخاصّة بعدما سُجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وقُتل بالسم!.

فأجابه هارون: لقد أخطأت، فإنّ في قصري هذا سبعين ألفاً من الشيعة!.

علماً بأنَّ قصر هارون كان واسعاً جدًّا، إذ كانت مساحته تبلغ ثلاثة فراسخ، كما ذكره المؤرخون، علماً بأن ثلاثة فراسخ تعني: شمول القصر لمئات العمارات والبنايات السكنية والحكومية والعسكرية والقاعات والحدائق وغيرها.

لقد كان أسلوب الحكّام في ذلك الزمان أن يعيشوا في قصر يشتمل على العسكر والحرس والعلماء والقضاة والفقهاء وبيت المال وكلّ شيء ـ أي أنَّ الحكومة كانت موجودة بأجمعها في ذلك القصر ـ ولهذا قال هارون: في قصري هذا سبعون ألفًا من الشيعة.

فقيل له: ومن أين علمت ذلك؟.

قال: رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، وأنَّ علي بن أبي طالب عليه السلام على الحوض، فاستدعى الشيعة ليسقيهم من ماء الكوثر، فخرج سيل من الشيعة من قصري تعدادهم سبعون ألف شخص، فسقاهم علي بن أبي طالب عليه السلام.

فإذا كان في قصر هارون وحده ـ والذي كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام محبوساً فيه ـ سبعون ألفاً من الشيعة، فكم كان عددهم في بغداد.

نعم، بغداد كانت مملوءة بالشيعة، ولكنهم كانوا لا يعملون، من هنا تمكّن هارون من التجاسر على الإمام عليه السلام وحبسه وظلمه وإيذائه وقتله بالسم.

أعنّا بصوتك

ربما يقول البعض ـ فراراً عن العمل ـ: ما قيمتي وما أثر عملي، أنا فرد واحد لا أتمكن من التغيير والتأثير.. لا قدرة لي.. لايوجد عندي المال الكافي، وما أشبه من الأعذار.

إنَّ هذه الكلمات كلمات غير منطقية، فكلّ إنسان يستطيع القيام بأعمال كثيرة وكبيرة ومؤثّرة، كلّ بحسبه.

في قصة حُنَين حيث ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ)[1] دروس وعبر كثيرة.

فحُنين اسمُ وادٍ تحيط به الجبال وهو قريب من (أوطاس) وكان به وقعة حُنين، وهو موجود الآن، ومن المناسب أن يزوره الإنسان وخاصّة عندما يتشرّف بالحج، ليرى كيف كانت معركة حُنين وفرار المسلمين وموقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد بقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في يوم حنين وحيداً بعدما فرّ المسلمون عنه والقصة مشهورة مذكورة في التواريخ، حيث انهزم المسلمون بالرغم من تعدادهم البالغ اثني عشر ألف مقاتل، ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا العباس وأمير المؤمنين عليه السلام وتسعة من أبناء العباس وشخص آخر، يعني لم يصمد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم سوى اثني عشر شخصًا فقط، بينما هرب الجميع، ولما شاهد الكفار هروب المسلمين هجموا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليقتلوه وكان تعدادهم ثلاثين ألفاً، فقال الكفار: لنقض عليه الآن. ولهذا ورد اسم حنين في القرآن؛ لأنَّ القصّة مهمّة جدًا.

فنظر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم حوله فرأى أمير المؤمنين عليه السلام منهمكًا بالمبارزة والدّفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله في قصّة مفصّلة مذكورة في محلها، كما أحاط أبناء العباس بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم عبد الله وعبيد الله والفضل وقثم و...، وكان العباس عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم شيخًا كبيرًا، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وناداه: "يا عباس، أعنّا بصوتك"، أي: اصرخ فيهم؛ لأنّ العباس كان صوته جهوريًّا.

وقد ورد في (مفاتيح الجنان) في زيارات أمير المؤمنين عليه السلام:

"وَعَمُّكَ الْعَبّاسُ يُنادِي الْمُنْهَزِمينَ: يا أَصْحابَ سورَةِ الْبُقَرَةِ، يا أَهْلَ بَيْعَةِ الشَّجَرَةِ"[2].

فأخذ العباس ينادي فيهم، فاجتمع المسلمون مرّة أخرى وتمكّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من لـمّهم والانتصار بهم على المشركين، والقصّة مفصّلة[3].

إنّ "أعنّا بصوتك" تُعدّ مسألة مهمّة. فليس من الصّحيح أن يقول الشخص: أنا لا أقدر على أيّ شيء، فيترك العمل، ربما يمكن أن يُساهم بصوته، كما أنَّ العباس عليه السلام أخذ ينصر النبي صلى الله عليه وآله بصوته.

وممّا يؤيّد ما ذكرناه رواية شريفة[4] أفتى الفقهاء على وفقها، وهي: إذا رأيت جنازة تمرّ أمامك فيستحب لك أن تبكي عليها وإن لم تكن تعرف الميت، فإنَّ الله يثيبك على ذلك.

---

(١) سورة التوبة: ٢٥.

(٢) مفاتيح الجنان: ص٣٦٩.

(٣) راجع تفسير القمي: ج١/ ص٢٨٥.

(٤) راجع مستدرك الوسائل: ج٢/ ص٤٧٠.

نعم البكاء نوع عمل أيضاً، فإذا لم يتمكّن الإنسان من تقديم أيّ خدمة، لا أقل يُساهم ببكائه.

إذن، الدنيا دار عمل ولكلّ عمل أثر، فللصوت، للكلام، للكتابة، للدعاء، للبكاء، ولكلّ شيء أثر.

ومن هنا تكون المسؤولية الملقاة على عواتقنا كبيرة.

وخاصّة بالنسبة إلى واجباتنا تجاه أئمّة أهل البيت ﷺ ومنهم مولانا الإمام موسى بن جعفر ﷺ. وهذا الظلم الكبير الذي وقع على أهل البيت ﷺ كان من أهمّ أسبابه تخاذل الناس وعدم تحمّلهم وأدائهم للمسؤولية.

واليوم يلزم على كلّ واحدٍ منّا أن يُساهم في نشر علوم أهل البيت ﷺ في العالم.

شهر شعبان

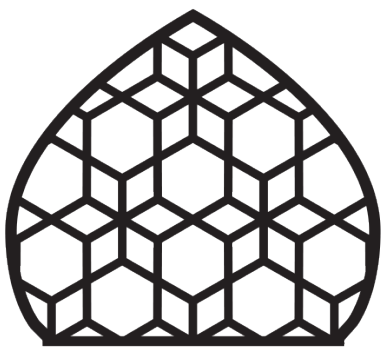

- الإمام الحسين عليه السلام في حقوق الإنسان
- الإمام السجاد عليه السلام رائد الإصلاح الاجتماعي في العصر الأموي
- مسؤوليتنا في زمان صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف

الإمام الحسين عليه السلام في حقوق الإنسان

يعقوب يوسف جبر السعيدي

ثمة حقوق متعددة طبيعية وأخرى اجتماعية وسياسية تمثّل قوام الشخصية الإنسانية؛ ومصدر تكامله فبدونها تنمحي الهوية الإنسانية؛ ويصبح الإنسان المحروم من تلك الحقوق مجرّدًا من إنسانيّته وروحه المعطاءة المتوهّجة وكرامته؛ لأنَّ العلاقة بين الإنسان وحقوقه وطيدة ومتينة .

لو تجرّد الإنسان من هذه الحقوق أو سلبت منه، فسوف تتشوّه صورته الإنسانية التي تُعدّ التوأم الحقيقي الفطري له، فإن تنازل عن تلكم الحقوق لنظرائه سيكون من المتسافلين (**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**)[1]، وإن سلبه نظراؤه تلكم الحقوق فإنَّه سيكون مثالاً للاستضعاف وسيقع على عاتقه الدّفاع المشروع عن حقوقه (**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**) [2].

احترام مبادئ حقوق الإنسان لدى الإمام الحسين عليه السلام

هناك علاقة وثيقة بين شخصيّة وثورة الحسين عليه السلام وكثير من حقوق الإنسان ذات الصّبغة العالميّة، فعندما نقرأ بإمعان مسيرة الإمام الحسين عليه السلام وسيرته ذات البعد الثوري، نلمس عن كثب تجلّيات حقوق الإنسان وأبعادها وثقلها، وندرك جيّدًا مضمون رسالة حقوق الإنسان التي حملها الإمام الحسين عليه السلام ودافع عنها وجاد بأغلى ما يملك لكي يبلغها للعالم أجمع، وقد برزت معالم هذه الرسالة بين ثنايا خطبه ومنها خطبته بمنى عندما اجتمع بأكثر من ألف رجل عامّتهم من التابعين وأبناء الصحابة خاطبًا فيهم:

"أنتم أيّها العصابة! عصابة بالعلم مشهورة، وبالخير مذكورة، وبالنّصيحة معروفة، وبالله في أنفس الناس مهابة، يهابكم الشريف، ويكرمكم الضّعيف، ويؤثركم من لا فضل لكم عليه ....

ولا يد لكم عنده، فاستخففتم بحقّ الأئمّة، فأمّا حق الضعفاء فضيعتم، وأما حقّكم بزعمكم فطلبتم، فلا مالا بذلتموه، ولا نفسًا خاطرتم بها، للذي خلقها، ولا عشيرة عاديتموها في ذات الله، وأنتم تتمنّون على

(١) سورة التين/ الآيات:٤-٦.

(٢) سورة النساء/ الآية: ٧٤.

الله جنته ومجاورة رسله وأمانًا من عذابه"[1] .

في هذه الخطبة استعرض الإمام الحسين ﷺ سلسلة من حقوق الإنسان المضيعة التي استلبها الأكابر، منها حقّ الأئمّة ويقصد به حقّ أبيه وأخيه وحقّه المتمثّل بحقّ الولاية التّشريعية على المجتمع، وأنّه أولى بقيادة الدّولة وإقامة العدل وصيانة جميع الحقوق.

من جانب آخر فإنَّ بعض رجالات الأمّة ومنهم المتنفّذون ممن يتظاهرون بالانتماء للعقيدة الإسلامية والولاء لنبيّها ﷺ، قد حادوا عن جادة الصواب فهم كما ذكر الإمام ﷺ في خطبته يستأثرون بحقوق الضّعفاء لأنفسهم غير مكترثين، رغم أنَّ هذه الحقوق هي ملك للضعفاء وليست ملكًا لهؤلاء الذين تقمّصوا شخصيّة الملوك والأكابر؛ تحت مبرر انتمائهم الدّيني؛ ليستحوذوا على هذه الحقوق دون وجه حقّ، بل سوّغوا ذلك تحت ذريعة حملهم للعلم والمعرفة التشريعية وتحت ذريعة الامتداد النسبيّ للصحابة.

في هذه النقطة بيّن الإمام الحسين ﷺ أنَّ الحقوق مهما كانت تقابلها التزامات ملقاة على عاتق من يتمتّع بها، وهذه الالتزامات تتمثّل في الحفاظ على حقوق سواهم واحترامها، لأبناء الأمّة الواحدة، هنا لابُدّ لنا من التعريف بهذه الحقوق التي أشارت لها المصادر التشريعية منها القرآن الكريم والرّوايات المأثورة عن النبي والأئمة الأطهار، حيث تعدّ جميعها عناصر جوهرية في حركة الحياة الإنسانية؛ لأنَّ نظام الحقوق المالية القائم على العدل والمساواة هو قوام أيّة نظام اجتماعيّ وسياسيّ عادل ومستقر ومستتب .

المطلب الأول : الإمام الحسين ﷺ وحق الحياة

لا غنى لكلّ إنسان عن هذه الحقوق فهي تشكل المستلزمات الأساسية له لكي يعيش مكرماً: (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) [2] ..

يبرز في هذه الآية مفهوم حقّ الإنسان في الحياة بوصفه حقًّا طبيعيًّا من المحال أن يستغني الإنسان عنه، فإنَّ فقدانه لهذا الحق يعني فناءه الأبدي، لذلك فالآية الآنفة الذكر بيّنت أنَّ التكريم هو منح الإنسان الحياة الطبيعية، عبر خلقه وإسباغ قوّة الحياة على جسده وروحه وهو التكريم بحدّ ذاته .

بحسب المنطق الفلسفي القويم، فإنَّ الحياة لها قيمة مادّيّة ومعنوية بينما ضدها وهو العدم ليست له أيّة قيمة على المستويين، فحقّ الحياة منحه الله للإنسان ليس فقط ليتمتّع به؛ بل تقع عليه مسؤولية الحفاظ عليه والدفاع عنه، ويقينا أنَّ الإمام الحسين ﷺ رغم إيثاره الاستشهاد على الحياة تحت ظل السلطان الجائر، لكنه عندما جاهد

---

(١) بحار الأنوار : ج ٩٧، ص ٧٩.

(٢) سورة الإسراء/ الآية: ٧٠ .

مع أصحابه وآل بيته؛ إنَّما كان يدافع عن هذا الحق الطبيعي كما كان يدافع عن بقية الحقوق الأخرى .

لم يُسلّم الإمام نفسه لأعدائه؛ ليقتلوه بتلكم القسوة والفظاعة؛ لأنَّه لا يملك مقوّمات الدفاع عن الحياة؛ كلا بل إنَّ جهاده وكفاحه واستشهاده مضمّخًا بدمه دليل قاطع على دفاعه المشروع عن ذلك الحق بالدرجة الأولى، لذا فإنَّ لكلّ إنسان الحق في الدّفاع عن حقّه في الحياة عندما يتعرّض للخطر مهما كان حجمه، فإن أحجم عن الدفاع فإنَّه قد ساهم في التّخلي عن أهم مسؤولياته: (لكلِّ فرد الحقُّ في الحياة والحرِّية وفي الأمان على شخصه)[1]

ثمة تشابه واضح الملامح بين مفهوم حقّ الحياة الذي دافع عنه الإمام الحسين ﷺ وما جاء في المادة الثالثة من الإعلان العالمي، مما يؤكّد أنَّ الإمام الحسين ﷺ قد سبق العالم المعاصر في رسم فلسفة حقّ الحياة، ومسؤوليّة الدّفاع عنه أمام التّحدّيات الاجتماعية او الطبيعية لكن بصورة مشروعة تتّفق مع روح الدِّين، وتتواءم مع المنطق الإنساني القويم، فلا مناص لكلِّ إنسان إذا كان يعتزّ بكرامته وحرّيّته أن يدافع عن هذا الحق مهما غلت التّضحيات .

لقد تجلّت هذه الروحية وهذا المبدأ في شخصيّة الإمام الحسين ﷺ وصحبة وآل بيته، في يوم العاشر من محرم سنة ٦١ للهجرة، عندما خاطب أفراد المعسكر المعادي له (أيها الناس: انسبوني من أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحلّ لكم قتلي، وانتهاك حرمتي، ألست ابن بنت نبيّكم، وابن وصيّه وابن عمّه، وأوّل المؤمنين بالله، والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربّه.)[2] .

في هذا المقطع من خطبة الإمام الحسين ﷺ ثمّة إشارة واضحة لقدسيّة حقّ الحياة، وعلو شأن هذا الحق فالإمام الحسين ﷺ بيّن لخصومه أنَّ الحياة حقّ طبيعيّ ممنوح من الله تعالى لكلّ إنسان، فلا يحقّ لأيّ شخص مهما كان أن يسلبه إياه، وبحسب الأحكام الشرعية فإنَّ لانتهاك لهذا الحقّ حرمة ومانعاً شرعياً، استنادا إلى ما جاء في القرآن الكريم (**مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**)[3].

في هذه الآية المباركة يتجسّد مفهوم ومنطوق حقّ الحياة ومسؤولية الحفاظ عليه وحمايته والدفاع عنه،

---

(١) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ المادة الثالثة.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩٧؛ ص ٧٩.

(٣) سورة المائدة/ الآية: ٣٢.

لكنه حق مقيد وليس حقاً مطلقاً، فالشخص الذي يسلب نظيره حقّ الحياة من المنطق أن يكون جزاؤه أن يحرم من التمتع بهذا الحق؛ لأنّه كأنّما قتل الناس جميعاً والمقصود هنا بهذا التعميم الحقّ المجرد في معناه، ذي القيمة الاعتبارية المعنوية؛ لأنَّ عدم إنزال العقوبة بحقّ من أجرم بحقّ غيره وقتله دون وجه حق سيحول العالم إلى غابة يحكمها منطق التّوحش والبدائية .

بمنتهى القسوة جسّد أعداء الإمام الحسين ﷺ هذه الأخلاقية الفظّة عندما قتلوه وصحبه وآل بيته بدمٍ باردٍ ودون وازع؛ لأنَّهم أناس انحرفوا عن الفطرة القويمة، وتحوّلوا إلى أراذل يفتقرون إلى أبسط مقومات الكرامة والتكريم، فمن يعتز بحياته وكرامته ويدافع عنهما لن يقدم على استلاب حياة وكرامة الآخرين، لكن من لا يعتز بهما لن يتورع عن استلابهما من غيره .

لكن على العكس تمامًا ضرب الإمام الحسين ﷺ مثلاً حيًّا للاعتزاز بكرامة أفراد المجتمع من الأحرار فلأنّه كان يعتزّ بكرامته ويدرك قيمتها المثلى، سار في طريق الثورة عندما وجد أنَّ الكرامة الإنسانية في خطر، لكي يدافع عن قيمتها وهذا واضح في خطبه وكلماته التي ألقاها أثناء مسيرته إلى كربلاء، أو يوم العاشر من محرم، (ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله، وإنّي لا أرى الموت إلَّا سعادة والحياة مع الظالمين إلَّا برما)[1] إنّ حقّ الكرامة وحقّ الحياة من أهم الحقوق، لاتصالهما بجوهر حياة الإنسان .

لقد جسّد الإمام الحسين ﷺ المثل الحقيقي في عدم التّفريط بحقّ الحياة وكذلك حقّ الكرامة بل الدّفاع عنهما؛ لأنَّهما مصدر اعتزازه بحرّيّته وبحرّيّة كلّ حرّ يشعر ويدرك قيمة الحياة الكرامة والحرّيّة، لذلك نجد أنّ الإمام الحسين ﷺ قد تبرم من حياة في ظل تسلّط ظالمين شذّوا عن الفطرة الإنسانية، وصادروا حقوق المجتمع بل ذهبوا أبعد من ذلك، عندما حوّلوا بعض أفراد المجتمع إلى عبيد وهم أولئك الذين تبعوا يزيد وخضعوا لجبروته، ووقفوا ضدّ الإمام الحسين ﷺ وشهروا بوجهه السيوف .

فاعداؤه عندما استلّوا سيوفهم وشهروها بوجهه فإنّهم فقدوا كلّ مشاعر النّبل، وفقدوا كلّ إحساس بحقّ الحياة والكرامة، وارتضوا الذّلّة والمهانة، وتوحّدوا على الباطل، وتفرّقوا عن الحق، فهم بنظر الإمام ﷺ وبنظر من معه أمّة أخرى بعد أن وقع السيف بين المعسكرين واشتعلت الحرب على الإمام ﷺ ومن معه .

عندما خرج زهير بن القين على فرس ذنوب شاك في السلاح . قال: (يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار إن حقًّا على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد وملّة واحدة ما لم يقع

(١) الذهبي ـ تاريخ الإسلام ـ الجزء المتعلق بأحداث سنة (٦١-٨٠) هجرية ـ ص١٢.

بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة. وكُنّا أمّة وأنتم أمّة)[1] إنَّ مقولة زهير بين القين المتعلّقة بمفهوم الأمة لها دلالات كثيرة منها أنّ الإمام الحسين ﷺ ومن معه هم أمّة تعتز بكرامتها؛ أمّا من تبع يزيد فهم أمّة أخرى ارتضى أفرادها الذّلّة والمهانة، وتخلّوا عن حقّ الكرامة والحرّيّة وغيرها من الحقوق والاستحقاقات.

المطلب الثاني: حقّ الطفل في فكر الإمام الحسين ﷺ

إنَّ الإنسان الطفل وحقوقه وحماية هذه الحقوق هي من أهمّ الموارد التي تبنّاها الفكر الحسيني؛ لأنَّ هذا الكائن البريء الذي لو تربّى في أسرة مهذّبة وملتزمة، سيمثّل الأساس في بناء كلّ أمّة متجدّدة ومتنوّرة، لذا نجد أنَّ أيّة أمّة تعتني بالطفل وتحميه من المخاطر وتوفّر له كلّ مستلزمات التّنشئة والتربية الفاضلة، فإنَّها أمّة تُهيّئ الأرضية الخصبة لمستقبلٍ مشرق لها .

أمّا الأمّة التي تهمل الطّفل ولا تحمي حقوقه ولا ترعاه فإنَّها أمّة متخلّفة ومتوحشة، فما بالك بأمّة تحرمه من أبسط حقوقه وتجهز عليه وتسلبه حياته، وهذا ما صنعه أفراد معسكر بن زياد ويزيد يوم العاشر من محرم، عندما حرموا طفل الإمام الحسين عبد الله من الماء ثم قتلوه بدمٍ باردٍ.

عاد الإمام الحسين ﷺ إلى المخيم يوم عاشوراء وهو منحني الظهر، وإذا بعقيلة بني هاشم زينب الكبرى ﷺ تستقبله بِعبدِ الله الرضيع ﷺ قائلةً: أخي، يا أبا عبد الله، هذا الطفل قد جفَّ حليب أُمِّه، فاذهب به إلى القوم، عَلَّهُم يسقوه قليلاً من الماء.

فخرج الإمام الحسين ﷺ إليهم، وكان من عادته إذا خرج إلى الحرب ركب ذا الجناح، وإذا توجه إلى الخطاب كان يركب الناقة . ولكن في هذه المَرَّة خرج راجلاً يحمل الطفل الرضيع ﷺ، وكان يظلله من حرارة الشمس .فصاح: أيها الناس، فَاشْرَأَبَّتْ الأعناق نحوه، فقال ﷺ :ـ أيُّها الناس، إن كان ذنب للكبار فما ذنب الصغار ؟

(١) مقتل الحسين ﷺ – أبو مخنف الازدي: ص ١١٩.

فاختلف القوم فيما بينهم، لأنهم مُسخوا وتطرفوا فمنهم من قال: لا تسقوه، ومنهم من قال : أُسقوه، ومنهم من قال : لا تُبقُوا لأهل هذا البيت باقية. عندها إلتفت عُمَر بن سعد (لعنه الله) إلى حرملة بن كاهل الأسدي (لعنه الله)[1].وقال له: يا حرملة، إقطع نزاع القوم .يقول حرملة : فهمت كلام الأمير، فَسَدَّدتُ السهم في كبد القوس، وصرت أنتظر أين أرميه .فبينما أنا كذلك إذ لاحت مني التفاتة إلى رقبة الطفل، وهي تلمع على عضد أبيه الحسين ﷺ كأنها إبريق فِضَّة .فعندها رميتُهُ بالسهم، فلما وصل إليه السهم ذبحه من الوريد إلى الوريد .

كان الرضيع مغمىً عليه من شدّة الظمأ، فلمّا أحسّ بحرارة السّهم رفع يديه من تحت قِماطِهِ واعتنق أباه الحسين ﷺ، وصار يرفرف بين يديه كالطّير المذبوح، فَيَالَهَا من مصيبة عظيمة. وعندئذٍ وضع الحسين ﷺ يده تحت نَحرِ الرضيع حتى امتلأت دمًا، ورمى بها نحو السّماء قائلاً: اللَّهم لا يَكُن عليك أَهْوَنُ مِن فَصِيلِ نَاقةِ صَالح .

عندها لم تقع قطرة واحدة من تلك الدماء المباركة إلى الأرض، ثم عاد به الحسين ﷺ إلى المخيم .فاستقبلَتهُ سكينة وقالت: أَبَي يا حسين، لعلَّك سقيتَ عبدَ الله ماءً وأتيتنا بالبقية؟قال ﷺ : بُنَي سكينة، هذا أخوكِ مذبوحٌ من الوريد إلى الوريد .لقد تذكر حرملة(عليه اللعنة) أنه حينما استهدف عبدالله الرضيع بنبله المسموم ذو ثلاث شعب فذبحه من الوريد الى الوريد وهو على يدي أبيه سيد الشهداء وسبط الرسول ...، حفر والده الإمام الحسين ﷺ بغلاف سيفه قبراً صغيراً خلف الخيمة ودفن جثمان طفله الصغير، فلم يكتفِ حرملة بقتله بل حفر قبر الطفل الرضيع واستخرج جثّته، وقطع رأسه بخنجره وأتى به إلى تلك القبيلة الفاقدة للرأس، فعلقوا رأس عبدالله ﷺ فوق الرّمح، ولأن الرأس كان صغيراً، والرمح أكبر منه، ولم يقف على الرمح، ربطوه بالحبال إلى أن انتصب على الرمح، و أمّه الرباب تنظر إليه...وهكذا رفع وقطع نزاع القوم، كما رفعه من قبل حينما طلب الإمام له ماءً، فحصلت بلبلة وهمهمة بين القوم، ولكنه قطع ذلك النزاع، بسهم ذو ثلاث شعب ذبحه من الوريد إلى الوريد.

بهذه البشاعة تجرأ هؤلاء على قتل الطفولة لأنّهم فقدوا كل المشاعر النبيلة، فلقد بلغوا مستوى الحضيض في توحشهم وإجرامهم، فالطفل عبد الله الوديع البرئ لا حول ولا قوة له، لم يسلم من إجرامهم عندما رماه حرملة بالنبال، فلم يكتفِ بقتله بل كان مستأنسًا ومبتهجًا بقتله بهذه الطريقة المحزنة .

ذكرت بعض الروايات أنّ حرملة بن كاهن وليس كاهل قاتل عبد الله الرضيع هو لقيط تربّى ضمن

(١) أُنظر: بحار الأنوار : ج٤٥/ ص٣٥.

الكتائب الحمراء التابعة لمعاوية بن ابي سفيان في الشام ولم يكن كوفياً وكان يشغل منصب أمير كتيبة النبال في هذه الكتائب وقد أرسله يزيد بن معاوية لعبيد الله بن زياد ليقود أصحاب النبال في الواقعة وهذه الكتائب الحمراء يعرفها المطّلعون على التاريخ لا ينتسب لها إلَّا اللقيط او الذي باع دينه بدنياه والقتلة والمجرمين وهي كتائب عرفت بالبطش وتثبيت اركان دولة امية . وحرمله بن كاهل هو مسيحي الدّيانة وليس مسلماً، عاش في الشام وانتحل صفة اسدي ... وإلَّا لو كان أسديًّا كوفيًّا كما يذكرون لغصّت بنسبه كتب التاريخ وباسمه واسم بطنه وعشيرته، لأنّ الكوفه وكربلاء سكن فيها بنو أسد وهم من قاموا بالدفن ولايضيع نسب رجل أسدي)[1]

إنَّ حرملة شاذّ منحرف أقدم على قتل الطفل الرضيع؛ لأنّ الشذوذ دفعه لارتكاب هذه الجريمة فلم يتورّع عن ذلك لأنّه اكتسب الشذوذ منذ صغره، فلو كان حرملة سوياً منذ صغره لما فكّر في قتل الرضيع .

أكَّدت البحوث والدراسات النفسية أنّ صفة الإجرام تنشأ وتنمو لدى القاتل منذ صغره إذا كان مجهول الأبوين، إذا لم يتلقّ العناية اللازمة من المجتمع الذي ينعته بأوصاف (ابن الزنا، ابن الحرام) فهذا التعامل يرسخ لديه دافع السخط على المجتمع، ثم ينمو لديه دافع الإجرام، حينئذ يكون المجتمع هو المسؤول عن خطيئته وجريمة ضياع نسبه، لو تعامل معه بهذه القسوة، لذلك ظهر حرملة بهذه القسوة ...

إنَّ هذه التّداعيات الاجتماعية الأخلاقية، بدأت عندما انتهجت شرائح عديدة من المجتمع آنذاك منهج الانحلال بتمرّدها على الشريعة السمحاء التي جاء بها النبي محمد ﷺ، فلو التزمت تلكم الشرائح بالنهج النبوي القويم لما حدث الانهيار الأخلاقي والسياسي، فبلغ المجتمع مستوى الرذيلة باستسلامه للحاكم الجائر، ومعارضته للإمام العادل الإمام الحسين ﷺ، فظهرت مختلف الانحرافات الأخلاقية والعقائدية التي تراكمت لسنين طوال؛ لتكون ثمرتها الخبيثة الفاسدة هي قتل الإمام الحسين ﷺ وآل بيته وصحبه، ولم يكتفوا بقتله بل تجرأوا على قتل طفلٍ بريء دون وازع من ضمير، وهذا يؤكّد الانهيار الشديد لمجتمع لم يلتزم بالقيم الإسلامية والإنسانية، ولم يعرها أهمّيّة ولم يحرص على حمايتها ...

كان على الإمام الحسين ﷺ واجب شرعيّ يتمثّل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي انتشر واستفحل، بين صفوف المجتمع آنذاك .

(إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي وأبي علي بن أبي طالب فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم الظالمين

---

(١) موقع قناة الكوثر الفضائية

وهو خير الحاكمين)[1].

لقد أصر الإمام الحسين ﷺ على موقفه الثوري؛ لكي يُبيّن تمسّكه بقيمه الإسلامية، ومجابهته وتحديه لمعسكر الباطل والضلالة ممن حاولوا إرغام الإمام الحسين ﷺ على التنازل والتخلّي عن عقيدته والتّحلل منها، لكن هيهات فالإمام الحسين ﷺ سبط النبي بقي ثابتاً على صموده وموقفه.

لم تزعزع الإمام الحسين ﷺ وحشية خصومه، ممن توهّموا بسبب تخلّفهم العقلي أنّه سيساومهم وسينكسر أمام جبروتهم وعنفوانهم، وكيف يحدث ذلك ؟ وهو المثل الأعلى الوطيد، والقدوة الكبرى للمجتمع الإنساني، فهو الفذ الذي حمل عبء الرسالة السمحاء، والمدافع عنها بمنتهى البطولة والتضحية .

لقد بلغ الإمام ﷺ مستوى من الشجاعة والبطولة والتّضحية عندما قدم ابنه الطفل الرضيع كقربان للثبات على مبادئه، كما قدّم درسًا آخر يُبيّن فيه لكلّ الأجيال أنّ الأمّة التي لا تحترم حقوق الأطفال فهي أمّة لا مجد لها ولا مبادئ إنسانية، قد سقطت في الحضيض، وهو أمر محزن.

فالأمّة التي أسلمت قيادها لأشرارها وطواغيتها وأصرّت على التّمسّك بجهلها وذلّها ومهانتها، فقدت إرادتها وحرّيّتها وارتضت السّقوط في وحل التخلف السياسي والاجتماعي، أمّا الأمة المتحررة المثقفة فإنها هي التي تصنع وجودها وترفع مقام أخيارها لكي يحكموها بالعدل والمساواة .

المطلب الثالث : حق الحرية في الفكر الحسيني

الحرية ذو مفهوم واسع المعنى والمدى يختلف من ثقافة إلى أخرى، ففي الثقافة الإسلامية الحسينية، تعني الحرية الانعتاق من جميع قيود العبودية سوى العبودية لله تعالى، ويعني الانعتاق من تلك القيود التحرر من استعباد الإنسان لنظيره الإنسان، ولا فرق في أن يكون الإنسان ذا مرتبة دينية أو اجتماعية رفيعة او غير رفيعة .

لقد ضرب الإمام الحسين ﷺ مثلاً أعلى في ذلك، فهو رغم منزلته الشرعية والاجتماعية ونسبه النبوي لكن مستوى حريته كان بمستوى حرية أفراد المجتمع على المستوى النظري وليس التطبيقي، لأنَّ الإمام الحسين ﷺ كان يزاول حرّيّته بما يتواءم مع الشرع والدين السماوي، لذلك فإنّ مزاولة الحرية تختلف من شخص إلى آخر بحسب درجة تفقّهه في الدين، ومنزلته الدينية والإنسانية والاجتماعية .

لذا لم تكن حرية الإمام الحسين ﷺ مطلقة بل مقيّدة بالنص الشرعي، وأنّها تلكم الحرية التي بيّن معناها الحقيقي لخصومه لكنهم لم يعوا الدرس جيداً، فلقد طرح مفهوماً جديداً في معنى الحرية لحثّ خصومه على كسر قيود العبودية وعدم الاستسلام (ويلكم يا شيعة آل أبي سفيان، إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون يوم

(١) محمد باقر المجلسي ـ بحار الأنوار ٤ / ٣٢٩.

المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون)[1].

في هذه الكلمة طرح جديد لحث الآخر على استيعاب معنى الحرية، فالحرية حسب نظرة الإمام الحسين ﷺ حقّ ممنوح لكلّ إنسان بغضّ النظر عن عقيدته وقوميته وثقافته، وهي الحرية السياسية المتمثّلة بعدم الركون أو الاستسلام للسلطان الغاشم مهما طغى واستبد .

الحرية كنظرية وسلوك حسب منظور الفكر الإسلامي الحسيني، منحة فطرية وهبها الله عز وجل لكل الناس، فليس صوابًا استسلام الإنسان للسلطة السياسية التي تروم قهره وهضم حقوقه، بل الصّواب أن لا يفرط بهذه المنحة، (أدرك الحسين ﷺ أنّ مشكلة أعدائه تكمن في كونهم ليسوا أحراراً. وبأنّ مشكلة الإنسان بشكل عام هي مشكلة غياب الإحساس بالحرية)[2] .

إنَّ الحرّيّة قبل أن تتجسّد على المستوى التطبيقي الاجتماعي، إنّما هي شعلة متوهّجة من المشاعر والأحاسيس، تلهب جوانح كلّ الأحرار، أمّا العبيد فلا مشاعر لهم لأنَّهم أولئك الذين ارتضوا العبودية كسلوك في مسار حياتهم .

كان ﷺ قد ذكّرهم بأصلهم القومي وما كانت عليه العرب من الإحساس بالحرّيّة وتبنّيها كسلوك إنساني، لكن يبدو أنّ هذه الشعلة قد انطفأت جذوتها في نفوسهم، فلم يعد للنصيحة المسداة منه لهؤلاء أيّة صدى في أنفسهم، حتى أنّهم بلغ بهم العناد حدًّا أنّهم تمسكوا بالعبودية واستحسنوها ودافعوا عنها شرّ دفاع، كما أنّهم كانوا على درجة كبيرة من الجهل المركّب فتظاهروا أنّهم لا يفقهون قول الإمام ﷺ .

حيث قال قيس بن الأشعث مخاطبا الحسين ﷺ (ما ندري ما تقول ولكن انزل على حكم بني عمك، فإنّهم لن يروك إلا ما تحب) فقال لهم الحسين « لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر لكم إقرار العبيد)[3] اتخذ الإمام ﷺ موقف الإصرار كردة فعل عندما لمس أنَّ هؤلاء المردة والعتاة يضغطون عليه، لكي يتنازل عن مبادئه وشخصيته، فكم هم سذّج ومغفّلون !

يتضح جليًّا من خلال مقولة ابن الأشعث عندما ردّ على الإمام الحسين ﷺ قائلا له: (ما ندري ما تقول) استخفافه بالكلمة العظيمة والنصيحة السديدة التي أسداها لمعسكر بن زياد، وليس غريباً على من يناوئ الحق وأهله أن ينكر الحق ويطغى ويتخلّى عن إنسانيّته .

---

(١) لواعج الأشجان: ١٨٥، تاريخ الأُمم والملوك ٤ / ٣٤٤، البداية والنهاية ٨ / ٢٠٣، مقتل الحسين لابن مخنف: ١٩٠، اللهوف: ٧١، كشف الغمّة ٢ / ٢٦٢.

(٢) الشيخ المفيد ـ الارشاد ص ٢١٧ و ٢١٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢١٧ و ٢١٨.

ذهب أفراد معسكر بن زياد مذهباً بعيداً عندما طلبوا من الإمام الحسين ﷺ النزول على طاعة يزيد، ولو افترضنا أنَّ الحسين ﷺ تنازل وساوم فمعنى ذلك أنّه هدم الدين وأركانه، وضيّع الحقوق، لكن هيهات أن يساوم على مبادئه حتى لو تطلّب ذلك استشهاده، فالحياة مع الظالمين حسب منطق الحسين ﷺ وعقيدته هي حياة الذّل والهوان .

لذلك صمّم على الشهادة ورفض الاستعباد، وتمسّك بالحرّيّة والقول الحر، موجّهًا رسالة إلى كلّ الإنسانية من أقصاها إلى أقصاها، وإلى كلّ الأجيال، فَحْواها أنّ كلّ إنسان يطلب الحرية فعليه أن يدفع الثمن وهو الدفاع عنها أو الاستشهاد في سبيلها، أمّا من يطلب العبودية فثمنها التخلي عن إنسانيته .

(إنَّ الإمام الحسين ﷺ وعصبته القليلة المؤمنة عزموا على الكفاح حتّى الموت، وقاتلوا ببطولة وبسالة ظلّت تتحدّى إعجابنا وإكبارنا عبر القرون حتّى يومنا هذا)[1] .

إنَّ طريق الكفاح الذي سلكه الإمام الحسين ﷺ لا يسلكه إلَّا الأحرار ، أمّا العبيد فيسلكون طريقًا مغايراً هو الخنوع والمهانة، وهو الطريق المنحرف الذي يرسمه الطغاة وسلاطين السوء للشعوب والأمم؛ عندما تخنع وتستسلم لكن عندما تتحدّى سلاطين السوء كما تحدّى الإمام الحسين ﷺ يزيد فإنَّها هي التي ترسم طريق حياتها وحريتها، لذا سيظل الإمام الحسين ﷺ مثلاً أعلى لكلّ أمّة في استلهام دروس الحرية .

وثمّة نوع آخر من الحرّيّة لدى الإمام الحسين ﷺ هو الحرية العقائدية، لكن لهذه الحرية مفهوم مغاير لتلك الحرية التي دأب البعض على التّمتّع بها، فالحرية العقائدية حسب رؤية الملحدين هي إنكار الحقائق الكونية امتثالاً لأهوائهم ... كإنكار وجود الخالق، بينما نجد أنّ هذه الحرية لدى الإمام الحسين ﷺ متوازنة، فحسب رؤية الإمام الحسين ﷺ إنَّ من ينكر وجود الله فإنَّه يكون قد سدّ منافذ عقله أمام الحقائق المثالية الثابتة ....

يقول الإمام الحسين ﷺ (كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك.

عميت عين لا تراك، ولا تزال عليها رقيبا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا « وقال: أيضا: « تعرفت لكلّ شئ فما جهلك شيء، وقال: تعرفت إلي في كل شيء فرأيتك ظاهرا في كلّ شيء، فأنت الظاهر لكل شيء)[2] .

---

(١) الباحثة الإنكليزية.. جرترود بل ـ تاريخ إيران) ـ ص٥٤٢.

(٢) بحار الأنوار – العلامة المجلسي – ج ٦٤ – ص ١٤٢.

في طيّات هذا الدعاء نلمس جوهر الحرّيّة العقائدية الكونية، وكيف يثبت حسب المنطق العقلي القويم وجود الله، فالعقل الحسيني قد بلغ مستوى رفيعاً في التفكر والتّأمّل؛ لأنَّ الإمام الحسين امتداد طبيعي لأسلافه العظماء، فهو يملك عقلا متحرّراً من النظرة العشوائية المخادعة، بينما نجد المنكرين ممن سلكوا طريق الضلالة قد قيّدوا عقولهم بقيود الوهم والتّوهّم والجهل، فحسب رؤية الإمام الحسين ﷺ يصبح من الخطأ أن يستدل الوجود الناقص على وجود الكامل الذي وهبه الوجود. فالله ذو الكمال الظاهر المطلق لا يحتاج إلى دليل على وجوده وكماله لأنّه هو الدليل المطلق الكامل؛ لأنّه ليس محجوباً كما يحاول البعض تصوير ذلك، فالوجود بتمامه دليل دامغ على وجود الله لأنّ وجوده ليس مادّيًّا، فلو افترضناه مادّيًّا فإنّنا سنتصوّره، وهو أمر محال على الله عز وجل .

إنّ الله ذو وجود أصيل، وما مخلوقاته إلّا آثار نوره، فهو المظهر لها من العدم المانح لها وجودها وديمومتها، فمن ينكر هذه الحقيقة فهو متخبّط في تفكيره، ولو اطلع هؤلاء الملحدون على الفكر الحسيني العقائدي لأدركوا أخطاءهم وحجمها، ولتراجعوا عن إنكارهم وإلحادهم، لكنهم عندما يعرضون عن قراءة هذا الفكر فإنَّهم سيظلون يدورون في حلقة مفرغة من الوهم، أمّا من قرأوا الفكر الحسيني العقائدي (فكر التوحيد) مليًّا، ودون تعصّب، فإنّهم سيبلغون الحقيقة.

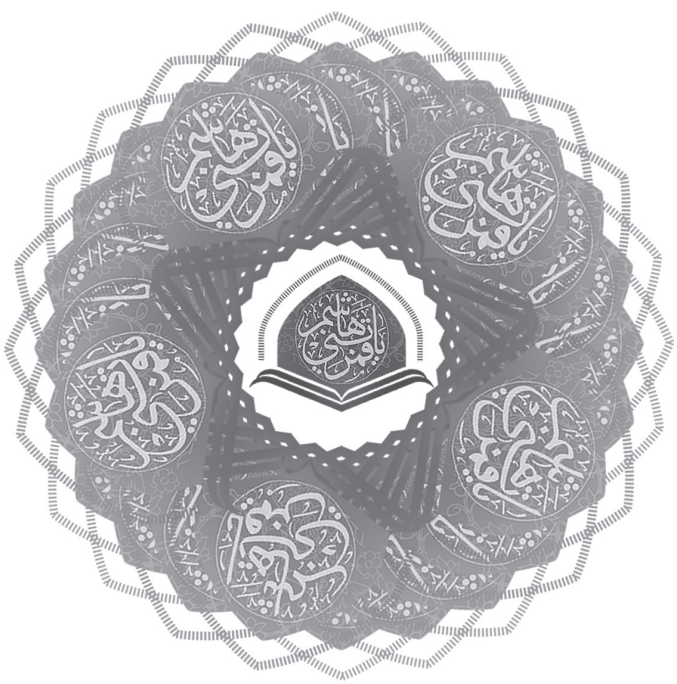

الإمام السجاد عليه السلام رائد الإصلاح الاجتماعي في العصر الأموي

أ.م. د . حيدر لفته سعيد

المقدمة

لا يغفل المتتبع لسيرة أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنَّ جزءًا كبيرًا من حياتهم وظّفوها لإصلاح مجتمعاتهم وتقويم سلوكها بفعل ما أصابها من انحرافات ومتغيرات سلبية بفعل تسلط أئمة الغلبة عليهم، ولعل الإمام السجاد عليه السلام عاش أصعب فترة كانت تقتضي الإصلاح بعد استشهاد أبيه الإمام الحسين عليه السلام من أجل تحقيقه .

لقد سعى الإمام السجاد عليه السلام لإصلاح أمّة جده رسول الله صلى الله عليه وآله استكمالاً لرسالة أبيه عليه السلام بالقول والفعل، فوقف بوجه المشبهة والمجسمة، والجبرية والمرجئة، وقوم أئمّة زمانه، وساعد الفقراء وحرّر العبيد، ودعا إلى التكافل الاجتماعي، وكان أبرز من طبقه قولاً وعملاً إلا أنّ تقويم الفرد في العصر الأموي كان يحتاج إلى حلّ أنجع وأوقع وأشمل ممّا قام به عليه السلام فوضع رسالة الحقوق التي احتوت على مضامين سابقة لعهده بآلاف السنين لوضع الإنسان المسلم على الطريق الصحيح بعيداً عن مؤثرات ومتغيرات الفكر الأموي. ومن أجل تسليط الضوء على جهود الإمام الإصلاحية من خلال رسالة الحقوق قمت بإعداد هذا البحث الذي احتوى على مقدّمة وأربعة مباحث وخاتمة، ضمّ الأوّل، حقوق الله تعالى على الفرد وشمل حقوق الأفعال (الشرعية) فيما درس المبحث الثاني حقوق الجوارح يتقدّمها حقّ النفس، واهتم الثالث بحقوق الرّحم، فيما بحث الرابع حقوق الآخرين وكان أوسعها، واختتمت البحث بثمار الرسالة.

تمهيد

إنَّ انفراط أمر الشّيعة بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام في واقعة الطّف الأليمة سنة ٦١هـ وتشتّت قواهم كان من أعظم الأخطار التي واجهها الإمام السجاد عليه السلام؛ النّاج الوحيد من الرجال في تلك الوقعة بكربلاء، وكان عليه بعد رجوعه إلى المدينة وهو الإمام وقائد المسيرة أن يخطّط لاستجماع القوى وتكميل الأعداد من جديد، وكان هذا الأمر بحاجة إلى إعداد نفسيّ وعقيدي وإحياء الأمل في القلوب، وبثّ العزم في النفوس[1] خاصّة وأنّ البناء السياسي والديني والاجتماعي الذي أرساه الأمويون في دولة رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ ينمو ويعلو على حساب الثّلّة المؤمنة ممن لا يستطيعون الوقوف بوجه المتغيّرات التي أسّست لها السّلطة وعملت على تعميقها

في المجتمع الإسلامي بما أشاعوه من أنماط اللهو ومجالس الميسر، والغناء، واستقدام الجواري والشعراء، وبذل المال لاصطناع من يريدون وكيف يشاؤون؛ لصبغ المجتمع بصبغة جاهلية بعيدة كلّ البعد عن كلّ ما أسس له النبي صلى الله عليه وآله على مدى ثلاثة وعشرون عامًا، ولا ريب لم يكن من وراء ذلك حبّهم الفاضح للملذّات حسب، بل كان الهدف الكامن هو إماتة الروح الإسلامية الصحيحة في النفوس - كما أسلفنا -، فلا يهمّ الناس بعد ذلك أمر الخلافة والمطالبة برفع الظلم والاستهتار طالما أنّ المال ميسور أمام فراغ الشباب والجواري وانتشار الموبقات والمحرّمات[٢] .

لقد هيأ الأمويون الأذهان أيضاً لقبول الرأي القائل بأنَّ الخلافة ليست ملكاً قيصريًّا أو كسرويًّا، بل أن الله تعالى لم ينصّ على إمام بعينه بل هي تؤخذ بالقهر والغلبة[٣] .

في وسط هذا المجتمع المريض كان لا بُدّ للإمام السجاد أن يداوي هذه النفوس لتتخلّص من أمراضها وتعرف حدودها، وترجع إلى الأخلاق الإسلامية السامية التي تعيد للأمة الإسلام السليم الذي كاد الأمويون أن يقضوا عليه بأعمالهم الباطلة وآرائهم المنحرفة وتصرفاتهم التي لا تليق بأمّة مرموقة، حتى أوشكت أن تهدد بخطر عظيم [٤].

وبالفعل سعى الإمام السجاد عليه السلام لتأسيس بناء جديد وفق رؤية مفادها أنَّ بناء جديد هو أسهل وأمتن من ترميم بناء متهرئ [٥]، ونعني بذلك بنائية الفكر المسلم نظريًّا وعمليًّا، ولتحقيق هذا الهدف شرع الإمام السجاد عليه السلام باتخاذ إجراءات عديدة لتحقيق مبتغاه، ففي مجال العقيدة والفكر كانت عقيدة الجبر أخطر ما روّجه الأمويون بين الأمّة الإسلامية، وذلك بما أشاعوه من فكرة الجبر الإلهي بهدف التمكن من التسلط التام على مصير الناس والهيمنة على عقولهم بعد أجسامهم، فأوحوا للناس بأنَّ ما يقوم به الخليفة من فساد وظلم وجور وقتل ونهب وغصب هو من الله تعالى، فالخليفة والأمير إنّما ينفذون إرادة الله وهم يد الله على عباده، فكيف يرجى من الأمّة أن تواجه سلطة الظالم وهو مسدّد - بحسب ما أشاعوه - من الله تعالى [٦] ولا ريب أنّ معاوية أسّس لذلك بشكلٍ لافت، وقد ظهر ذلك بخطبة له جاء فيها: ((أنا عامل من عمّال الله أعطي من أعطاه الله وأمنع من منعه ولو كره الله أمراً لغيّره))[٧].

وهذا ما أشار إليه الوالي الأموي عبيد الله بن زياد في الكوفة سنة ٦١هـ حين دخل عليه موكب سبايا أهل البيت عليهم السلام في مجلسه فأظهر أنّ عليًّا الأكبر ابن الإمام الحسين عليه السلام قد قتله الله، فأجابه الإمام السجاد عليه السلام بل قتله الناس [٨].

فالإمام السجاد عليه السلام لم يترك هذه الفرصة دون أن يرد على ابن زياد، كما أكّد للزهري في معرض ردّه على

سؤاله ((أبقدر يصيب الناس ما أصابهم، أم بعمل ؟ فأجابه عليه السلام : ((إنَّ القدر والعمل بمنزلة الروح من الجسد ... ولله فيه العون لعباده الصالحين، وأضاف، ألا إنَّ من أجور الناس مَنْ رأى جوره عدلاً، وعدل المهتدي جوراً))[٩].

كما تصدّى الإمام للانحراف الفكري والعقائدي الذي روج له المشبهة والملحدين وعبّأه واحتضنه رجال السلطة من الأمويين، فنقرأ أنّه عليه السلام عندما سمع ذات يوم في مسجد جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله قوماً يشبهون الله بخلقه، بل وتجاسروا عليه حين قالوا إنَّ لله يدًا وعيناً في المجالس العامة، وأمام صمت الحاضرين نهض الإمام عليه السلام وأتى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فوقف عنده ورفع صوته يناجي ربّه قائلاً: ((إلهي بدت قدرتك، ولم تبد هيئة جلالك، فجهلوك وقدّروك بالتقدير على غير ما أنت به شبهوك، وأنا بريء يا إلهي من الذين بالتشبيه طلبوك ليس كمثلك شيء – يا إلهي – ولن يدركوك ... ولو عرفوك، وفي خلقك – يا إلهي – مندوحة عن أن يتأولوك، بل ساووك بخلقك، فمن ثم لم يعرفوك، واتخذوا بعض آياتك رباً، فبذلك وصفوك – فتعاليت – يا إلهي عمّا به المشبهون نعتوك))[١٠].

وقد وقف الإمام السّجاد عليه السلام بوجه تخرصات المرجئة الذي أرجأوا مرتبة العمل على الإيمان وأرجأوا الحكم على مرتكب الكبيرة إلى الله تعالى عملاً بقوله تعالى: ((وآخرون مرجون لأمر الله))[١١]. وكان معاوية أوّل من أظهر الاعتقاد بهذا الأمر، وأشار بأنَّ الإيمان لا يضر معه ذنب ومعصية، فتمادى في المعاصي غير مكترث بشيء قائلاً: وثقت بقول الله تعالى: ((إنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً))[١٢] بل إنَّ هؤلاء روّجوا أنّهم الحكّام الذين تجب طاعتهم، وأنّهم مؤمنون لا يجوز الحكم عليهم بالكفر ولا التعرض لهم ولا الخروج عليهم [١٣] فما كان من الإمام إلَّا أن أعلن قائلاً: ((نحن أئمّة المسلمين، وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين، وقادة الغر المحجلين، وموالي المؤمنين، ونحن أمان أهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، ولو ما في الأرض منا لساخت الأرض ... ولولا ذلك لم يعبد الله))[١٤].

كما لم يبخل الإمام عليه السلام من إسداء النصيحة لأئمّة عصره وإرشادهم إلى طريق الحق ولاسيما في بعض المناسك كما هو الحال مع الحسن البصري [١٥] ومواقفه عليه السلام الرائعة تجاه إمام البلاط الأموي (الزهري)، ففضلًا عن الأمور المتعلقة بالتشريع، نبهه إلى مفاسد الحكم الأموي ووجوب تركه [١٦] .

وكما هو شأن أبيه السبط عليه السلام الذي قضى شهيداً من أجل تحقيق الإصلاح في أمّة جده رسول الله صلى الله عليه وآله نهج الإمام السجاد عليه السلام نفس المسلك، إذ نقل أنّه كان يجلس في مؤخرة مسجد النبي صلى الله عليه وآله بعد صلاة العشاء آخر الليل وكان يتحدّث عن جور بني أمية، ناهيك عن أنّه آثر البقاء في المسجد دون بقية من استاء من السلطة وكان له

رأي عبر عنه ﷺ بقوله : ((أن للحق دولة على العقل وللمنكر دولة على المعروف، وللشر دولة على الخير، وللجهل دولة على الحلم، وللجزع دولة على الصبر، وللخوف دولة على الرفق وللبؤس دولة على الخصب، وللشدة دولة على الرخاء... وللبيوت الخبيثة دولة على بيوت الشرف... فنعوذ بالله من تلك الدول، ومن الحياة في النقمات))[١٧] .

وأخيراً في المجال النظري الذي لا يخرج عن مواجهة للسلطان وبناء المجتمع المسلم على أسس متينة وسليمة نجده اتخذ جانب الموعظة والإرشاد واعتمدها ركناً أساسيًّا في سيرته الحياتية في تبليغ الأمّة، فنراه تارة يلقي الخطب والمواعظ، وأخرى نجده يخصّص وقتًا لأصحابه يوجههم ويؤهّلهم ويربّيهم لتحمّل الأمانة، والتّكليف الشّرعي، والتزام المسؤولية الاجتماعية مع توخّي أنَّ الحُب والتقدير لآل البيت ﷺ ولاسيّما لشخص الإمام ﷺ يجب أن يكون حبًّا واقتداءً بنّاءً لا غلو فيه بقوله ﷺ: ((أحبونا حبّ الإسلام، فما زال حبّكم لنا حتى صار شينًا علينا))[١٨] أي أحبّونا بما يوافق قانون الإسلام، ولا يخرجكم عنه حدّ الإفراط.

وكان الإمام ﷺ يركّز في لقاءاته وتوجيهاته على تحقيق المواساة والإحسان للآخرين بما يحفظ كرامتهم قائلاً: ((من قضى لأخيه حاجة قضى الله له مائة حاجة، ومن نفَّس عن أخيه كربة نفّس الله عنه كربه يوم القيامة بالغاً ما بلغت، ومن أعانه على ظالم له، أعانه الله على إجازة الصراط عند دحض الأقدام، ومن سعى له في حاجته حتى قضاها له فسر بقضائها، كان كإدخال السرور على رسول الله ﷺ، ومن سقاه من ظمأ، سقاه الله من الرّحيق المختوم، ومن أطعمه من جوع أطعمه من ثمار الجنة ومن كساه من عُري كساه الله من استبرق الحرير، ومن كساه من غير عري لم يزل في ضمان الله ...))[١٩]. وقوله ﷺ: ((أن أرفعكم درجات وأحسنكم قصوراً وأبنية، أحسنكم إيجاباً للمؤمنين، وأكثركم مواساة لفقرائهم، أنَّ الله ليقرب الواحد منكم إلى الجنة بكلمة طيّبة يكلّم بها أخاه المؤمن الفقير ...))[٢٠] .وقوله ﷺ: ((من أطعم مؤمنًا حتى يشبع، لم يدر أحد من خلق الله ما له من الأجر في الآخرة لا ملك مقرب ولا نبيّ مرسل إلا الله ربّ العالمين))[٢١] وقوله ﷺ: ((من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان – أي الجائع –))[٢٢] كما حضّ الإمام ﷺ على صلة الأرحام فقال: ((من سرّه أن يمدَّ الله في عمره، وأن يبسط له في رزقه، فليصل رحمه، فإنَّ الرّحم لها لسان يوم القيامة ذلق تقول: يا ربّ صلْ من وصلني واقطع من قطعني...))[٢٣].

وأمام هذه الوصايا التي تحضّ على التّكافل الاجتماعي نجد أنَّ الإمام لم يأل جهدًا في سبيل تحقيقها عمليًّا، فقد كان يزاول عمليّة تموين الناس بدقّة فائقة خاصّة عوائل الشهداء والمنكوبين في معارك ضدّ السّلطة، وكان يقوم بذلك بسرّيّة تامّة، حتى أخفى ذلك – في بعض الأحيان – عن أقرب الناس إليه، فعن أبي حمزة الثّمالي

قال ((إنَّ علي بن الحسين ﷺ كان يحمل الخبز بالليل، على ظهره يتبع به المساكين في ظلمة الليل، ويقول: ((أنَّ الصدقة في سواد الليل تُطفئ غضب الرّب))[٢٤].

ونقل أنَّه لمّا استشهد ﷺ وجدوا بظهره أثراً، فسألوا عنه، فقيل: هذا مما كان ينقل الجراب على ظهره إلى منازل الأرامل [٢٥] وروي عن شيبة بن نعامة: ((كان علي بن الحسين يبخل فلمّا مات وجدوه يعول مائة أهل بيت بالمدينة))[٢٦] وأجد ابن نعامة قالياً للإمام بوصفه بالبخل وهو الذي فك دين محمد بن أسامة بن زيد وقدره خمسة عشر ألف دينار وهو الذي كان يؤكّد استثمار المال بما يحقّق المروءة وهو الذي قاسم الله ماله مرتين[٢٧].

كما سعى ﷺ لحل بعض القضايا الاجتماعية الفاسدة ولاسيما العصبية القبلية والعنصرية التي شجّع عليها الأمويون طيلة فترة حكمهم[٢٨] فقاومها ﷺ بكلّ قوّة، وكان يقول: ((لا يفخر أحدٌ على أحد، فإنَّكم عبيد، والمولى واحد))[٢٩] وعنه قال الدكتور صبحي: ((كان الأمويّون يقيمون ملكهم على العصبية العربية عامّة فيما كان زين العابدين (السجاد) يشيع نوعاً من الديمقراطية الاجتماعية بالرغم من أنَّ دمًا أصيلاً كان يجري في عروقه))[٣٠] بل أنّه تزوّج من أمة رغم انتقاد عبد الملك بن مروان له[٣١] كما تصدّى لظاهرة الرّق، وكان يعامل أحدهم معاملة إنسانية مثالية حتى وإن بدر منه إساءة، وكان يشتري العبيد والإماء ولا يبقي منهم أحداً أكثر من ستة أشهر [٣٢] حتى رُصد تجمعاً من السودان كانوا في المدينة من مريديه [٣٣] وعنه قال سيد الأهل: ((الزمن يمر وزين العابدين يهب الحرية في كل عام، وكل شهر، وكل يوم، وعند كل هفوة، وكل خطأ، حتى صار في المدينة جيش من الموالي الأحرار، والجواري الحرائر، وكلهم في ولاء زين العابدين))[٣٤] ورغم كل هذه الجهود نلحظ أن الإمام السجاد شرع بوضع عمل فكري جبار كان أشبه بالقانون في جامعيته ودقته وواقعيته ربما بعد أن وجد أن كل الجهود المتقدمة كانت قاصرة – إلى حد ما – في توجيه المجتمع على نحو أمثل أو ربما في خطوة لبناء مجتمع وفق رؤية تكاملية تشمل البعيد والقريب والعدو، والصديق، والمقلد للإمام ﷺ والمتمسّك بأهداب السّلطة وبلاط الملك لوضعه أمام حقوقه وواجباته أمام الله ونفسه والمجتمع، صاغها ﷺ برسالة تدلّ على عمق اهتمامه بكلِّ ما يدور من حوله في المجتمع الإسلامي وجنباته النفسية، والصحية، والعقائدية، والأخلاقية، ورعاية لأمنه واستقراره، وحفاظاً على تكوينه الإسلامي، وفقاً لرؤيتي القاصرة فقد قسّمت الرسالة على أربعة مباحث تضمّنت خمسين حقًّا أثبتها الإمام السجاد ﷺ وهي:

الأوّل: حقّ الله تعال،ى وقد أضفت إليه حقوق الأفعال.

الثاني: حقوق الجوارح ويتقدّمها حقّ النّفس.

الثالث: حقوق الرّحم.

الرّابع: حقوق الآخرين.

المبحث الأول: حقّ الله تعالى وحقوق الأفعال:

أمّا حقّ الله تعالى وهو أول الحقوق، فأشار الإمام ﷺ قائلاً: ((فأمّا حقّ الله الأكبر عليك فإنَّك تعبده لا تشرك به شيئًا، فإن فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدّنيا والآخرة، ويحفظ لك ما تحبّ منها))[٣٥].

ولا ريب أنَّ هذا الحق كان الإمام ﷺ قد أرسى له في مواجهة المشبهة والمجسمة والجبرية والمرجئة – الذين أظهروا تجاوزات عديدة على الباري عز وجل – طمعاً في تثبيت السّلطة وتأسيسًا لمجتمع يؤمن بذلك على حساب وحدانية الله تعالى، فجاء الإمام ﷺ بهذا المبدأ وهو كجدّه رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى – بل بإرادة الله تعالى وتسديده؛ ليؤكِّد أنَّ وحدانية الله وعدم الإشراك به أعظم الحقوق، فضلاً عن التأكيد على الرفض المطلق لكل الآلهة التي صنعتها البشرية، والتوجهات التي تشجّع للأفكار الضّالة بما يزعزع إيمان المسلم بربه، فالإمام يؤكّد أنّ في مقابل هذه العبادة بإخلاص تكون كفاية الله لعبده في أمري الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يشعر بالسعادة النفسية والاطمئنان القلبي، أما في الآخرة فيفوز – إذا تمسك بالله – بالخلود الأبدي ورضوان من الله أكبر[٣٦].

أما حقوق الأفعال وهي:

أ- **حقّ الصلاة:** وأوضح الإمام ﷺ بشأنها قائلاً: ((وأمّا حقّ الصلاة فإن تعلم أنّها وفادة إلى الله، وإنّك قائم بها بين يدي الله، فإذا علمت ذلك كنت خليقًا أن تقوم فيها مقام الذليل، الراغب، الراهب، الخائف، المسكين، المتضرع، المعظم من كان بين يديه، بالسكون والإطراق، وخشوع الأطراف، ولين الجناح، وحسن المناجاة ... والطلب إليه في فكاك رقبتك التي أحاطت به خطيئتك واستهلكتها ذنوبك))[٣٧].

هذه صورة الصلاة التي يريدها الله تعالى من عبده أوضحها الإمام لنا، صورة العبد الكادح إلى ربّه، الوافد عليه، صورة الإنسان الضعيف الصغير، يقف بين يدي الله العزيز الكبير، فالإمام السجاد ﷺ هنا أعطانا لوحة جميلة في التعليم والتوجيه التي يجب على المسلم أن يكون عليها وقت الصلاة، من السّكينة والوقار، وخشوع الأطراف، وحسن المناجاة، وأن يكون راغباً في ثواب الله، راهبًا، متضرّعًا، خاشعًا، خائفًا، كي تطاله رحمته[٣٨].

ب- حقّ الصّوم: ووصفه الإمام ﷺ بقوله: ((وأمّا حقّ الصوم عليك فإن تعلم أنّه حجاب ضربه الله على لسانك وسمعك وبصرك وفرجك وبطنك ليسترك من النار، وهكذا نصّ الحديث الشريف ((الصوم جنّة من النار)) فإن سكنت أطرافك رجوت أن تكون محجوبًا وإن أنت تركتها تضطرب في حجابها وترفع جنبات الحجاب، فتطلع على ما ليس لها بالنظرة الداعية للشهوة والقوّة الخارجة عن حدّ التقيّة لله، لم تأمن من أن تخرق الحجب...))[٣٩].

إنَّ الصوم من العبادات المهمّة في الإسلام، وهو رياضة روحيّة يتجرّد الإنسان فيه عن كلّ شهوات الدنيا وعليه كما أكّد الإمام صون أطرافه فيه، أي أن يمسك لسانه عن الكذب وقول الباطل، ويمسك سمعه عن الغيبة، وفرجه مما لا يحل له، وبطنه عن أكل الحرام، وبذا يكون الصوم جُنة من النار، ومنجى من عذاب الرّحمن[٤٠].

جـ - حقّ الصّدقة: وحقّها كما ورد عن الإمام ﷺ: ((أن تعلم أنّها ذخرك عند ربّك، ووديعتك التي لا تحتاج إلى الأشهاد، فإذا علمت ذلك، كنت بما استودعته سرًّا أوثق بما استودعته علانية ... ثم لم تمنن بها على أحد لأنَّها لك فإذا امتننت بها لم تأمن أن تكون مثل تهجين حالك منها إلى من مننت بها عليه لأنَّ ذلك دليلاً على أنك لم تُرِدْ نفسك بها...))[٤١] .

لقد رغب الإسلام بكلّ الصدقات والهبات والعطايا التي ينفقها الإنسان لأنَّها تجعله يتفاعل مع المجتمع ويتحوّل إلى عنصر عطاء، والعطاء إذا ما خرج عن نفس طيّبة تتحسّس آلام الناس ومعاناتهم يتحوّل من عمل إلى عبادة تعادل الصّوم والصّلاة، وأكّد الإمام ﷺ ضرورة إعطائها بالسر، وأن تكون خالية من المنّ حتى يعود ثوابها إلى منفقها، وكي يكون مصداقًا لقوله تعالى: ((**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**)) [٤٢].

د- حق الهدي، وحقه بنصّ الإمام ﷺ: ((فإن تخلص بها الإرادة إلى ربّك والتّعرّض لرحمته وقبوله، ولا تريد عيون النّاظرين إليه ... واعلم أنَّ الله يراد بالتيسير ولا يراد بالتعسير .. وكذلك التّذلّل أولى بك من التدهقن - أي التّكبر - لأنَّ الكلفة والمؤونة في المتدهقنين، فأمّا التذلّل والتّمسّكن فلا كلفة فيهما، ولا مؤونة عليهما، لأنّهما الخلقة وهما موجودان في الطّبيعة ...))[٤٣] . والهدي فريضة من فرائض الحج تمتاز بطابعٍ عباديّ، وهي ما يذبحه حجّاج بيت الله الحرام من الأنعام في مكة أو منى، وقد أكّد الإمام ﷺ في موضع النّص بأن يجب أن يكون - الهدي - خالصاً لوجه الله تعالى غير مشفوع بأيّ مظهر من مظاهر الكبرياء كالرياء وطلب السمعة، لأنَّ الله تعالى يقبل اليسير لا بالعسير وبالتذلّل لا التّكبّر، عملاً بقوله تعالى: ((**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم**

العسر)) [٤٤] والهدي أخيرًا هو يرمز إلى العطاء الكريم والفداء العظيم، وأنَّ على المسلم أن يكون على استعداد دائم لهذا الطّقس العبادي المتضمّن العطاء والفداء خاليًا من الشوائب العالقة في النّفس.

المبحث الثاني/ حقّ النّفس وحقوق الجوارح:

واستهلّ الإمام ﷺ الحديث بحقّ النّفس فقال: ((وأمّا حقّ نفسك عليك فإن تستوفيها في طاعة الله عز وجل فتؤدّي إلى لسانك حقّه وإلى سمعك حقّه وإلى بصرك حقّه وإلى يدك حقّها...))[٤٥] في دعوة من الإمام إلى إصلاح النّفس البشرية إصلاحًا ربّانيًّا شاملاً كي تؤدّي دورها المطلوب في طاعة الله تعالى لأنَّ منها المنطلق لعملية الإصلاح الشاملة [٤٦] وجهادها يأتي بالمرتبة الأولى كما وصفهُ رسول الله ﷺ بالجهاد الأكبر.[٤٧]

أمّا حقوق الجوارح فأوّلها:

حقّ اللسان: وأورد الإمام ﷺ عن حقّه: ((إكرامه عن الخنى – أي الفحشاء – وتعويده على الخير، وحمله على الأدب وإجمامه إلا لموضع الحجة والمنفعة للدين والدّنيا، وإعفاؤه عن الفضول الشنعة القليلة الفائدة التي لا يؤمن ضررها مع قلّة عائدتها ... وتزين العاقل بعقله وحسن سيرته في لسانه ...))[٤٨] والمعروف هنا أنَّ اللسان آلة النّطق والمترجم عنه الفعل، وهو أهم الجوارح في بدن الإنسان وأخطرها على حياته، فهو سلاح ذو حدّين؛ لذا دعا الإمام الحكيم ﷺ إلى سيطرة الإنسان على لسانه وإلزامه بمراعاة أمور عديدة بما يعزّز مكانته كـ:

البعد عن الخنا – الفحشاء – لأنَّها تُوجب المهانة.

إمساكه عن الكلام إلّا لموضع الحاجة في أمور الدّين والدّنيا.

تعويده على قول الخير وما ينفع الناس.

إبعاده عن الخوض في فضول القول بما لا يعود عليه بالخير [٤٩] تأسّيًا بقوله تعالى: ((قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ))[٥٠] .

حقّ السّمع: وعنه أشار الإمام ﷺ: ((وأمّا حقّ السمع فتنزيهه عن أن تجعله طريقاً إلى قلبك إلا لفوهة كريمة تحدث في قلبك خيراً، أو تكسب خلقاً كريماً، فإنَّه باب الكلام إلى القلب...))[٥١] وهنا الإمام ﷺ يشير أنّ السمع هو جهاز نقل المعلومات إلى الدماغ وعلى أساسه يتبدّل حال الإنسان من حال إلى حال، فإن سمع فكرة رسالية تفاعل معها وتحوّل إلى عنصر خير، عامل به، وإن سرت لأذنه فكرة هدّامة ملوّثة بالإلحاد تحوّل إلى مجرم يعمل المحرمات دون وازع، وهي بالنتيجة تُقسّي القلب وتفسده))[٥٢] لذا أمرنا الله بمغادرة المكان الذي يستهزأ فيه بآياته بقوله تعالى: ((**إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ**

فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ...))[٥٣] لذا علينا أن نجعل الجهاز السمعي بريداً صالحاً لنقل الآداب الكريمة والفضائل الحسنة[٥٤].

حق البصر: وحقه : ((فغضه عمّا لا يحل لك، وترك ابتذاله إلا لموضع عبرة تستقبل بها بصراً أو تستفيد بها علماً فإنَّ البصر باب الاعتبار))[٥٥] .

ومن هنا نفهم من كلمة الإمام ﷺ أنَّ للبصر حقًا على الإنسان في عدم إطلاقه في غير رحابه أو حدوده المسموح بها ((**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**))[٥٦] فهو حجّة على الإنسان إذا ما نظر إلى ما حرّم الله، وهو مفتاح الولوج لاقتراف الآثام، فينبغي للمسلم غضّ البصر، والإمام ﷺ يأمر بالاستفادة من نعمة البصر بالبحث في العلوم النافعة بما يعود بالخير على مجتمعه، فعلى الإنسان رعاية هذه النعمة وصونها عن الابتذال[٥٧] .

حقّ الرجلين: وقد وجه الإمام ﷺ بأن ((لا تمشي بهما إلى ما لا يحل لك ولا تجعلهما مطيّتك في الطريق المستخفة بأهلها فيها، فإنّها حاملتك وسالكة بك مسلك الدّين والسبق ...))[٥٨] وهنا الإمام ﷺ يؤكِّد أنَّ الرجلين أما أن تقود صاحبها بإرادته إلى مسالك الخير كإعانة مؤمن أو تنفيس الكربة عنه، أو أداء الحج، أو في الجهاد في سبيل الله والدفاع عن حقوق العباد، أو السير بها لإيقاع المحرمات والآثام، فعلى الإنسان أن ينظر مواطن الثواب فييمّم وجهه نحوها، ويدرك مواطن الشر فيجنّب قدميه عنها[٥٩]

حقُّ اليد: وحقّها ((... أن لا تبسطها إلى ما لا يحل لك، فتنال بما تبسطها إليه من الله العقوبة في الآجل ومن الناس بلسان اللائمة في العاجل، ولا تقبضها مما افترض الله عليها ولكن توقّرها بقبضها عن كثير مما لا يحل لها، وبسطها إلى كثير مما ليس عليها...))[٦٠] ويعرض الإمام هنا أنَّ لليدين حقوقاً فإن بسطها الإنسان في الشر سُمّي سارقاً ومجرماً، ووسم بمسيم السارق الوضيع، وكذا الحال إن امتدّت يده بإيقاع الأذى بالناس وظلمهم، أمّا إذا مدّت لمساعدة الناس وإعانتهم بما هو متيسّر كان له عند الله حسن الثواب.

وأمَّا حقّ البطن: ((فأن لا تجعله وعاءً لقليل من الحرام ولا لكثير، وأن تقتصد له في الحلال ولا تخرجه من حدّ التقوية إلى حدّ التهوين، وذهاب المروءة، وضبطه إذا همَّ بالجوع والظمأ، فإن الشبع المنتهي بصاحبه إلى التخم مكسلة، ومثبطة ... وأنّ الري المنتهي بصاحبه إلى السكر مسخفة ومجهلة...))[٦١].

وفي النص دعوة من الإمام إلى جملة أمور:

أن لا نجعل البطن وعاء للحرام فتتغذى بمال مغصوب، فيؤدّي بالإنسان إلى الانحراف عن الطريق القويم.

الاعتدال في الأكل، وعدم الإسراف به، وعدم الإسراف بالشراب أيضاً؛ لأن كلًّا منهما يعود بالضّرر عليه.

إشارة ضمنية إلى جعل الطعام وسيلة لمواصلة الحياة والعمل بما يُحقّق رضا نفسه والناس والله تعالى.

الانتهاء عن أكل الميتة ولحم الخنزير والمسكرات والمخدرات لأنّها تقزّز النفس وتذهب بالمروءة[٦٢].

وحقّ الفرج: ((فحفظه مما لا يحل لك والاستعانة عليه بغضّ البصر، فإنَّه من أعون الأعوان، وكثرة ذكر الموت، والتهدد لنفسك بالله، والتخويف لها به، وبالله العصمة والتأييد ...))[٦٣] وهو نصّ يدلّنا إلى مفاتيح تحقّق تحصين الفرج وعفاف الإنسان هي:

- غضّ البصر لأنَّه أعون الأعوان – بحسب قول الإمام المعصوم – للوقوع في الحرام.
- الإكثار من ذكر الموت، لأنّه يزهد الإنسان في طلب الملذّات، ويُطفئ حب الشهوات في نفسه، كما أنّ ذكر الموت يقضي على هيجان الشّهوة الجنسية.
- التخويف من عقاب الله العظيم جراء ارتكاب الزنا.

المبحث الثالث/ حقوق الرّحم

ولدى استعراضه ﷺ للحقوق وجّه نظرة صائبة نحو الأرحام، وأدلى بحقوقهم كما يلي وفق ترتيبه:

حقّ الأم: وقال ﷺ عنه: ((فحقّ أمّك أن تعلم أنّها حملتك، حيث لا يحمل أحدٌ أحداً، وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا يطعم أحدٌ أحداً، وأنَّها وقتك بسمعها وبصرها، ويدها ورجلها، وشعرها، وبشرها، وجميع جوارحها، مستبشرة بذلك ، فرحة موبلة – باستمرار – محتملة لما فيه مكروهها، وألمها، وثقلها، وغمّها، حتى دفعتها عنك يد القدرة وأخرجتك إلى الأرض، فرضيت أن تشبع وتجوع هي، وتكسوك وتعرى، وترويك وتظمأ، وتظلّك وتضحّي، وتنعمك لبؤسها، وتلذذك بالنوم بأرقها، وكان بطنها لك وعاء، وحجرها لك حواء – أي حافظ يحميك – وثديها لك سقاء ونفسها لك وقاء، ... فتشكرها على قدر ذلك ...))[٦٤].

إنّ الأم هذه الكلمة العذبة الطّيّبة التي تفيض عطفاً وحناناً، وحبًّا، وإخلاصًا إنَّما هي تُمثّل العطاء بمدلوله الإسلاميّ الإنسانيّ وتتجسّد فيها كلّ معاني الخير، فضلاً عن التّضحية والإيثار، وربّما هذه الكلمات تلقي ضوءًا على الحقائق التي ذكرها إمامنا ﷺ في رسالته الكريمة، وهو ﷺ بأمره لنا بإسداء الشكر لها إنَّما هو تأكيد لقوله تعالى: ((وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ))[٦٥]

أمّا حقّ الأب: ((فتعلم أنّه أصلك، وأنّك فرعه، وأنّك لولاه لم تكن، فمنهما رأيت في نفسك ما يعجبك فاعلم أنَّ أباك أصل النّعمة عليك فيه وأحمد الله واشكره على قدر ذلك...))[٦٦].

فالإمام هنا يؤكّد أنّ على الولد تجاه أبيه مراعاة ثلاثة حقوق:

- حقه عليك لأنَّه الأصل وأنت الفرع، ولولا الفرع لم يكن الأصل لأنَّه السبب في وجوده ونموّه.
- دعوة إلى عدم التّكبّر على الأب لأنّه هو من شقي وتعب وتحمّل المصاعب كي تنشأ وتصبح شخصًا يشار لك بالبنان بقادم الأيام.
- شكر الباري عز وجل على هذه النعمة والإحسان للأب بقدر الإحسان للأم؛ لأنّهما ركنا الأسرة التي خرجت منها.

حقّ الولد: فأكَّد الإمام ﷺ حقه بقوله: ((وأما حق ولدك فتعلم أنه منك، ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وإنك مسؤول عما وليته من حسن الأدب، والدلالة على أبيه والمعونة على طاعته فيك، وفي نفسه فمثاب على ذلك، ومعاقب، فاعمل في أمره عمل المتزين بحسن أثره عليه في عاجل الدنيا المعذور إلى ربه في ما بينه وبينه بحسن القيام عليه ...))[٦٧].

أشار الإمام ﷺ هنا أن الولد هو امتداد لحياة أبيه، واستمرار لوجوده، فعلى الأب القيام بوجباته تجاه أولاده من توفير الحياة الكريمة لهم من مأكل ومطعم وملبس وتربيتهم تربية حسنة وغرس الأخلاق الحميدة في نفوسهم، والإيمان بالله والتقوى، فالولد أن كان صالحاً نُسب لأبيه، وأن شقياً نسب إليه أيضاً فهو كالزرع كلما اعتنى به خرج نظراً طيباً .

حق الأخ: وفيما يخصه أورد الإمام : ((وأما حق أخيك فتعلم أنه يدك التي تبسطها وظهرك الذي تلتجأ إليه وعزك الذي تعتمد عليه، وقوتك التي تصول بها، فلا تتخذه سلاحاً على معصية ... ولا تدع نصرته على نفسه ومعونته على عدوه، والحول بينه وبين شياطينه وتأدية النصيحة إليه، والإقبال عليه في الله ...))[٦٨] . والإمام هنا يعطينا درساً في مراعاة الأخ من عدة أوجه منها:

- في اتخاذه سنداً وقوة وعزاً.
- في عدم جعله سلاحاً لارتكاب المعاصي والتقوي به على ظلم الناس والاعتداء عليهم.
- إرشاده إلى سبل الخير والهداية .
- إعانته وتحذيره من وساوس الشيطان وأصدقاء السوء.
- الوقوف بجانبه ونصرته على عدوّه، وإسداء النصيحة له في السّرّاء والضّرّاء طلباً لوجه الله تعالى.

المبحث الرابع: حقوق الآخرين وتشمل:

أوّلاً: حقوق من تجمعك بينهم علائق دنيوية على نحو تلازمي، وهي كالآتي:

حقوق الأئمّة وحقوق الرعية:

أمّا بالنسبة لحقوق الأئمّة فهي ثلاثة (حقّ سائسك بالسلطان، وحق سائسك بالعلم، وحق سائسك بالملك).

أمّا حقّ الأوّل(الحاكم) بحسب الإمام ﷺ ((أن تعلم أنّك جعلت له فتنة، وأنّه ابتلي فيك، بما جعله الله عليك من السّلطان، وأن تخلص له النّصيحة وأن لا تماحكه – تخاصمه – وقد بسطت يده عليك فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه وتذلل وتلطف لإعطائه الرضى ما يكف عنك ولا يضر بدينك وتستعين عليه في ذلك بالله، ولا تعازه – تعارضه – ولا تعانده، فإنَّك أنه فعلت ذلك تحقّقت نفسك وتحقّقته، فعرضتها لمكروهه...)) [٦٩] والإمام هنا قصد بالإمام (الحاكم) الذي لا يستمد سلطانه عن طريق الولاية الإلهية، وإنَّما سلطته حاصلة بالقوّة والقهر، لذا أوضح الإمام السجاد ﷺ أنَّ للحاكم على الرّعية جملة واجبات من إخلاص النّصيحة له، والولاء، وعدم الجارة إلى العداء والبغضاء خشية فتك الحاكم به [٧٠] .

أمّا الحقّ الثاني، فهو حقّ المعلم وعنه قال الإمام ﷺ ((وأما حقّ من ساسك بالعلم، فالتعظيم له، والتّوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه، والإقبال عليه، والمعونة له على نفسك ... في أن تفرغ له عقلك، وتحضره فهمك، وتذكي له قلبك، وتجلي له بصرك، بترك اللذات ... والشهوات))[٧١] .

لا شك أنّ المعلم هو أكرم رجال الأرض الذين ساهموا في نشر العمل وفك عقال الجهل، فضلاً عن كونه صانع الحضارة، لذا أوجب أمورًا على المتعلمين من تعظيمه وتقديره، وتوقير مجلسه، والإقبال عليه برغبة واهتمام تام، واستحضار الفكر و القلب والبصر، وهذا لا يحصل إلا بترك الملذّات والشهوات، ولاسيّما عند تحصيل العلوم الدينية[٧٢].

أمّا الحق الثالث فهو حقّ المالك، وقد وصفه الإمام السجاد ﷺ بقوله: ((وأمّا حقّ سائسك بالملك فنحو من سائسك بالسلطان إلا أنّ هذا يملك ما لا يملكه ذاك، تلزمك طاعته في دقّ ما جل منك، إلا أن تخرجك –طاعته – من وجوب حقّ الله...))[٧٣].

لقد عمل الإمام السجاد ﷺ على إنقاذ الإنسان من العبودية، وعامل الأرقاء كما يعامل أبناءه بمنتهى اللطف والرّحمة [٧٤]، لذا ومن هذا المنطلق فإنَّه كما أمر العبد بطاعة سيّده فإنّه اشترط أن لا يخرجه ذلك عن طاعة الله.

وفيما يخص حقوق الرّعية على السلطان : فهي أربعة حقوق: ((حقّهم عليك بالسلطان، وبالعلم، وملك

النّكاح، وملك اليمين)) ويمكن إيجاز مضامينها المترتبة على الحاكم بحسب ما أورده الإمام ﷺ من الحقوق كما يلي:

بالنسبة للحقّ الأوّل، فأوجب الإمام ﷺ معاملة الرّعية بالرحمة والحياطة – الحماية – والأناة – الحلم – طالما كفاك الله مؤونتهم بأن جعلهم ضعفاء أذلّة لا يمتنعون منك إلا بالله، لذا أوجب الإمام على السلطان إسداء للشكر لله تعالى على ما أنعم عليه[٧٥].

أمّا الحق الثاني فطالما آتاك الله مقاليد العلم وخزائنه فعليك أن تحسن التّصرّف اتجاه العلماء والمتعلّمين وتكون لهم بمثابة الناصح، الراغب في نشر العلم، الباذل في سبيل ذلك، وخير عون وليس العكس[٧٦].

أما الحق الثالث فحق (رعيتك بملك النكاح) وطالما يتعلق الأمر بالمرأة والزواج بها، فقد أوجب الإمام ﷺ لها حقوقاً مفادها:

- أنّها سكن، ومستراح، وأنس، وحماية لك من الموبقات وارتكاب الفواحش.
- أنّها نعمة أنعم بها الله عليك، عليك إكرامها، والرّفق بها، مع أنّ حقّ الرجل على المرأة أعظم.
- لها أيضاً الحق عليك في مؤانستها، وتوفير الطمأنينة لها، والدخول بها بما يرضي الله كما أكّدت الشريعة[٧٧].

أمّا الحق الرابع للرعية فهو حقّ رعيّتك بملك اليمين، وقول الإمام بشأنه أعظم من أن يوجز ونصّه ((... إن تعلم أنّه خلق ربك ولحمك ودمك، وأنّك تملكه لا أنت صنعته دون الله، ولا خلقت له سمعاً ولا بصراً، ولا أجريت له رزقاً، ولكن الله كفاك ذلك بمن سخّره لك وائتمنك عليه، واستودعك إياه لتحفظه فيه، وتسير فيه بسيرته، فتطعمه مما تأكل، وتلبسه مما تلبس ولا تكلفه ما لا يطيق، فإن كرهته خرجت إلى الله به واستبدلت به، ولم تعذب خلق الله ...))[٧٨]. والإمام ﷺ قصد مراعاة التّصرف مع الجواري من الإماء، فعلى السلطان معاملتهنّ بإحسان، وإنصاف، فيطعمهنّ مما يأكل، ويكسوهنّ مما يلبس، وإن كره معاشرتهنّ فله تركهنّ دون إلحاق الأذى بهنّ، فهنّ خلق الله لا لعبة ابتدعها متى ما شاء تخلّص منها.

حقّ المولى وحقّ المنعم عليه بالولاء:

أمّا الأوّل: فعن حقّه قال الإمام السجاد ﷺ: ((وأمّا حقّ مولاك، الجارية عليه نعمتك فأن تعلم أنَّ الله جعلك حامية عليه، وواقية وناصرًا، ومعقلاً، وجعله لك وسيلة ... فالحري أن يحجبك عن النّار فيكون لك في ذلك ثواب منه في الآجل، ويحكم لك بميراثه في العاجل إذا لم يكن له رحم مكافأة لما أنفقته من مالك عليه وقمت به من حقّه بعد إنفاق مالك ...))[٧٩].

فالإمام هنا دعا إلى مراعاة حقوق الأسياد لأرقّائهم؛ لأنَّ الله قد جعلهم عليهم وكلاء، فاللازم مراعاة حقوقهم، ومعاملتهم معاملة كريمة، والإحسان إليهم، وثواب ذلك عند الله تعالى.

أمّا حق المنعم عليك بالولاء: ((فتعلم أنه أنفق فيك ماله، وأخرجك من ذلّ حقّ الرق ووحشته إلى عز الحرية وأنسها، واطلقك من أسر الملكية، وفكّ عنك رقّ العبوديّة ... وأخرجك من سجن القهر، ودفع عنك العسر، وأباحك الدنيا فملكك نفسك، وحلّ أسرك، وفرغك لعبادة ربّك ... فتعلم أنّه أولى الخلق بك بعد أولي رحمك في حياتك وموتك ...))[٨٠].

فالإمام هنا عنى أنَّ الإنسان الذي عادت إليه حرّيته عليه أن يشعر بهذه النّعمة الكبيرة التي حصلت على يد هذا المنعم وأن عليك أيها الإنسان المتحرّر أن لا تؤثر نفسك عليه لأنّه هو من أطلقك من سجن العبودية وملكك نفسك، فهو أولى ببره والإحسان إليه بعد أهلك.

حقّ الكبير وحقّ الصّغير: أمّا الكبير فقال في حقّه الإمام ﷺ ((توقير سنه، وإجلال إسلامه إذا كان من أهل الفضل في الإسلام بتقديمه فيك، وترك مقابلته عند الخصام، ولا تسبقه إلى طريق، ولا تؤمّه في طريق أي –لا تتقدّمه – ولا تستجهله، وأن جهلك عليك تحملته وأكرمته بحق إسلامه مع سنه...)) [٨١] ومظاهر التّكريم الوارد في النّص من ترك مقابلته عند الخصام، وتوقيره، وعدم سبقه أو التقدم عليه في الطّريق، وتحمله وأن اعتدى وغيرها، توطد العلائق الاجتماعية بين الناس وتصفي قلوبهم، وتطهر نفوسهم، ناهيك عن أنّها آداب إنسانية يمدح فاعلها في الدّنيا والآخرة [٨٢] .

وفيما يخصّ حقّ الصّغير: ((فرحمته، وتثقيفه، وتعليمه، والعفو عنه، والستر عليه، والرفق به، والمعونة له، والستر على جرائر حداثته، فإنَّها سبب للتوبة والمداراة وترك مماحكته فإنَّ ذلك أدنى لرشده...))[٨٣].

إنَّ هذه الركائز التربوية الإسلامية التي نصّ عليها الإمام ﷺ من رحمة الصّغير، والعطف عليه وعدم استعمال الشّدّة والقسوة معه، وتعليمه وتثقيفه، والرّفق به، والستر على أفعاله السّيّئة، ومداراته توجب بمجملها إصلاح النشئ وتهذيبهم، وإصلاح المجتمع ورقيه على الوجه الأكمل والأفضل.

و- حقّ السائل وحقّ المسؤول وعنهما قال الإمام ﷺ: ((وأمّا حقّ السّائل فإعطاؤه إذا تهيأت صدقه، وقدرت على سدّ حاجته، والدعاء له في ما نزل به، والمعاونة على طلبته وأن شكّكت في صدقه وسبقت إليه التهمة، ولم تعزم على ذلك لم تأمن من أن يكون من كيد الشيطان أراد أن يصدّك عن حظّك، ويحول بينك وبين التقرب إلى ربّك، تركته بستره ورددته ردًّا جميلاً...))[٨٤] والإمام زين العابدين ﷺ هنا يعلّم المسؤول كيف يجب أن يتعامل مع السّائل، ويعلّمه كيف يواجه الموقف بنفس راضية، فحقّ السائل إعطائه إذا توفرت صدقة،

أمّا إذا شكّ في صدقية السّائل فعليه أن لا يعامله بجفاء بل بالرّوية والكلمة الطّيّبة[٨٥].

وأمّا حقّ المسؤول: ((فحقّه أن أعطي قبل منه ما أعطى بالشّكر له والمعرفة لفضله، وطلب وجه العذر منه، وأحسن به الظن، وأعلم إنّه إن منع فماله منع، وإنّه ليس التثريب في ماله ... وإن كان ظالماً...))[٨٦].

فالإمام يوضح أنَّ من أولويّات حقوق السائل أن يقابل المسؤول بالشكر والدّعاء له بالخير إذا ما أكرمه وأعطاه، وإذا منعه فليحسن الظّنّ به، أما المقتدر ولم تطاوعه نفسه على دفع الصّدقة، فإنَّما حرّم نفسه ما عند الله من عظيم الثواب ولم يحرّم السائل.

ثانيًا: حقّ من تجمعك بهم منافع ماديّة:

وقبل الحديث عن أركان هذه الحقوق تجدر الإشارة إلى المحور الذي تدور في فلكه هذه العلاقة ألا وهو (حقّ المال) والذي أشار إليه الإمام السجاد ﷺ بقوله: ((وأمّا حقّ المال فأن لا تأخذه إلا من حل، ولا تنفقه إلا في حل، ولا تحرفه عن مواضعه، ولا تصرفه عن حقائقه، ولا تجعله إذا كان من الله إلا إليه، وسبباً إلى الله ؛ ولا تؤثر به على نفسك من لعله لا يحمدك، وبالحري أن لا يحسن خلافته في تركتك ولا يعمل فيه بطاعة ربك ... فيذهب الغنيمة وتبوء بالإثم والحسرة والندامة مع التبعة ...))[٨٧].

والإسلام هنا يريد أن يكون المال الذي يجنيه الإنسان من الطرق الشرعية المحلّلة، وأن ينفق فيما يحل له فضلاً عن المشاريع الخيرية كإنشاء المستشفيات، المكتبات، المساجد، أما إذا ادخره لورثته فأنفقوه في معصية الله فإثمه عليه لإعانته إياهم على فعل المعاصي.

بعد هذا التقديم عن حقّ المال يجب الوقوف عند حقوق من تجمعك معهم علائق مادية.

حقّ الشريك: وحقّه بحسب الإمام ﷺ ((إن غاب كفيته، وإن حضر ساويته، ولا تعزم على حكمك دون حكمه، ولا تعمل رأيك دون مناظرته، وتحفظ عليه ماله، وتنفي عنه خيانته، فيما عز وهان فإنّه بلغنا أنَّ يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا...))[٨٨].

لقد حدّد الإمام زين العابدين ﷺ صفات الشريك وواجباته ففضلاً عن الأمانة والعزّة والنّزاهة والورع عليه الالتزام بأمور:

- إذا غاب عليه أن يكفيه عمله، وينوب عنه في أداء حقّه، وأن يساويه بنفسه.
- لا يمضي رأيًا دون مشورته وعلمه.
- على الشريك أن ينفي تهمة الخيانة عن شريكه، فلا يتّهمه بعد أن كان مصدر ثقة، ولا يتصرّف إلّا وفق موازين الشّرع والحق.[٨٩]

حقّ الغريم (الطالب لك) فحقّه ((إن كنت موسرًا أوفيته وكفيته ولم ترده، وتمطله – تسوفه –، ... وإن كنت معسراً، أرضيته بحسن القول، وطلبت منه طلباً جميلاً، ورددته عن نفسك ردًّا لطيفًا، ولم تجمع عليه ذهاب ماله، وسوء معاملته، فإنَّ ذلك لؤم ولا قوة إلا بالله))[٩٠].

لقد جاء الإسلام لينظم كلّ ما يحتاجه الإنسان في حياته الدّنيا تنظيمًا شاملاً ولاسيما جميع المعاملات، والهدف من ذلك تمتين روابط الشّراكة لما تؤدّيه من تقوية وتوثيق الرّوابط الاجتماعية، وقد أشار الإمام ﷺ هنا أنّ على المستدين أن يتلطّف إلى أرباب الأموال الذين استدان منهم، ويقابلهم بالكلمة الطّيّبة، ويردهم بالردّ الجميل، لا بالمماطلة والتّسويف، فيظلم صاحبه مرتين؛ مرة بأخذه ماله دون إرجاعه وأخرى بسوء معاملته رغم أنّه يطالب بحقّه، وعدّ الإمام هذا التّصرّف لؤمًا.

حقّ الخليط: وأكّد الإمام ﷺ حقّه في ((أن لا تغرّه ولا تغشّه ولا تكذبه ولا تغفله ولا تخدعه ولا تعمل في انتقاصه عمل العدو الذي لا يبقي على صاحبه، وإن اطمأنّ إليك استقصيت على نفسك وعلمت أن غبن المسترسل رباً...))[٩١].

إنَّ الخليط كالشريك، ومن شروط المخالطة في الإسلام أن يكون الخليط قويّ الإيمان، صادق اللهجة، محبّ للخير، ملتزمًا بأوامر الله، والإمام يُحذّر هنا من اتخاذ المغفّل والمخادع خليطاً، ويطلب إلينا ألّا نعيبه ولا ننقصه؛ لأنَّ ذلك ليس من فعل الخلطاء بل الأعداء، وأن تفضيل الخليط على شريكه يُعدّ نمطًا من أنماط الرّبا[٩٢].

سادسًا: حقّ القضاء، ويشمل ثلاثة حقوق هي:

حقّ الخصم: وعنه يقول الإمام ﷺ: ((وأمّا حقّ الخصم المدّعي عليك فإن كان ما يدّعيه حقًّا لم تنفع في حجّته، ولم تعمل في إبطال دعوته، وكنت خصم نفسك له، والحاكم عليها، والشاهد له بحقّه دون شهادة الشهود، فإنَّ ذلك حقّ الله عليك، وإن كان ما يدّعيه باطلاً رفقت به، وردعته، وناشدته بدينه، وكسرت حدّته عنك بذكر الله، وألقيت حشو الكلام ولغطه الذي لا يرد عنك عادية عدوك بل تبوء بإثمه وبه يشحذ عليك بسيف عداوته، لأنّ لفظ السوء تبعث الشر والخير، مقمعة للشر...))[٩٣]. والإمام زين العابدين ﷺ في رسالته هذه يريد أن يدخل إلى أعماق النفس ليحرّرها من الشّذوذ، ويعود بها إلى طاعة الله ورسوله، فيذكر الإنسان الذي أقيمت عليه الدّعوة إن كانت صادقة من صاحبها فعليه أن لا يبطلها ويبطل الحق الذي تعلّق بها، فيردّه إلى أهله، دون أن ينظر إلى الشهود ريثما يدلوا بشهاداتهم عليه، لأنَّ ذلك هو حقّ الله، ولا يجوز للمسلم أن ينقض حقًّا من حقوق الله، أمّا من يأخذ أموال الناس بالباطل مستغلًّا فصاحة لسانه فإنَّه سيحاسب على فعله

الشنيع ويعاقب على تصرّفه لأنَّ كلّ حقّ يأخذه من الناس إنَّما هو قطعة من النار تحرقه يوم القيامة [٩٤].

أما حق الخصم المدعى عليه: ((فإن كان ما تدعيه حقاً أجملت في مقاولته بمخرج الدعوى، فأن للدعوى غلظة في سمع المدعى عليه، وقصدت قصد حجتك بالرفق، وأمهل المهلة، وأبين البيان، وألطف اللطف، ولم تتشاغل عن حجتك بمنازعته بالقيل والقال فتذهب عنك حجتك ولا يكون لك في ذلك درك...))[٩٥]

لقد شدد الإسلام على منع الترافع إلى الظلمة الذين انحرفوا عن العدل والحق وسلكوا طرقاً فاسدة تبرأ منها الدين، والإمام زين العابدين ﷺ يعطينا درساً مفيداً في رسالته في كيفية الترافع وكيف نقدم حجتنا، فإن كان المدعي على حق في دعواه، عليه أن يتجنب الكلمات النابية مع خصمه، بل يقابله بالبيان الواضح، والحجة الظاهرة، والكلمة الطيبة، كما أن عليه أن يتجنب القيل والقال لأنهما لا يجديان نفعاً ولا يرجعان حقاً بل ربما يذهبان بالحق فيضيع الهدف الرئيسي للدعوة ويفقد مساره[٩٦].

حق من أساء القضاء: وعنه قال الامام ﷺ ما نصه : ((وأما من سائك القضاء على يديه بفعلٍ أو قول فإن كان تعمدها، كان العفو أولى بك، لما فيه من القمع وحسن الأدب مع كثير أمثاله من الخلق، فإن الله يقول: ((**وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ**))[٩٧] وقال تعالى أيضاً: ((**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**))[٩٨] وهنا يتعرض الإمام ﷺ إلى القضاة فيبين أنّهم إذا جاروا على أحد بقول أو فعل، وكان ذلك عن عمد، فالأولى النّصح والعفو عنهم عملاً بالآداب الإسلامية العالية التي حثّت على العفو عن المسيء، أمّا إذا صدرت الإساءة منهم عن خطأ فلا ينبغي موآخذتهم لأنَّهم لم يقصدوا الجور والظّلم[٩٩] .

ثالثاً: حقّ من تنتفع به وينتفع بك:

حق المستشير وحقّ المشير: أمّا حقّ المستشير فقال الإمام ﷺ بشأنه: ((إن حضرك له وجه رأي جهدت له في النّصيحة وأشرت عليه بما تعلم أنّك لو كنت مكانه لعملت به وذلك ليكن منك في رحمة ولين فإنَّ اللين يؤنس الوحشة ... وأن لم يحضرك له رأي، وعرفت له من يثق برأيه، وترضى به لنفسك دللته عليه وأرشدته إليه فكنت لم تأله – تقصر – خيراً ولم تدخره نصحاً...))[١٠٠]

لقد ورد عن النبي ﷺ قوله ((ما خاب من استخار)) وعن الإمام علي ﷺ قوله : ((ما خاب من استشار)) وقوله: ((من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها في عقولها))[١٠١] فالاستشارة يجب أن تكون من رجل قد اجتمعت فيه شروط (العقل، والخبرة، والإلتزام الديني وغيرها) وتأسيساً على ما سبق فالإمام السجاد ﷺ يطلب من المستشير على المشير أن يؤدّي له النّصيحة بلينٍ ولطف لأنّ الشّدّة تنفّر الآخر وإن هو لم يكن لديه

ما يمليه عليه من رأي فأحرى به أن يدله على من يثق به ليتم معروفه له.

أما حقّ المشير عليك: ((فلا تتهمه فيما لا يوافقك عليه من رأيه إذا أشار عليك فإنَّما هي الآراء وتصرف الناس فيها واختلافهم فكن عليه في رأيه بالخيار إذا اتهمت رأيه ... ولا تدع شكره على ما بدا لك من أشخاص رأيه وحسن مشورته، فإذا وافقك حمدت الله...))[١٠٢] فالإمام هنا يطلب من المشير عدم اتهام المستشير في رأيه، وهو غير ملزم للأخذ بهذا الرأي وإن تطابق الرأيان فعليه أن يحمد الله ويشكر المستشير.

حقّ المستنصح وحقّ النّاصح:

أما حقّ الأوّل بحسب الإمام ﷺ: ((أن تؤدي إليه النصيحة على الحق الذي ترى له أنّه يحمل، ويخرج المخرج الذي يلين له مسامعه، وتكلفه .... بما يطيقه عقله، فإنّ لكلّ عقل طبقه من الكلام يعرفه ويجتنبه، وليكن مذهبك الرّحمة...))[١٠٣]. وفي النّص يريد الإمام ﷺ أن يعطي درسًا للمستنصح كيف يكون أسلوبه الذي يصوغ به النّصيحة، فطلب أن نقابل المستنصح بمر الحقّ والصّراحة القاسية، ولا نسايره بما يتّفق مع حاجاته ورغباته مع الأخذ بنظر الاعتبار أنَّ لكلّ شخص أسلوبه الواجب التعامل على أساسه معه بحسب ثقافته[١٠٤].

أمّا حقّ النّاصح: ((فأن تلين له جناحك، ثم تشرئب له قلبك، وتفتح له سمعك، حتى تفهم عنه نصيحته، ثم تنظر فيها، فإن وفّق فيها للصواب حمدت الله على ذلك وقبلت منه ... وإن لم يكن وفق لها فيها، رحمته، ولم تتهمه، وعلمت أنّه لم يألك نصحاً إلا أنّه أخطأ، إلّا أن يكون عندك مستحقًّا للتهمة، فلا تعبأ بشيء من أمره))[١٠٥].

لا شكّ أنَّ النَّاصح هو إنسان حكيم صقلت فكره التجارب، وأكسبته الأيام خبرة واسعة، والإمام ﷺ يطلب من النّاصح على المستنصح أن يكون معه لين الجانب متواضعًا، ويسمع منه بقلب منفتح، وأن يسمعه بموضوعية تامّة، فإن أفاده رأيه حمد الله وإن لم يوفّق لذلك ليس عليه أن يتّهمه بشيء، فكلّ إنسان يُخطئ ويصيب، أمّا إذا تحرّيت عدم دقّته وأنّه لم يتقصَّ جميع حيثيّات الموضوع، وأنّه لا يريد لك الخير، فعليك أن تهمله وحسابه على الله.

رابعاً: حقّ من تجمعك معهم منافع أخروية وتتضمّن:

حقّ المؤذن: وحقّه بحسب ما جاء عن الإمام ﷺ: ((أن تعلم أنّه مذكّرك بربّك وداعيك إلى حظّك، وأفضل أعوانك على قضاء الفريضة التي افترضها الله عليك، فتشكره على ذلك شكرك للمحسن إليك وإن كنت في بيتك متّهمًا لذلك، لم تكن لله متّهمًا في أمره، وعلمت أنّه نعمة من الله عليك، لا شكّ فيها فأحسن صحبة نعمة

الله ...))[١٠٦].

الصّلاة ترفع بالمصلّي إلى أرقى درجات الكمال والفضيلة وهي التي تنهاه عن الفحشاء والمنكر والرافع لذكر النشيد السّماوي -الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على خير العمل، هو المؤذن المذكر بالله تعالى، وهو المحرك للإنسان نحو الصلاة، فالحق له أن يشكر ويحسن إليه[١٠٧].

حقّ إمامك في صلاتك: وحقّه كما نص الإمام ((فأن تعلم أنّه تقلد السفارة فيما بينك وبين الله، والوفادة إلى ربّك، وتكلم عنك ولم تتكلم عنه، ودعا لك ولم تدعُ له، وطلب فيك، ولم تطلب فيه، وكفاك همّ المقام بين يدي الله، والمسألة له فيك، ولم تكلفه ذلك، فإن كان في شيء من ذلك تقصير كان به دونك، وإن كان آثامًا لم تكن شريكه فيه، ولم يكن لك عليه فضل، فوقى نفسك بنفسه، ووقى صلاتك بصلاته، فتشكر له على ذلك))[١٠٨]

لا شك أنّ صلاة الجماعة فيها أجر كبير، وسرّ دقيق، وبالخصوص إذا كانت خلف إمام اكتملت فيه شروط الإمامة، وهذه الصلاة تحمل مضامين عدّة أوّلها المساواة بين المسلمين، ولإمام الجماعة فضل كبير على المؤمنين به، وذلك لما يترتّب من الثواب الجزيل على الجماعة، فضلاً عمّا تضمّنه النص من أفضال على المصلّين، لذا أوجب الإمام ﷺ على المؤتم الشكر والثناء لإمام الصلاة.

ج - حقّ من سرّك الله به وعلى يديه: فأوضح الإمام زين العابدين حقوقه بقوله: ((فإن كان تعمدها لك حمدت الله أوّلاً ثم شكرته على ذلك بقدره في موضع الجزاء، وكافأته على فضل الابتداء، وأرصدت له المكافأة، وأن لم يكن تعمدها حمدت الله وشكرته، وعلمت أنّه منه توحدك بها -أي اختصك بها...))[١٠٩].

والإمام ﷺ هنا يرتفع بنفسية المسلم عن الإساءة لأخيه المسلم ليدخل في عداد العاملين على مسرّته وممن يبادر في إدخال السرور على قلوب الناس بل هو من خيار الناس، والواجب على المسرور تقبّل ذلك بالشكر وذكر فضل الإحسان، وإن كان الله قد اختص المسلم بهذه المسرة على يد أحد عباده دون تعمّد من الأخير، فعلى المسلم شكر الله وبالشكر تدوم النّعم[١١٠] .

د- حقّ صاحب المعروف عليك: فبحسب الإمام ﷺ ((إن تشكره وتذكر معروفه وتنشر له المقالة الحسنة وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله سبحانه، فإنَّك إذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سرًّا وعلانية، ثم إن أمكن مكافأته بالفعل كافأته...))[١١١].

لا شكّ أنَّ فاعل الخير والمعروف رجل صالح طابت نفسه، وسخت كفّه حتى أصبح فعل الخير سجيّة من سجاياه، يبادر إلى فعله عندما يعلم به دون سؤال ولا التماس، والإمام هنا يوجب علينا تقديم الشكر للمحسن بل ونشر معروفه بين أفراد المجتمع حتى يتسابق أهل الخير إلى فعله فيما بينهم فضلاً عن مبادرة المحسن إليه

بالدعاء لمن أحسن إليه اعترافاً بالجميل فضلاً عن ترقّب الفرصة لردّ الإحسان والمعروف إن تمكّن [١١٢].

خامساً: حقوق من يجمعك معهم مكان :

حق الصاحب: وحقّه بنصه ﷺ: ((أن تصحبه بالفضل ما وجدت إليه سبيلاً وإلا فلا أقل من الإنصاف، وأن تكرمه كما يكرمك، وتحفظه كما يحفظك، ولا يسبقك فيما بينك وبينه إلى مكرمة، فإن سبقك كافأته، ولا تقصر به عمّا يستحق من المودّة، تلزم نفسك نصيحة وحياطته، ومعاضدته على طاعة ربّه ومعونته على نفسه فيما لا يهم به من معصية ثم تكون عليه رحمة ولا تكونه عليه عذاباً...))[١١٣].

في الواقع ليست الصحبة في الإسلام تعارفًا عابرًا جانبيًّا بل لها حقوقها إليّ يجب مراعاتها على كلّ صاحب تجاه صاحبه، فالصّاحب يكتسب من صاحبه عاداته وأخلاقه، وتقاليده وأفكاره، لذا على الإنسان أن يتمهّل في اتخاذ الصّديق، وعليه أن يلتزم بما حدّده الإمام السجاد ﷺ من حقوق كي يبني الصّداقة الجادّة الحقّة المبنية على المعروف لا الغايات[١١٤].

حقّ الجليس: وحقّه بحسب نصّ الإمام ﷺ: ((...أن تلين له كنفك، وتطيب له جناحك، وتنصفه في مجاراة اللفظ ولا تغرقه في نزع اللحظ إذا لحظت، وتقصد في اللفظ إلى إفهامه إذا نطقت، وإن كنت الجليس إليه كنت في القيام عنه بالخيار، وإن كان المجالس إليك كان بالخيار ولا تقوم إلّا بإذنه ...))[١١٥]. والإمام هنا ينبّهنا إلى آداب يمكن إيجازها بما يلي:

- أن يلين الجليس جانبه لجليسه، ولا يتلفّظ بكلام فيه غلظة وشدّة.
- أن يظهر تقديره وتكريمه.
- أن ينصفه إذا خاض الحديث معه ولا يظهر أنّه أعلى شأنًا منه.
- أن يقتصد بإفهامه عندما يوجّه الكلام.
- إذا جاء قبله فعليه الاستئذان منه إذا أراد القيام، أما إذا جاء بعده فله الخيار في المقام.

ج- حقّ الجار، وحقّه كما ورد عنه ﷺ: ((...حفظه غائباً، وكرامته شاهداً، ونصرته ومعونته في الحالين جميعاً، ولا تتبع له عورة ولا تبحث له عن سوءة لتعرفها، فإن عرفتها منه عن غير إرادة منك ولا تكلّف كنت لما علمت حصنًا حصينًا وسترًا ستيرًا، لو بحثت الألسنة عنه لم تتّصل إليه لانطوائه عليك، لا تستمع إليه من حيث لا يعلم، لا تسلمه عند شديدة – أي لا تنال منه عند المصيبة – ولا تحسده عند نعمة، وتقبل عثرته، وتغفر زلّته، ولا تدّخر – تبخل – حلمك عنه إذا جهل عليك، ولا تخرج أن تكون سلماً له، ترد عنه الشتيمة، وتبطل فيه كيد حامل النّصيحة، وتعاشره معاشرة كريمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله))[١١٦].

لقد اهتم الإسلام بالجار اهتماماً بالغاً وجعل له حقوقًا كثيرة تنطلق من حبّ التّعاون بين الإنسان وأخيه الإنسان، وقد أوصى الله تعالى به في قوله ((وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ))[١١٧] أمّا بخصوص حقوقه في رسالة الإمام عليه السلام فهي جاءت لتلقي الأضواء عليها وهي خمسة عشر حقًّا كلّها بحسب النّص الشّريف مهمّة ولا يمكن إغفال أهمّيّة أحدها على الآخر، لذا دعانا الإمام عليه السلام بضرورة التّمسّك بها لأنّها من تعاليم الدّين الإسلامي الحنيف وشريعته السّمحاء، وبحسب ما جاء في القرآن، ووصايا النبي صلى الله عليه وآله، وآل البيت عليهم السلام، فنحن لا نظنّ أن هناك شريعة أعطت للجار من الحقوق ما أعطاه الإسلام العظيم.

د. حقّ أهل الملة: فنصّ عليه الإمام بقوله: ((وأمّا حقّ ملّتك عامة فإضمار السّلامة، ونشر جناح الرّحمة والرّفق بمسيئهم وتآلفهم، واستصلاحهم، وشكر محسنهم إلى نفسه وإليك فإنَّ إحسانه إلى نفسه إحسانه إليك، إذ كفّ عنك أذاه، وكفاك مؤونته، وحبس عنك نفسه، فعمهم جميعاً بدعوتك، وانصرهم جميعاً بنصرك، وأنزلهم جميعاً منازلهم كبيرهم بمنزلة الوالد، وصغيرهم بمنزلة الولد، وأوسطهم بمنزلة الأخ، فمن أتاك تعاهدته بلطف ورحمة، وصل أخاك بما يجب للأخ على أخيه ...))[١١٨].

لقد كرّم الله تعالى الإنسان بقوله: ((**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**))[١١٩] فهذا التّفضيل من الباري عزّ وجل يوجب على الإنسان المسلم مراعاة حقوق أخيه المسلم الآخر، وقد أوجب الإمام زين العابدين عليه جملة حقوق هي:

- إظهار السّلامة وترجمتها بدرجة أعلى فضلاً عن المودّة والإخاء.
- على المسلم أن ينشر للمسلمين جناح الرّحمة فلا يتكبّر عليهم ولا يأخذهم بالعنف بل يعفو عنهم .
- أن يرفق بمسيئهم ولا يقسو عليه من أجل إصلاحه وتقويمه.
- أن يعمد إلى تآلفهم ووحدة كلمتهم، ورصّ صفوفهم.
- أن يشكر كلّ محسن منهم على إحسانه، ويشجّعه على هذه البادرة الكريمة التي تعود بالفائدة على المجتمع بأسره.
- أن يعمد على نصرتهم والدّفاع عنهم عند الحاجة، فضلاً عن احترام الجميع، وإنزال كلّ واحد منهم على حسب قدره ومكانته، فالكبير بمنزلة الوالد والأوسط بمنزلة الأخ والصغير بمنزلة الولد [١٢٠].

هـ – حقّ أهل الذّمّة، وحقّهم بحسب ما جاء عنه عليه السلام ((أن تقبل منهم ما قبل الله، وتفي بما جعل الله لهم من الله به على نفسك فيما جرى بينك وبينهم من معاملة، وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمّة الله، والوفاء

بعهده، وعهد رسول الله ﷺ حائل فإنَّه بلغنا أنّه قال: ((من ظلم معاهداً كنت خصمه)) فاتق الله ...))[١٢١].

لقد رعى الإسلام أهل الذّمّة من اليهود والنصارى من الذين دخلوا في ذمّة الإسلام، فعاملهم بالحسنى كما عامل سائر المسلمين، فمارسوا حرّيّاتهم الفكرية والدينية، وعاشوا بأمن ورخاء واستقرار ضمن شروط معينة ودخلوا في عهد مع الإسلام وبموجب هذا العهد أصبحوا أهل ذمّة تجري عليهم أحكام معيّنة، ورغم أنّ الإمام عليه السلام قد أكّد هذه الحقوق التي أعطاها رسول الله ﷺ ربما لما أصاب العديد منهم من ظل جور، إبان تسلّط الحكّام الأمويين [١٢٢] فإنَّ هناك التزامات أوجب العهد التزامهم بها وهي:

- دفع الجزية للحاكم.
- عدم الإتيان بعمل ينافي الأمان للدولة الإسلامية مثل إمداد المشركين أو العزم على حرب المسلمين.
- عدم إيذاء المسلمين بسرقة أموالهم والتّعرض لنسائهم، وإيواء المشركين، والتجسّس لهم.
- عدم التّظاهر بالمنكرات علنًا في بلاد المسلمين كالزّنى وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير؛ لأنَّ المجتمع العربي يرفض المنكرات ويحرّمها[١٢٣].

الخاتمة / في ضوء ما تقدّم نثبت ما يلي:

إنَّ الإمام السجاد عليه السلام كان رائد الإصلاح بالفعل – بعد أبيه الحسين الشهيد عليه السلام إذ لم يدّخر جهداً من أجل إعادة بناء المجتمع الإسلامي الذي شهد متغيّرات ومفاسد كثيرة إبان الحكم الأموي، فسعى جاهداً بالقول والعمل إلى تحقيق إصلاح شامل في المجتمع الإسلامي وعلى مختلف الأصعدة، فنراه تارة يواجه الفكر المنحرف من المجسمة، ومن المرجئة، والجبرية، والمشبهة، وتارة يوجّه علماء عصره – وحتى من وعاظ السلاطين – إلى جادة الصواب وطريق الحق، ناهيك عن توجيه أتباعه والنشئ المسلم إلى التّحلي بالأخلاق والمبادئ السياسية التي سنّها جده الرسول الأكرم محمد ﷺ وآبائه الطاهرين عليهم السلام، فضّلاً عمّا أرساه من مبادئ المساواة، والرّقي بالإنسان المسلم من خلال إنعاش مبدأ التّكافل الاجتماعي، والقضاء – ما استطاع سبيلاً – على ظاهرة الفقر والرق والعصبية القبلية.

إنَّ الإمام سعى لإيجاد وثيقة أسماها رسالة الحقوق، تعدّ أضخم تراث فكريّ إنسانيّ سبقت وثيقة حقوق الإنسان العالمية بأربعة عشر قرناً أراد من خلالها الرّقي بالإنسان نحو الكمال، والخير، والفضيلة، وهي فوق ذلك عُدَّت دستوراً أمثل لحقوق الإنسان، وهي كما وصفت مشدودة إلى العروة الوثقى لا انفصام لها بما تضمنت من مفاهيم،

وبعد كلّ ذلك فهي تميّزت بأنّها:

- هي رائدة الفكر الإنساني، وسجلّ المعرفة، وفوق ذلك كلّه هي الوسيلة لفهم الإنسان نفسه وما فطرت عليه من مواهب ونزعات، وهي كذلك مقومة للأخلاق ومقدرة للقيم، والمشرف الأعلى على جميع منازع الناس وما احتوت عليه معارفهم وسلوكهم وسائر اتجاهاتهم العقلية والسياسية والاجتماعية .
- إنَّها رسالة تهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض، أفرادًا وأزواجًا، حكومات وشعوبًا، دولاً وأجناسًا، تقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثّر بالرأي والهوى، ولا تستميل مع المودة، ولا تصرفها، وتوجه الطاقات البشرية الصّالحة إلى العمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون والفطرة البشرية في تناسق واتساق.
- هي منبع غزير للعلوم الإنسانية ومنهج أمثل للقيم الأخلاقية، ومشرف أعلى على جميع التطورات الاجتماعية والحضارة البشرية فهي أم الرسالات تنسق تنسيقاً كاملاً بين عقائد المسلم وأعماله ومشاعره وسلوكه فتطلق روحه من عقاب الأوهام، وتوجه نفسه نحو الأعمال الصالحة.

وهي أشبه بالغيث تحيي النّفوس بعد موتها وتبعث على طاعة الله، والبعد عن معصيته، وبمقدار ما يبلغ الإنسان من علوم الإمام زين العابدين ﷺ يبلغ حدًّا بعيدًا من العظمة مع الخالدين.

هـ - هي أمّ الرّسالات وملهمة الحضارات تكون للحاكم أساس عدله في حكمه، وللعامل أساس صدقه في عمله، وللمسلم طمأنينة وإيماناً، وللمؤمن بهجة ورضا، وللأمّة نورًا وحقًّا وعدلاً، وحسبها قيمة وفخراً أن غارس بذرتها الإمام زين العابدين بن الحسين ﷺ.

الهوامش

١-الجلالي، جهاد الإمام السجاد، ص٧٣.

٢-البلاذري، أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٨٣، ج٥، ص٢٢، ١-١، ٣١٢؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج١، ص٣٦٢؛ الأصفهاني، الأغاني، ج٧، ص٥، ٤٧، ٥٠؛ الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٠٧ -٢٠٨؛ وهيب، الحياة الاجتماعية، ص١٥٦؛ مال الله، أساليب الدولة الأموية، ص٤١-٤٥؛ ص٥٠٧.

٣-الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج٢، ص١١؛ القمودي، سيكلوجيا السلطة، ص٦٠

٤-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٠٨.

٥-الجلالي، جهاد الإمام السجاد، ص٧٣.

٦- ينظر: الحسن البصري وآخرون، رسائل العدل والتوحيد، ص٣١٤-٣١٥، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٢٣٢؛ ج١٦، ص١٣؛ الكوراني، جواهر التأريخ، ج٢، ٢٢٧.

٧-الجلالي، جهاد الإمام السجاد، ص٨٦. ينظر أيضاً: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، جـ١، ص١٥.

٨-ينظر: ابن طاووس، اللهوف، ص١٠٣.

٩-الصدوق، التوحيد، ص٣٦٦.

١٠-الأربلي، كشف الغمة، جـ ٢، ص٨٩؛ الجلالي، جهاد الإمام السجاد، ص٩٢.

١١-سورة التوبة، آية ١٠٦؛ ينظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص١٥١؛ الريس، النظريات السياسية، ص٧١.

١٢-سورة الزمر، آية ٥٣؛ ينظر: كذلك: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، جـ ٦، ص٢٥٤.

١٣-الجلالي، جهاد الإمام السجاد، ص٩٦.

١٤-الصدوق، الأمالي، ص١١٢؛ الطبرسي، الاحتجاج، ص٣١٧.

١٥-المجلسي، بحار الأنوار، جـ ٤٦، ص١٣٢؛ الحاج حسن، ألإمام السجاد، ص١٧٥-١٧٦.

١٦-المصدر والمرجع نفسهما.

١٧-ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، جـ ١٧، ص٥٥؛ الجلالي، جهاد الإمام السجاد، ص١٣٣.

١٨-المجلسي، بحار الانوار، ج٤٦، ص٧٣؛ الحاج حسن، ألإمام السجاد، ص١٧٩.

١٩-الصدوق، ثواب الأعمال، ص٨١.

٢٠-البحراني، البرهان في تفسير القرآن، جـ ١، ص٤٤.

٢١-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص١٩١-١٩٢.

٢٢-القرشي، حياة الإمام زين العابدين، ص٨١.

٢٣-المجلسي، بحار الأنوار، جـ ٤٦، ص١٣٧؛ الحاج حسن، الإمام السجاد، ص١٩٣.

٢٤-الكليني، الكافي، جـ ٤، ص٩؛ ابن عساكر، تأريخ مدينة دمشق، جـ ٤، ص٣٨٣؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، جـ ١٧، ٢٣٨.

٢٥- ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، جـ ١٧، ص٢٣٨.

٢٦- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٤١، ص٣٨٥.

٢٧-ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، جـ ١٧، ص٢٣٨.

٢٨- الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ٧٠ وما بعدها؛ مال الله، أساليب الدولة الأموية، ص٦٤-٩٠، ص٤٨٧ وما بعدها.

٢٩- الحائري، بلاغة علي بن الحسين ﷺ، ص٢١٧.

٣٠-الجلالي، جهاد الإمام السجاد، ص١٣٧.

٣١-ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ٥، ص١١٠.

٣٢-ابن طاووس، الإقبال، ص٤٤٧.

٣٣-المجلسي، بحار الأنوار، جـ ٤٦، ١٠٤-١٠٥؛ الجلالي، جهاد الإمام السجاد، ص١٤٧.

٣٤-ينظر: زين العابدين، ص٤٧

٣٥-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٣.

٣٦-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٠٩-٢١٠.

٣٧-ابن شعبة، الحراني، تحف العقول، ص١٨٤.

٣٨-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٢١.

٣٩-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٤

٤٠- الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٢٢.

٤١- ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٥-١٨٥.

٤٢-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٢٣

٤٣- ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٥

٤٤-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٢٤-٢٢٥.

٤٥-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٣.

٤٦-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢١١.

٤٧-الكليني، الكافي، جـ ٥، ص٩.

٤٨-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٣.

٤٩-الحاج حسن ألإمام السجاد، ص٢١٢.

٥٠-سورة البقرة، آية ٢٦٣.

٥١-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٣.

٥٢-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢١٣.

٥٣-سورة النساء، آية، ١٤٠.

٥٤-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢١٣.

٥٥-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٣.

٥٦-سورة الأسراء، آية ٣٦.

٥٧-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢١٥.

٥٨-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٣.

٥٩-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢١٥.

٦٠-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٤.

٦١-المصدر نفسه.

٦٢-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢١٧-٢١٨.

٦٣-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٤.

٦٤-المصدر نفسه، ص١٨٧.

٦٥-سورة لقمان، آية ١٤.

٦٦-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٧.

٦٧-المصدر نفسه.

٦٨-المصدر نفسه.

٦٩-المصدر نفسه، ص١٨٥.

٧٠-الجلالي، جهاد الإمام السجاد، ص١٥٣.

٧١-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٦.

٧٢-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٢٨.

٧٣-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٦.

٧٤-الجلالي، جهاد الإمام السجاد، ص١٤٥.

٧٥-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٦.

٧٦-المصدر نفسه.

٧٧-المصدر نفسه، ص١٨٦-١٨٧.

٧٨-المصدر نفسه، ص١٨٧.

٧٩-المصدر نفسه، ص١٨٨.

٨٠-المصدر نفسه.

٨١-المصدر نفسه، ص١٩٢.

٨٢-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٦٠.

٨٣-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٩٢.

٨٤-المصدر نفسه.

٨٥-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٦٢.

٨٦-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٩٢.

٨٧-المصدر نفسه، ص١٩٠.

٨٨-المصدر نفسه.

٨٩-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٤٩-٢٥٠.

٩٠-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٩٠.

٩١- المصدر نفسه.

٩٢-الحاج حسن، الإمام لسجاد، ص٢٥٤.

٩٣-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٩٠.

٩٤-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٥٦.

٩٥-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٩١.

٩٦-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٥٦.

٩٧-سورة الشورى، آية ٤١-٤٣؛ ينظر: ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٩٣.

٩٨-سورة النحل، آية ١٢٦.

٩٩-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٦٥.

١٠٠-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٩١.

١٠١-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٥٦-٢٥٧.

١٠٢-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٩١.

١٠٣-المصدر نفسه.

١٠٤-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٥٨.

١٠٥-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٩١-١٩٢.

١٠٦-المصدر نفسه، ص١٨٨-١٨٩.

١٠٧-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٤٢-٢٤٣.

١٠٨-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٩٢.

١٠٩-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٦٤.

١١٠-المصدر نفسه.

١١١-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٨.

١١٢-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٤١-٢٤٢.

١١٣-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٩-١٩٠.

١١٤-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٤٨-٢٤٩.

١١٥-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٨٩.

١١٦-المصدر نفسه.

١١٧-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٤٦-٢٤٧.

١١٨-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٩٣.

١١٩-سورة الإسراء، آية ٧٠.

١٢٠-الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٦٦.

١٢١-ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٩٣.

١٢٢-البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١٣، ص٤٢٦؛ مال الله، أساليب الدولة الأموية، ص٥٣٥.

١٢٣-الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٨٦؛ الحاج حسن، الإمام السجاد، ص٢٦٧.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

ابن أبي الحديد، عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المعتزلي (٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الكتاب العربي، (بغداد – ٢٠٠٥م)

الأربلي، أبي الفتح علي بن عيسى (ت: ٦٩٣هـ)، كشف الغمة في معرفة أحوال الأئمة، مكتبة علي هاشمي، (تبريز – ١٣٨١هـ)

الاصفهاني، ابو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ)، الأغاني، تحقيق: احسان عباس وابراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر، ط٣، (بيروت – ٢٠٠٨م).

البغدادي، عبد القادر بن طاهر (ت٤٢٩هـ)، الفرق بين الفرق، دار الكتب العلمية، ط٣، (بيروت – ٢٠٠٥م)

البلاذري، ابي الحسن أحمد بن يحيى (ت٢٧٩هـ)، جمل من أنساب الأشراف، حققه وقدم له : د. سهيل زكار، ود. رياض زركلي، دار الفكر، للطباعة والنشر، (بيروت – ٢٠٠٠م)

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر البصري (ت٢٥٥هـ)، رسائل ا لجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (القاهرة – ١٩٦٤م)

الحسن البصري، رسائل العدل والتوحيد، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، ط٢، (بيروت – ١٩٨٨م)

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت٤٦٣هـ)، الفقيه والمتفقه، كتاب مطبوع آلياً.

ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، دار إحياء التراث العربي، (بيروت- ١٩٩٥م).

الصدوق، ابو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، الأمالي، مؤسسة الأعلمي، (بيروت، ١٤٠٠هـ)

ـــــــ، التوحيد، صححه : السيد هاشم الحسيني، مكتبة الصدوق، (طهران – ١٣٩٨هـ)

ـــــــ، ثواب الأعمال، منشورات الأعلمي، (بيروت – ٢٠٠٠)

ابن طاووس، علي بن محمد بن موسى (ت٦٦٤هـ)، الإقبال، (قم – د.ت)

اللهوف في قتلى الطفوف، مطبعة الهادي، (قم – ٢٠٠٣م)

الطبرسي، ابي منصور أحمد بن علي (ت٥٦٠هـ)، الاحتجاج على أهل اللجاج، تعليق: محمد باقر الموسوي، منشورات الأعلمي، (بيروت – ١٤٠٣هـ)

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق: بركات يوسف، دار الارقم للطباعة والنشر، (بيروت – ١٩٩٩م)

ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسين (ت٥٧١هـ)، تأريخ مدينة دمشق، تحقيق: مجد الدين ابي سعيد العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت – ١٩٩٥م)

الكليني، ابي جعفر محمد بن يعقوب (ت٣٢٩هـ)، الكافي، صححه وعلق عليه : علي أكبر غفاري، مؤسسة دار الكتب الإسلامية، ط٢، (طهران – ١٩٦٨م)

الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، (بيروت- د . ت)

المجلسي، محمد باقر (ت١١١١هـ) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء للطباعة، ط٣، (بيروت -١٩٨٣م).

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس ومحمد مطيع الحافظ، (بيروت – ١٩٩٠م)

المراجع:

البحراني، هاشم سليمان، البرهان في تفسير القرآن، مؤسسة اسماعيليان، (قم – د.ت)

الجلالي، محمد رضا الحسيني، جهاد الإمام السجاد، مطبعة شمشاه، (قم -١٤١٨هـ)

الحائري، جعفر عباس، بلاغة علي بن الحسين، ط٢، مطبعة كربلاء، (كربلاء – ١٣٨٥هـ)

الحاج حسن، حسين (الدكتور)، الإمام السجاد جهاد وأمجاد، دار المرتضى، (بيروت – د.ت)

الدوري، عبد العزيز، مقدمة في التأريخ الاقتصادي العربي، (بيروت -٢٠٠٧م)

الريس، محمد ضياء الدين، النظريات السياسية الإسلامية، ط٣، القاهرة – ٢٠٠٠م

سيد الأهل، عبد العزيز، زين العابدين علي بن الحسين، (بيروت – ١٩٥٣م)

القرشي، باقر شريف، حياة الإمام زين العابدين دار الكتاب الإسلامي (قم -١٤٠٩هـ)

القمودي، سالم، سيكلوجيا السلطة، دار المدى للنشر، (بيروت – ٢٠٠٠م)

الكوراني، علي الكوراني العاملي، جواهر التأريخ، دار الهادي، (قم -١٤٢٨هـ).

ثالثاً: الرسائل والأطاريح:

مال الله، حيدر لفته سعيد، أساليب الدولة الأموية في تثبيت السلطة، أطروحة دكتوراه – قيد النشر -، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠١١م.

وهيب، فاروق عباس، الحياة الاجتماعية في دمشق خلال العصر الأموي، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٦م.

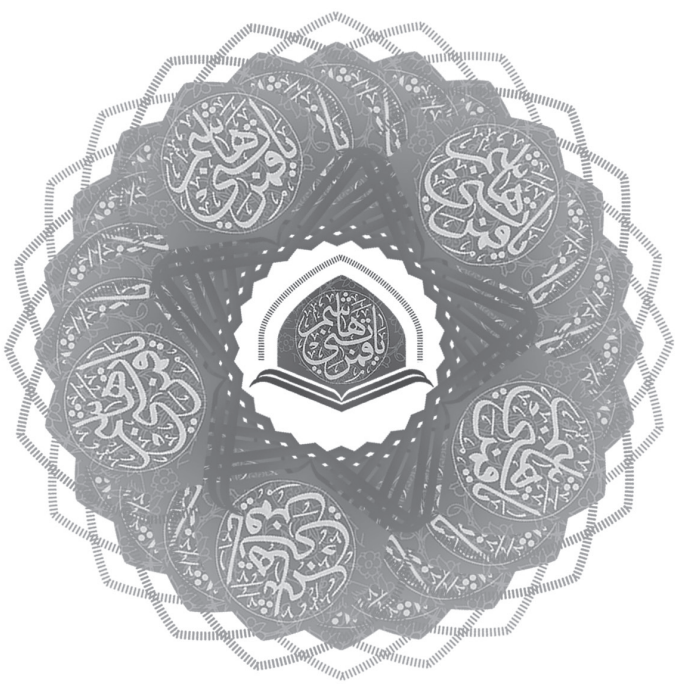

مسؤوليتنا في زمان صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف

الشيخ فوزي آل سيف

هناك روايتان حول انتظار الفرَج[1] إحداهما: عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «خير أعمال أمتي انتظار الفرَج»[2] والأخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أفضل الأعمال انتظار الفرَج»[3].

وهنا يأتي السؤال بعدما كان (انتظار الفرَج) هو خير الأعمال، وأفضل الأعمال ..أي فرج هذا وأي انتظار؟

«انتظار الفرَج» الفرَج تارةً ينظر إليه بأنّه اسم جنس وأخرى ينظر إليه بأنّه اسم معهود لفرج معين .

فقد يقال إنّه لما كان الكلام صادرًا عن النبي وأمير المؤمنين عليهما السلام، وهما متقدّمان جداً عن قضية الانتظار للفرج الخاص المرتبط بالإمام المهدي، فمن ذلك يظهر أنَّ فيه عموميّة، يعني أنَّ أفضل الأعمال أن يكون الإنسان منتظرًا لفرج الله في كلّ شيء، فإذا كان الشخص ينظر إلى وضع سياسي متأزّم، ويخشى أن تتأزم الأمور بنحو أسوأ، وتضيق الأرض بما رحبت .. يقال له: انتظر فرج الله! ولا تيأس من رَوح الله! ولا تقنط! وكذا على المستوى الشخصي لو كنت في وضعٍ ماليّ شديدٍ والمستقبل أمامك مجهول، فلا تستلم لعوامل السّلب وإنَّما انتظر الفرَج من الله تعالى ! تفاءل بأن يأتيك العون والنصر! أحسن الظن بالله سبحانه! وفي أمور صحّتك كذلك .. وسائر الأمور.

أفضل الأعمال هو انتظار الفرَج من الله والتيسير في الأمور المختلفة.

هذا كلّه على المستوى الشّخصي والفردي.

إلا أنَّ التّأويل الأعظم لذلك هو عندما يكون الفرَج على مستوى البشرية، على أثر قدوم قائم آل محمد "عجل الله فرجه" فإذا كان الإنسان في حوائجه الشخصية، صحّته وتجارته وتعليمه وأولاده وأسرته مأموراً بأن ينتظر الخير، ويترقّب الفرَج فهو في أمر يرتبط بمستقبل البشرية كلّها، تحرّرها من سيطرة طواغيت المال والقوّة والسياسة، وسيادة عدل الله في أرضه، وتكامل الإنسان في طريق إنسانيته، ورفع الظلم عن المستضعفين

(١) فرّج الله الغم يعني كشفه وأزاله.

(٢) كمال الدين: ١/ ٦٧١ .

(٣) بحار الأنوار: ٧٥/ ٢٠٨.

والمضطهدين الذين أكلت أغلال السجون لحوم أبدانهم النحيلة!

هذا هو الفرَج الحقيقي في كماله وشموله، الذي يفترض أنَّ الكائنات ستحتفي به بدءًا من الأرض التي بعدما أشرقت بظهوره بنور ربّها، أخرجت له أثقالها وبركاتها.

ماذا يعني الانتظار ؟ وما هي مسؤوليات المنتظِر

حيث إنَّ صاحب تفسير الأمثل قد تعرّض لهذا المفهوم بنحوٍ مفصّل ومشرق، فسننقل نصّ عبارته إكمالاً لفائدة القارئ، فقد قال تحت عنوان مفهوم الانتظار!

« الانتظار: يطلق عادةً على من يكون في حالة غير مريحة وهو يسعى لإيجاد وضعٍ أحسن.

فمثلا المريض ينتظر الشفاء من سقمه، أو الأب ينتظر عودة ولده من السفر، فهما -أي المريض والأب- مشفقان، هذا من مرضه وذاك من غياب ولده، فينتظران الحال الأحسن، ويسعيان من أجل ذلك بما في وسعهما.

وكذلك ـ مثلاً ـ حال التّاجر الذي يعاني الأزمة السوقية، وينتظر النشاط الاقتصادي. فهاتان الحالتان أي: الإحساس بالأزمة، والسعيُ نَحْوَ الأحسن هما من الانتظار.

فبناءً على ذلك، فإنَّ مسألة انتظار حكومة الحقّ والعدل، أي حكومة «المهدي عليه السلام» وظهور المصلح العالمي، مركبة في الواقع من عنصرين: عنصر نفي، وعنصر إثبات، فعنصر النفي هو الإحساس بغرابة الوضع الذي يعانيه المنتظر، وعنصر الإثبات هو طلب الحال الأحسن!

وإذا قُدّر لهذين العنصرين أن يحلّا في روح الإنسان فإنّهما يكونان مدعاة لنوعين من الأعمال وهذان النّوعان هما:

١ ـ ترك كلّ شكلٍ من أشكال التّعاون مع أسباب الظّلم والفساد، بل عليه أن يقاومها، هذا من جهة.

٢ ـ وبناء الشخصية والتّحرّك الذّاتي وتهيئة الاستعدادات الجسمية والرّوحية والمادّيّة والمعنوية لظهور تلك الحكومة العالمية الإنسانية، من جهة أُخرى.

ولو أمعنّا النظر لوجدنا أنَّ هذين النّوعين من الأعمال هما سبب في اليقظة والوعي والبناء الذّاتي.

ومع الالتفات إلى مفهوم الانتظار الأصيل، ندرك بصورة جيّدة معنى الرّوايات الواردة في ثواب المنتظرين وعاقبة أمرهم، وعندها نعرف لِمَ سَمّت الرّوايات المنتظرين بحقّ بأنّهم بمنزلة من كان مع القائم تحت فسطاطه «عجل الله فرجه» أو أنّهم تحت لوائه، أو أنّهم كمن يُقاتل في سبيل الله بين يديه كالمستشهد بين يديه، أو كالمتشحّط بدمه! ... الخ ...

تُرى أليست هذه التّعابير تشير إلى المراحل المختلفة ودرجات الجهاد في سبيل الحقّ والعدل، التي تتناسب ومقدار الاستعداد ودرجة انتظار الناس؟

كما أنّ ميزان التّضحية ومعيارها ليس في درجة واحدة، إذا أردنا أن نزن تضحية المجاهدين، في سبيل الله ودرجاتهم وآثار تضحياتهم، فكذلك الانتظار..»[1].

أقول : لهذا لا غرابة أن عد المعصومون ﷺ، انتظار الفرَج، وجهاً من وجوه الفرَج وجانبا منه، فإن محمد بن الفضيل سأل الإمام علي بن موسى الرضا ﷺ فقال : سألته عن شيء من الفرَج، فقال : أليس انتظار الفرَج من الفرَج؟ إن الله عز وجل يقول : « فانتظروا إني معكم من المنتظرين ».[2]بل هو في حديث الإمام زين العابدين ﷺ (من أعظم الفرَج).[3]

إنَّ الانتظار الخاص المرتبط بالإمام الحجّة، هو رجاء أمل وهو في الوقت نفسه اعتراض على الواقع القائم، كما أنّه إحساس برقابة الإمام على المكلّف المنتظِر .

وهو بالتالي يحمل المؤمن عدداً من المسؤوليات نشير إليها باختصار:

الأولى: هي مسؤولية المعرفة

معرفة الإمام جزء من العقائد الدينية الأساسية ذلك أنّ من الإشكاليات الكبيرة في عالم المسلمين اليوم هي: كيف يتعاملون مع الحديث المعروف بين فِرق المسلمين جميعاً عن رسول الله ﷺ القائل: ((من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهلية))[4] أو من مات ليس في عنقه بيعة لإمام مات ميتةً جاهليةً ؟

وبالطبع لا يمكن تطبيق هذا الحديث وأمثاله بنحوٍ صحيح إلا على طبق فهم المدرسة الإمامية، فإنّهم يعرفون إماماً من الله عز وجل منصوص عليه، وفيه مقاييس الإمامة بصيغتها الكبرى، فهم يبايعونه ويدينون بالولاء له.

نعم تبقى إشكالية حياته وطول بقائه لهذه المدة الطّويلة، والمفروض أنّ العلماء قد قدّموا البراهين عليها في علم الكلام!

---

(١) الأمثل في تفسير الكتاب المنزل ؛ ناصر مكارم الشيرازي : ٦/ ٢٤ .

(٢) بحار الأنوار؛ المجلسي محمد باقر :٥٢/ ١٢٨.

(٣) كمال الدين: ١/ ٣٤٨.

(٤) الكافي ١ / ٣٧٧ عن الإمام الصادق ﷺ نسبه لرسول الله ﷺ، وفي مصادر مدرسة الخلفاء، جاءت الروايات بنفس المعنى ولكن بصياغة مختلفة مثل (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) كما في صحيح مسلم ٦/ ٢٢ وفي المعجم الأوسط (من مات وليس عليه إمام ..).

أما غير الإمامية والحديث بل الأحاديث ثابتة عندهم فماذا يصنعون؟! وليس المقصود أن يكون في عنق المسلم بيعة لإمامٍ ما وقائدٍ من أيّ صفة، فهذا تحصيل للحاصل، إذ ما من شخص لا يكون رئيساً متبوعاً إلّا كان مرؤوساً تابعاً، وإنّما المقصود أن يكون إمامٌ عن الله عز وجل يهدي إليه، ويؤمر الشخص باتباعه وطاعته طاعة تامة. بمقتضى: (**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**).و(إمام الحق)، فهل الإمام الحق هو السلطان السياسي؟ أو العالم الديني؟ وأيّهما هو صاحب البيعة، وفي حالات الاضطراب والنزاع بين الحكّام والولاة ماذا يصنعون ؟ يبقون على ولاء الحاكم المخلوع أو يبايعون الخالع؟!

إنَّ معرفة الإمام والقائد لهي ضرورة دينية قبل أن تكون حاجة دنيوية ! وربما لهذا السبب فإنَّ زرارة عندما حدّثه الإمام جعفر الصادق ﷺ عن زمان الغيبة، أخبره بماذا ينبغي فعله وقال: ادعُ بهذا الدعاء (اللهم عرفني نفسك فإنَّك إن لم تُعرّفني نفسك لم أعرف نبيّك، اللهم عرّفني نبيك فإنَّك إن لم تُعرّفني نبيّك لم أعرف حجتك، اللهم عرّفني حجّتك فإنَّك إن لم تُعرّفني حجّتك ضللت عن ديني) ويلاحظ دقّة التّسلسل والارتباط الوثيق بين معرفة الله والنبي والإمام .

وإذا كانت المشكلة عند غير الإمامية في التشخيص الأساسي والعنوان الرّئيس، فإنّها أيضاً موجودة بدرجة من الدرجات في تشخيص الصادق من الكاذب، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك عند الحديث عن الدعوات المهدوية الكاذبة، وكيفية اكتشاف الكَذَبة فيها. فإنَّ المسار الأصلي لدى الإمامية واضح وهو أنَّ الإمام محمد بن الحسن المهدي هو صاحب الزّمان وهو المهدي التاسع من ولد فاطمة المولود في زمان أبيه العسكري والباقي على قيد الحياة بقدرة ربّه. إلّا أنَّ المشكلة عندما يأتي قطّاع الطّرق فينسبون أنفسهم إليه (باب المهدي، وابن المهدي، ووكيله، وأحيانًا حتى يزعمون؛ نفس المهدي!!) فهنا قد يشتبه الأمر على بعض الناس. ويحتاجون إلى أن يدعوا ربهم (اللهم عرّفني حجّتك).

الثانية: مسؤولية الارتباط وتوثيق العلاقة مع الإمام المهدي «عجل الله فرجه».

ذلك أنَّ إحدى المعضلات في حياة الناس أن تتعامل مع إمام غير حاضر أمامك. وهي المعضلة الأساسية في تعامل البشر مع الغيب، ذلك أنَّ الإنسان يميل عادةً إلى المجسد والحاضر أمامه يتفاعل معه بحواسّه، وهذا ما يذكره علماء الاجتماع عند جوابهم على سؤال: مع وجود فطرة في البشر تهديهم لوجود إله للكون إلَّا أنَّهم مع ذلك يذهبون؛ ليصنعوا أصناماً وأوثاناً فيظلوا لها عاكفين ! مع أنَّهم هم الذين صنعوها! أجابوا عن ذلك بأنَّ تعامل الإنسان مع الشيء المجسّد والخارجي أسهل وأسرع من تعامله مع المجردات والغيب.

ومثل ذلك تعامل الإنسان مع الإمام الحاضر والقائد الموجود معه وأمام عينه، أسهل وأيسر من تعامله مع إمام غائب .. وهذا ـ لا ريب ـ أحد امتحانات الإنسان المؤمن.. ولكي يجتازها بسلامة لابُدّ أن يضاعف ارتباطه بإمامه وعلاقته بقائده حتى يتغلّب على عناصر الغياب المؤثرة سلبيًّا.

هذا مع تذكيرنا الدَّائم والذي تم شرحه في موضوع آخر بمعنى الغيبة للإمام المهدي ﷺ .

ربما من أجل ذلك فقد وضعت مجموعة من البرامج يمكن أن تُعوّض هذا البعد (المادّي) بتقوية العلاقة النفسية والارتباط القلبي والعاطفي من أدعية وزيارات، منها على سبيل المثال (دعاء الندبة) الذي يستحب أن يُقرأ في أيّام الجُمع وأيّام الأعياد.

وربما يتساءل أنَّه هل لهذا الدّعاء سندٌ معتبر[1] أم لا ؟!

يرى بعض الباحثين أنَّ هناك طرقًا يمكن من خلالها تقوية مثل هذا الدّعاء:

***الطَّريق الأوّل**: أنَّه قد اعتمد عليه في الاستدلال الكلامي والفقهي بعض أعيان الطائفة، والاستدلال بنص في العقائد والفقه على أصل عقدي أو حكم شرعي يقتضي أن يكون ثابتًا في نظر المستدل، حيث إنَّ المطلوب في الفقه والعقائد من القيود والاشتراطات في الدليل أكثر مما هو مطلوب في الأدعية والمواعظ، وقد أشرنا إلى ذلك في شرح دعاء الندبة.

الطّريق الثاني: أنَّه قد رواه ـ أو بعض فقراته ـ من يُعد من المتشدّدين في أمر السّند وهو السيد علي بن طاووس[2] رحمه الله، فإنَّه يعدُّ أوّل من خالف طريقة القدماء في تصحيح الأحاديث، ونهج منهجًا جديدًا تبلور فيما بعد بشكلٍ أكبر لدى تلميذه العلامة الحلي، واعتبر أن ما يكون سنده إلى المعصوم مشتملا على راوٍ ضعيف أو مجهول، فإنَّه يصنّف بعدّه خبرًا ضعيفًا لا يمكن الاعتماد عليه.

وما دام الذي نقله في كتابه لديه هذا المنهج فلا بُدّ أن يكون قد لاحظ سند الدعاء ولو لم يره صالحًا لما نقله في كتابه، ولاسيما وهو المؤسّس لهذا المنهج الذي سُمّي بتربيع الأحاديث ..

الأمر الثالث: أنّ بعض أعيان الطّائفة قد صرّح بأنَّ له سندًا معتبرًا، ومن أولئك العلامة المجلسي وهو الخبير بأحاديث المعصومين ﷺ. فقال في كتابه زاد المعاد: «وَأَمَّا دُعَاءُ النُّدْبَةِ الْمُشْتَمِلُ عَلَى الْعَقَائِدِ الْحَقَّةِ وَالتَّأَسُّفِ

---

(١) تم الحديث بشكل مفصل عن دعاء الندبة ؛ سنده ومقاصده ومضامين كلماته بعنوان : تأملات في (دعاء الندبة) لمؤلف هذا الكتاب. وهنا إشارات سريعة ومختصرة له .

(٢) رضي الدين ابو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني (ت ٦٦٤ هـ) أستاذ العلامة الحلي ووالده، وصاحب نقابة الطالبيين في عهده، عرف بالقداسة والكرامات حتى نقل أنه ما اتفقت كلمة الاصحاب على اختلاف مشاربهم وطريقتهم على صدور الكرامات عن احد ممن تقدمه أو تأخر عنه غيره. بل قال المحدث النوري صاحب المستدرك ـ كما نقله عنه تلميذه القمي ـ ويظهر من مواضع من كتبه خصوصا كشف المحجة ان باب لقائه الامام الحجة ﷺكان مفتوحا.. له عدد من الكتب المتداولة والمطبوعة .

عَلَى غَيْبَتِهِ (عج) فَمَرْوِيٌّ بِسَنَدٍ مُعْتَبَرٍ عَنِ الْإِمَامِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ إِنَّ قِرَاءَتَهُ مَسْنُونَةٌ فِي الْأَعْيَادِ الْأَرْبَعَةِ أَيْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَوْمَ عِيدِ الْفِطْرِ وَيَوْمَ عِيدِ الْأَضْحَى وَيَوْمَ عِيدِ الْغَدِيرِ، وَهُوَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَهُ الْحَمْدُ رَب الْعَالَمِينَ وَصَلَّى الله عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَآلِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيماً اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا جَرَى بِهِ قَضَاؤُكَ فِي أَوْلِيَائِكَ ...»[1].

الأمر الرّابع: بناء الدّعاء ككل في معانيه وألفاظه يشير إلى أنّه صادر من تلك المشكاة المعصومية، ومضامينه موجودة في روايات أخر، فهو يبدأ في تاريخ الأنبياء ورسالتهم، وأهم صفاتهم وأدوارهم، ثم ينتهي بالأمر إلى نبيّنا المصطفى محمد ﷺ وسلامه. ويبين شرائف أعماله .

وبعده يذكر الحدث الذي حصل بعد وفاة رسول الله ﷺ من انقلاب الحزب القرشي على ولاية أمير المؤمنين مع ما كان عليه الإمام من الشأن العظيم والمنزلة الرفيعة التي بيّنتها الأحاديث النبوية المعتبرة.. وبعد أن يُبيّن الدعاء أنَّ هذا الانقلاب كان فاتحة المظالم وبوّابة الأحزان على آل محمد (فقُتل من قُتل وسُبي من سُبي وأُقصي من أقصي).. أخيرًا وبعد أن يتفجّع ويتوجع من صعوبة الوصول للإمام المهدي عجل الله فرجه، يوقد شعلة الأمل ولا يستسلم لظلمات اليأس، فيتمثّل الدّاعي مواقف الظهور المهدوي والانتصار الرسالي : "أترانا نحفّ بك وأنت تؤم الملأ وقد ملئت الأرض عدلاً، وأذقت أعداءك عذاباً وهوانا...".

ولا ينحصر الأمر بهذا الدّعاء بل إنَّ الأدعية والزيارات التي تتكفّل بتقوية العلاقة بالإمام ﷺ كثيرة، فمنها ما عرف بدعاء العهد والذي يستحب أن يدعو به المؤمن كلّ يوم بعد صلاة الفجر، ولا يخفي ما للتوقيت من مداليل، هذا فضلاً عن تعابير الدّعاء ومضامينه لمن أراد أن يتدبّرها . (اللهم إنِّي أجدّد له في صبيحة يومي هذا وما عشت من أيّامي عهدًا وعقدًا وبيعة له في عنقي لا أحول عنها ولا أزول عنها أبدًا).[2]وأضاف العلامة المجلسي قائلاً: قد روي بِسَنَدٍ مُعْتَبَرٍ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ مَنْ قَرَأَ هَذَا الْعَهْدَ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ أَنْصَارِ الْحُجَّةِ ..

المسؤولية الثالثة: السعي لتحقيق المجتمع الذي أراده صاحب العصر والزمان "عجل الله فرجه"...إنَّ انتظار الفرَج لا يعني التّوقّف السلبي عن ممارسة مسؤوليات الإصلاح، وإنَّما هو تهيئة الأمور لقدوم صاحب الفرَج. إنَّ من ينتظر ضيفًا لا يصحّ له أن يقف على قارعة الطّريق واضعًا يده على خدّه، وإنَّما يُهيّئ المنزل لقدومه، ويرتّب أمور الضيافة حتى إذا جاء يكون كلّ شيء جاهزًا، وأمّا لو ترك ذلك واكتفى بالنظر إلى نهاية

---

(١) زاد المعاد ١/ ٣٠٣ الأعلمي بيروت ١٤٢٣.

(٢) زاد المعاد ١/ ٣٠٢ وأيضا وصفه العلامة المجلسي بأنه بسند معتبر .

الشارع ليرى ضيفه فقط، فهو يكون محطّ الملامة والعتاب، وينسب إلى التّقصير في شأن ضيفه .

والفلاح الذي ينتظر نزول المطر بعد شهرين مثلاً، لا يصحّ منه أن يلاحظ تصرّم الليالي والأيّام بعنوان أنّه منتظر للمطر وإنَّما يجب أن يُهيئ أرضه ويحرثها، وينظم سواقيها، ثم يبذر البذور المناسبة حتى إذا جاء المطر المنتظر على أرضه (**اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**).[1]

إنَّ المنتظِر الحقيقي هو من يعمل لتهيئة الأرض للإمام الحجّة، ويعدّ العُدّة لاستقبال هذا المنتظَر العظيم والقادم الكبير. المؤمن يسعى في بناء مجتمعٍ نعت الله أهله في كتابه فقال: صفًّا كأنّهم بنيان مرصوص على طاعة الله وطاعة نبيه وأهل بيته.. ينبغي أن يسأل الإنسان نفسه هل ساهم في رصّ الصفوف المختلفة أو أنّه زاد في شقوقها شقًّا جديدًا، وأضاف إلى صدوعها صدعًا حديثًا ؟

هل يسعى لإقالة المؤمنين عثراتهم؟ أو أنّه يعمّق الحفر التي وقعوا فيها. وهل يستر العائبة ويغطّي المثلبة لو سمعها عن مؤمن؟ أو أنّه يُسارع إلى إشاعة الفاحشة عنه، ونشر البغضاء حوله ؟

إنَّ بعض التعبيرات الواردة في ملاحم ما بعد الظهور تحتاج إلى إعادة شرح وتفهيم، ولا ينبغي أن ينظر إليها دائمًا بعيون غيبية وإعجازية ما دام يمكن حملها على المعادلات الطّبيعية والعادية العرفية، مثلا ما ورد من أنّه (إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت بها أحلامهم)، فقد لا يكون الأمر ضمن الإطار الغيبي البحت، وإنَّما ربّما يكون نتيجة البرامج التي تبث من قبل الإمام ﷺ وتوجيهه فيتحوّل الناس بفضل هذه البرامج إلى أشخاص على مستوى متقدّم من الكمال العلميّ والمعرفة.

وفي هذا لا شكّ تحريض على التّحرّك باتجاه تحصيل العلم ورفع القدرات العقلية، وأنَّ الإمام ﷺ يريد تحقيق هذا الهدف.

ما لا ينبغي الانشغال به أو تصديقه:

كما أنّ هناك مسؤوليات لا بُدّ من العمل عليها كما تقدّم، فإنَّ في مقابلها أمورًا تُعدّ مشغلة للناس مع أنَّه لا ينبغي الانشغال بها، وصرف الوقت والجهد فيها:

التفتيش عن رؤية الإمام أو أوامره ؟

إنَّنا نلاحظ أنَّ كثيرًا من الناس يفتشون عن إمكانية رؤيتهم للإمام المهدي ﷺ، والبعض يحصل لهم تصوّر أنَّهم قد رأوا الإمام مرّة أو مرّات.

وقد تواجه بالتكذيب أو بالتشكيك عندما تتحدث عن رؤية الإمام، لكن لا أحد سيخالفك لو طبقت ما

---

(١) الحج / ٥.

كان يؤكّده الإمام الحجة وآباؤه من صلاة الجماعة مثلا ! تحقيقك لها والتزامك بها لا ريب أنّه يتوافق مع إرادة الإمام الحجة ويفرح قلبه، ويسرّه ذلك ..

روايات الملاحم ؟

نعتقد أيضًا أنَّ الإنشغال الزّائد عن الحدّ في تطبيق الحوادث الواقعة على خريطة الرّوايات الموجودة في تراثنا الدّيني ليس مما ينبغي.. هذا إذا سلمت تلك الرّوايات من حيث الأسانيد ووصلت إلينا بطريق صحيح وهو أمر يصعب التّوثق منه !

لقد رأينا من الناحية العملية أنَّ بعض العلماء ـ تدفعهم الحميّة الدّينية والثّقة التامة بأنَّ ما يجري من الأحداث هو مقدّمات متسلسلة لظهور الحقّ، وفرج الإمام ﷺ، إلّا أنَّ هذا قد تكون له آثار غير مستحسنة .. قد نشير لها في موضع آخر . ذلك أنَّ ما هو موجود في الرّوايات ليس دقيقًا غاية الدّقة، وإنَّما فيه مجال أن ينطبق على حوادث متعدّدة مع اختلاف تاريخها وشخصياتها، فبعض تلك الأحداث قد تنطبق على الخلافة العبَّاسية في دورها الثاني أو الأخير .ويمكن أيضًا أن تنطبق على أحداث تحصل في زماننا الفعلي ! كما أنّها يمكن أن تنطبق على أحداث ستقع في المستقبل!

هل يشهر المهدي السيف ولا يغمده ؟

ومن تلك الأمور ما لا ينبغي تصديقه ؟

من أنّ الإمام الحجة إذا خرج فإنَّه يشهر السيف ولا يغمده، يقتل، يسفك الدماء حتى تسيل إلى الركب بل يبقر بطون الحبالى ..ويستشهدون حتى على ذلك ببعض الرّوايات.

ويقول العلماء إنَّه بالمراجعة إلى أسانيد هذه الروايات نجدها غير معتبرة، إذ تنتهي غالبًا إلى شخصين كلاهما مردود الرّواية، محمد بن علي الكوفي، وعلي بن أبي حمزة البطائني.

وحتى لو كان لبعضها أسانيد فإنَّه لا يمكن قبول متونها إذا انتهت إلى أنَّ الإمام لا سمح الله يقوم بتلك الأعمال المنافية للعدل والإنصاف، بينما غاية مجيئه هو نفي الظلم وتحكيم العدل!

ولاسيما وأن بعضها ينصّ على أنّه يسير بالذّبح لا بسيرة رسول الله!

وفي المقابل توجد روايات صحيحة[1] تامّة سندًا ومقبولة متنًا تشير إلى أنَّ سيرته هي سيرة رسول الله وجدّه أمير المؤمنين ﷺ، وإن كان يشهر السيف على المعاندين والمواجهين لحركته الإصلاحية ..

---

(١) سنتعرض بشكل تفصيلي في موضع آخر لما جاء في الروايات من القول بأنه يسير بسيرة جده وتلك التي تقول بأنه لا يسير فيهم بسيرة النبي، والثالثة التي تشير إلى أنه يسير بسيرة داود في القضاء، وغيرها .

شهر رمضان

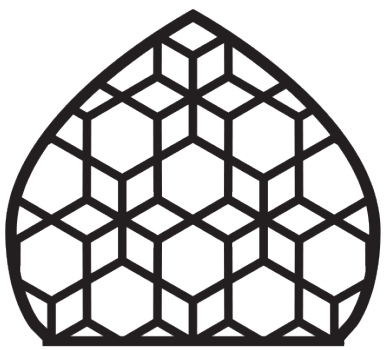

- رمضان شهر البركات
- إمامة الحسن عليه السلام في ضوء نهج البلاغة
- أموال السيدة خديجة بنت خويلد عليها السلام وآثارها الاقتصادية في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله
- قبسات من نور المرتضى عليه السلام

رمضان شهر البركات

الشيخ حيدر المؤيد

دعاء اليوم التاسع عشر

(اللهُمَّ وفِّرْ فِيهِ حَظِّي مِنْ بَرَكاتِهِ، وَسَهِّلْ سَبِيلِي إِلى خَيْراتِهِ، وَلا تَحْرِمْنِي قَبُولَ حَسَناتِهِ، يا هادِياً إِلى الحَقِّ المُبِينِ، عن النبي ﷺ: **(من دعا به استغفر له ملائكة السماوات والأرض ودعوا له)**. البلد الأمين: ص٢٢١.

من بركات الصوم

لكلِّ فريضة في الإسلام آثار مادية ومعنوية جديرة بالاهتمام، سواء أكانت الفريضة عبادية أم غيرها، وتسمّى هذه الآثار بالبركات وهي التي تعمّ حياة المجتمع إذا أخذوا يعملون بها، ومن المناسب التّعرّض لهذه البركات حتى يغترف المسلم منها ما ينفعه في أولاه وأخراه.

والصوم من أفضل العبادات التي تحظى بفوائد وبركات عميمة.. وقد أشير إلى بعضها في الرّوايات، كما توصل العلم الحديث إلى العديد منها، وسنتعرّض لما تيسّر منها في هذا البحث، لأنّه من الصّعب أو المتعذّر إحصاء جميع الفوائد والآثار التي تفيض بها هذه الفريضة المقدّسة على الإنسان وحياته، ففي كلّ يوم تثبت الدّراسات الحديثة الطّبّية العديد من هذه الآثار والتي بدأ غير المسلمين أيضاً يشدون بها ويدعون إليها وخصوصاً في معالجة كثير من الأمراض.

وتنبيهًا على بركات الصّوم وبركات شهر رمضان جاء دعاء اليوم التاسع عشر مبتدءًا بقوله: (اللهم وفّر فيه حظي من بركاته).

فيطلب الدّاعي هذه البركات من ساحة القدس الرّبوبية، لأنَّ للدعاء أكبر الأثر.. كما سبق الحديث عن ذلك في مدخل الكتاب.

وكما قال عزّ وجل: ﴿**وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم، إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين**﴾[1].

وقد ورد في تفسير هذه الآية ﴿**وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم**﴾ إنّه يشتمل على دعوة منه تعالى لعباده إلى دعائه ووعد بالاستجابة، وقد أطلق في الآية المباركة الدّعوة والدّعاء والاستجابة إطلاقًا من دون تقييد.. كما قال تعالى: ﴿**إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾[2] والدخور يعني الذّلّة[3].

إفاضات رمضانية

عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (الصائم في عبادة الله وإن كان نائمًا على فراشه، ما لم يغتب مسلماً)[4].

ونلمح هنا أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله عدّ صوم المؤمن عبادة دائمّة لمكانة هذه الفريضة في الإسلام، وللميزات التي تجعلها لتفرد عن باقي الطّاعات والفرائض والتي سنتعرّض لها خلال البحث إن شاء الله..

ولما كانت صلاة المؤمن ودعاؤه في باقي الأيام من الفضل ما امتلأت به بطون المؤلّفات والكتب، فإنَّ صلاته ودعاءه تتضاعفان في شهر رمضان المبارك...والأجدر بالمؤمن أن يغترف ما شاء الله له في هذه المائدة الكريمة لتشمله العناية الرّبّانية ويغمره النّور الإلهي، فينبغي أن يسأل من الباري عزّوجل: (اللهم وفّر فيه حظي من بركاته).

الصّوم منشأ البركات

عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: (نوم الصائم عبادة، ونفسه تسبيح)[5].

وقال أبو الحسن عليه السلام: (نوم الصّائم عبادة، وصمته تسبيح، ودعاؤه مستجاب، وعمله مضاعف)[6].

وقال صلى الله عليه وآله: (دعوة الصائم تستجاب عند إفطاره)[7].

وكذا كل عمل يأتي به المؤمن الصّائم في هذا الشهر فإنَّه مبارك ومضاعف ثوابه، فعلى المؤمن أن يربّي نفسه على الإكثار من أعمال الخير في شهر رمضان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله قال الله

---

(١) سورة غافر: ٦٠.

(٢) سورة غافر: ٦٠.

(٣) راجع الميزان: ج٢/ ص٣٤.

(٤) بحار الأنوار: ج٩٣/ ص٢٤٧ .

(٥) المصدر نفسه: ج٩٣/ ص٢٥٨ .

(٦) المصدر نفسه: ج٩٣/ ص٢٥٥ .

(٧) المصدر نفسه: ج٩٣/ ص٣١٥ .

عزوجل: (كلّ أعمال بني آدم بعشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف إلّا الصبر فإنّه لي وأنا أجزي به، فثواب الصّبر مخزون في علم الله عز وجل والصّبر الصّوم)[1].

ولا تقتصر فوائد الصّوم على الثواب فقط ومضاعفته بل إنّ قوى الإنسان البدنية والنفسية تتمرّن على المقاومة والصّبر فتصبح قادرة على مواجهة الصّعاب بدنيًّا...

وفي هذا ورد في الشعر المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه:

أصبر على مضض الأدلاج في السحر وفي الرواح إلى الطاعات في البكر

إنّي رأيت وفي الأيّام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر

وقلَّ من جدَّ في أمرٍ يؤمّله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وأما الجانب النّفسي والروحي ففي حديث المعراج: (يا رب وما ميزات الصوم؟ قال: الصوم يورث الحكمة، والحكمة تورث المعرفة، والمعرفة تورث اليقين، فإذا استيقن العبد لا يُبالي كيف أصبح بعسرٍ أم بيسرٍ)[2].

ويقول الإمام علي عليه السلام: (وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات ومجاهدة الصّيام في الأيّام المفروضات تسكيناً لأطرافهم وتخشيعاً لأبصارهم وتذليلاً لنفوسهم وتخفيضاً لقلوبهم)[3].

وعن فاطمة الزهراء عليها السلام أنّها قالت في خطبتها: (فرض الله الصّيام تثبيتًا للإخلاص)[4].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لجابر بن عبد الله: (يا جابر هذا شهر رمضان، من صام نهاره وقام ورداً من ليله وعفّ بطنه وفرجه وكفّ لسانه خرج من ذنوبه كخروجه من الشهر، فقال جابر: يا رسول الله ما أحسن الحديث؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جابر وما أشد الشروط)[5].

وقال أبو عبد الله عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:(إذا صمت فليصم سمعك وبصرك وشعرك وجلدك)[6].

واحة المؤمن

فشهر رمضان واحة المؤمن يغتسل فيه من الذّنوب ويرتدي فيه ثوب العبادة، والبعض يرى أنَّ الصوم على رأس العبادة ومن أهمّها فتمتاز على سائر الفرائض الدّينية..

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٣/ ص٢٥٢ .

(٢) إرشاد القلوب: ص٢٠٣ .

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

(٤) بحار الأنوار: ج٩٣/ ص٣٦٨ .

(٥) المصدر نفسه: ج٩٣/ ص٣٧١ .

(٦) راجع بحار الأنوار: ج٩٣/ ص٢٩٢ .

فالصّلاة مثلاً يأتي بها الفرد وقد يكون لاهيًا عن معناها أو يدخل عليها الرياء، وهكذا الزّكاة وحتى الجهاد، فقد يكون لغير الله تعالى بل للسمعة أو لأغراض أخرى..

بينما في حالة الصّوم وعندما يعاني المؤمن من الجوع والعطش تضعف حالة الرياء، لأنّه بإمكانه أن يأكل أو يشرب خفية.

ثم يتبع ذلك صوم الجوارح لمن وعى معنى الصوم الدقيق، ومن هنا جاءت الرّوايات لتقول إنَّ الله سبحانه وتعالى ما جعل الصوم عبادة ليمنع الإنسان من الطّعام والشّراب فقط بل إنَّ الصوم الكامل هو ترك كلّ محرّم في هذا الشهر، وإخضاع المؤمن إلى حالة امتحان ليثبت فيها قدرته على السّمو إلى مصاف المتقين..

يقول الإمام علي عليه السلام: (الصّيام اجتناب المحارم كما يمتنع الرجل من الطعام والشّراب)[1].

وتقول فاطمة الزّهراء عليها السلام: (ما يصنع الصّائم بصيامه إذا لم يصن لسانه وسمعه وبصره وجوارحه)[2].

وواضح أنَّ هذه التّوسعة في معنى الصّوم الواردة في الرّوايات تؤكّد أنَّ للصوم رتباً ودرجات، والرّتبة الأعلى تلك التي تجعل من الصّوم مدرسة يتهذّب فيها الإنسان وتسمو بها روحه.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: (إذا أصبحت صائماً فليصم سمعك وبصرك من الحرام وجارحتك وجميع أعضائك من القبيح، ودع عنك الهذي وأذى الخادم، وليكن عليك وقار الصيام، وألزم ما استطعت من الصّمت والسّكوت إلّا عن ذكر الله، ولاتجعل يوم صومك كيوم فطرك)[3].

ولذا يكون شهر رمضان بحقّ فرصة عظيمة للتحوّل النّفسي والتّمرد على الشهوة وإلزام النفس بالرجوع إلى الخط القويم؛ ليتسنّى للإنسان تطهير ذاته، وتقويم أي اعوجاج حصل خلال الأحد عشر شهرًا من سنته، ويجدد العهد مع ربّه على عدم العودة إلى الذّنوب والمعاصي، عبر تلاوة كتابه العزيز، والدّعاء، وقيامه بالنوافل الرمضانية.

وقد نسب إلى الإمام زين العابدين عليه السلام قوله:

وزادي قليل لا أراه مبلغي أ للزاد أبكي أم لبعد مسافتي

ومن هنا ورد في بعض الأخبار أنَّ المؤمن بعد شهر رمضان يخرج مغفور الذّنوب وكأنّه في ولادة جديدة، قال صلى الله عليه وآله: (وهو شهر أوّله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار)[4].

---

(١) الغارات: ص٣٤٢ .

(٢) بحار الأنوار: ج٩٣/ ص٢٩٤ .

(٣) المصدر نفسه: ج٩٣/ ص٢٩٢ .

(٤) فضائل الأشهر الثلاثة: ص١٢٨ .

حسنات الصوم

يروى عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قوله: (ألا أخبرك بأصل الإسلام وفرعه وذروته وسنامه؟ قلت بلى، قال أصله الصلاة وفرعه الزكاة وذروته وسنامه الجهاد في سبيل الله، ألا أخبرك بأبواب الخير؟ الصوم جُنّة من النار)[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (من صام لله عزّوجل يومًا في شدّة الحر فأصابه ظمأ وكّل الله به ألف ملك يمسحون وجهه ويبشرونه حتى إذا أفطر قال الله عزوجل له: ما أطيب ريحك وروحك، يا ملائكتي اشهدوا أنّي قد غفرت له)[2].

وكلّما كان صوم المؤمن وتقرّبه إلى الله مزيداً له في حسن خلقه وحسن معاشرته لإخوانه المؤمنين كلّما كان ثوابه أكثر ودرجاته أرفع، فعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: (من كفّ غضبه كفّ الله عنه عذابه، ومن حسن خلقه بلغه الله درجة الصّائم القائم)[3].

وعنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: (رجب شهر الله الأصم يصب الله فيه الرّحمة على عباده، وشهر شعبان تنشعب فيه الخيرات، وفي أول ليلة من شهر رمضان تغل المردة من الشياطين، ويغفر في كلّ ليلة سبعين ألفاً، فإذا كان في ليلة القدر غفر الله بمثل ما غفر في رجب وشعبان وشهر رمضان إلى ذلك اليوم إلا رجل بينه وبين أخيه شحناء فيقول الله عز وجل انظروا هؤلاء حتى يصطلحوا)[4].

فيتوقّف ثواب المغفرة العظيمة على مصالحة المؤمن لأخيه مما يدلّنا على أنّ المرء مهما بلغت عبادته وعلمه لن يبلغ درجة مغفرة الله وحسن ثوابه ما لم تقترن عبادته بالتقوى وعلمه بالعمل الصالح.

صوم الأنبياء عليهم السلام

سئل ابن عباس عن الصيام فقال: (إن كنت تريد صوم داود عليه السلام فإنَّه كان من أعبد الناس وأسمع الناس وكان لا يفر إذا لاقى، وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً، وكان إذا بكى على نفسه لم يبقَ دابة في بر ولا بحر إلا استمعن لصوته وهو يبكي على نفسه، وكان له كلّ يوم سجدة في آخر النهار، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وإن كنت تريد صوم ابنه سليمان عليه السلام فإنَّه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة ومن وسطه ثلاثة ومن آخره ثلاثة،

(١) تهذيب الأحكام: ج٤ ص١٥١ .

(٢) الكافي: ج٤ ص٦٤/ ح٨.

(٣) عيون أخبار الرضا : ج٢/ ص٧١.

(٤) المصدر نفسه: ج٢/ ص٧١ .

وإن كنت تريد صوم عيسى عليه السلام فإنه كان يصوم الدهر ويلبس الشعر ويأكل الشعير ولم يكن له بيت يخرب ولا ولد يموت وكان رامياً لا يخطئ صيداً يريده وحينما غابت الشمس صف قدميه فلم يزل يصلي حتى يراها وكان عليه السلام يمر بمجالس بني إسرائيل فمن كانت له حاجة قضاها، وكان لا يقوم يوماً مقاماً إلا وصلى فيه ركعتين وكان ذلك من شأنه حتى رفعه الله إليه، وإن كنت تريد صوم أمه مريم عليها السلام فإنها كانت تصوم يومين وتفطر يوماً، وإن كنت تريد صوم النبي صلى الله عليه وآله فإنه كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ويقول هنَّ صيام الدهر)[1].

النتيجة واحدة

والحديث المتقدم وإن أشار إلى أن لكل عبد صالح أو نبي مرسل طريقته في الصوم إلا أن المحصلة الرئيسة المنتقاة من هذا الحديث هو أن الصوم ملازم للتقوى كما ورد: (كان من أعبد الناس)[2]، ومرتبط بالجهاد والبلاء الحسن فيه: (وكان لا يفر إذا لاقى)[3].

هذا بالإضافة إلى أنّ صوم الأنبياء عليهم السلام بوصفهم قدوة البشر لا يأتي إلا بمرافقة الخشوع والبكاء من خشية الله والزهد وقضاء حاجات المؤمنين، وقد يتوقف كمال الصوم على ما يرافقه من سيرة المؤمن الواعي الورع الذي يتّصف بالصفات الإسلامية الحقة.

فوائد أخرى للصوم

وعرفنا أنَّ الصّوم يأتي غالباً ويأخذ معه الصبر، حيث إنَّ الصوم يربّي الإنسان على الصّبر، وفي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿اصبروا وصابروا ورابطوا﴾[4].

ومن قمّة ما قيل في ذلك، الحديث عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا إيمان من لا صبر له)[5]..

وكثيرة هي الأحاديث الدالة على الصّبر والتي وردت عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام إلا أنّنا لسنا بصدد التّفصيل بل نشير إلى البركات الأخرى للصوم.

---

(١) سفينة البحار: ج٥/ ص٢٢٠و٢٢١.

(٢) المصدر نفسه: ج٥/ ص٢٢٠و٢٢١.

(٣) المصدر نفسه: ج٥/ ص٢٢٠و٢٢١.

(٤) سورة آل عمران: ٢٠٠.

(٥) سفينة البحار: ج٥/ ص١٨.

الصّوم صحّة

من أهم البركات المترتّبة على الصّيام:

١: البركات الصحية:

فقد ورد عن رسول الله ﷺ في الحديث المشهور: (صوموا تصحّوا)[١].

وتؤكّد أحدث النظريات الطّبية على أنَّ الصَّوم يفيد كثيراً من الإيجابيات في حالات أمراض المعدة والجهاز الهضمي، ويعدّ أحد العوامل الوقائية من هذه الأمراض، وكذلك السّمنة وتأثيراتها على القلب والشرايين، وبهذا يكون الصّوم طريقة علاجية ووقائية تغني عن الأدوية التي تخلف وراءها عشرات الآثار الجانبية الضّارّة بصحّة الإنسان، وبهذا يسبق الإسلام الطّب الحديث عبر مئات القرون الماضية.

٢: البركات النّفسية:

ومن أهم ما يترتب على الصّوم أيضاً: حالة الاطمئنان واليقين التي تغتبط بها النفس الإنسانية في حالة الصيام وما يرافقها من العبادة وحالة التّفرّغ إلى الله، خاصّة وأنّ المؤمن يحسّ بأنَّ هذه الفترة المحدّدة بثلاثين يوماً هي فرصة ثمينة لاستثمارها في سبيل نموّه الروحي، وتبعده عن حالة القلق والجري وراء جزئيّات الحياة ولو لمدّة من الزمن، وتنمي فيه حالة السّرور والفرح؛ لأنه يُسَرّ بما يؤدّيه من أعمال في هذا الشهر الفضيل.. ولعلّ من هذا ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: (للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة يوم القيامة، ولخلوق فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)[٢].

فالإنسان الصّائم يستشعر حالة طيب النفس والسرور اليومي خاصّة بعد الإفطار.. وفي هذا أعظم البركات التي لها آثار كبيرة على حياة الإنسان كما ثبت في عالم النّفس.

ونحن لو ألقينا نظرة إلى المجتمعات غير المؤمنة لرأينا كيف تنتشر فيهم الأمراض الرّوحية، والتوترات العصبية، وحالات الاكتئاب، واليأس، وما ينجم عن ذلك من حالات عنف وقتل وانتحار.

جاء في كتاب الإسلام والعلاج النّفسي الحديث:

(وما تعيشه المجتمعات الغربية حاليًّا هو خير دليل على أنّ الابتعاد عن الأخلاق والدين هو من الأسباب الرئيسة لتولّد ما يُسمّى بأمراض العصر، ومنها الكآبة بأنواعها المتعدّدة، وفصام الشخصية، والقلق، والهستيريا، وتوهّم المرض، والشعور بالضّعف، إضافة إلى الأمراض الأكثر فتكًا، وما يسمّونها بالعقلية كجنون الاضطهاد، وجنون العظمة، وذهان الهوس الاكتئابي. ومن العلل التي تصيب الشخصية في جانبها الخلقي ما يعرف باسم

(١) دعائم الإسلام: ج١/ ص٣٤٢، وغوالي اللئالي: ج١/ ص٢٦٨.

(٢) سفينة البحار: ج٥/ ص٢١٤.

(السيكوباتية) وهي عبارة عن ضعف حادّ في ضمير الفرد وشعوره الخلقي، وأدّت تلك الأمراض بدورها إلى أمراض أخطر جسمية كضغط الدم والسكري والربو والقرح بأنواعها وبعض الأمراض الجلدية وبعض أمراض الفم والأسنان)[1].

بينما نجد أنَّ الإسلام بتشريع الصوم في العام شهراً واحداً كيف وفّر للإنسان فرصة روحية كبيرة لمعالجة أزماته النفسية، وتسكين أعصابه، ودفعه نحو الحياة بأمل وطمأنينة ووثوق..

الحظ

المقصود بالحظ الوارد في هذا الدعاء: (اللهم وفّر فيه حظّي من بركاته) ليس المعنى العرفي الرّائج، بل المراد هو النصيب، قال تعالى: ﴿للذَّكر مثل حظّ الأنثيين﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وما يلّقاها إلا ذو حظّ عظيم﴾[3].

وقال تعالى: ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنّه لذو حظّ عظيم﴾[4].

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (الحمّى رائد الموت... وهي حظّ كلّ مؤمن من النار)[5]، يعني إذا ابتلى المؤمن بها تكون كفّارة عن ذنوبه وتقيه من حر النّار.

وفي الحديث: (وويل لمن لم يكن له في ذلك المقام حظّ ولا نصيب)[6].

وعن أمير المؤمنين: (ومن اشتبه عليكم أمره ولم تعرفوا دينه فانظروا إلى خلطائه فإن كانوا أهل دين الله فهو على دين الله، وإن كانوا على غير دين الله فلا حظ له في دين الله)[7].

منهج أعمال رمضاني

ثم تأتي الفقرة الثانية من الدعاء الوارد في اليوم التاسع عشر بعد طلب البركات.. لتسأل الله سبحانه أن يُسهّل طريق الإنسان إلى حسنات هذا الشهر العظيم وخيراته فيقول: (وسهّل سبيلي إلى خيراته).

ولعلّ من أعظم حسنات هذا الشهر الكريم التّفرّغ إلى العبادة والمناجاة، وتحصيل العلم والمعرفة، وخدمة الناس.

---

(١) راجع (الإسلام والعلاج النفسي الحديث): د. عبد الرحمن العيسوي.

(٢) سورة النساء: ١١.

(٣) سورة فصلت: ٣٥.

(٤) سورة القصص: ٧٩.

(٥) ثواب الأعمال: ص١٩٢.

(٦) التوحيد: ص٢٦١.

(٧) صفات الشيعة: ص٦.

فإنَّ شهر رمضان منهج إصلاح كامل يوفّر للإنسان أحسن الفرص إلى كسب الحسنات، والاجتناب عن السّيّئات..

وإنَّنا إذا تأمّلنا قليلاً نجد أنَّ هناك عناية في مستحبّاته وآدابه، وهناك مقدّمات تبتدئ قبله ليكون العبد مستعدًّا لكسب أحسن النتائج، وأفضل الآثار.

فتبدأ من شهر رجب ثم شعبان وحتى الدخول في شهر رمضان، ونحن بفضل الله نملك من الإرث الدعائي وكنوز الأعمال التي تركها لنا أئمَّة أهل البيت عليهم السلام ما يُغني عن العناء في الكيفية التي يؤدّى بها شهر رمضان صياماً وعبادة، وتزخر مكتباتنا بالمصنّفات الفريدة والمعاجم المتخصصة في هذه المجالات، ففضلاً عن الكتب القديمة مثل: (الصحيفة السجادية) و(مصباح الكفعمي) و(مهج الدعوات) لابن طاووس، و(وإقبال الأعمال)، وغيرها..

أُلِّفت كثير من المصنّفات الحديثة المبوّبة في هذا المجال مثل: (مفاتيح الجنان) للشيخ عبّاس القمّي، و(ضياء الصالحين) لجوهرجي، و(الدّعاء والزيارة) للإمام الشيرازي وغيرها..

وأوّل أعمال المنهج الرمضاني هو حالة الاستعداد النّفسي والبدني، ثم الشروع بالأغسال المستحبّة في هذا الشهر، لتكون الطهارة البدنية مفتاحًا للولوج إلى الطهارة الروحية في هذا الشهر العظيم، ثم الاشتغال بالدعاء، وهناك أدعية لليوم الأول من هذا الشهر ومنها الدعاء المشهور للإمام السجاد عليه السلام، وهناك الأدعية اليومية كدعاء الافتتاح المروي عن الإمام الحجة (عجل الله فرجه الشريف) وهناك الأدعية المعقبة للصلوات والمختصة بهذا الشهر كما روي عن الإمام السجاد عليه السلام قوله: (والحمد لله الذي جعل من تلك السبل شهره، شهر رمضان شهر الصيام، وشهر الإسلام، وشهر الطهور، وشهر التمحيص، وشهر القيام ﴿الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾[1])[2].

ولابُدّ من قيام ليالي هذا الشهر، ولاسيّما الليالي العشر الأواخر منه لما فيه من الثواب ولما تشتمل على ليالي القدر، وكذا قراءة القرآن، فإحدى كرامات هذا الشهر هو نزول القرآن الكريم فيه، وربما كان ذلك السبب في تقديس هذا الشهر الكريم أو من أحد أسبابه، لذا فقراءة القرآن في هذا الشهر، والتأمل فيه، والتدبر في آياته، والاستئناس به، مما يجعل المؤمن أكثر التصاقاً بعظمته.

---

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

(٢) الصحيفة السجادية: ص٢١١.

فعن أبي جعفر ﷺ: أنّه قال: (لكلّ شيء ربيع وربيع القرآن شهر رمضان)[1].

وعن أبي عبد الله ﷺ قال: (إنَّ الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله، يوم خلق السماوات والأرض فغرّة الشهور شهر الله شهر رمضان، وقلب شهر رمضان ليلة القدر، ونزل القرآن في أول ليلة من شهر رمضان، فاستقبل الشهر بالقرآن)[2].

ويروى عن الإمام زين العابدين ﷺ أنَّه قال: (لو مات من بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي)[3].

وكان ﷺ إذا قرأ ﴿مالك يوم الدين﴾[4] يكرّرها حتى كاد أن يموت[5].

ومن مفردات المنهج الرمضاني المبارك الذي بإمكان الفرد أن يستفيد منه: حفظ بعض السور القرآنية وكذلك دراسة فقهية أثناء وقت الفراغ في النهار أو الليل من هذا الشهر وخصوصاً (فقه الصوم).

ومن البرامج تنشيط العلاقات الاجتماعية مع المؤمنين، وزيارتهم، وتفقد المعوزين منهم، ومحاولة مساعدتهم.

ومن البرامج أيضاً ترك بعض العادات الضّارّة للبدن وإن كانت مباحة شرعاً كشرب السجائر، فيلزم ممارسة وزرع عادات حسنة جديدة ليكون بذلك قد جعل من هذا الشهر دورة فعليه لاستعادة نشاطه وقوة ارتباطه بالخالق جل وعلا.

ومن الواضح أنّ هذا البرنامج الكبير والحاشد بالأعمال يحتاج إلى توفيق ولطف من الله، وإلا فإنَّ الإنسان وحده لا يتمكّن على أداء كلّ ذلك ما لم يوفّقه الله سبحانه، ويسهّل له سبيل ذلك من إعطائه الصّحة والعافية، ويدفع عنه البلايا والرزايا، لكي يكون صافي البال، هادئ الفكر، ثم يلهمه الخشوع والإقبال على العبادة، لذا لابُدّ للإنسان من السؤال والدعاء فيقول: (وسهّل سبيلي إلى خيراته).

قبول الحسنات

ومعلوم أنَّ الإنسان الذي وفّق لكلّ هذه الأعمال ولكلّ هذه الخيرات والحسنات مقرونة بالصّيام، وذلك في شهر هو من أعظم الشهور الذي يكون الإنسان فيه في ضيافة الله سبحانه حيث قد دعا الله عزوجل عباده إلى

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٣/ ص٣٨٦ .

(٢) بحار الأنوار: ج٩٣/ ص٣٨٦ .

(٣) المصدر نفسه: ج٤٦/ ص١٠٧.

(٤) سورة الفاتحة: ٣.

(٥) بحار الأنوار: ج٤٦/ ص١٠٧.

الرحمة والمغفرة، وفي هكذا شرائط، فمن الواضح أنَّ أعمال الإنسان تكون أسرع إلى القبول، فإذا قرنها الإنسان بالدعاء والمسألة من ربّه للقبول، سوف يحرز قبولها وبذلك الفوز العظيم لذا نقول في الفقرة الثالثة: (ولا تحرمني قبول حسناته).

والظّاهر أنَّ بين هذه الفقرات الثلاث ترتبًا طوليًّا، لأنَّ المؤمن إذا توفّر حظّه من البركات سوف يوفّق للإتيان بالخيرات لأنَّ العمل الصّالح وكسب الحسنات هو الآخر من البركات، وبعد ذلك فإنَّ من وفّقه الله للخير والعمل الحسن سوف يتقبّل منه أعماله.. ولأنَّ كل ذلك يتوقّف على التأييد والتّسديد والهدية الإلهية ختمه بقوله ﷺ: (يا هادياً إلى الحقّ المبين).

الحق المبين

وكما يفهم من هذا الدّعاء إنَّ الله سبحانه هو الذي يهدي إلى الحق المبين لا غيره، ومن أبرز مصاديق الحق المبين هو الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وها نحن في ليلة ١٩ من شهر رمضان وهي ليلة تتعلق به عليه السلام فقد ضرب اللعين ابن ملجم بالسيف على رأسه الشريف والإمام في الصلاة.

قال رسول الله ﷺ: (علي مع الحقّ والحقّ معه)[١].

فإذا كان الله عز وجل هو الذي يبين الحق يجب أن نعرف الإمام والخليفة بعد رسول الله ﷺ من هذا الطريق، وإذا راجع الإنسان القرآن الكريم والنصوص الشريفة والتاريخ الصحيح بتدبّر لم تبقَ له شبهة في ذلك.

قال تعالى: ﴿إنَّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾[٢]، وقد نزلت هذه الآية في حقّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث تصدّق بالخاتم وهو راكع في الصلاة.

وقال رسول الله ﷺ :(من كنت مولاه فعلي مولاه) وذلك في حديث غدير خم المتواتر عند الفريقين[٣].

وقال ﷺ: (إنِّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وهما الخليفتان من بعدي وأنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)[٤].

وهذا البحث مفصل لا يسع المقام لتفصيله.

---

(١) الأمالي للشيخ الصدوق: ص٨٩ .

(٢) سورة المائدة: ٥٥.

(٣) راجع كتاب الغدير: ج١ للعلامة الأميني (قدس سره).

(٤) كمال الدين: ص٦٤.

النيّة في العبادة

بقي أن نعرف في خاتمة البحث أنَّ النية هي شرط في صحّة العبادات وتبطل بعدمها أي عمل عبادي، قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[1].

فإنَّ المقصود من إراقة دم القربان ميل القلب عن حبّ الدنيا، وبذلها إيثاراً لوجه الله، دون مجرد الدم واللحم وميل القلب إنَّما يحصل عن جزم النيّة والهمّة، وإن عاق عن العمل عائق ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها لكن يناله التقوى منكم﴾[2]، والتقوى صفة القلب، وجاء في الحديث النبوي الشريف: (نيّة المؤمن خير من عمله، ونيّة الكافر شرّ من عمله)[3]، وعلى هذا فإذا كان صيام المرء من أجل البخل أو التقتير وعدم الإسراف!! لن يكون عمله لله ولن يرفعه الله إليه.

فنيّة القربة إلى الله تعالى هي روح العمل وحقيقته .. فالمؤمن بمقتضى إيمانه ينوي خيرات كثيرة لا يوفّق لعملها، إمّا لعدم تمكّنه من الوصول إلى أسبابها أو لعدم مساعدة الوقت على عملها، أو لممانعة رذيلة نفسانية عنها بعد الوصول إلى أسبابها، كالذي ينوي إن آتاه الله مالاً ينفقه في سبيله، ثم لمّا أتاه يمنعه البخل عن الإنفاق فهذا نيّته خير من عمله[4].

إذاً لابُدّ من أن نلتفت إلى هذه الحقيقة لدى العمل إذ العمل وحده غير كاف، ما لم نقرنه بقصد القربة إلى الله تعالى والإخلاص إليه وإلا فإنّ العمل العبادي يبطل إن لم يقترن بالقربة...

وفي الحديث الشريف: (تقرّب العبد إلى الله تعالى بإخلاص نيته)[5].

نسأل من الله عزوجل التوفيق لبركات هذا الشهر العظيم.

---

(١) سورة الحج: ٣٧.

(٢) سورة الحج: ٣٧.

(٣) جامع السعادات: ج٣ / ص١١٩.

(٤) راجع جامع السعادات: ج٣/ ص١٢٠.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم: ص٩٣ .

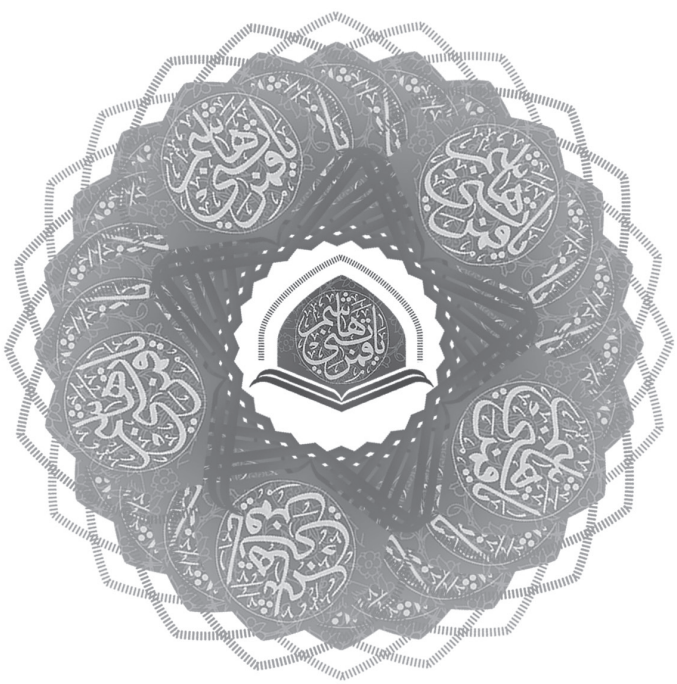

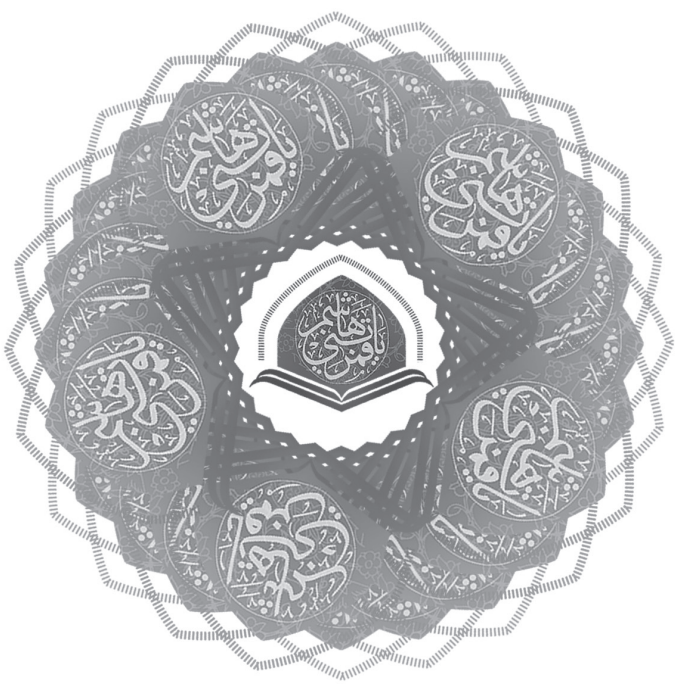

إمامة الحسن عليه السلام في ضوء نهج البلاغة

أ.م. د. ناجح جابر جخيور

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

الإمام الحسن بن علي عليه السلام صورة شاء الله تعالى أن يركّبها وصورها فأحسن صورتها، فكانت في أحسن تقويم وعبدت ربها مخلصة له الدين، ودعت دعوتها إلى الذين آمنوا لما يحييهم، فلم يستجيبوا لله وللرسول؛ لأنّهم لم يعلموا علم اليقين أنَّ الله يحول بين المرء وقلبه، وأنّهم إليه يُحشرون، وأرادتهم أن يتقوا فتنة المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، وكل حزب بما لديهم فرحون.

صورةٌ إذا أبصرناها بالقلوب عرّفتنا على سراب بني أمية الذي يحسبه الضمآن ماءً، فقد كان بِقِيْعَةٍ من الغش والخداع الباطني الخفي، فكانت صورة الحسن عليه السلام هي الفجر الذي بيّن للأمة حبل الحق الأبيض من خيط الباطل الأسود ليوصل الناس إلى ما أراد الله لهم من الاستمساك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، فهذه الصورة استمدت ألوانها من خطوات جدّ الحسن صلى الله عليه وآله، ومن خطوات أم الحسن عليها السلام إلى مسجد أبيها النبي صلى الله عليه وآله التي أنبتت زهوراً محرقة، ومن خطوات صبر أبي الحسن عليه السلام، واتكاءً على خطوات أخي الحسن عليه السلام تلك الخطوات الحمراء، لذا كان الحسن عليه السلام قد محى آية الليل الأموية، وألقى قبضة سيف الحق الأحمر من يده في الميدان لأنّ خطوته التي فرضت عليه كانت كأس سمٍّ من مكرهم بالصلح ليدسّوه إلى نفسه الملكوتية ليسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ وَأَنَّى يُبْصِرُونَ ؟[1]، ونسوا من ينظر بنور الله، فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلاَ يَرْجِعُونَ، ولأنّهم لم يتمكّنوا من اغتيال روحه من نفسه والقضاء عليها لجؤوا إلى النّفس النباتية النامية التي احتوتها لتؤدّي رسالتها ـ جسده ـ فألحقوه بسمٍّ جعدة[2]؛ ليحمل الحسن عليه السلام هذا السيف بعده ويجعل آية النّهار المحمّدية مبصرة، فما كان كيومها يوم[3]، بإعداد الحسن عليه السلام وشهادته، لتعيها كلّ أذن واعية وليعقلها أولو الألباب.

---

(١) ظ: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨هـ): ج ٤ : ٥ ـ ٦.

(٢) ظ : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي: م ٣ : ٥.

(٣) ظ: بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٤٥، ص٢١٨، وينظر مناقب آل أبي طالب ابن شهر آشوب: ج٣، ص٢٣٨.

البحث

قد ثبت لدى المسلمين كافة بيعة الخلافة للإمام علي عليه السلام في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ومن المهاجرين والأنصار[1]، وأنّه أحد الخلفاء الرّاشدين ـ في الحدّ الأدنى ـ من غير خلاف في ذلك، وتعد بيعته شرعيّة عند المسلمين، وهنا رأس خيط للاحتجاج على المسلمين في أنّه عليه السلام بشرعيّته أوصى بخلافة الإمام الحسن عليه السلام بعده، على هدي الأنبياء والأئمّة عليهم السلام في أوصيائهم، ووصيّة الإمام علي عليه السلام معروفة كما سيرد في البحث شيء منها.

والإمام الحسن عليه السلام نشأ في كنف جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وتربّى في أحضان النّبوّة، فسمع القرآن وعرف تفسيره من مورده الأصيل، وتلقّى الحديث من ينابيعه الثّرّة، فلم يفصله عن الدّين فاصل، ولا يحتاج في رواية الحديث الشريف إلى راويةٍ [2]؛ لذا لا غرابة أن نجد في سلوكه وأسلوبه وصورته ما يتّصل بذلك .

فضائل الحسن عليه السلام:

وإذا كان من الفضل ماشهدت به الأعداء فقد روي أنّه ((لمّا مات الحسن عليه السلام، أخرجوا جنازته، فحمل مروان بن الحكم سريره، فقال له الحسين عليه السلام: تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرعه الغيظ؟ قال مروان: نعم كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال)). [3]

وقد قال عنه النبي صلى الله عليه وآله: ((وأمّا الحسن فإنّه ابني، وولدي، ومني، وقرة عيني وضياء قلبي، وثمرة فؤادي، وهو سيد شباب أهل الجنة، وحجة الله على الأمة أمره أمري، وقوله قولي من تبعه فإنه مني، ومن عصاه فليس مني، وإني لما نظرت إليه تذكرت ما يجري عليه من الذل بعدي، فلا يزال الأمر به حتى يقتل بالسم ظلما وعدوانا)).[4]

ولأنَّ علياً عليه السلام بشهادة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ((ياعلي ما عرف الله إلَّا أنا وأنت، ولا عرفني إلَّا الله وأنت، ولا عرفك إلَّا الله وأنا))[5]، أكثر من يعرف الحسن عليه السلام، فمن كانت له هذه المنزلة من معرفة الله ورسوله لاشك أنّه يعرف الحسن عليه السلام حق معرفته، ومعرفته بالله تجعله أكبر من أن يعطي صورة لأحد لا ترضي الله أو في غير حق المصوَّر، وإذا كان الحسن عليه السلام ابن أمير المؤمنين عليه السلام فهو من مؤكدات هذه المعرفة بالحسن عليه السلام لا المحاباة في رسم الصورة؛ لأنه العارف بالله ـ كما في الحديث السالف .

---

(١) ظ : الطبري م٢: ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

(٢) ظ: الامام الحسن عليه السلام رائد الواقعية السياسية :٢٥، مناقب الحسنين عليهما السلام، محمد علي قطب: ٤٦.

(٣) بحار الأنوار – العلامة المجلسي – ج ٤٤ – ص ١٤٨؛ وينظر امالى الصدوق : ٩٩.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) مستدرك سفينة البحار: ج٧ : ١٨٢.

مكانة الحسنعليه السلام:

مكانة الحسن عند أمير المؤمنين عليه السلام نجدها في الصورة التالية:

((من كلام له عليه السلام فِي بَعْضِ أيّامِ صِفَينِ وَ قَدْ رَأى الْحَسَنَ ابْنَهُ عليه السلام يَتَسَرَّعُ إلَى الْحَرْبِ: امْلِكُوا عَنِّي هَذا الْغُلامَ لا يَهُدَّنِي، فَإنَّنِي أَنْفَسُ بِهَذَيْنِ (يَعْنِي الْحَسَنَ وَ الْحُسَيْنَ عليهما السلام عَلَى الْمَوْتِ لِئَلاّ يَنْقَطِعَ بِهِما نَسْلُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله.

قال السيد الشريف : قَوْلُهُ عليه السلام: امْلِكُوا عَنِّي هذَا الْغُلامَ مِنْ أعْلَى الْكَلامِ وَ أفْصَحِهِ.)). [1]

نرى هنا أنَّ صورة الحسن عليه السلام التي رسمها أمير المؤمنين عليه السلام نابعة في نفاستها من روح علي عليه السلام بطل الإسلام الذي دافع عن نبيه الكريم صلى الله عليه وآله بأغلى مايملك وجاد بأقصى غاية الجود عليه بدءًا من منامه في الفراش ليحيى بشخصه[2] وانتهاء بالذود عما يجعله حياً بالنسل في الأمة بهذا التشخيص المتمثل بالحسن عليه السلام، لا من جهة أبوته للحسن عليه السلام، فإنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أبو الأمّة[3]بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولعل لون الصورة يبرز جانباً من صورة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أكثر من صورة الحسن عليه السلام التي نظهرها بشقها المتمثّل بجزئية صورة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ووجه ظهور صورة الحسن عليه السلام كونه الشخصية المثلى ـ بعد علي عليه السلام ــ التي بها يحفظ وجود رسول الله صلى الله عليه وآله ((أي احجروا عليه كما يحجر المالك على مملوكه ... وذلك أنّهم لايملكونه دون أمير المؤمنين عليه السلام إلا وقد أبعدوه عنه ... ولما كان الملك سبب الحجر على المملوك عبر بالسبب عن المسبب))[4] لبقاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالحسن عليه السلام، وهي رتبة كافية وحدها لرسم صورة للحسن عليه السلام مشرقة الألوان للناظر بلباب البصيرة المنصفة، ولعلّ هذا المعنى هو الذي حاكاه المتنبّي بقوله:

إذا كان شمّ الرّوح أدنى إليكم ... فلا برحتني روضةٌ وقبول [الطويل][5].

فإذا كان شم حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بعدي لا يتمثّل إلَّا بأصدق مصداق، ولا يتجلّى بأفضل شخص إلَّا الحسن عليه السلام فاملكوه عنّي؛ كي لا تفارق حياة رسول الله صلى الله عليه وآله الدّنيا حتى على مستوى الجسد؛ لأنَّ الحسن عليه السلام يكون سببًا إلى انتشاق روائح رسول الله صلى الله عليه وآله. وهذا توكيد لعذر الإمام علي عليه السلام ـ إن كان من حاجة لعذر ـ في نفاسة الحسنين عنده في هذا الخطاب الكريم؛ لأنَّه يجد في حياتهما أسبابًا تقرّبه من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو نسيم محبوبه

---

(١) نهج البلاغة، ضبط نصه د. صبحي الصالح: ٢٠٧ .

(٢) : العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني ج ١: ٥٢٩ .

(٣) ظ: جامع أحاديث الشيعة، السيد البروجردي، ج١٨، ص٣١١ .

(٤) شرح نهج البلاغة – ابن ابي الحديد –ج ٢٢١ / ص ١.

(٥) ديوان المتنبي، ٣٥٥.

الأول.[1] وهو ما يؤيّده ذيل النّص ((لِئَلّا يَنْقَطِعَ بِهِما نَسْلُ رَسُولِ اللهﷺ))، فقد خُصَّ الحسنعليه السلام لأنّه يُمثّل رسول اللهﷺ الحبيب الأول للإمام علي عليه السلام.

وهذه الرتبة لرسم صورة للحسن عليه السلام، هو ما تعين على قوّة الظن به صورة أخرى ذات تواشج لونيّ مميز بين الحسنعليه السلام والرسول ﷺ رسمت في النهج بفرشاة التصريح بما أردنا من جانب الصورة الحسنية المشرقة بألوان البلاغة التي نهجها أمير المؤمنينعليه السلام وهي بتواشجها مع الرسول ﷺ تعني ابتغاء مرضاة الله، هذه الصورة ((من وصية له عليه السلام بما يعمل في أمواله: هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اَللهَّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ اَلْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ اِبْتِغَاءَ وَجْهِ اَللهَّ لِيُولِجَهُ بِهِ اَلْجَنَّةَ وَ يُعْطِيَهُ بِهِ اَلْأَمَنَةَ مِنْهَا فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذَلِكَ اَلْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَ يُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَ حُسَيْنٌ حَيٌّ قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَ أَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ وَ إِنَّ لِابْنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ اَلَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ اَلْقِيَامَ بِذَلِكَ إِلَى اِبْنَيْ فَاطِمَةَ اِبْتِغَاءَ وَجْهِ اَللهَّ وَ قُرْبَةً إِلَى رَسُولِ اَللهَّ ص وَ تَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ وَ تَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ ...))[2]، وأخال أنّ آخر النّص واضح بالتواشج الذي ذكرناه، وهو ما يثير عند المتلقي بعد الإمتاع بصورته حديثًا داخليًّا، وربما يرى بعضهم في أمنيات النفس الخفيّة، أو التفكير الصّامت أنَّ الأمّة لو أنّها تركت الحكم للإمام علي عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام بعده لكان الناس بدرجات عالية من السعادة الدّنيوية، ولتحقّقت دولة الإمام الموعودعليه السلام قدمًا، لكنّها تحقّقت بسعادة جزئية ومنقوصة واستمرّت، وهي أمانٍ مشروعة إلّا أنّها لم تكتمل، فظلّت حسرة في نفوس المؤمنين ولله الحكم والحكمة في كلّ شيء، ولعلنا نحاكي الإمام الحسنعليه السلام في هذا الشعور حيث يقول: ((... وأقسم بالله لو أنّ الناس بايعوا أبي حين فارقهم رسول الله، لأعطتهم السماء قطرها والأرض بركتها، ولما طمعت فيها يا معاوية.. .))[3].

وما أود التنويه إليه أنَّ هذه الأمنية لو أنّها تحقّقت قد لا نشعر بعظمة آيتها ونتناساها كآية الليل والنهار والشمس والقمر وغيرها من الآيات العظيمة التي تمرّ بنا كلّ يوم ولا نلتفت كثيرًا لعظمتها، ((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ الله مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [البقرة/ ١٦٤])).

ولو قال قائل: ولكن قد يحصل الشعور بهذا؟ أقول: إنَّ هناك شيئًا تحقّق بعدما كاد أن يحصل ما هو أسوء

---

(١) ظ: معجز أحمد :ج١ : ٢٩٨، و شرح ديوان المتنبي، الواحدي:ج١: ٢٥٨.

(٢) نهج البلاغة: وصية ٢٤.

(٣) صلح الحسن عليه السلام، السيد شرف الدين : ٢٨٧ .

منه حالا[1]، أي من حصولنا على سعادة جزئية والتربية غير الكاملة في الرّسالة المحمدية، والأسوأ هو محو الرسالة وجعلها خبرًا بعد أثر، والعودة بالأمّة إلى حالتها السابقة قبل البعثة فإنَّ الله ـ تعالى ـ حين بعث النبي ﷺ ((بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الْأَهْوَاءُ وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ فَبَالَغَ ﷺ فِي النَّصِيحَةِ وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ))[2]، فأحد ألوان صورة الإمام الحسن ﷺ هو الحفاظ على حال الأمّة وعدم السماح لها بالعود لهذا الحال من الضّلال في الحيرة والحَطْب في الفتنة ...، وما كاد أن يحصل هو بسبب إرهاب حرب الجمل الذي فتح الباب لجميع أنواع الإرهاب في الإسلام ومنها إرهاب بني أميّة، هذا العود بالأمّة إلى الحال ـ الآنفة الذكر ـ لم يتحقّق وظل الخيط الإسلامي المحمدي بيد الأمة كي تحوك منه سببًا لآمالها في تحقيق هذه الدولة ببركة أهل بيت النبوة، هذا البيت الذي مثّل الحامي والراعي لهذه التربية الإلهية، وكلّ فرد من هذا البيت قام بدوره الرسالي في فترة خلافته الإلهية للأمّة وفق ما تتطلبه المرحلة التي هو فيها، فكانوا كَلَبِنَات البناء الواحد، ومنهم إمامنا الحسن بن علي ﷺ إذ كان ما قام به الإمام يبخع النفس أسفًا؛ لقلّة من يؤمن بحديثه، وارتباطه ارتباطًا وثيقًا بدور من قبله ومن بعده ولاسيما الإمام الحسين ﷺ،[3] فمثل حلقة وصل كبيرة ومفصليّة مهمّة في حياة الرّسالة والأمّة وأي إخلال لو كان قد حدث في ربطها مع الحلقات السابقة واللاحقة ــ حلقة النّبوة والحلقة العلوية والحلقة الزهراوية بالحلقة الحسينية وما تلاها من حلقات النور المشرقة ــ لكانت الأمة الآن ولسان حالها يقول: لو أنّنا بقي لنا خيط أو صورة مجزوءة من هذا الإسلام الذي جاء به النبي الأكرم ﷺ كي نستمسك بعروته، ولكانت الحسرة أكبر في الصّدور، لذا على الأمّة أن تتصوّر أنّ هذا الأمر كأنّه قد حدث وأنّنا تمنينا الأفضل منه وتحقّق ما أردنا؛ لأنّ من شأن هذا التّصور أن يرسم صورة الأشياء على حقيقتها، ومن شأنه أن يطمئن نفوسنا قليلاً ويشعرها بعظمة الدور الذي تقوم به الإمامة بمختلف مراحلها عامة وفي مرحلة الحسن ﷺ خاصّة لأنَّه ﷺ جاهد الجهاد الأكبر فاللوم الاجتماعي للإمام الحسن ﷺ كان من الخاصّة قبل العامة وهو من أسباب الألم النّفسي الذي لا يحتمله إلَّا العظماء فقد خوطب الإمام ﷺ بـ ((يامذل المؤمنين))[4] وكان المخاطب من حواريه، وحسب هذا الأمر راسماً لصورة الجهاد النفسي والصبر للإمام الحسن ﷺ حين يصل اللوم وعدم فهم ما أراده لخدمة الإسلام من قبل الخاصة!!، وهنا يظهر جانب من صورة الإمامة بصورة

---

(١) ظ : صلح الحسن ﷺ الشيخ راضي آل ياسين : ٢٤٧ ـ ٢٥٦ .

(٢) نهج البلاغة: ٩٥ .

(٣) ظ: صلح الإمام الحسن، السيد محمد الشيرازي :٢٣.

(٤) بحار الأنوار، العلامة المجلسي : ج٤٤ :٢٤ .

الإمام الحسن ﷺ وأنّها كمثل عقد على الجيّد لايمكن تعليقه إذا قطع من أيّ مكان.

الإمامة في لوحة الصّلح:

باختصار شديد في الإجابة عن سؤال السائل: لِمَ لبّى الحسن ﷺ طلب معاوية الى الصلح؟ نقول:

((إنّه لبّى طلب معاوية للصلح، ولكنه لم يلبّه إلّا ليركسه في شروط لا يسع رجلاً كمعاوية إلّا أن يجهر في غده القريب بنقضها شرطًا شرطًا. ثم لا يسع الناس إذا هو فعل ذلك إلَّا أن يجاهروه السّخط والإنكار، فإذا بالصلح نواة السّخط الممتدّ مع الأجيال، وإذا بهذا السخط نواة الثورات التي تعاونت على تصفية السيطرة الاغتصابية في التاريخ. وليكن هذا هو التصميم السياسي الذي نزل الحسن من طريقه الى قبول الصلح، ولتكن هذه هي الفذلكة التي استغفل بها معاوية فكانت من أبرز معاني العبقرية المظلومة في الإمام المظلوم))[1]، وهي كحال الأمّة بعد ثورة كربلاء العظيمة قلّة الناصر حال الثورة واللوم للحسين ﷺ وعدم الفهم لأخذه العيال و...، ثم توالي الثورات بعدها؛ لأنَّ التربية وصلت للأمّة بعد نقض يزيد لكل القيم العربية فضلاً عن الإسلامية، ومنه تتّضح لنا صورة الإمام الحسن ﷺ والدور الذي أدّاه في فترته الصّعبة والحرجة والدقيقة التي عاشها بعد وفاة والده أمير المؤمنين علي ﷺ؛ فنوع الجهاد تطلّب تغييرًا بحسب تغيير المرحلة، والعدو الأموي لم يتغيّر من عدائه الباطني شيء فـ((ما تغيّر شيء من نفسيات أبي سفيان وبني أمية بعد دخولهم في حظيرة الإسلام قلامة ظفر، إنّما تغيّر وضع المحاربة، وكيفية الكفاح والمقاومة. دخل أبو سفيان ومعاوية في الإسلام؛ ليفتكوا في الإسلام، ويكيدوا له والعدو الداخل أقدر على الكيد والفتك من العدو الخارجي، وهذه العداوة ذاتية متأصّلة؛ والذّاتي لايزول وليست هي من تنافس على مال، أو تزاحم على منصب أو جاه، بل هي عداوة المبادئ، عداوة التضاد الطبيعي، والتنافر الفطري، عداوة الظلام للنور، والضلال للهدى، والباطل للحق، والجور للعدل، ولذا بقى بنو أمية على كفرهم الداخلي ومكرهم الباطني مع عدادهم في المسلمين وتمتعهم بنعم الإسلام وبركاته لكن لم يمس الإسلام شعرة من شعورهم ولابلَّ ريشة من أجنحتهم كالبط يعيش طول عمره في الماء ولايبل الماء ريشة منه))[2].

وليس ذلك خفي على الإمام الحسن ﷺ بل إنَّ المرحلة بأكملها شاخصة أمامه من السّقيفة إلى يوم خلافته ﷺ وهذا واضح من رسالته التي وجّهها إلى معاوية إذ يقول ﷺ: ((...وقد تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا، وسلطان نبيّنا ﷺ وإن كانوا من ذوي الفضيلة والسابقة في الإسلام، فأمسكنا عن منازعتهم مخافة على

---

(١) صلح الحسن ﷺ الشيخ راضي آل ياسين: ٢٥٠.

(٢) جنة المأوى، محمد الحسين آل كاشف الغطاء: ١٥١ ــ ١٦٤.

الدين أن يجد المنافقون والأحزاب بذلك مغمزًا يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب لما أرادوا به من فساده، فاليوم فليعجب المتعجّب من توثّبك يا معاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله ﷺ، ولكن الله خيبك وسترد فتعلم لمن عقبى الدار، تالله لتلقين عن قليل ربّك، ثم ليجزينك بما قدمت يداك، وما الله بظلّام للعبيد. إنَّ عليًّا عليه السلام لما مضى لسبيله يوم قبض، ويوم منّ الله عليه بالإسلام، ويوم يُبعث حيًّا - ولّاني المسلون الأمرَ بعده، فأسأل الله أن لا يزيدنا في الدّنيا الزائلة شيئًا ينقصنا به في الآخرة مما عنده من كرامته، وإنّما حملني على الكتاب إليك الإعذار فيما بيني وبين الله سبحانه وتعالى في أمرك، ولك في ذلك إن فعلت الحظ الجسيم، وللمسلمين فيه صلاح، فدع التّمادي في الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنّك تعلم إنّي أحقّ بهذا الأمر منك عند الله وعند كلّ أوّاب حفيظ، ومن له قلب منيب، واتق الله، ودع البغي، واحقن دماء المسلمين، فوالله مالك من خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به، فادخل في السلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله، ومن هو أحقّ به منك؛ ليطفئ الله النائرة بذلك، وتجمع الكلمة، وتصلح ذات البين، وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيّك نهدت إليك بالمسلمين، فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين))[1].

الإمامة في لوحة الصبر:

((فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ [الروم/ ٦٠])) لعلّ صبر الإمام الحسن عليه السلام عن حقّه بعد الصلح المر المستنسخ من لوحة صبر علي عليه السلام عن حقه بعد السّقيفة لم يكن الواقع آنذاك يسمح بهذا الخطاب فالحسن هو كلُّ علي عليه السلام وهذا من أدلّة اللون الأساس الذي نجده في صورة أيّ من الأئمّة (عليهم السلام) وهو الحفاظ على الإسلام بأيّ ثمن ممكن ليبقى مستمرًّا في الأرض فهو اللون الذي أمرهم الله تعالى به ووعد بـ((أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُون [الأنبياء/ ١٠٥]))

ومع مرارة الرّد الذي أرسله معاوية للحسن عليه السلام إلّا أنّ صيغته تعطي جانبًا واضحًا من صبر أمير المؤمنين علي عليه السلام عن حقّه إذ ناسب الجهاد الواقع الأوّل للحفاظ على الإسلام فما كان لمعاوية أن يثني على رسول الله ﷺ لولا رسوخ هذا المفهوم بجهاد النفس الأكبر من أمير المؤمنين علي عليه السلام فمعاوية هو ((... الذي ضاق بذكر الناس لأخي هاشم النبي ﷺ في كلّ يوم خمس مرّات كما تقتضيه السّنّة الإسلامية في (الاذان)، حتى قال للمغيرة بن شعبة : « فأي عمل يبقى بعد هذا لا أم لك، إلا دفنا دفنا ... ! !))[2]، إن لم يفعل في هذا الوقت فقد

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسن عليه السلام - لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام - ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) صلح الحسن عليه السلام - السيد شرف الدين - ص ٢٤٣، وينظر : مروج الذهب، المسعودي: ج ٢ : ٥٤.

يفضح نفسه لكنه دسّ سمًّا في هذا العسل فكان مما يدمي العين بكاء ويقرح القلب حزنًا في الرّدّ الذي أرسله معاوية إلى الإمام الحسن ﷺ حيث قال: ((من عبد الله أمير المؤمنين إلى الحسن بن علي، سلام عليك فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أمّا بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت به رسول الله ﷺ من الفضل، وهو أحقّ الأوّلين والآخرين بالفضل كلّه، قديمه وحديثه، وصغيره وكبيره، فقد والله بلغ فأدّى، ونصح وهدى، حتى أنقذ الله به من التهلكة، وأنار به من العمى، وهدى به من الضّلالة، فجزاه الله أفضل ما جزى نبيًّا عن أمّته، ﷺ يوم ولد ويوم قبض ويوم يُبعث حيًّا .

وذكرت وفاة النبي ﷺ، وتنازع المسلمون من بعده ... وأنا أحبّ لك القول السّديد والذّكر الجميل . إنَّ هذه الأمّة لما اختلفت بعد نبيها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم ولا قرابتكم من النّبي، ولا مكانتكم في الإسلام وأهله، فرأت الأمّة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيّها، ورأى صلحاء النّاس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعامّتهم أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلامًا وأعلمها بالله وأحبّها له وأقواها على أمر الله، واختاروا أبا بكر، وكان ذلك رأي ذوي الحجى والدّين والفضيلة والناظرين للأمّة، فأوقع ذلك في صدوركم لهم التّهمة، ولم يكونوا بمتّهمين، ولا فيما أتوا بمخطئين، ولو رأى المسلمون فيكم من يغني غناءه أو يقوم مقامه، أو يذبّ عن حريم المسلمين ذبه، ما عدلوا بذلك الأمر إلى غيره رغبة عنه، ولكنهم عملوا في ذلك بما رأوه صلاحًا للإسلام وأهله، فالله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيرًا. وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها ... ولو علمت أنّك أضبط منّي للرعيّة، وأحوط على هذه الأمّة، وأحسن سياسة، وأقوى على جمع الأموال وأكيد للعدو، لأجبتك إلى ما دعوتني إليه، ورأيتك لذلك أهلاً، ولكنّي قد علمت أنّي أطول منك ولاية، وأقدم منك لهذه الأمّة تجربة، وأكثر منك سياسة، وأكبر منك سناً، فأنت أحقّ أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني، فادخل في طاعتي ولك الأمر من بعدي، ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما بلغ تحمله إلى حيث أحببت، ولك خراج أيّ كور العراق شئت، معونة لك على نفقتك، يجيبها لك أمينك، ويحملها إليك في كلّ سنة، ولك ألا يستولى عليك بالإساءة ولا تقضى دونك الأمور، ولا تعصى في أمر أردت به طاعة الله عزوجل، أعاننا الله وإياك على طاعته إنّه سميع مجيب الدعاء، والسلام .))[1]

وهنا يظهر جانب من صورة الحسن ﷺ في أنّه أكمل حلقة الإقناع والتربية لدى الأمّة التي لا تأتي إلّا بالمحن والزّمن معًا، فالشعوب تتعلّم بالتعليم المباشر أو بالتجارب المؤلمة، لأنّ ردّة فعل الناس وعدم تقبّلها

(١) مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني :٣٧ ، و موسوعة كلمات الإمام الحسن ﷺ – لجنة الحديث في معهد باقر العلوم ﷺ – ص ١١٣ – ١١٥.

لما قام به الحسن ﷺ لها جانب من الإيجاب هو أنّها ظلت في متناول الأذهان والنقاش في المجتمع مما لا يمكن نسيانه، وكان نتيجة للإقناع لشريحة العامّة حين أجبروا على مقارنة الواقع الباطني لبني أميّة بعد ظهوره كنتيجة من نتائج الصّلح بسبب اطمئنان معاوية لرسّو سفينة الحكم في ساحله وهو من فطنة الإمام الحسن ﷺ التي ما كان يحسب لها معاوية حساب، الواقع الباطني تمثّل بفعل معاوية ووضعه لبنود الاتفاق تحت قدمه وما فعله بالمؤمنين والصحابة ومقدّسات الإسلام جهارًا وهو ما فعل هذا إلّا بعد الاطمئنان أنّه أصبح المتسيّد الأوّل والسلطان الدّائم وهو ما لم يكن الحسن ﷺ قادرًا لإقناع الناس به بالتعليم المباشر، بما يُظَنُّ أنه من قدرة المجتمع الغالبة على قدرة الفرد.[1]

الإمامة في لوحة النبوة القرآنية:

إنَّ صورة الحسن ﷺ وعدوه هي صورة ابني آدم وقوله ﷺ لخصمه هو((لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ [المائدة/ ٢٨، ٢٩])) إلَّا أنَّ خصمه حسده ((فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ [المائدة/ ٣٠])) وإذا كانت الأشياء تعرف بأضدادها ـ أحيانًا ـ فضد الحسن ﷺ ((كان من الضعة والفقر والهوان باقصى مكان، كان من الصعاليك الساقطين في نظر المجتمع حتى إنّ أحد أشراف العرب وفد على النبي ﷺ، ولما أراد الخروج أمر النبي ﷺ معاوية أن يشيعه الى خارج المدينة وكان الحرّ شديداً والأرض يغلى رملها ويفور، ومعاوية حافي القدمين، فقال للوافد الذي خرج في تشييعه.

ـ اردفنى خلفك

ـ أنت لا تصلح أن تكون رديفا للأشراف والملوك !.

ـ ألا فاعطنى نعليك اتقي بهما حرارة الشمس.

ـ أنت أحقر من أن تلبس نعلي.

ـ ما أصنع وقد احترقت رجلاي ؟

ـ امشي في ظل ناقتى ولا تصلح لأكثر من هذا !!!!!))[2]

أقول: ماذا يفعل الأستاذ الجامعي ـ مثلا ـ لو أنّ أمّيًّا ناقشه في أنّ الفعل الماضي متى يكون مجروراً؟ وأصرّ على جرّه؟ أيّ صبر وحلم كان يحمله الحسن ﷺ وأيّ مرارة تجرّعها في صلحه مع معاوية؟ ومع أصحابه

---

(١) ظ: المجتمع والتأريخ، الشيخ مرتضى مطهري : ٣٨ .

(٢) جنة المأوى، محمد الحسين آل كاشف الغطاء: ١٥٤ ــ ١٥٥.

الذين ((...شدوا على فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته ...))[1]، ولنا أن نقدر رؤية صورة الحسن ﷺ في صورة موسى ﷺ وهو نبي مع العبد العالم[2] إذ((قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا [الكهف/ ٦٦-٦٨]))، فلعل الأمّة مع الحسن ﷺ لم تستطع صبرًا لما لم تقدر أن تحط به خبرا، ولما كان الحسن ﷺ هو كلّ علي ﷺ فقد قال: ((أَيُّهَا اَلنَّاسُ خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ اَلنَّبِيِّينَ ﷺ ((إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَ لَيْسَ بِمَيِّتٍ وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ)) فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ فَإِنَّ أَكْثَرَ اَلْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ وَاِعْذِرُوا مَنْ لاَ حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ. وَهُوَ أَنَا. أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ اَلْأَكْبَرِ! وَأَتْرُكْ فِيكُمُ اَلثَّقَلَ اَلْأَصْغَرَ! قد رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ اَلْإِيمَانِ وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ اَلْحَلاَلِ وَاَلْحَرَامِ وَأَلْبَسْتُكُمُ اَلْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي وَفَرَشْتُكُمُ اَلْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ اَلْأَخْلاَقِ مِنْ نَفْسِي فَلاَ تَسْتَعْمِلُوا اَلرَّأْيَ فِيمَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ اَلْبَصَرُ وَلاَ تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ اَلْفِكَرُ))[3]، لا تنكروا ما لاتعرفون فلعلّه فتح من الله في عاقبته ((إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)) أعني أنّ صورة الحسن ﷺ هي صورة النبي الأكرم ﷺ في صلح الحديبية فقد فتح الله على نبيّه بازدياد عدد الذين آمنوا به بأضعاف من كانوا معه في عامه الذي أجرى فيه الصلح[4] وكذا ازداد عدد المؤمنين بالحسن ﷺ بقناعة العقل الواضحة التي لا لبس فيها بسبب انكشاف خصمه عندما خرق شروط الاتفاق، كخرق الكفّار والمشركين اتفاقهم مع الرسول ﷺ، وقد أراد الحسن ﷺ في هذا الصّلح السياسي غربلة المؤمنين به وبالإسلام حقًّا لينزل إلى ميدان القتال دون تخاذل وهو واضح من سيرة الحسين ﷺ حين كان شديد الحرص على أن يبقى معه المخلصون فقط ومن وطّنُوا أنفسهم على الموت حقًّا، فأعفاهم من بيعته وطلب منهم أن يتّخذوا الليل جملا ...؛[5] كي لايتكرّر ماحصل من قادة الحسن ﷺ الذين تسلّلوا في ليل الرُّشَا وأموال الغيّ بحيل معاوية، فكان أن تخاذل كثير من القادة؛ لأنّهم أمّة لاتفقه حقّ قادتها وقدرهم إلّا بما تمليه عليهم جهالتهم التي لا زالت رواسب الجاهلية الأولى تلقي بظلالها عليها ومن أجل الهدف السامي والتربية الإلهية التي أرادها الحق للخلق، وجعل رسالته على يد من هو أعلم بهم حقًّا، تحمّل الحسن ﷺ كفرد من سلسلة ذهبية من المعصومين ﷺ ما يعطي لنا ملمحًا آخر من صورته من خلال واقع الآلام التي لقيها من الأمّة الذي لعله لا يقلّ مرارة عن الصّلح مع معاوية إن لم يكن أشدّ، بعدِّه هو المؤدّي إلى هذا الصلح، كما لمسنا شيئاً منه في الخطاب

---

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد، تح: حسين الأعلمي: ١٣٣ . وينظر بحار الأنوار، العلامة المجلسي : ج ٤٤ : ٤٧.

(٢) ظ: قصص الأنبياء، السيد محمد حسين الطباطبائي، اعداد وتحقيق الشيخ قاسم الهاشمي : ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٣) نهج البلاغة :٨٧.

(٤) ظ: الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، ج ١٨ : ٢٥٢ ـ ٢٥٣

(٥) ظ:الأمالي، الشيخ الصدوق : ٢٢٠ . و روضة الواعظين، المؤلف : الفتال النيسابوري الجزء : الوفاة : ٥٠٨ ؛ المجموعة : مصادر الحديث الشيعية ـ قسم الفقه تحقيق : تقديم : السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان :١٨٣.

الآنف الذكر، هذا الخطاب الذي اخترناه من كثير من المراسلات والحوارات بين الإمام الحسن ﷺ ومعاوية؛ لنلمح فيه صورة من الواقع المتكرر في الحقد على الإسلام واختلاف السيف الذي طعن به والطريقة التي يراد القضاء بها عليه وهو يبين أيضًا صورة الإمام الحسن ﷺ وبقية الأئمة ﷺ في وحدة الهدف وتعدّد الأدوار، والوسائل للحفاظ على الدين وهو ﷺ واضح الصورة أنه يعلم نتيجة جواب معاوية لكنه أراد الحجة التي أرسل من أجلها الأنبياء ﷺ، وهو ما صوره أمير المؤمنين ﷺ إذ يقول: ((بَعَثَ اَللهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ وَ جَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ لِئَلاَّ تَجِبَ اَلْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ اَلْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ اَلصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ اَلْحَقِّ أَلاَ إِنَّ الله تَعَالَى قَدْ كَشَفَ اَلْخَلْقَ كَشْفَةً لاَ أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً فَيَكُونَ اَلثَّوَابُ جَزَاءً وَاَلْعِقَابُ بَوَاءً أَيْنَ اَلَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ اَلرَّاسِخُونَ فِي اَلْعِلْمِ دُونَنَا كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا أَنْ رَفَعَنَا اَللهُ وَوَضَعَهُمْ وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ بِنَا يُسْتَعْطَى اَلْهُدَى وَيُسْتَجْلَى اَلْعَمَى إِنَّ اَلْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا اَلْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ لاَ تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ وَ لاَ تَصْلُحُ اَلْوُلاَةُ مِنْ غَيْرِهِمْ .))[1].

اكتمال الإمامة في لوحة النهج البليغ:

الإمام الحسن ﷺ هو نفس علي ﷺ بما في ألوان صورته التي ترتسم في أذهاننا وكما أراد رسمها أمير المؤمنين علي ﷺ في نهج البلاغة، وفي هذه الجمل وإن لم يُصرّح الإمام علي ﷺ أو لم يلوِّح إلى الحسن ﷺ وأهل البيت ﷺ إلّا أن النظر في النصوص المشابهة لهذه في نهج البلاغة نتيقّن أنّ المقصود بهذه الأوصاف هم أهل البيت ﷺ ومنهم الحسن ﷺ،[2] ولندعها بإيجازها البليغ تتحدث لنا عن شمائل هذا الإمام ـ الحسن ﷺ ـ الحليم الكريم بكل معاني الكرم الإنساني، في وصية علي ﷺ للحسن بن علي ﷺ كتبها إليه بـ ((حاضرين)) عند انصرافه من صفّين: ((مِنَ اَلْوَالِدِ اَلْفَانِ اَلْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ اَلْمُدْبِرِ اَلْعُمُرِ ... أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ اَلدُّنْيَا عَنِّي وَجُمُوحِ اَلدَّهْرِ عَلَيَّ وَإِقْبَالِ اَلْآخِرَةِ إِلَيَّ مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ وَاَلِاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ اَلنَّاسِ هَمُّ نَفْسِي فَصَدَفَنِي رَأْيِي وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لاَ يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ وَصِدْقٍ لاَ يَشُوبُهُ كَذِبٌ وَجَدْتُكَ بَعْضِي بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي وَكَأَنَّ اَلْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ ...))[3].

---

(١) نهج البلاغة: ١٤٤.

(٢) ظ: في رحاب نهج البلاغة، مرتضى المطهري: ٩٩.

(٣) نهج البلاغة: رسالة ٣١.

صورة الإمام الحسن ﷺ هنا هي صورة الخليفة القائم مقام الإمام علي ﷺ في علمه وفضائله وهو بمنزلة نفسه، [1] ويكاد الجهاد العلوي يكتمل بالحسن ﷺ ويتمُّ بالحسين ﷺ، فما حدث في أوّل خلافة الحسن ﷺ هو نسخة من صورة حدثت في أوّل خلافة أمير المؤمنين علي ﷺ فـ ((من كلام له ﷺ بعد ما بويع له بالخلافة، و قد قال له قوم من الصحابة لو عاقبت قوما ممن أجلب على عثمان فقال ﷺ : يَا إِخْوَتَاهْ إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَ لْقَوْمُ اَلْمُجْلِبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ يَمْلِكُونَنَا وَلاَ نَمْلِكُهُمْ وَهَا هُمْ هَؤُلاَءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ وَاِلْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ وَهُمْ خِلاَلَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاءُوا وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ إِنَّ هَذَا اَلْأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ وَإِنَّ لِهَؤُلاَءِ اَلْقَوْمِ مَادَّةً إِنَّ اَلنَّاسَ مِنْ هَذَا اَلْأَمْرِ إِذَا حُرِّكَ عَلَى أُمُورٍ فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ وَ فِرْقَةٌ تَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ وَفِرْقَةٌ لاَ تَرَى هَذَا وَ لاَ هَذَا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ اَلنَّاسُ وَتَقَعَ اَلْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا وَتُؤْخَذَ اَلْحُقُوقُ مُسْمَحَةً فَاهْدَءُوا عَنِّي وَاُنْظُرُوا مَا ذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي وَلاَ تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً وَتُسْقِطُ مُنَّةً وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً وَسَأُمْسِكُ اَلْأَمْرَ مَا اِسْتَمْسَكَ وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ اَلدَّوَاءِ اَلْكَي))[2].

إنَّ الإمام الحسن ﷺ كان يرى حال الأمّة كما وصفها أمير المؤمنين علي ﷺ مع الذين كانوا معه وهو من مصاديق قوله ((وَجَدْتُكَ بَعْضِي بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي))، في حياة أمير المؤمنين ﷺ صور .... شابهتها صور في حياة الحسن ﷺ ألوانها واحدة مع اختلاف عدسة التصوير، منها قول الإمام علي ﷺ ((إِنَّ اَلنَّاسَ مِنْ هَذَا اَلْأَمْرِ إِذَا حُرِّكَ عَلَى أُمُورٍ ...وَ سَأُمْسِكُ اَلْأَمْرَ مَا اِسْتَمْسَكَ وَ إِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ اَلدَّوَاءِ اَلْكَي)) فكان الحسن والحسين ﷺ حلقتان كمالاً وتمامًا لأمير المؤمنين ﷺ مثّلا صورة لأمير المؤمنين ﷺ شطرت نصفين من صورة أمير المؤمنين الكبرى أو هما تفصيل لألوان صورة الحياة السياسية الإسلامية لأمير المؤمنين ﷺ في حالة السلم والحرب، فكان الحسن ﷺ هو حالة السلم أو الصلح المر (صلح الحديبية، وصلح رفع المصاحف و...) التي أعطت التفصيل لصورة السلم المرّ الأول لأمير المؤمنين ﷺ أول خلافته ومن قبلها صبره على حقه، وما حالة التحكيم المر في حرب صفين بعد رفع المصاحف إلَّا تنازلاً مراً عن المعركة، كان معلوم كيده ومكره، فلم يكن أمام أمير المؤمنين إلَّا أن يقبله[3]؛ ليكشف بعد ذلك الباطن الحقيقي لهذه الخدعة التي انطلت على العامة من جيشه، ولم يستوعبوا خفاياها، ولم ينظروا إلَّا إلى القرآن الصامت، وصُمُّوا عن القرآن الناطق ولم يصغوا إليه، وهو ما حصل في إمامة الإمام الحسن ﷺ في صلحه، والتنازل عن المعركة مع معاوية وإعلان الهدنة، فكما لم يكن أمام أمير المؤمنين ﷺ إلَّا التنازل عن المعركة والعود إلى التحكيم لم يكن أمام الحسن ﷺ إلَّا هذا الأسلوب

(١) ظ: شرح نهج البلاغة، ميثم البحراني : م٢:ص٢٥٧.

(٢) نهج البلاغة: ١٦٨.

(٣) ظ: الهداية الكبرى، الحسين بن حمدان الخصيبي : ١٤٢، وشجرة طوبى، الشيخ محمد مهدي الحائري، (ت١٣٦٩ هـ) : ج ٢ : ٣٤٠، وكتاب سليم بن قيس، تحقيق محمد باقر الأنصاري : ٣٣٦ ـ ٣٣٧، ومنتهى المطلب، العلامة الحلي : ج٢ :هامش ٧٨.

الوحيد لحفظ الخط الرسالي من موقعه في الأمانة على الإسلام والمسلمين، وإذا كانت الأمة قد قالت نهى الإمام الحسن ﷺ عن الحكومة، وأمر بها الإمام الحسين ﷺ، فلا ندري أنهي الحسن ﷺ أم أمر الحسين ﷺ أصحّ؟، فما أشبه يومها بغدها فيما صوّره لنا أمير المؤمنين ﷺ ((وقد قام إليه رجل من أصحابه، فقال : نهيتنا عن الحكومة ثمّ أمرتنا بها، فلم ندر أيّ الأمرين أرشد ؟ فصفّق عليه السّلام إحدى يديه على الأخرى، ثم قال : هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ اَلْعُقْدَةَ أَمَا وَاَللَّهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى اَلْمَكْرُوهِ اَلَّذِي يَجْعَلُ اَللَّهُ فِيهِ خَيْراً فَإِنِ اِسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ وَإِنِ اِعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ لَكَانَتِ اَلْوُثْقَى وَلَكِنْ بِمَنْ وَ إِلَى مَنْ أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَ أَنْتُمْ دَائِي كَنَاقِشِ اَلشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ ...))[1].

فالإمام الحسن ﷺ لم يكن يتعامل مع الجماهير التي تعيش المأساة عن قرب في العراق فحسب بل أخذ بالنظر جميع المسلمين ممن كان يعيش في أطراف العالم الإسلامي كخراسان ـ مثلا ـ وغيرها، فهم لم يكتووا بالنار التي اكتوى بها الإمام الحسن ﷺ وما لا قاه من أعدائه وقاعدته بل كانوا يعيشون على مجرد الأخبار، وهو ما لم يكن له حل ناجع بعد ذلك في إمامة الحسين ﷺ إلّا ثورة كربلاء ؛ لإزالة الشك تماماً من أن أهل البيت ﷺ في سلمهم وحربهم الجهادية لا يعطون الشرعية في الحكم للمفسدين معاوية أو يزيد أوغيرهم، [2] فأهل البيت جميعاً ومنهم الحسن ﷺ يقومون بما تتطلبه المرحلة من حفظ للدين والأمة بأنسب حل وإن كان وحيداً، فالحسن ﷺ جمع الناس للجهاد وهو ماكان رآه أمير المؤمنين ﷺ قبل وفاته للعود إلى صفين فتثاقلوا[3]، وقد كان برنامج العود إلى صفين الذي أعده الإمام علي ﷺ هو لاستئصال فتنة معاوية من الجذور.

((و من كلام له عليه السّلام و قد جمع الناس و حضّهم على الجهاد فسكتوا مليّا، فقال عليه السّلام : أَ مُخْرَسُونَ أَنْتُمْ فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ يَا ؟ أَمِيرَ اَلْمُؤْمِنِينَ ؟ إِنْ سِرْتَ سِرْنَا مَعَكَ فَقَالَ ع مَا بَالُكُمْ لاَ سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ وَلاَ هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ أَفِي مِثْلِ هَذَا يَنْبَغِي أَنْ أَخْرُجَ وَ إِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَ ذَوِي بَأْسِكُمْ وَ لاَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ اَلْمِصْرَ وَاَلْجُنْدَ وَبَيْتَ اَلْمَالِ وَجِبَايَةَ اَلْأَرْضِ وَاَلْقَضَاءَ بَيْنَ اَلْمُسْلِمِينَ وَاَلنَّظَرَ فِي حُقُوقِ اَلْمُطَالِبِينَ ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ اَلْقِدْحِ فِي اَلْجَفِيرِ اَلْفَارِغِ وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ اَلرَّحَى تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي فَإِذَا فَارَقْتُهَا اِسْتَحَارَ مَدَارُهَا وَاِضْطَرَبَ ثِفَالُهَا هَذَا لَعَمْرُ اَللَّهِ اَلرَّأْيُ اَلسُّوءُ))[4]، وجاء نسخة من هذه الصورة ــ الرأي السوء ــ مع إمامة الحسن ﷺ، فكان دور الإمام الحسن ﷺ وموقعه يحتم عليه الصلح الذي

(١) نهج البلاغة:١٢١.

(٢) ظ:الحسين يكتب قصته الأخيرة، محمد باقر الصدر:ص٥٣ حاشية.

(٣) ظ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير (ت٦٣٠هـ) : ج ٣ : ٣٤٩، وأعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، ج١٠ : ص١٣١ .

(٤) نهج البلاغة:١١٩.

كشف فيه الباطن الحقيقي لحزب الإرهاب الأموي الدكتاتوري عامة ولمعاوية نفسه خاصة حين ((جاء معاوية فخطب الناس، فقال : يا أهل الكوفة ألا ترونني إني ما قاتلتكم على أن تصوموا أو على أن تصلوا، إنما قاتلتكم على أن أتأمر عليكم وقد أمرني الله عليكم على رغم أنفكم))[1]، هذا هو المنطق الذي يمثل إرهاب الحزب الأموي، لكن المنطق الرسالي هو الذي تمثل بأسلوب الحسن ﷺ، إذ يقول (ويا قوم لا أسئلكم عليه مالا إن أجري إلا على الله) فأنا لا أريد أن أتآمر بل أأدي رسالة جدي المصطفى وما أجري إلا على الله مالك الملك فهو الذي يعطي وإن منع الآخرون وهو الذي يمنع وإن أعطى الآخرون فكل شئ بيده، [2] فالإمام الحسن ﷺ قدّر له أن يعالج الشك في الخط الرسالي لأهل البيت (ﷺ) الذي بدا في الأمة في عهد أمير المؤمنين ﷺ ذلك الشك الذي استفحل ليصل إلى حالة مرضية في عهد الإمام الحسن ﷺ، فشدة هذا المرض لم يكن بالإمكان علاجها حتى بتضحية من الإمام الحسن ﷺ كتضحية الحسين ﷺ التي ناسبت علاج مرض آخر في الأمة هو حالة انعدام الإرادة في فترة امامة الحسين ﷺ .[3]

الإمامة في لوحة الخاتمة:

الحسن ﷺ كان يمشي بالأمة وهو يكمل خطوات جده المصطفى ﷺ النبي الجليل الذي لم يترك حبة رمل من أرض الجزيرة إلَّا ونشفها بخطواته الثقيلة، وغمرها بفيض من عقله وروحه وحنانه، كما يكمل خطوات أبيه المرتضى ﷺ الذي كانت خطواته أوسع من الدرب، فإنه ماترك في خطواته إلَّا النظافة والعدالة والتقى والسموّ الذي باتت تبحث عنه المجتمعات لتحقق وجودها الحضاري النبيل ؛ لأنه لايوجد إلَّا في خطى علي ﷺ، ويكمل خطوات الزهراء ﷺ التي مشتها من باحة بيتها إلى باحة المسجد، لتعلم الأمة أن العدالة الممهورة بجنان أبيها محمد ﷺ وسباكتها من معدن زوجها علي ﷺ هي التي تجعل الأمة قدوة بين الأمم، هؤلاء هم الذين كان الحسن ﷺ بعضهم بل كلهم، هؤلاء هم الذين تعلم منهم الحسن ﷺ كيف يمشي حاملا للرسالة التي جعلها الله ـ تعالى ـ فيهم ويسلمها بما يسمح لها أن تمتد عبر الأجيال تخفق فيه ثورة نادرة المثال تعلم البنائين كيف يعالجون أساس الصرح الذي يليق لسكنى الإنسان، لقد مشى الإمام الحسن ﷺ بروحه وعقله وإيمانه وكان حكيما وقطبا ولا يزال حتى الآن يمشي مشية الرئبال المختال، إنه ﷺ الغيور على الأمة التي سحبت من تحت الرمال المحرورة ؛ لتثبت وجودها تحت الظلال، لا يزال الحسن ﷺ يعلِّم الأمة أن الوحدة النظيفة المؤمنة والمدركة هي التي تبني المجتمع بالإنسان العظيم، وأن الأحقاد ليست حلا ولا عقلا، وأن التسابق إلى مراكز

(١) الملاحم والفتن – السيد ابن طاووس – ص ٢٢٥ وينظرشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٦، ص٤٦.

(٢) ظ: سياسة الأنبياء – السيد نذير يحيى الحسيني – ص ٣٠ – ٣١

(٣) ظ:الحسين يكتب قصته الأخيرة، محمد باقر الصدر:٥١ ـ ٥٢.

الحكم والثروة ليس قوة ولا غنى، ولا أي تحقيق يدوم، وأن الحكم خدمة متفانية، وصدق في المعرفة والضمير، وأن كل ماخطه جده المصطفى ﷺ الذي جمع الأمة من شتاتها إلى واحد، هو الصحيح في أداة الجمع والتوحيد، وهي التي جمعت، وهي التي حققت، وهي التي من أجلها ضحى الإمام الحسن ﷺ ليثبتها أداة جمع لا أداة تفرقة، فكان التنازل عن الحكم، والابتعاد عن إراقة الدم قدوة حيّة لا تزال حتى الآن تقدّم لكل من يحاول الوصول إلى كرسي مغرور القوائم في برك الدم على حساب مجتمع ينهدُّ إلى درك من الذل والضعف والهوان.[1]

النتائج

- اذا كان هناك من يظن أن الحسن ﷺ مثّل جانب السلم فإنه كان يحمل راية الثورة مع أبيه ورافق عمار بن ياسر في استنفار الناس لحرب الجمل[2] وشهد الحروب مع أبيه حتى نَفَسَ به مخافة أن ينقطع نسل رسول الله ﷺ وكان قد أرسل الجيش لحرب معاوية.
- حالة السلم تمثّلت في أوضح وجه لها صلح الإمام الحسن ﷺ مع معاوية والذي كتب فيه الكثيرون، وكان السمة البارزة في حياة الإمام السياسية لذا ركزنا عليه في رسم الصورة هنا تحت مجهر النهج لما فيه من صورة موسعة لصور سبقتها من أمير المؤمنين علي ﷺ فلم يكن ما صنعه الحسن ﷺ بدعا من الفعل وكذا لم يكن إنكار الأمة التي لم تستطع أن تدكر أهل البيت القرآن الناطق فيها مع أنهم يسروا من أنفسهم لخدمة الأمة.
- صورة صلح الإمام الحسن ﷺ أخذت ملامحها من صلح النبي ﷺ.
- الحسن ﷺ في عدم إطاعة الأمة له كمثل المسلم الذي لا يذهب لحج بيت الله الحرام وهو فرض عليه فليس الذنب على البيت بل على المسلم الذي لم يذهب.
- صبر الإمام عن حقه هو صبر أمير المؤمنين علي ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ عن حقه وقد عادت له الأمة بعد أن بان لها الحق الأبلج فبايعته بل أجبرته على الخلافة لأنها لم ترَ لها غيره، والحسن ﷺ هو كلُّ أمير المؤمنين أو بعضه.
- التدقيق المنصف يرى أن سيرة الإمام الحسن ﷺ هي من صور سيرة الأنبياء ﷺ التي ذكرها القرآن الكريم فهي مستمدة من القرآن سيرة ونهجا.

---

(١) ظ: الإمام الحسين في حلة البرفير، سليمان الكتاني: ١٠ ـ ١٢.

(٢) ظ : الطبري م٢: ٥١٢ ـ ٥١٣.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الأمالي، محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه الشهير بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، تح : الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة، ط ١، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم ـ ايران، ١٤١٧ هـ .
- أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة، أسعد وحيد القاسم ط ١، بيروت – لبنان، ١٤١٨ – ١٩٩٧ .
- الإرشاد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، تح: حسين الأعلمي، ط ٥، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .
- الإمام الحسين في حلة البرفير، سليمان الكتاني، ط ٢، دار المرتضى، بيروت ـ لبنان، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين (ت١٣٧١هـ)، تح: حسن الأمين، د ط، دار التعارف للمطبوعات – بيروت لبنان، ١٤٠٣ – ١٩٨٣ م.
- بحار الأنوار، العلامة المجلسي (ت ١١١١) تح : محمد الباقر البهبودي ط ٢ ١٤٠٣ – ١٩٨٣م دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان
- تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ط ٢، مؤسسة عز الدين، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م.
- جامع أحاديث الشيعة، تحت اشراف السيد آقا حسين الطباطبائي البروجردي، دط، المهر، قم ـ ايران، ١٤١١هـ – ١٣٦٩ ش.
- جنة المأوى، محمد الحسين آل كاشف الغطاء، ط ٢، دار الأضواء، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
- الحسين يكتب قصته الأخيرة، محمد باقر الصدر، تحقيق وتعليق ومراجعة : صادق جعفر الروازق، ط ١، ١٤٢٧ ـ ٢٠٠٦م .
- ديوان المتنبي، ٣٥٥، دار بيروت، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
- روضة الواعظين، محمد بن الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨هـ) تح : السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان ، الشريف الرضي، قم ـ ايران.
- سياسة الأنبياء – السيد نذير يحيى الحسيني،

- شجرة طوبى، الشيخ محمد مهدي الحائري، (ت١٣٦٩ هـ)، ط ٥، المكتبة الحيدرية ومطبعتها – النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ .
- شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد (ت ٦٥٦هـ)، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، دار احياء الكتب العربية، ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩م .
- شرح ديوان المتنبي – : الواحدي .
- شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت٦٢٩هـ)، ط ١، النجف الأشرف ـ العراق، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م .
- صلح الحسن عليه السلام، السيد شرف الدين، .
- صلح الحسن عليه السلام، الشيخ راضي آل ياسين
- صلح الإمام الحسن، السيد محمد الحسيني الشيرازي، ط ٢، الكويت، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م .
- العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) تح : عبد الحكيم محمد الأنيس ط ١ ، دار ابن الجوزي ـ السعودية، ١٤١٨ – ١٩٩٧م .
- في رحاب نهج البلاغة، مرتضى المطهري، مكتبة الروضة الحيدرية في العتبة العلوية المقدسة، النجف الأشرف ـ العراق، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م .
- قصص الأنبياء، السيد محمد حسين الطباطبائي، اعداد وتحقيق الشيخ قاسم الهاشمي، ط ١، بارسا، قم ـ إيران، ١٤٢٥هـ .
- الكامل في التاريخ، الشيخ العلامة عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، د ط، دار صادر، بيروت ـ لبنان، ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨هـ)، ط ٢، دار احياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م .
- مستدرك سفينة البحار، الشيخ علي النمازي الشاهرودي(ت ١٤٠٥)، تح : الشيخ حسن بن علي، دط، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ـ ايران، ١٤١٩ هـ .
- موسوعة كلمات الإمام الحسن عليه السلام – لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، ط ١، دار المعروف، قم ـ ايران، ١٤٢٣هـ.
- مروج الذهب، المسعودي ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، تح:

محمد محي الدين عبد الحميد، د ٥، الرياض ـ السعودية، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

- مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهانى (ت ٣٥٦هـ)، تح: كاظم المظفر، ط ٢، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف ـ العراق، ١٣٨٥ - ١٩٦٥ م.
- المجتمع والتأريخ، الشيخ مرتضى المطهري، ط ١، دار الزهراء، النجف الأشرف ـ العراق، ١٤٢٧هـ.
- منتهى المطلب (ط.ج)، العلامة الحلي (ت ٧٢٦هـ)، تح: قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلامية، ط ١، مشهد ـ إيران، ١٤١٣ .
- الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤١٢هـ)، د ط، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم ـ ايران، د ت .
- الملاحم والفتن، السيد رضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس (ت ٦٦٤ ه)، تح: مؤسسة صاحب الامر (عج)، ط ١، نشاط - أصفهان -إيران، ١٤١٦هـ .
- نهج البلاغة، تح د. صبحي الصالح، ط ٤، أنوار الهدى، ايران ـ قم، ١٤٣١ هـ .
- الهداية الكبرى، الحسين بن حمدان الخصيبي (ت٣٣٤هـ)، ط ٤، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، ١٤١١ - ١٩٩١ م.

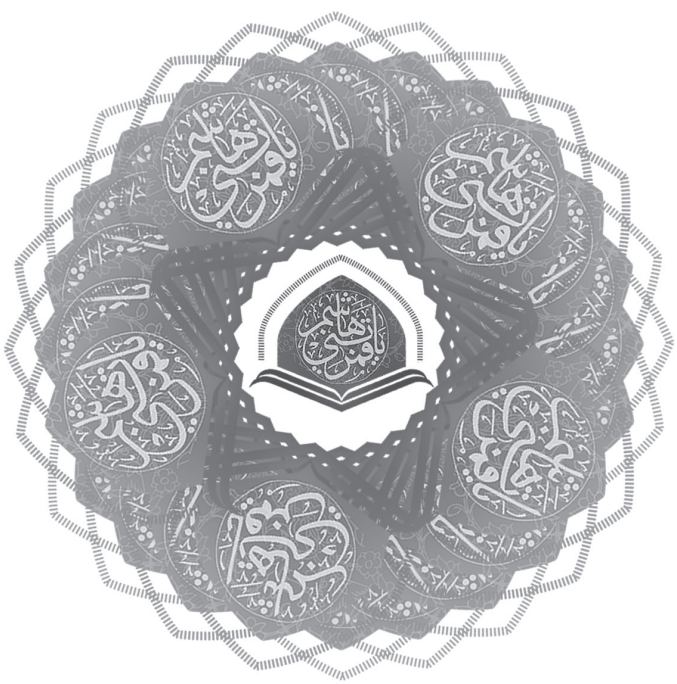

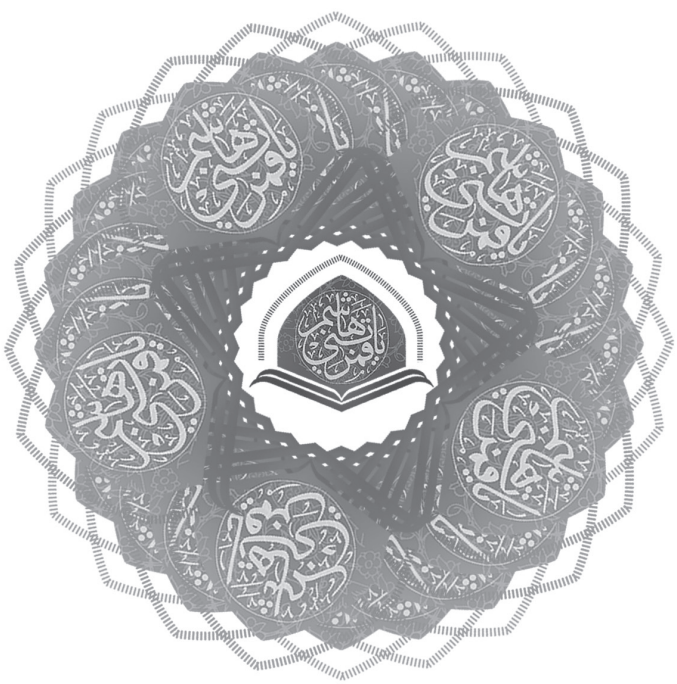

أموال السيدة خديجة بنت خويلد عليها السلام وآثارها الاقتصادية في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله

م.م. ازر عبد الكاظم إسماعيل

المقدمة

لقد تناولت في هذا البحث واحدًا من أهم الموضوعات المهمة التي لها علاقة وثيقة بالجانب المالي في حياة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله ألا وهو أموال خديجة عليها السلام وآثارها الاقتصادية في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ بدأت بحثي هذا بلمحة تاريخية عن النشأة المالية لرسول الله صلى الله عليه وآله في بداية حياته الشريفة، وما ورثه عن أبويه ثم بعد ذلك تناولت ما كان يتلاقاه صلى الله عليه وآله من رعاية وعناية واهتمام أبوي من جدّه عبد المطلب حتى توفي(رحمه الله) لينتقل الى كنف عمه أبي طالب (رحمه الله) الذي كان يواسيه بنفسه وماله على الرغم من حاجته المالية وكثرة عياله، وكيف استطاع أن يعلمه مهنة التجارة وهو صغير السن ولما بعث صلى الله عليه وآله كان يحميه بنفسه وعياله من أعداء الإسلام والمسلمين كأبي جهل وأبي لهب وأبي سفيان وغيرهم، الى أن توفي (رحمه الله) فسمّى رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك العام الذي توفي فيه (عام الحزن)، ومن أهم عوامل التغيير في الجانب الاقتصادي من حياة رسول الله صلى الله عليه وآله المالية زواجه من خديجة بنت خويلد عليها السلام تلك السيدة الطاهرة الشريفة صاحبة أكبر قوافل تجارية في الحجاز ؛ إذ وهبته كلّ ما تملك بعد أن وثِقت فيه وبصدقه في الوقت الذي كان فيه صلى الله عليه وآله به حاجة ملحة الى هذه الأموال خصوصا أيّام البعثة وما لاقاه من المشركين من حصار، وليكون هذا المال عونًا له في نشر رسالة الإسلام وتحقيق الهدف المنشود .

المبحث الأول:

نشأة رسول الله صلى الله عليه وآله المالية:

لقد نشأ رسول الله صلى الله عليه وآله من أبوين ميسوري الحال، ولم يتركا ثروة أو أموالاً كثيرة تجعلهُ غنيًّا، فالأب وهو عبد الله [(١)] بن عبد المطلب كان حين وفاتهِ شاباً لم يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، فكان في بداية تكوين

(١) توفى عبد الله بن عبد المطلب، أبو رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو حمل، ويقال إنه توفى وهو ابن سبعة أشهر .ويقال إنه توفى وهو ابن نيّف وعشرين شهرا . وكان عبد المطلب بعثه إلى المدينة يمتار له تمرا . فنزل على أخواله من بنى النجّار، فمات عندهم . ويقال :بل أتاهم زائرا لهم، فمرض عندهم ومات . ويقال : بل قدم من غزّة بتجارة له، فورد المدينة مريضا، فنزل على أخوال أبيه، فمات عندهم . وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة ويقال : ثمان وعشرين سنة . وأنّ أباه بعث إليه الزبير بن عبد المطلب، أخاه، فحضر وفاته . ودفن في دار النابغة ولما أتى لرسول الله صلى الله عليه وآله ست سنين، زارت أمه قبر زوجها بالمدينة، كما كانت تزوره . ومعها عبد المطلب وأم أيمن حاضنة رسول الله صلى الله عليه وآله. فلما صارت بالأبواء منصرفة إلى مكة، ماتت بها ودفنت . ويقال إنّ عبد المطلب زار أخواله

حياتهِ المالية، وكذلك أمّه آمنة بنت وهب، التي هي الأخرى لم تتحدّث المصادر على أنّهُ ﷺ ورث شيئًا عنها، سوى بيتها الذي بمكّة في شعب بني علي خلف سوق العطّارين، كما ورث من زوجته خديجة بنت خويلد عليها السلام دارها بمكّة بين الصّفا والمروة، وأموالاً فأمّا الدّاران فقد قيل: أنَّ عقيل بن أبي طالب باعهما بعد هجرة رسول الله ﷺ، فلمّا قدم رسول الله ﷺ إلى مكّة في حجّة الوداع قيل لهُ: في أيّ دارك تنزل؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من ربع»[(١)]، فلم يرجع، فيما باعهُ عقيل آنذاك، لأنَّهُ تغلّب عليه، ومكّة دار حرب يومئذ، فأجرى عليه حكم المستهلك[(٢)]، وورث من والديه جارية، وهي أمّ أيمن[(٣)]، وكانت تحضنهُ، وكان يُسمّيها أمّي[(٤)]، وخمسة أجمال أوارك يعني تأكل الأراك [(٥)]، وقطيع غنم، وورث سيفًا مأثورًا [(٦)] كان لأبيه[(٧)]، وكانت منائح[(٨)] رسول الله ﷺ سبعًا: وهي عجوة، وزمزم، وسقيا، وبركة، وورسة، وأطلال، وأطراف[(٩)]، فكانت ترعى، وتروح كلّ ليلة على بيت رسول الله ﷺ [(١٠)].

رسول الله ﷺ في كنف جدّه عبد المطّلب:

لقد عاش رسول الله ﷺ بعد وفاة والديه في كنف جدّه عبد المطّلب، وعبد المطّلب يومئذ سيّد قريش أعطاه الله من الشرف مالم يعطِ أحدًا، وحكمتهُ قريش في أموالها، وكان يُطعم الناس بل حتى الطّير، والوحوش في الجبال، ورفض عبادة الأصنام، ووحّد الله عز وجل، وسنَّ سننًا نزل القرآن بأكثرها، وجاءت السنة من رسول الله بها [(١١)].

من بنى النجّار، وحمل معه آمنة ورسول الله ﷺ: فلما رجع منصرفا إلى مكة، ماتت آمنة بالأبواء، ينظر: البلاذري، احمد بن يحيى، (ت٢٧٩هـ)، انساب الاشراف، تح:محمدحميد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م ج ١، ص٩٢.

(١) الربع: هو المنزل والوطن سمي ربعا؛ لأنهم يربعون فيه، ينظر: الفراهيدي، الخليل بن احمد، (ت ١٧٥ هـ)، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي و ابراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ايران، ١٤٠٩هـ، ج٢، ص١٣٢ .

(٢) الماوردي، علي بن محمد البغدادي، (ت٤٥٠هـ)، الاحكام السلطانية والولايات الدينية، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، مصر، ١٩٦٦م، ص١٧١.

(٣) واسمها بركة من الحبشة وكانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب وكانت تحضن رسول الله ﷺ وهو صغير، فاعتقها ثم انكحها زيد بن حارثة، ينظر: الطبراني، سليمان بن احمد، (ت٣٦٠ هـ)المعجم الكبير، تح: حمدي عبد المجيد، ط٢، القاهرة، ١٩٨٤م، ج٧، ص١٣٩ .

(٤) ابن سعد، محمد بن منيع، (ت٢٣٠هـ) ، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، (د ت)، ج١، ص١٠٠ .

(٥) الأراك: شجر معروف له حمل كعناقيد العنب، واسمه الكباث وإذا نضج يسمى المرد، ينظر:ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري ، (ت ٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: محمود محمد الطناحي ، مؤسسة اسماعيليان ، قم، ١٣٦٤هـ، ج١، ص ٤٠ .

(٦) الأثر:هو فرند السيف ورونقه، وقيل: المأثور في متنه اثر، وقيل :هو الذي يقال انهٌ يعمله الجن وليس من الاثر الذي هو الفرند، ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، (ت٧١١هـ)، لسان العرب، ادب الحوزة، قم، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٨ .

(٧) البلاذري، انساب الاشراف، ج١ ، ص٩٦ .

(٨) المنيحة منحة اللبن كالناقة او الشاة تعطيها غيرك يحتلبها ثم يردها، ينظر:ابن منظور، لسان العرب ج٢، ص٦٠٧

(٩) الطبري، محمد بن جرير، (ت٣١٠هـ) ، تاريخ الطبري، تح: محمد ابوالفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م، ج٣، ص ١٧٦ .

(١٠) ابن سعد، الطبقات، ج١، ص٤٩٦ .

(١١) اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب، (ت٢٩٢هـ) ، تاريخ اليعقوبي، المكتبة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٩٦٤م، ج٢، ص٧ .

وقيل: إنّه لمّا مضى على ولادة النبيﷺ سبعة أيّام، أقام عبد المطّلب وليمة عظيمة، وذبح الأغنام، ونحر الإبل، وأكل النّاس لثلاثة أيّام، ثم التمس لهُ مرضعة على عادة أهل مكة[(١)]، فكان أن قدّمت في ذلك الوقت حليمة بنت أبي ذؤيب- وكان اسمهُ عبد الله بن الحارث بن شجنة- في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء بمكّة، فقالت: «خرجتُ معهنّ على اتان[(٢)]، ومع زوجي ومعنا شارف[(٣)] لنا، فلمّا قدمنا مكة، لم تبقَ منّا امرأة إلا عُرض عليها محمد ﷺ، فكرهناهُ لأنّهُ يتيم، فكُلّ صواحبي أخذن رضيعًا، ولم آخذ شيئًا، فلمّا لم أجد غيرهُ رجعتُ إليه فأخذتهُ، فأمسيتُ، وأقبل على ثديي باللبن حتى أرويتهُ، وحملتُ محمدا ﷺ معي، فوالذي نفسُ حليمة بيدهِ لقد طفتُ بالركب، حتى أنّ النّسوة يقلن يا حليمة امسكي علينا أهذهِ أتانك التي خرجت عليها!، فقلتُ لهنّ: نعم، ما شأنها؟ قلنّ: حملتِ غلامًا مباركًا، وأنّ الله يزيدنا في كلّ يوم وليلة خيراً، والبلاد قحط، وكان الرُعاة يسرحون، ثمُ يرجعون، فتروح أغنام الناس جياعًا، وتروح غنمي شباعًا، فتُحلب وتُشرب» [(٤)].

وكان عبد المطّلب إذا أتى بالطعام، فلا يمسُّ منهُ شيئًا، حتى يجلس النبي ﷺ إلى جانبهِ، ويقعدهُ على فخذهِ، فيؤثرهُ بأطيب طعامهِ،[(٥)] ولا يأكل عبد المطلب طعامًا ألا يقول: علي بابني، فيؤتى بهِ[(٦)]، ويوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فلا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً لهُ، وكان رسول الله ﷺ يأتي فيجلس عليه، فيريد أعمامهُ منعهُ، فيقول عبد المطلب: دعوا ابني، فيمسح على ظهرهِ، ويقبل رأسهُ، وفمهُ ويقول: أنّ لابني هذا شأنًا [(٧)]، حتّى قال رسول الله ﷺ في حقّهِ: « إنَّ الله يبعثُ جدّي عبد المطلب أمة واحدة في هيئة الأنبياء، وزي الملوك» [(٨)]، وبقي النبي ﷺ في حجر عبد المطلب، فلمّا بلغ من العمر اثنين، ومائة سنة، جمع بنيه، وقال لهم: «محمد يتيم فآووه، وعائل فأغنوه، واحفظوا وصيتي فيه، فقال أبو لهب: أنا لهُ، فقال: كُف شرك عنهُ، فقال العباس: أنا لهُ، فقال: أنت غضبان لعلك تؤذيه، فقال أبو طالب: أنا لهُ، فقال: أنت لهُ، يا محمد: أطع لهُ»،

---

(١) المجلسي، محمد باقر، (ت١١١١هـ)، بحارالانوار، داراحياء التراث العربي، ط٣، بيروت، ١٩٨٣م، ج ١٥، ص٣٢٩ .

(٢) اتان: وهي الحمارة، ينظر:الجوهري، اسماعيل بن حماد، (ت٣٩٣هـ)، الصحاح، تح: احمد عبد الغفورالعطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م، ج٥، ص٢٠٦٧ .

(٣) الشارف: الناقة المسنة دون الناب، ينظر:الفراهيدي، العين، ج٦، ص٢٥٣ .

(٤) ابن هشام الحميري، محمد بن عبد الملك، (ت٢١٨هـ)، السيرة النبوية، تح:محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة محمد علي واولاده، القاهرة، ١٩٦٣م، ج١، ص١٠٥ .

(٥) البلاذري، انساب الاشراف، ج١، ص٨١ .

(٦) ابن عساكر، علي بن الحسن ، (ت ٥٧١هـ) ، تاريخ مدينة دمشق ، تح : علي شيري ، دارالفكر ، بيروت ، ١٩٩٥م، ج٣ ، ص٨٥ ٠

(٧) ابن إسحاق، محمد ابن اسحاق بن يسارالمطلبي، (ت ١٥١هـ) ، السيرة النبوية ، تح: احمد فريد المزيدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م، ، ج١ ، ص ١١٠ .

(٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٩ .

فأخذهُ أبو طالب في حجرهِ، وقام بأمرهِ يحميه بنفسهِ، ومالهِ، وجاهه من أعدائهِ، فلمّا توفّي عبد المطلب كان أبو طالب يؤثرهُ بالنفقة، والكسوة حتى على نفسهِ وعلى عيالهِ، وفي ذلك يقول عبد المطلب:

أوصيك يا عبدُ مناف بعدي بموحد بعد أبيه فرد

فارقهُ وهو ضجيع المهد فكنتُ كالأم لهُ في الوجد

تدنيه من احشائها والكبد فأنت من أرجى بني عندي[1]

كفالة أبي طالب لرسول الله ﷺ:

لقد تكفل رسول الله ﷺ بعد وفاة جده عبد المطلب عمهُ أبو طالب، فكان خير كافل لهُ، [2] . وكان أبو طالب سيدًا شريفاً مطاعاً، ومهيباً مع حاجتهِ المالية، وقال في حقهِ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: "ساد أبي فقيراً، وما ساد فقير قبله"، وخرج رسول الله ﷺ مع أبي طالب إلى بصرى من أرض الشّام، وعمرهُ الشريف تسع سنوات[3]، وقيل: ثلاث عشرة سنة[4]، ولقد ربّتهُ فاطمة بنت أسد بن هاشم امرأة أبي طالب، وأم أولاده جميعا، ولّما توفيت قال عنها رسول الله ﷺ: " اليوم ماتت أمي"، وكفنها بقميصهِ، ونزل على قبرها، واضطجع في لحدها، فقيل لهُ: يا رسول الله لقد اشتد جزعك على فاطمة!، فقال: "إنّها كانت أمّي إن كانت لتجيع صبيانها، وتشبعني، وتشعثهم، وتدهنني، وكانت أمّي"[5] .

واهتم أبو طالب برعايته اهتماماً كبيراً، فكان يحبّهُ حبًّا شديدًا لايحبهُ لولدهِ، ولا ينام حتى ينام إلى جنبهِ، ويخرج فيخرج معهُ، ، وكان يخصّهُ بالطعام، وإذا أكل عيال أبي طالب جميعًا أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فيقول أبو طالب: إنّك مبارك، فكان الصبيان يصبحون رمصا [6] شعثاً، ويصبح رسول الله ﷺ دهينًا كحيلاً [7]، وإذا أراد أبو طالب أن يُطعم أولادهُ الطعام، يقول لهم: كما أنتم حتى يحضر ابني، فيأتي، رسول الله ﷺ، فيأكل معهم، فيبقى الطّعام على حاله ببركتهِ ﷺ[8].

---

(١) ابن شهر اشوب، محمد بن علي، (ت٥٨٨هـ)، مناقب ال ابي طالب، تح، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٥٦م، ج١، ص٣٤ .

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١١ .

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١١ .

(٤) المسعودي، علي بن الحسين، (ت٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح:محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٨م، ج١، ص٢٨١ .

(٥) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص١١ .

(٦) الرمص:غمص ابيض تلفظه العين فتوجع له، ينظر:الفراهيدي، العين، ج٧، ص١٢٢ .

(٧) ابن شهر اشوب، المناقب، ج١، ص٣٥ .

(٨) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص١١٩ .

وعندما خرج رسول الله ﷺ مع عمّه أبي طالب إلى الشام في العير التي خرج فيها للتجارة، نزلوا بالرّاهب بحيرًا، فقال لأبي طالب في أمر النبي ﷺ ما قال، وأمرهُ أن يحتفظ بهِ، فردّهُ أبو طالب معهُ إلى مكة، وشب رسول الله ﷺ مع أبي طالب يحفظهُ، حتى بلغ، فكان رجلاً أفضل قومهِ مروءة، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأمانة، وأصدقهم حديثًا، وأبعدهم عن الفحش، والأذى، حتى سمّاهُ قومهُ (الأمين) لما جمع الله لهُ من الأمور الصالحة فيه، فلقد كان الغالب عليه بمكة (الصادق الأمين)[1].

وفي السنة الثّامنة من نبوتهِ ﷺ، وكان قد أسلم قبل ذلك حمزة بن عبد المطلب، ووجد أصحاب رسول الله ﷺ في أنفسهم القوّة، وانتشر الإسلام بين القبائل، وحمى(النجاشي) ملك الحبشة من هاجر إلى بلدهِ من المسلمين، اجتمعت قريش، وتأمروا فيما بينهم، على أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيهِ، على ألّا ينكحوا بني هاشم، وبني المطلب، ولايبيعوهم، ولايبتاعوا منهم شيئًا، فكتبوا بذلك صحيفة، ثم علّقوها في جوف الكعبة، ولمّا فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم، وبنو المطّلب إلى أبي طالب، فدخلوا معهُ في شعبهِ [2]، ولقد مكثوا في الشعب ثلاث سنوات، لا يقدرون على الطّعام إلّا من موسم إلى موسم، فلاقوا من الجوع، والعري الشيء الكثير، وأنفق أبو طالب وخديجة جميع ما لهما في الحصار[3]، وقد جمع أبو طالب بني هاشم، ودخل الشِّعب، وكانوا أربعين رجلاً، وحصّن الشِّعب، فكان يحرس رسول الله ﷺ في الليل، والنهار، فإذا جاء الليل يقوم هو بالسيف، ورسول الله ﷺ مضطجع، ثم يقيمهُ ويضجعهُ في موضع آخر، وأمّا بالنهار فيوكل ولده وولد أخيه يحرسونهُ [4]، وكان علي بن أبي طالب عليه السلام يخرجُ ليلًا من الشِّعب يُخفي نفسهُ عن أعدائهم، كأبي جهل، وغيره من المشركين، حتى يأتي إلى من يبعثهُ إليه أبو طالب إلى كبراء قريش، فيحمل لبني هاشم على ظهرهِ أعدال الدقيق، والقمح، ويدخل بها الشعب[5].

وفي ذلك الوقت كان ﷺ يتولّى الإنفاق على المسلمين في تلك المرحلة الحرجة من الحصار من أموال

---

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣، ص١٠ .

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ج٢، ص٣٣٥- ٣٣٦ .

(٣) الراوندي ، قطب الدين سعيد بن عبدالله، (ت٥٧٣هـ)، قصص الأنبياء، تح، غلام رضا، ط١، قم، ١٤١٨هـ، ج١، ص٨٥ .

(٤) الطبرسي، الفضل بن الحسن، (ت٥٤٨هـ)، أعلام الورى بإعلام الهدى، تح ونشر: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، ط١، قم المقدسة، ١٤١٧هـ ، ج١، ص١٢٥ .

(٥) ابن ابي الحديد، عزالدين عبد الحميد، (ت٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، داراحياء الكتاب العربي، القاهرة ، ١٩٦٧م، ج١٣، ص٢٥٤ .

أبي طالب، وخديجة، حتى أنّهُ دار كلام ذات مرّة بين أسماء بنت عميس[(١)]، وعمر بن الخطاب، عندما دخل على حفصة، وكانت عندها أسماء، « فقال حين رأى أسماء: من هذهِ ؟ قالت: ابنة عميس، فقال عمر: الحبشية البحرية هذه! فقالت لهُ أسماء: نعم، فقال: سبقناكم بالهجرة، فنحنُ أحقّ برسول الله ﷺ منكم، فغضبت، وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يُطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم»[(٢)]، وتوفيّ أبو طالب، ولرسول الله ﷺ من العمر ست وأربعون سنة، وتوفّيت خديجة بعدهُ بثلاثة أيام، وسمّى رسول الله ﷺ ذلك العام (بعام الحزن) [(٣)]، وقال ﷺ في حق أبي طالب: « ما زالت قريش كاعة عني حتى مات عمي أبو طالب» [(٤)]، كذلك ورد عنهُ قولهُ ﷺ في حق أبي طالب: «ياعم ربيت صغيرًا، وكفلت يتيمًا، ونصرت كبيرًا، فجزاك الله عنّي خيرًا»، ثم قال : « اجتمعت على هذه الأمّة في هذه الأيّام مصيبتان، لا أدري بأيّهما أنا أشدّ جزعًا»، ويعني مصيبة خديجة وأبي طالب[(٥)].

ممارسته ﷺ للتجارة:

كانت مكة، وهي موطن رسول الله ﷺ مدة نصف قرن مدينة تجارية تقع وسط صخور جرداء، ولقد طورت المدينة لكونها مركزًا تجاريًّا، مع وجود الحرم الذي يؤمّه الناس، وكانت العوامل الجغرافية مؤاتية لها، فقد كانت تقع على مفترق طرق من اليمن إلى سورية ومن الحبشة إلى العراق، وكانت قريش وعلى وجه الخصوص أولاد عبد مناف قد عملوا كثيرًا لازدهار التجارة في مكة، فقد ذهب عبد شمس إلى اليمن ونوفل إلى فارس، والمطلب إلى الحبشة، وهاشم إلى سوريا، وربما كان ذلك سببًا في غناهم[(٦)]، حتّى قيل: أنّهُ سُمّيت قريش بذلك لأنّهم كانوا أهل تجارة، ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع من قولهم: فلان يتقرّش المال أي يجمعهُ[(٧)].

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الرّحلات التجارية بقوله تعالى: { لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ

---

(١) اسماء بنت عميس بن معبد بن تيم بن مالك بن قحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن معاوية، زوجة جعفر بن ابي طالب، ولماهاجر جعفر إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية ومعه امرأته أسماء بنت عميس، وولدت له هناك عبد الله وعونا، ومحمد فلم يزل بأرض الحبشة حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ثم قدم عليه جعفر من أرض الحبشة وهو بخيبر سنة سبع للهجرة، ينظر:ابن سعد، الطبقات، ج٤، ص٣٤ .

(٢) النسائي، احمد بن شعيب، (ت٣٠٣هـ) ، السنن الكبرى، تح: عبد الغفار وسيد كسروي حسن، ط١، دارالكتبالعلمية، بيروت ، ١٩٩١م، ج٥، ص١٠٤ .

(٣) ابن أبي الفتح الاربلي، علي بن عيسى، (ت٦٩٣هـ) ، كشف الغمة في معرفة الأئمة ، ط٢، دارالاضواء، بيروت، ١٩٨٥م، ج١، ص١٦ .

(٤) الذهبي، ابوعبدالله شمس الدين محمد، (ت ٧٤٨هـ) ، تاريخ الإسلام ووفيات مشاهيرالاعلام، تح: عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦م، ج١، ص٢٣٣ .

(٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٢٩ .

(٦) مونتجومري وات، محمد في مكة ، ترجمة: شعبان بركات المطبعة العصرية، لبنان ، ١٩٩٥م ، ص١٨ .

(٧) ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٣٣٥ .

وَالصَّيْفِ } رحلة الصيف إلى الشام، ورحلة الشتاء إلى اليمن في التجارة [(١)]، وأول من سنّ هاتين الرحلتين هو هاشم بن عبد مناف[(٢)].

فقد كانت لهم رحلة صيفية إلى سوريا، وأخرى شتوية إلى اليمن، فكانوا يحصلون من معاملتهم مع سوريا على ربح طائل يصل في بعض الأحيان إلى مئة في المئة، بل إنَّهم كانوا يحصلون من قافلة تجارية واحدة إلى الشام على خمسين ألف دينار من الذهب[(٣)]، وكان عبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله ﷺ يشارك في هذهِ العمليات التجارية، حتى أنّه تُوفي في المدينة في أثناء عودتهِ من الشام ... [(٤)].

ويبدو أنَّ الظروف هذه، وغيرها دفعت بالنبي ﷺ إلى أن يمارس مهنة التجارة في بداية حياته الشريفة، ومنذ نعومة أظافره . "فعن ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب عن أبي طالب قال : خرجتُ إلى الشام تاجرًا سنة ثمان من مولد النبي، وكان في أشدّ ما يكون من الحر، فلمّا أجمعت على المسير قال لي رجال من قومي ما تريد أن تفعل بمحمد ؟ وعلى من تخلفه؟ فقلت: لا أريد أن أخلفهُ على أحد من الناس، أريد أن يكون معي . فقيل: غلام صغير في حر مثل هذا تخرجه؟ فقلت: والله لا يفارقني حيث ما توجهت أبداً، فإنّي لأوطئ لهُ الرحل[(٥)]، فذهبتُ فحشوتُ لهُ حشية كساء وكتانا، وكنا ركبانا كثيراً، فكان، والله البعير الذي عليه محمد أمامي لا يفارقني، فكان يسبق الركب كلهُ، فكان إذا اشتد الحر جاءت سحابة بيضاء مثل قطعة ثلج، فتقف على رأسهِ لا تفارقهُ، وهي تسير معنا" [(٦)] .

وقبل ذلك شارك رسول الله ﷺ السائب [(٧)] في التجارة، فلما كان يوم الفتح أتاهُ رسول الله ﷺ وقال: "مرحبا بأخي، وشريكي كان لايداري، ولا يماري [(٨)] يا سائب كُنت تعمل أعمالا في الجاهلية لاتُقبل منك،

---

(١) سورة قريش:آية:١-٢؛الطوسي، احمد بن الحسن، (ت٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، تح: احمد حبيب القصير، ط ١، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٩هـ، ج١٠، ص٤١٣ .

(٢) الثعالبي، عبد الملك بن محمد(ت٤٢٩هـ)، لطائف المعارف، تح:ابراهيم الابياري و حسن كامل الصيرفي، دار أحياء الكتب العربية، بيروت، ١٩٦٠م، ص١١ .

(٣) فهمي، عبد االرحمن، النقود العربية، دارالقلم، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٢٢ .

(٤) الذهبي، ابوعبد الله شمس الدين محمد بن احمد، (ت٧٤٨هـ)، سيراعلام النبلاء، تح:شعيب الارنؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ج١، ص٥٠ .

(٥) الرحل: رحل البعير، وهو أصغر من القتب، ينظر: الجوهري، الصحاح، ج٤، ص١٧٠٧ .

(٦) الصدوق، علي بن بابويه القمي، (ت٣٨١هـ)، كمال الدين وتمام النعمة، تح:علي اكبر غفاري، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين في قم المقدسة، قم، ص١٨٢ .

(٧) السائب ابن أبي السائب واسم أبي السائب صيفي بن عائذ بن عبدالله المخزومي، وكان شريك النبي ﷺ قبل المبعث بمكة ولقد اختلف في من كان شريك النبي فقيل هذا وقيل أباه وقيل قيس بن السائب ينظر:ابن الأثير، علي بن محمد الجزري، (ت٦٣٠هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تح: محمدعوض، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٩٤م، ج٢، ص٣٩٣ .

(٨) أي لا يشاغب ولا يخالف، ينظر، ابن الاثير، النهاية، ج٢، ص١١٠ .

وهي اليوم تقبل منك" [1] .

وذكر أبو السائب المخزومي واصفًا حال جده، فقال: كان جدّي في الجاهلية يُكنّى أبا السائب، وبه اكتنيت، وكان حليفا لرسول الله ﷺ في الجاهلية وإذا ذكرهُ ﷺ في الإسلام قال: "نعم الخليط كان أبو السائب لايشاري، ولايماري" [2] .

وقال عنهُ رسول الله ﷺ: "نعم الشريك السائب كان لايشاري، ولا يماري، وكان أسلم، فحسن إسلامه"[3]، فكان رسول الله ﷺ يمارس التجارة بنفسهِ، ولقد أشار الى ذلك حديث الإمام الصادق عليه السلام عندما سأل عن رجل اسمه معاذ يبيع الكرابيس[4]؟، فقيل لهُ: ترك التجارة، فقال: "عمل عمل الشيطان من ترك التجارة ذهب ثلثا عقلهُ أما علم أنّ رسول الله ﷺ، لما قدمت عير من الشام، فَاشترى منها، واتّجر، وربح فيها، ما قضى دينه" [5] .

المبحث الثاني:

مضاربته ﷺ في أموال خديجة عليها السلام:

كانت خديجة بنت خويلد عليها السلام يومئذ من أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهنَّ شرفًا، وأكثرهنَّ مالاً، فهي امرأة تاجرة ذات شرف، ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إيّاهُ بشيء تجعله لهم منهُ، وكان لقومها رغبة في ذلك منها لو يقدرون عليه، في الوقت الذي كانت بهِ قريش قومًا تجارا [6] .

ولقد ورثت أموالاً طائلة من أبيها الذي قُتل في حرب الفجّار أو قبلها بقليل، ولم تترك هذه الأموال راكدة، ولم تراب بها في زمن كان الرّبا رائجاً، وإنَّما استثمرت هذه الأموال في التجارة، واستطاعت أن تكسب من طريق التجارة ثروة ضخمة، حتى قيل: إنّهُ كان لخديجة بنت خويلد في كلّ ناحية عبيد، ومواش حتى قيل: «إنَّ لها أزيد من ثمانين ألف جمل متفرقة في كل مكان، وكان لها في كلّ ناحية تجارة، وفي كلّ بلد مال مثل مصر والحبشة» [7] وكانت قريش تدعو محمدًا ﷺ في الجاهلية الأمين، فقد كانت تستودعهُ، وتستحفظهُ أموالها،

---

(١) الطبراني، المعجم الكبير، ج ٧، ص١٣٩؛ الهيثمي، نور الدين علي بن ابي بكر، (ت٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ج١، ص٦

(٢) الخطيب البغدادي، احمد بن علي، (ت٤٦٣هـ)، تاريخ مدينة بغداد، تح:مصطفى عبدالقادرعطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٩، ص٤٨٦ .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص١١٠ .

(٤) كرابيسَ ؛ هي جمع كِرْباس، وهو القُطْن، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص١٩٥ .

(٥) الطوسي، احمد بن الحسن، (ت٤٦٠هـ) ، تهذيب الأحكام، تح:حسن الخرسان، ط٤، دارالكتب الاسلامية، طهران، ١٣٦٥هـ ، ج٧، ص٤ .

(٦) ابن إسحاق، السيرة النبوية، ج١، ص١٢٨ .

(٧) المجلسي، بحار الأنوار، ج١٦ ، ص ٢٢ .

وأمتعتها، وكذلك من يقدم إلى مكة من العرب في الموسم [(١)] .

ولما تجاوز عمر رسول الله ﷺ العشرين سنة، قال له أبو طالب: يا ابن أخي، إنّ خديجة بنت خويلد امرأة موسرة ذات تجارة عريضة، وهي محتاجة إلى مثلك في أمانتك، وطهارتك، ووفائك، فلو كلَّمناها فيك، فوكَّلتك ببعض أمرها، وتجارتها؟، فقبلَ ﷺ ذلك، فسعى أبو طالب إليها، فكلّمها في توكيل رسول الله ﷺ ببعض تجارتها، فسارعت إلى ذلك ورغبت فيه، ووجهتهُ إلى الشام، مع غلام لها يُقال لهُ: ميسرة، فلمّا فرغ من تجارتهِ ورجع الى مكة، أخبرها ميسرة بأمانتهِ، وطهارته، وما يقول أهل الكتاب فيه، وما عرفهُ ميسرة معهُ في كثرة الأرباح، وسهولة الأمور، وقال ميسرة: «كنتُ آكل معهُ حتى نشبع، ويبقى أكثر الطعام كما هو من البركة» [(٢)]، وبلغ خديجة محاورة عمّه لهُ، فأرسلت إليه في ذلك، وقالت: «أنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلًا من قومك» [(٣)].

ولما بلغها عن رسول الله ﷺ من صدق حديثهِ، وعظم أمانتهِ، وكرم أخلاقهِ، مما كان يحدثها عنهُ غلامها ميسرة، فبعثت إليه، وعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجرًا، ومضاربًا مع غلامها ميسرة إلى الشام، على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطي غيرهُ من التجار، فقبلهُ منها رسول الله ﷺ، وخرج في مالها [(٤)]، وقالت لهُ: أترضى أن تكون أمينًا على أموالي تسير بها حيث شئت؟ فقبل رسول الله ﷺ ثم قال لها: أريد الشام؟ فقالت: إليك ذلك، ولقد جعلتُ لمن يسير بأموالي مائة أوقية من الذهب، ومائة أخرى من الفضة، وجملين، وراحلتين فهل أنت راض؟، فقال: أبو طالب: رضي، ورضينا، ثم قالت لعبدها ميسرة: آتني بناقتي الصهباء، حتى يركبها محمد، وهو أمينٌ على أموالي [(٥)]، ولما استوى رسول الله ﷺ وبلغ أشدّه، استأجرتهُ خديجة، واستأجرت معهُ رجلا آخر من قريش إلى سوق حباشة – وهو سوق بتهامة –، فقال رسول الله ﷺ، وهو يحدث عنها ﷺ: «مارايتُ من صاحبة لأجير خيراً من خديجة، وما كنّا نرجع أنا، وصاحبي، إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئهُ لنا» [(٦)]،

---

(١) الطوسي، احمد بن الحسن، (ت٤٦٠هـ)، الامالي، تح:قسم الدراسات الاسلامية مؤسسة البعثة، ط١، دارالثقافة للطباعة والنشروالتوزيع، قم، ١٤١٤هـ، ص٤٦٨ .

(٢) البلاذري، انساب الاشراف، ج١، ص٩٧ .

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج١، ص١٠٧ .

(٤) ابن إسحاق، السيرة النبوية، ج١، ص١٢٨ .

(٥) ابن هشام ، السيرة النبوية، ج١، ص٢٢١

(٦) الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، (ت٢١١هـ)، المصنف، تح: حبيب الرحمن الاعظمي، منشورات المجلس العلمي، القاهرة، (د٠ت)، ج٥، ص٣٢٠.

فكان ﷺ يخرج بأموال خديجة مضاربًا أو شريكًا [(١)]، واستخدمتهُ وكيلا عنها في إحدى قوافلهِ إلى سورية [(٢)].

وعندما خرج مع غلامها ميسرة إلى الشام، نزل في ظلّ شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فسأل الراهب ميسرة عن رسول الله ﷺ، ومن يكون؟، فقال لهُ ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال لهُ الرّاهب: «مانزل تحت هذه الشجرة قط إلّا نبي»، ثم باع رسول الله ﷺ سلعتهُ التي خرج بها، واشترى ما اشترى، ثم رجعَ إلى مكة [(٣)].

فخرج ﷺ، بتجارة خديجة إلى الشام، ولحق بالقوم من سادات قريش، ونزلوا بأرض الشام، بادر أهل المدينة، إلى شراء بضاعتهم، وباعت قريش بضاعتها في أحسن بيع، وبقيت بضاعة رسول الله ﷺ على حالها، فلم يبع شيئًا، فقال أبو جهل: «والله ما رأت خديجة سفرة أشأم من هذهِ»، فلما أصبح الصباح وأقبلت العرب من كل مكان يريدون أن يشتروا البضائع، فلم يجدوا إلا بضائع خديجة، فباعها رسول الله ﷺ بإضعاف ما باعت قريش، ولم يبقَ من بضاعتهِ إلا حمل أديم باعهُ ﷺ إلى يهودي بخمسمائة درهم، فاغتم أبو جهل لذلك غمًّا شديداً [(٤)]، فأخبر ميسرة خديجة بما فعلهُ رسول الله ﷺ بتجارتها، فقالت لهُ: يا ابن عم إنيّ قد رغبت فيك، لقرابتك منّي، وشرفك في قومك، وأمانتك عندهم، وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأكثرهن مالاً، وكل قومها قد كان حريصاً على ذلك منها لو يقدرون على ذلك [(٥)].

زواجه ﷺ من خديجة عليها السلام:

وبعد أن عرفت خديجة عليها السلام عن رسول الله ﷺ هذه الصفات من الصدق، والأمانة، بعثت إليه، وقالت: إن اخطبني إلى عمي عمرو بن اسد بن عبد العزى بن قصي وقيل: الى عمّها ورقة بن نوفل[(٦)]، وكان عمرو شيخًا كبيراً، فأمرت بشاة فذُبحت، واتخذت طعامًا، ودعت عمّها عمرا، وبعثت الى رسول الله ﷺ [(٧)]، فجاء رسول الله ﷺ في نفر من أعمامه يتقدّمهم أبو طالب حتى دخل على ورقة بن نوفل عم خديجة، فقال: «الحمد لله الذي

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢١.

(٢) مونتجومري، محمد في مكة، ص٧٣.

(٣) ابن الأثير، علي ابن أبي الكرم، (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م، ج٢، ص٣٩.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار، ج١٦، ص٤٢.

(٥) ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي، (ت٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تح:عادل احمد عبد الموجود، ط ١، دارالكتب العلمية، بيروت١٩٩٥م، ج٨، ص١٠٢.

(٦) الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، (ت٣٨١هـ)، من لايحضره الفقيه، تح:علي اكبر غفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، قم، ١٤٠٤هـ، ج٣، ص ٣٩٨.

(٧) البلاذري، انساب الاشراف، ج١، ص٩٧.

جعلنا من زرع إبراهيم، وذرية إسماعيل، وجعل لنا بيتًا محجوباً، وحرمًا أمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن به، ثم أنّ ابن أخي محمد بن عبد الله لايوزن برجل من قريش، إلّا رجح، ولايُقاس بأحد إلا عظم عنهُ، وإن كان في المال قُل، فإنَّ المال رُزق حائل، ولهُ في خديجة رغبة، ولها فيهِ رغبة، وقد جئناك لنخطبها إليك برضاها وأمرها، وصداق ما سالتموهُ عاجلهُ من مالي» [(١)] . فنهض عمّها ورقة بن نوفل، وقال: نُريد مهرها المعجل دون المؤجل أربعمائة ألف دينار ذهبا، ومائة ناقة سود الحدق[(٢)] حمر الوبر، وعشر حُلل، وثمانية وعشرين عبدا وأمة، فقال لهُ أبو طالب: رضينا بذلك [(٣)] .

فقالت خديجة عليها السلام: « قد زوجتك يا محمد نفسي، والمهر علي في مالي، فقال أبو طالب: اشهدوا عليها بقبولها محمدًا، وضمانها المهر في مالها، فقال بعض قريش: ياعجباهُ المهرُ على النساء للرجال! فغضب أبو طالب غضبا شديدًا، وقام على قدميه، وكان ممن يهابهُ الرجال، ويكره غضبهُ فقال: إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طُلبت الرجال بأغلى الأثمان، وأعظم المهر، وإذا كانوا أمثالكم، لم يزوجوا إلا بالمهر الغالي، ونحر أبو طالب ناقة، ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله بأهلهِ»، فقال رجلٌ من قريش: يُقال لهُ عبد الله بن غنم[(٤)] في ذلك شعراً :

هنيئا مريئا يا خديجة قد جرت ... لك الطير فيما كان منك بأسعد

تزوجته خير البرية كلها ... ومن ذا الذي في الناس مثل محمد

وبشر به البر ان عيسى بن مريم ... وموسى بن عمران فيا قرب موعد

أقرت به الكتاب قدما بأنه ... رسول من البطحاء هاد ومهتد [(٥)]

فبعثت خديجة عليها السلام الى رسول الله صلى الله عليه وآله أربعة آلاف دينار، وقالت لهُ: يا سيدي أنفذها إلى أبي، وأرسلت مع المال خُلعة سنية، وأموالاً كثيرة، ودنانير، ودراهم، وثيابا، وطيبا، ثم قالت لعمها ورقة: خُذ هذهِ الأموال، وسر بها إلى محمد، وقل لهُ أن هذه جميعها هدية لهُ، وهي ملكهُ يتصرف فيها كيف يشاء، وعمل أبو طالب وليمة عظيمة لأهل مكة لثلاثة أيام [(٦)]، ولقد أصدقها رسول الله صلى الله عليه وآله عشرين بكرة [(٧)]، وكان أوّل امرأة تزوّجها،

---

(١) الكليني، الكافي، ج٥، ص٣٧٤ .

(٢) حدقة العين في الظاهر هي سواد العين، ينظر: الفراهيدي، العين، ج٣، ص٤١ .

(٣) ألمجلسي، بحار الأنوار، ج١٦، ص٧٠ .

(٤) عبد الله بن غنم، ويقال: عبد الرحمن بن غنم، ولقد كان ممن روى عن امير المؤمنين عليه السلام، ينظر: الطوسي، احمد بن الحسن، (ت٤٦٠هـ)، رجال الطوسي، تح:جواد القيومي الاصفهاني، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، ١٤١٥هـ، ص٧٦ .

(٥) الكليني، الكافي، ج٥، ص٣٧٥ .

(٦) المجلسي ، بحارالانوار، ج١٦، ص٤٧ .

(٧) بكر : البكر من الإبل : ما لم يبزل بعد، والأنثى بكرة، فإذا بزلا جميعا فجمل وناقة .، ينظر :الفراهيدي، العين، ج٥، ص٣٦٤ .

ولم يتزوج غيرها، حتى ماتت [(١)]، وقيل: أصدقها رسول الله (صلى عليه واله) اثنتي عشرة أوقيّة [(٢)] ونشا [(٣)] من مالهِ الخاص [(٤)]، في الوقت الذي لم يكن رسول الله ﷺ فقيرًا في وقتها، لأنّهُ قد عاد رابحا من سفرته التجارية الى الشام .

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّهُ قال: "ما تزوّج رسول الله ﷺ واحدة من نسائهِ، ولا زوّج واحدة من بناتهِ على اكثر من اثنتي عشرة أوقية ونشاً، والأوقية اربعون درهما والنّش نصف الاوقية عشرون درهما، فكان ذلك خمسمائة درهم، فقيل لهُ: بوزننا ؟ فقال: نعم" [(٥)] .

فكانت خديجة عليها السلام لهُ وزير صدق بنفسها، ومالها على الإسلام [(٦)]، وهي يومئذ أميرة عشيرتها وسيّدة قومها، فكأنّها الملكة في الحجاز، وأطرافها لكثرة ما كانت تملكهُ من المواشي، والخدم، والحشم، والضياع، والعقار، والأملاك، والأموال، والتجارة، والعبيد، والإماء والجواهر، الغالية، والذهب، والفضة، حتى قيل: «إنّهُ كان لخديجة في كلّ ناحية عبيد، ومواش، وانهُ كان لها أزيد من ثمانين ألف جمل متفرّقة في كلّ مكان، وكان لها في كلّ ناحية تجارة، وفي كلّ بلد مال مثل: مصر، والحبشة» [(٧)]، حتى قيل: إن قريش كانت إذا رحلت عيرها في الرحلتين – يعني رحلة الشّتاء والصيف– كانت طائفة من العير لخديجة [(٨)]، وقد قال تعالى: بعدما تزوج رسول الله ﷺ من خديجة: (ووجدك عائلا فأغنى) أي أغناك بمالها[(٩)] .

---

(١) ابن كثير، ابي الفداءاسماعيل بن نور الدين، (ت٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تح:علي شيري، ط١، داراحياء التراث العربي، ، بيروت، ١٩٨٨م، ج٢، ص٣٥٩ .

(٢) كانت الأوقية قديما عبارة عن أربعين درهما، ينظر:ابن الاثير، النهاية، ج١، ص٨٠ .

(٣) النش : عشرون درهما، وهو نصف أوقية لأنهم يسمون الأربعين درهما أوقية، ويسمون العشرين نشأ، ويسمون الخمسة نواة، ينظر، الجوهري، الصحاح، ج٣، ص١٠٢١ .

(٤) الصالحي الشامي، محمد بن يوسف، (ت٩٤٢هـ)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تح:عادل احمدعبد الموجود وعلي محمدعوض، ط١، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م، ج٢، ص١٦٥ .

(٥) المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، (ت٤١٣هـ)، رسالة في المهر، تح:مهدي نجف، دارالمفيد للطباعة والنشروالتوزيع، بيروت، ١٩٩٣م، ص٢٦ .

(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص٢٨٢ .

(٧) المجلسي، البحار، ج١٦، ص٢٢ .

(٨) الطوسي، الامالي، ص٤٦٨

(٩) فرات بن ابراهيم الكوفي، (ت٣٥٢هـ)، تفسير فرات الكوفي، تح: محمد كاظم، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ١٩٩٠م، ص٥٦٩ .

أموال خديجة عليها السلام في الحصار:

ولقد أنفقت خديجة عليها السلام أغلب ذلك المال على رسول الله صلى الله عليه وآله خصوصاً في أثناء الحصار في ذلك الشِّعب بمكة، الذي استمر ثلاث سنوات، ولقد مُنعت فيه قريش القوت، والامدادات عن بني هاشم، فكانت عليها السلام تنفق على بني هاشم، وعلى الحراس، والحفظة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله بكلّ سخاء ((١)) وقال: «عبد الله بن عباس بن عبد المطلب: حُصرنا في الشعب ثلاث سنين، وقطعوا عنّا الميرة حتى أنّ الرجل ليخرج بالنفقة، فما يباع شيئ حتى مات منا قوم» ((٢)) .

كذلك كان حكيم بن حزام بن خويلد((٣)) يحملُ القمح إلى عمّتهِ خديجة عليها السلام، في الشّعب في أثناء الحصار، فلقيه أبو جهل، فقال لهُ: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تذهب أنت، وطعامك حتى أفضحك بمكّة، فقيل لهُ: مالك لهُ، طعام كان لعمّتهِ عنده فبعثت به إليه !((٤))، وأما هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب، من بنى عامر بن لؤي، وهو ابن أخي نضلة بن هاشم لأمهِ، وكان ذا شرف في قومهِ، فهو الآخر كان يصل للنبي صلى الله عليه وآله الطعام الى الشعب، فكان يأتي بالبعير، وبنو هاشم، وبنو عبد المطلب في الشّعب ليلا قد أوقرهُ طعامًا وبراً، حتى إذا أقبل بهِ الشّعب خلع خطامهُ من رأسهِ، ثم يضرب على جنبهِ، فيدخل الشّعب عليهم ((٥)) .

أمّا أبو العاص بن الربيع ((٦)) – وهو صهر رسول الله صلى الله عليه وآله – فقد كان يجئ بالعير في الليل عليها الخبز، والتمر إلى باب الشّعب، ثم يصيح بها، فتدخل الشعب، فيأكلهُ بنو هاشم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله عنهُ: « لقد صاهرنا أبو العاص فأحمدنا صهرهُ، لقد كان يعمد إلى العير، ونحنُ في الحصار، فيرسلها في الشعب ليلا»، فلمّا أتى لرسول الله صلى الله عليه وآله في الشعب أربع سنين بعث الله على صحيفتهم القاطعة دابّة الأرض، فأكلت كُل ما جاء فيها، وتركت اسم الله، فنزل جبرئيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله، فأخبرهُ بذلك، فأخبر صلى الله عليه وآله أبا طالب ((٧)) .

---

(١) الطوسي، الامالي، ص٤٦٨ .

(٢) البلاذري، انساب الاشراف، ج١، ص٢٣٤ .

(٣) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب يكنى أبا خالد، وإسلامه يوم الفتح وكان من المؤلفة قلوبهم أعطاه النبي صلى الله عليه وآله مائة بعير من غنائم حنين، ينظر: الطبراني، المعجم الكبير، ج٣، ص١٨٦ .

(٤) ابن هشام ، السيرة النبوية، ج١، ص٢٣٦ .

(٥) البلاذري، انساب الاشراف، ج ١، ص ٢٣٥ .

(٦) كان أبو العاص يلقب جرو البطحاء أي ابن البطحاء، واسمه لقيط، وذلك الثبت، وبعضهم يقول اسمه القاسم، وهو ابن هالة بنت خويلد، وكان إسلام أبي العاص قبل الحديبية بخمسة أشهر، ثم رجع إلى مكة، ولم يشهد مع النبي صلى الله عليه وآله شيئا، ومات في ذي الحجة سنة اثنتي عشرة، ينظر :البلاذري، انساب الاشراف، ج٩، ص٣٧٩ .

(٧) الطبرسي، اعلام الورى، ج١، ص١٢٧ .

ولهذا لعبت أموال خديجة ﷺ دورًا كبيرًا في تجاوز رسول الله ﷺ كثير من الصعاب، والمحن في بداية دعوتهِ الشريفة، حتى قال عنهاﷺ: «مانفعني مال قط، مثل مانفعني مال خديجة»، فكان يفك من مالها للذي لهُ دين عليه، وكذلك الأسير، ويحمل إلى الأيتام، وينفق منهُ ما شاء على الفقراء من أصحابه عندما كانوا بمكّة، هذا في حياتها، ثم ورثها بعد مماتها [(١)]، فقالت عنها عائشة: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أحسن الثناء عليها، فقلتُ لهُ يومًا: ما تذكر منها، وقد أبدلك الله خيرًا منها؟ فقال: «ما أبدلني الله خيرًا منها، صدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله الولد منها، ولم يرزقني من غيرها»[(٢)]، وكان ﷺ يكثِر من ذكرها، ويذبح الشاة، فيقطعها أعضاء، ويبعثها الى صديقات خديجة [(٣)]، وتوفّيت خديجة بعد أبي طالب، فسمّى رسول الله ﷺ ذلك العام بعام الحزن [(٤)] .

فمن المؤكَّد أنَّ لأموال خديجة بنت خويلد الأثر البالغ، والركيزة الأولى، والمنعطف التاريخي في تثبيت دعائم الإسلام يومئذ، وتقويته إذ لايزال الدين الإسلامي برعمًا في خطواتهِ الاولى وفي دور التكوين، وكان رسول الله ﷺ بأمسّ الحاجة الى ذلك المال لتبليغ رسالة السماء، وبفضل مالها تحقّق الهدف المنشود، وهو نشر الإسلام وإعلاء كلمة لا إله إلّا الله محمد رسول اللهﷺ .

وعندما أراد ﷺ الهجرة من مكة الى المدينة أوصى هند بن أبي هالة أن يبتاع لهُ، ولابي بكر راحلتين، فقال أبو بكر: « قد كُنت أعددت لي، ولك يانبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب، فقالﷺ: «إنّي لا آخذهما إلا بالثمن»، فأمرعليًا ﷺ، فأقبضهُ الثمن[(٥)]، وأمرهُ بالتخلف عنهُ ليؤدّي عنهُ ودائع كانت للناس عندهُ، فتخلف بعد خروجهِ بثلاثة أيّام إلى أن أدّى ما كان عندهُ من الودائع ثم لحق بهِ [(٦)]، وكانت قريش تدعو رسول الله ﷺ في الجاهلية الأمين، فكانت تستودعهُ، وتستحفظهُ أموالها، وأمتعتها، وكذلك كلّ من يقدم إلى مكّة من العرب في الموسم، فأمر عليًّا ﷺ أن يقيم صارخًا، ويهتف بالأبطح [(٧)] غدوة، وعشيّاً : « إلا من كان لهُ قبل محمد أمانة او

---

(١) الطوسي، الامالي، ص٤٦٨ .

(٢) المفيد، محمد بن محمد بن نعمان، (ت٤١٣هـ)، الاختصاص، تح: قسم الدراسات الإسلامية في قم المقدسة، مؤسسة البعثة، ط١، قم، ١٤١٢هـ ، ص217 .

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، (ت٦٦٤هـ)، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، مطبعة الخيام ، قم، ١٣٩٩هـ، ص٢٩١ ، .ابن الأثير، أسد الغابة، ج٥، ص٤٣٨ .

(٤) ابن كثير، ابي الفداءاسماعيل بن نور الدين، (ت ٧٧٤هـ)، السيرة النبوية، تح:مصطفى عبد الواحد، دارالمعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٦م، ج٢، ص١٢٢ .

(٥) الطوسي، الامالي، ص٤٦٨ .

(٦) المسعودي، علي بن الحسين، (ت٣٤٥هـ)، التنبيه والاشراف، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨م، ص٢٠٠ .

(٧) الابطح والبطحاء: الرمل المنبسط على وجه الارض، ينظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين الحموي ابي عبد الله، (ت ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م، ج١، ص٧٤ .

وديعة، فليأت فلتؤدّ إليه أمانتهُ»، كما أمرهُ أن يشتري رواحل[1] لهُ، وللفواطم، ومن قرّر الهجرة معهُ من بني هاشم، وعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسرعن أبيه أنّهُ قال: « قلتُ لعبيد الله بن أبي رافع أوكان رسول الله ﷺ يجدُ ما ينفقهُ هكذا؟ فقال: إنّي سألت أبي عمّا سألتني، وكان يحدّث بهذا الحديث، فقال: فأين يذهب بك عن مال خديجة عليها السلام !» [2] .

(١) الراحلة:الناقة التي تصلح لأن ترحل ويقال:الراحلة المركب من الابل ذكرا كان ام انثى، ينظر: الجوهري، الصحاح، ج٤، ص١٧٠٧ .

(٢) الطوسي، الامالي، ص٤٦٨ .

الخاتمة

إنَّ من أهم ما استنتج من هذا البحث هو أنَّ رسول الله ﷺ قد نشأ يتيم الأبوين ليس له مورد ماليّ كبير، ولذلك فقد عاش في بداية حياته الشريفة مع جدّه عبد المطّلب الذي تولى عنايته وتربيته إلى أن أصبح رجلاً، وبعد وفاة عبد المطّلب تكفّله عمّه أبو طالب الذي كان له خير ناصر ومعين، ولقد علّمه مهنة التجارة، وكان يصطحبه معه في رحلاته التجارية إلى الشام وغيرها، ليكسبه ذلك خبرة في الحياة التّجاريّة، وليبدأ بممارسة التجارة بنفسه الشريفة، ليكون أسوة حسنة لنا في العمل، والسّعي وطلب العيش والاعتماد على النفس من أجل مواجهة صعوبة الحياة آنذاك، وبعد أن ذاع صيته، وانتشرت أخباره بين الناس وخصوصاً صدقه وأمانته ووصل ذلك إلى أسماع خديجة بنت خويلد عليها السلام وهي أغنى امرأة آنذاك، فطلبت منه أن يكون مضارباً في مالها، ومن ثمّ شريكًا بعد أن حقّق لها أرباحًا تجارية كبيرة حتى طلبت منه بعد ذلك الزّواج، فأصبحت أموالها، وكلّ ما تملك تحت تصرّف رسول الله ﷺ، ولقد شكّلت هذه الأموال فيما بعد رافدًا عظيماً أرفد بها الإسلام بأهمّ مصادر القوّة ألا وهو المال؛ وليكون سببًا في ديمومتهِ واستمرارهِ، حتى روي عنه ﷺ أنّه قال عنها: « لولا مال خديجة وسيف علي ما قامت للاسلام من قائمة» .

المصادر:

١-ابن الأثير، علي بن ابي الكرم، (ت٦٣٠هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تح: محمد عوض ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٩٤م .

٢- ابن الأثير، علي ابن أبي الكرم، (ت ٦٣٠ه) ، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م .

٣- ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري ، (ت ٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: محمود محمد الطناحي ، مؤسسة اسماعيليان ، قم، ١٣٦٤ه .

٤- ابن إسحاق، محمد ابن اسحاق بن يسارالمطلبي، (ت ١٥١هـ) ، السيرة النبوية ، تح: احمد فريد المزيدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م .

٥- البلاذري، احمد بن يحيى، (ت٢٧٩هـ)، انساب الاشراف، تح:محمدحميد الله، دارالمعارف، القاهرة، ١٩٥٩م

٦- الثعالبي، عبد الملك بن محمد(ت٤٢٩ه)، لطائف المعارف، تح:ابراهيم الابياري و حسن كامل الصيرفي، دار أحياء الكتب العربية، بيروت، ١٩٦٠م .

٧- الجوهري، اسماعيل بن حماد، (ت٣٩٣ه)، الصحاح، تح: احمد عبد الغفورالعطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م .

٨- ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي ، (ت٨٥٢ه)، الإصابة في تمييز الصحابة، تح:عادل احمد عبد الموجود، ط ١، دارالكتب العلمية، بيروت١٩٩٥م .

٩- ابن ابي الحديد، عزالدين عبد الحميد، (ت٦٥٦ه)، شرح نهج البلاغة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢، داراحياء الكتاب العربي، القاهرة ، ١٩٦٧م .

١٠- الخطيب البغدادي، احمد بن علي، (ت٤٦٣ه)، تاريخ مدينة بغداد، تح:مصطفى عبدالقادرعطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م .

١١- الذهبي، ابوعبدالله شمس الدين محمد، (ت ٧٤٨ه).

أ- تاريخ الإسلام ووفيات مشاهيرالاعلام، تح: عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦م

ب- سيراعلام النبلاء، تح:شعيب الارنؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م .

١٢- الراوندي ، قطب الدين سعيد بن عبدالله، (ت٥٧٣ه)، قصص الأنبياء، تح، غلام رضا، ط١، قم، ١٤١٨هـ

١٣- ابن سعد، محمد بن منيع، (ت٢٣٠هـ) ، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، (د٠ت) .

١٤- ابن شهر اشوب، محمد بن علي، (ت٥٨٨هـ)، مناقب ال ابي طالب، تح، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٥٦م .

١٥- الصالحي الشامي، محمد بن يوسف، (ت٩٤٢هـ)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تح:عادل احمدعبد الموجود وعلي محمدعوض، ط١، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م .

١٦- الصدوق، علي بن بابويه القمي، (ت٣٨١هـ)، كمال الدين وتمام النعمة، تح:علي اكبر غفاري، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين في قم المقدسة .

١٧- الصدوق، علي بن بابويه، (ت٣٨١هـ)، من لايحضره الفقيه، تح:علي اكبر غفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، قم، ١٤٠٤هـ .

١٨- الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، (ت٢١١هـ)، المصنف، تح: حبيب الرحمن الاعظمي، منشورات المجلس العلمي، القاهرة، (د٠ت) .

١٩- ابن طاووس، علي بن موسى، (ت٦٦٤هـ)، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، مطبعة الخيام ، قم، ١٣٩٩هـ

٢٠- الطبراني، سليمان بن احمد، (ت٣٦٠ هـ)، المعجم الكبير، تح: حمدي عبد المجيد ، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٤م .

٢١- الطبرسي، الفضل بن الحسن، (ت٥٤٨هـ)، أعلام الورى بإعلام الهدى، تح ونشر: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، ط١، قم المقدسة، ١٤١٧هـ .

٢٢- الطبري، محمد بن جرير، (ت٣١٠هـ) ، تاريخ الطبري، تح: محمد ابوالفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م

٢٣- الطوسي، احمد بن الحسن، (ت٤٦٠هـ)، الامالي، تح:قسم الدراسات الاسلامية مؤسسة البعثة، ط١، دارالثقافة للطباعة والنشروالتوزيع، قم، ١٤١٤هـ .

٢٤- الطوسي، احمد بن الحسن، (ت٤٦٠هـ) ، تهذيب الأحكام، تح:حسن الخرسان، ط٤، دارالكتب الاسلامية، طهران، ١٣٦٥هـ .

٢٥- الطوسي، احمد بن الحسن، (ت٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، تح: احمد حبيب القصير، ط ١، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٩هـ .

٢٦- الطوسي، احمد بن الحسن، (ت٤٦٠هـ)، رجال الطوسي، تح:جواد القيومي الاصفهاني، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، ١٤١٥هـ .

٢٧- ابن أبي الفتح الاربلي، علي بن عيسى، (ت٦٩٣ه) ، كشف الغمة في معرفة الأئمة ، ط٢، دار الاضواء، بيروت، ١٩٨٥م .

٢٨- فرات بن ابراهيم الكوفي، (ت٣٥٢ه)، تفسير فرات الكوفي، تح: محمد كاظم، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ١٩٩٠م.

٢٩- الفراهيدي، الخليل بن احمد، (ت ١٧٥ه)، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي و ابراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ايران، ١٤٠٩ه

٣٠- ابن عساكر، علي بن الحسن ، (ت ٥٧١هـ) ، تاريخ مدينة دمشق ، تح : علي شيري ، دارالفكر ، بيروت ، ١٩٩٥م .

٣١- ابن كثير، ابي الفداءاسماعيل بن نور الدين، (ت٧٧٤ه)، البداية والنهاية، تح:علي شيري، ط١، داراحياء التراث العربي، ، بيروت، ١٩٨٨م .

٣٢- ابن كثير، ابي الفداءاسماعيل بن نور الدين، (ت ٧٧٤ه)، السيرة النبوية، تح:مصطفى عبد الواحد، دارالمعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٦م

٣٣- الكليني، ابي جعفر محمد بن يعقوب، (ت٣٢٩ه)، الكافي، تح:علي اكبر غفاري، ط٣، دار الكتب الاسلامية، طهران، ١٣٦٧هـ .

٣٤- الماوردي، علي بن محمد البغدادي، (ت٤٥٠ه)، الاحكام السلطانية والولايات الدينية، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، مصر، ١٩٦٦م

٣٥- محمد بن مكرم، (ت٧١١ه)، لسان العرب، ادب الحوزة، قم، ١٤٠٥ه .

٣٦- المجلسي، محمد باقر، (ت١١١١ه)، بحارالانوار، داراحياء التراث العربي، ط٣، بيروت، ١٩٨٣م

٣٧- المسعودي، علي بن الحسين، (ت٣٤٥ه)، التنبيه والاشراف، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨م .

٣٨- المسعودي، علي بن الحسين، (ت٣٤٦ه)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح:محمد محي الدين عبد الحميد، ط٣، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٨م .

٣٩- المفيد، محمد بن محمد بن نعمان، (ت٤١٣ه)، الاختصاص، تح: قسم الدراسات الإسلامية في قم المقدسة، مؤسسة البعثة، ط١، قم، ١٤١٢هـ .

٤٠- المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، (ت٤١٣هـ)، رسالة في المهر، تح:مهدي نجف، دارالمفيد للطباعة والنشروالتوزيع، بيروت، ١٩٩٣م .

٤١- النسائي، احمد بن شعيب، (ت٣٠٣هـ) ، السنن الكبرى، تح: عبد الغفار وسيد كسروي حسن ، ط١، دارالكتبالعلمية، بيروت ، ١٩٩١م .

٤٢- ياقوت الحموي، شهاب الدين الحموي ابي عبد الله، (ت ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م .

٤٣- اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب، (ت٢٩٢هـ) ، تاريخ اليعقوبي، المكتبة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٩٦٤م

٤٤- ابن هشام الحميري، محمد بن عبد الملك، (ت٢١٨هـ)، السيرة النبوية، تح:محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة محمد علي واولاده، القاهرة، ١٩٦٣م .

المراجع:

١-فهمي، عبد االرحمن، النقود العربية، دارالقلم، القاهرة، ١٩٦٤م .

٢- مونتجومري وات، محمد في مكة ، ترجمة: شعبان بركات المطبعة العصرية، لبنان ، ١٩٩٥م .

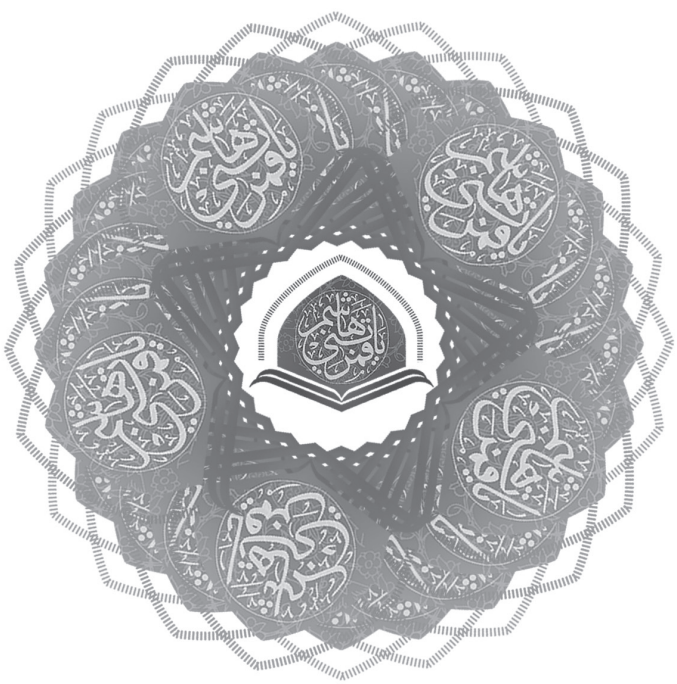

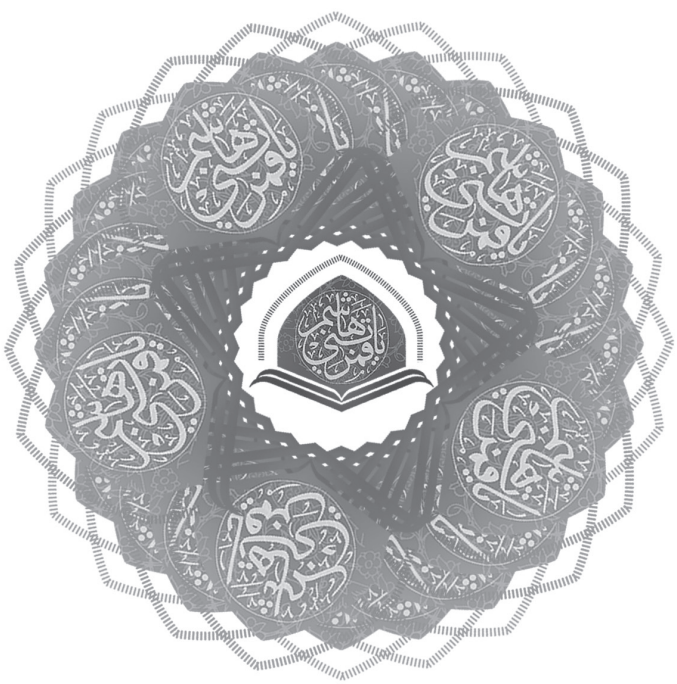

قبسات من نور المرتضى عليه السلام

السيد حسين الحيدري

إنَّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بحر لا يُدرك؛ فهو معجزة في روحه، وجسده، وعلمه، وجميع مناقبه؛ ذلك الذي وُلِد في بيت الله تعالى، واستشهد في بيت الله سبحانه، ولم يُشرك بالله طرفة عين، فهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، وحجّته على الخلق أجمعين، وإن كان علي عليه السلام سرًّا لا يدركه الخلق بقول الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله: (يا علي، ما عرف الله إلَّا أنا وأنت، وما عرفني إلَّا الله وأنت، وما عرفك إلَّا الله وأنا)[1] إلاَّ أنَّنا إذا أردنا أن نقيّم شخصاً فلابد أن نُقيّمه في ثلاثة مواطن:

أوّلاً: تاريخه.

ثانياً: أقواله.

ثالثاً: مواقفه.

أوّلاً: تاريخه.

من هم بنو هاشم؟

فهم كما وصفهم الجاحظ: «ملح الأرض، وزينة الدّنيا، وحلى العالم، والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كلّ كريم، وسرّ كلّ عنصر شريف، والطّينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنّصاب الوثيق، والمعدن الفهم، وينبوع العلم»[2] .

« وإنّما سمّي هاشماً لهشمه الثريد للحاج، وكانت إليه الوفادة والرفادة، وهو الذي سنّ الرّحلتين؛ رحلة الشتاء إلى اليمن، والعراق ورحلة الصيف إلى الشام، ومات بغزة من أرض الشام، وفيه يقول مطرود بن كعب الخزاعي:

عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

---

(١) مختصر بصائر الدرجات: ١٢٥، تأويل الآيات الظاهرة: ١ / ١٣٩ / ١٨؛ وص ٢٢١ / ١٥، مشارق أنوار اليقين: ١١٢.

(٢) أُنظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد عن زهرة الآداب للجاحظ : ٥٩ .

وكان هاشم يُدعى القمر ويسمى زاد الركب ...»[1].

نافر أُمية هاشماً على خمسين ناقة سود الحدق، تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي جد عمرو بن الحمق، وكان منزله بعسفان وخرج مع أُمية أبو همهمة حبيب بن عامر بن عميرة بن وديعة بن الحارث ابن فهر ابن مالك الفهري، فقال الكاهن: «والقمر الباهر، والكوكب الزّاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر وما اهتدى بعَلَم مسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشم أُمية إلى المآثر أوّل منه وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر "فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم لحمها من حضر، وخرج أُميّة إلى الشام فأقام به عشر سنين فكان هذا أوّل عداوة وقعت بين بني هاشم وبني أُمية، ولم يكن أُمية في نفسه هناك، وإنّما يرفعه أبوه وبنوه وكان مضعوفًا وكان صاحب عهار، ويدلّ على ذلك قول نفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حرب بن أُمية وعبد المطلب بن هاشم فنفر عبد المطلب وتعجّب من إقدامه عليه وقال:

أبوك معاهر وأبوه عفّ وذاد الفيل عن بلد حرام

وذلك أنَّ أُمية كان يعرض لامرأة من بني زهرة، فضربه رجل منهم، ضربة بالسيف وأراد بنو أُمية ومن تابعهم إخراج زهرة من مكة فقام دونهم قيس بن العدي السهمي وكانوا أخواله...".[2]

أمّا عبد المطلب فكان زعيم مكّة، وسيد البطحاء، وعظيم قريش، وكانت عنده مفاتيح الكعبة وكان يسقي الحجيج ... وقد أهابه ابرهة الحبشي لما أقبل صاحب الحبشة بالفيل يريد هدم الكعبة، مرّوا بإبل لعبد المطلب فاستاقوها، فتوجّه عبد المطلب إلى الجيش، وقيل لأبرهة: إنّ هذا شريف قريش وهو رجل له عقل ومروءة، فأكرمه وأدناه، ثمّ قال لترجمانه: سله: ما حاجتك؟ فقال له: إنّ أصحابك مرّوا بإبل لي فاستاقوها، فأحببت أن تردّها لي، فتعجب من سؤاله إياه ردّ الإبل وقال: انت تتحدث عن إبلك ولا تذكر الكعبة وأنا قدمت لهدمها؟! فقال عبد المطلب: أنا ربّ الإبل، وللبيت ربّ يحميه»[3].

فأنزل الله معجزة طير الأبابيل على يديه وأنقذ بيته من الخراب وقد كان الهاشميون أحنافاً على ملّة إبراهيم ﷺ كما تذكر قصيدة عبد المطلب بعد معجزة طير الأبابيل التي رواها المسعودي في الجزء الثاني من مروج الذهب.

وقد نذر أن يذبح إلى الكعبة ولداً إذا رزقه الله عشرة أولاد فطلب من أولاده أن يقدّم أحدهم نفسه قرباناً

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٩٥.

(٢) النزاع والتخاصم بين بني أُمية وبني هاشم: ٢٠ ـ ٢١.

(٣) أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن/ ج ٩/ ص ١٠٧ .

إلى البيت فتقدم عبد الله وكان أصغرهم سنّاً، فكان الرسول ﷺ يقول: (انا ابن الذبيحين)[1] فافتداه عبد المطلب بمئة من الإبل بعد إجراء القرعة.

أمّا أبو طالب المحامي عن رسول الله ﷺحيث يقول ﷺ:« ما نالت مني قريش شيئاً حتى مات أبو طالب» وله قصائد كثيرة في مدح النبي ﷺ:

وَاللهَ لَن يَصِلوا إِلَيكَ بِجَمعِهِم حَتّى أُوَسَّدَ في التُرابِ دَفينا
فَاِصدَع بِأَمرِكَ ما عَلَيكَ غَضاضَةٌ وَاِبشِر بِذاكَ وَقَرَّ مِنهُ عُيونا
وَدَعَوتَني وَزَعَمتَ أَنَّكَ ناصِحٌ وَلَقَد صَدَقتَ وَكُنتَ ثَمَّ أَمينا
وَعَرَضتَ ديناً قَد عَلِمتُ بِأَنَّهُ مِن خَيرِ أَديانِ البَرِيَّةِ دينا
لَولا المَلامَةُ أَو حِذاري سُبَّةً لَوَجَدتَني سَمحاً بِذاكَ مُبينا[2].

وكان صفوة الهاشميين والطالبيين الرسول الكريم ﷺ، ووصيه أمير المؤمنين عليه السلام.

أوّلاً: ولادته:

ولد عليه السلام في بيت الله تعالى، ولم يولد قبله نبي، ولا وصي في بيت الله تعالى، ولم يتشرف بمولده في الكعبة الشريفة، بل تشرفت الكعبة بولادته:

ولـــدتْهُ في حَرَمِ الإلهِ وأمنِـــه والبيتِ حيث فناؤه والمسجدُ
بـيضـاءُ طـاهرةُ الثيابِ كريمةٌ طابتْ وطابَ وليدُها والمولـدُ
في ليلةٍ غابتْ نحوسُ نجومِـها وبدتْ مع القمرِ المنيرِ الأسعدُ
مـا لُفَّ في خِرَقِ القوابلِ مثلُه إلا ابـنُ آمنـةَ النبيُّ محـمدُ[3].

أما أمّه فهي السيدة فاطمة بنت أسد عليها السلام، وهي أوّل هاشمية ولدت هاشمياً، عن أنس بن مالك قال: لمّا ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أمّ عليّ بن أبي طالب دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها فقال: «رحمك الله يا أمي!كنت أمّي بعد أمي: تجوعين و تشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيب الطعام وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله عزّ و جلّ والدار الآخرة .

ثمّ أمر أن تغسل-ثلاثا-، فلمّا بلغ الماء الذي فيه الكافور سكبه رسول الله ﷺ بيده عليها، ثمّ خلع رسول الله ﷺ قميصة فألبسها إيّاه، وكفنت فوقه، ثمّ دعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد و أبا أيوب الأنصاري؛ و عمر

---

(١) الذبيح الاول اسماعيل والثاني عبد الله عليه السلام.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل/ ج ٢ / ص ١٠.

(٣) الغدير: الشيخ الاميني/ ج٦/ ص٢٨.

بن الخطاب؛ و غلاما أسود، فحفروا قبرها فلمّا بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده، و أخرج ترابه بيده، فلمّا فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه ثمّ قال: «يا الله! الّذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجّتها، ووسع عليها مدخلها، بحقّ نبيّك محمّد، والأنبياء الّذين من قبلي، فإنّك أرحم الرّاحمين»[1] حيث تربى في بيت عمه أبي طالب وغذّته بحنان الأمومة التي افتقدها وهو في السادسة من عمره.

وقد فتح أمير المؤمنين عليه السلام عينيه على الرسول ﷺفكان أوّل المباركين بولادته.

نشأته المباركة:

نشأ في بيت رسول الله ﷺ، ولو عدنا إلى العام الممحل ـ كما سماه العرب ـ وهو العام الذي ضربت فيه المجاعة قريشاً وكان أبو طالب كثير العيال فاستشعر رسول الله ﷺ ضائقة عمّه لم يرَ منتدحاً عن إسداء يد العون نحوه فينبري مشيراً على عمّه العباس ـ وكان موسراً ـ بأن يخفّف عنه ثقل عياله، فيستجيب أبو طالب ويقول: (اتركا لي عقيلاً واصنعا ما شئتما)، وهذا ما اتفقت عليه أغلب المصادر، لكن ابن هشام في السيرة النبوية ج ١ ص ٢٦٣ يضيف طالباً إلى عقيل في جواب أبي طالب فيروي عن أبي طالب قوله: أتركا لي عقيلاً وطالبا، واصنعا ما شئتما».[2]

فكان علي عليه السلام من نصيب الرسول ﷺفأخذه إلى بيته منذ نعومة أظفاره فكان يقول عليه السلام: «لقد كنت أتبع رسول الله ﷺكما يتبع الفصيل أثر أمّه أشم رائحة الوحي، وأسمع أصوات الملائكة « وقال عليه السلام « كنّا نعبد الله سبعًا حيث لا مسلم في الارض إلّا أنا ورسول الله وخديجة « وقال بُعث الرسول ﷺ يوم الاثنين وأسلمت يوم الثلاثاء، ولعلّ أصدق دليل على ذلك ما أجمعت عليه الأمّة أنّه لم يسجد لصنم قط.

صفات أمير المؤمنين عليه السلام

إنَّ علياً عليه السلام معجزة في كلِّ شيء، وهذا الإعجاز والرعاية الإلهية جعلته في مفترق طرق، فبين حاسد جحد حقّه، ومغال اتخذه من دون الله ربًّا، وقد أشار الى ذلك رسول الله ﷺفعن أحمد بن حنبل في مسنده، وابن المغازلي أنّ النبي ﷺ، قال لعلي عليه السلام: إنَّ فيك مثلا من عيسى: أبغضه اليهود حتى بهتوا أمّه، وأحبّه النصارى حتى أنزله المنزل الذي ليس له بأهل ...»[3].

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام/ ج١/ الخطيب الخوارزمي/ ص: ٦٠.

(٢) السيرة النبوية/ ج ١ / ص ٢٦٣ .

(٣) أمالى الشيخ / ص ٢١٩ .

فقد روي عن الوصي ﷺ: « هلك فيّ اثنان محبّ غالٍ ومبغض قالٍ[1]، وما الطائفة الباقية إلى يومنا هذا إلّا شاهد على معاجز لم تدركها عقولهم فاتخذوه إلهًا، وذلك مثل رفع باب خيبر التي طولها ١٨ ذراعًا، وكان يفتحها ٤٤ رجلاً فرفعها مولانا أمير المؤمنين ﷺ ومرّت عليها خيل ورجال:

هذا ضميرُ العالمِ الموجود عن ... عدمٍ وسرُ وجوده المستوع
هذي الأمانة لا يقوم بحملها ... خلقاءُ هابطة وأطلس أرفعُ
تأبى الجبالُ الشمُّ عن تقليدها ... وتضجُّ تيهاءٌ وتشفق برقعُ
هذا هو النورُ الذي عذباته ... كانت بجبهةِ آدم تتطلّعُ
وشهابُ موسى حيث أظلمَ ليلُه ... رُفعت له لألاؤه تتشعشعُ
يامن ردت له ذكاءَ ولم يفز ... لنظيرها من قبل إلا يوشع
يا هازمَ الأحزابِ لا يثنيهِ عن ... خوضِ الحِمامِ مدججٌ ومدرع
يا قالعَ البابِ الذي عَن هَزِهِ ... عَجزَت أكفٌ أربعونَ وأربع
لولا حُدُوثكَ قلتُ أنّكَ جاعلُ ... الأرواحِ في الأشباحِ والمُستنزِع
لولا مماتكَ قلتُ أنّكَ باسط ... الأرزاقِ تُقدرُ في العطاءِ وتُوسِع
ما العالمُ العلويُ إلا تربة ... فيها لجثتكَ الشَريفةِ مَضجع
ما الدهرُ إلا عبدك القن الذي ... بنفوذِ أمرِك في البريةِ مولع
أنا في مديحكَ ألكنٌ لا أهتدي ... وأنا الخطيبُ الهزبريُ المصقع
أأقول فيكَ سميدعٌ كلا ولا ... حاشا لِمثلكَ أن يُقال سميدع
بل أنتَ في يومِ القيامةِ حاكم ... في العالمين وشافعٌ ومشفع
ولقد جهلتُ وكنتُ أحذقُ عالم ... أغرارُ عزمكَ أم حسامكَ أقطع
وفقدتُ مَعرفتي فلستُ بعارفٍ ... هل فضلُ عِلمكَ أم جنابكَ أوسع
لي فيكَ معتَقدٌ سأكشفُ سِره ... فليصغِ أرباب النهى وليسمعوا
هي نفثة المصدور يطفئ بردها ... حرُ الصبابةِ فاعذلوني أو دَعوا
والله لولا حيدر ما كانت ... الدنيا ولا جمعَ البريةِ مجمع[2].

(١) نهج البلاغة / خطب الإمام علي ﷺ / ج ٤ / ص ١٠٨ .
(٢) الإمام علي بن أبي طالب ﷺ/ أحمد الرحماني الهمداني/ ص٣٦٠

عليٌ وجسده:

كما ذكرنا سابقا أنَّ علياً ﷺ جسده معجزة؛ وباب خيبر خير شاهد على ذلك، وكان إذا جاء الفرس بشدّة يوقفه بصدره، وإذا قبض الفارس قبض أنفاسه، وقيل لهﷺ: بأيّ شيء غلبت الأقران؟

قالﷺ: ما لقيت رجلاً إلَّا أعانني على نفسه[1] يؤمي بذلك إلى تمكّن هيبته في القلوب

وكانت العرب لا تستحي من الهزيمة أمام علي بن أبي طالب ﷺ وقال ابن شهرآشوب ومحمد بن أبي طالب: ولم يزل يقاتل حتى قتل ألف رجل وتسعمائة رجل وخمسين رجلاً سوى المجروحين، فقال عمر بن سعد لقومه: الويل لكم أتدرون لمن تقاتلون؟ هذا ابن الأنزع البطين، هذا ابن قتّال العرب فاحملوا عليه من كل جانب ...»[2]، وكان ﷺ كثيرًا ما يتقدّم بين الصفوف داعيًا إلى المبارزة، فبدا له يومًا أن يدعو معاوية لمبارزته فأيّهما غلب فالأمر له، وتحقن دماء الناس، فنادى: يا معاوية، فقال هذا لأصحابه: اسألوه ما شأنه؟ قال: أحب أن يبرز لي فأكلّمه كلمة واحدة. فبرز معاوية ومعه عمرو، فلمّا قارباه لم يلتفت إلى عمرو، وقال لمعاوية: ويحك علام يقتتل الناس بيني وبينك؟ ابرز إليّ، فأيّنا قتل صاحبه فالأمر له، فالتفت معاوية إلى عمرو فقال: ما ترى يا أبا عبد الله؟ أُبارزه؟ فقال عمرو: لقد أنصفك الرجل، واعلم أنّك إن نكلت عنه لم تزل سُبة عليك وعلى عقبك ما بقي عربي، فقال معاوية: يا عمرو ليس مثلي يخدع نفسه، والله ما بارز ابن أبي طالب رجلاً قط إلَّا سقى الأرض من دمه. ثم تلاحيا وعزم معاوية على عمرو ليخرجن إلى علي، إن كان جادًا في نصحه، ولم يكن مغررًا به طمعًا في مآل أمره، فلما خرج للمبارزة مكرهًا وشد عليه عليٌّ المرهوبة، رمى عمرو بنفسه عن فرسه، ورفع ثوبه وشَغَرَ برجليه فبدت عورته فصرف عليٌ وجهه عنه وقام معفرًا بالتراب هاربًا على رجليه، معتصمًا بصفوفه». وكما أخرج عورته ابن العاص عندما همّ امير المؤمنين بقتله[3].

شجاعة علي ﷺ:

إنَّ القوة مهما كانت فلا تُعطي ثمارها إذا لم يكن معها قلب شديد، فكم من قويّ في جسده ضعيف في لقائه، وأمّا علي ﷺ فكان قلبه أقوى من جسده، وإليك بعض أقواله وأفعاله:

فعنه ﷺ: « كأنّي بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضّعف عن قتال الأقران، ومنازلة الشجعان؛ ألا وإنَّ الشجرة البرّيّة أصلب عودًا، والرّواتع الخضرة أرقّ جلودًا، والنابِتاتِ العِذْيَةَ[4].

---

(١) نهج البلاغة – خطب الإمام علي ﷺ/ ج ٤/ ص ٧٥.

(٢) بحار الأنوار/ ج ٤٥ / ص٥٠.

(٣) وقعة صفين/ ابن مزاحم المنقري/ ص ٢٧٥.

(٤) وفي بعض النسخ : " النباتات البدويّة " . والعِذْيُ : الزرع الذي لا يُسقى إلاّ من ماء المطر لبعده من المياه (لسان العرب : ١٥ / ٤٤) .

(أقوى وقودًا وأبطأ خمودًا). وأنا من رسول الله كالضّوء من الضّوء والذّراع من العضد.

والله، لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيت عنها، ولو أمكنت الفرصُ من رقابها لسارعت إليها، وسأجهَد في أن أُطهّر الأرض من هذا الشخص المعكوس، والجسم المركوس، حتى تخرج المَدَرَة [1] (من بين حبّ الحصيد)[2].

وفي الكافي عن سعيد بن قيس الهمداني: نظرت يومًا في الحرب إلى رجل عليه ثوبان، فحرّكت فرسي فإذا هو أمير المؤمنين عليه السلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، في مثل هذا الموضع؟ فقال: نعم يا سعيد بن قيس، إنّه ليس من عبد إلّا وله من الله حافظ وواقية؛ معه ملكان يحفظانه من أن يسقط من رأس جبل أو يقع في بئر، فإذا نزل القضاء خلّيا بينه وبين كلّ شيء[3].

وفي الإرشاد – في الإمام عليّ عليه السلام: ومن آيات الله تعالى فيه أيضاً أنّه مع طول ملاقاته للحروب، وملابسته إيّاها، وكثرة من مُنيَ به فيها من شجعان الأعداء وصناديدهم، وتجمّعهم عليه، واحتيالهم في الفتك به وبذل الجهد في ذلك، ما ولّى قطّ عن أحد منهم ظهرَه، ولا انهزم عن أحد منهم، ولا تزحزح عن مكانه، ولا هابَ أحدًا من أقرانه، ولم يلقَ أحد سواه خصماً في حرب إلّا وثبت له حينًا وانحرف عنه حينًا، وأقدم عليه وقتًا وأحجم عنه زمانًا»[4]

وفي المناقب لابن شهر آشوب – في الإمام عليّ عليه السلام –: قيل له عليه السلام: ألا تركب الخيل وطلّابك كثير؟ فقال: الخيل للطلب والهرب، ولست أطلب مدبّرًا، ولا أنصرف عن مقبل .

وفي رواية: لا أكرُّ على من فرّ، ولا أفرّ ممّن كرّ[5].

يوم الخندق

وقد اشترك الإمام علي عليه السلام في كلّ حروب الرسول صلى الله عليه وآله (ما عدا تبوك) وهي تزيد على الثمانين حربًا..

وفي حرب بدر الكبرى قتل المسلمون جميعًا من الكفار (٣٥) شخصًا، بينما قتل الإمام علي عليه السلام بمفرده (٣٥) شخصًا[6] وبذلك يكون مجموع قتلى الكفّار هو: (٧٠) شخصاً.. قتل الإمام وحده نصفهم..

---

(١) المَدَرُ: قِطع الطين اليابس، واحدته: مَدَرَة (لسان العرب: ٥ / ١٦٢).

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٤٥.

(٣) الكافي: ٢ / ٥٩ / ٨، المناقب لابن شهر آشوب: ٣ / ٢٩٧ عن قيس بن سعيد، بحار الأنوار: ٤٢ / ٥٨ / ١.

(٤) الإرشاد: ١ / ٣٠٨.

(٥) المناقب لابن شهر آشوب: ٣ / ٢٩٨.

(٦) بحار الأنوار: ج٤١ ص٦٥ وص١٤٦.

وفي حرب أحد أصيب الإمام عليه السلام بثمانين جراحة خطيرة[1] وعندما انتهت الحرب ورجع المسلمون إلى المدينة كاد الإمام علي عليه السلام يسقط إعياءً من كثرة ما نزف منه من الدماء؛ ومع ذلك قام الإمام علي عليه السلام بصعوبة واتكأ على عبدين وتوجّه نحو ساحة المعركة!!..

وفي حرب الأحزاب أو الخندق التي وقعت عام (٥) هجرية، كان الإمام عليه السلام هو الوحيد الذي واجه أعظم أبطال جيش الكفار وهو (عمرو بن عبد ودّ العامري) واستطاع الإمام قتله وهو لم يبلغ الثلاثين من عمره!! وبقتل (عمرو بن عبد ود) تحطّمت معنويات قريش إلى درجة كبيرة وقال الرسول صلى الله عليه وآله في ذلك: "ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين"[2].

وفي حرب خيبر التي وقعت عام (٧) هجرية كان (مرحب) أهمّ أبطال اليهود، وكان يضع على رأسه خوذة فولاذية بالإضافة إلى صخرة مثقوبة الوسط يضعها فوق الخوذة كان مرحب عَقبةً أمام تقدّم المسلمين إذ كان يقتل كلّ من جاء لمبارزته، فأعطى الرسول صلى الله عليه وآله الراية بيد أبي بكر ثم عمر ثم عثمان لكنهم تراجعوا وانهزموا، فتقدم الإمام علي عليه السلام لمبارزة (مرحب) وبعد قليل كان سيف الإمام عليه السلام يخترق رأس مرحب محطّماً الصخرة والخوذة الفولاذية وقد شق السيف رأسه حتى الأضراس!! ثم تقدّم وانتزع باب خيبر.. وبذلك انتصر المسلمون..[3].

وفي معركة حنين قتل الإمام عليه السلام بمفرده أربعين من الكفار، كما قتل قائدهم (أبو جرول) بضربة واحدة أصابت الخوذة والعمامة والدرع وجعلته نصفين..[4].

وفي غزوة ذات السّلاسل قتل الإمام عليه السلام السبعة الأشداء وكان آخرهم أشدهم[5].

ولذلك فقد كان الكفّار يُسمّون الإمام عليًّا عليه السلام بـ «الموت الأحمر» وذلك لكثرة من قتل منهم[6].

وبالإضافة إلى دور الإمام عليه السلام البارز في ميدان الجهاد، كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام اليد اليمنى للرسول صلى الله عليه وآله.. وكان هو الذي يحافظ على الرسول صلى الله عليه وآله ويردّ عنه كيد الأعداء في جميع الأوقات، فقد خطّطت عصابة من مشركي مكة مكوّنة من ثلاثة من أقوى رجالاتها لاغتيال الرسول صلى الله عليه وآله بسريّة تامّة.. وعرف الرسول صلى الله عليه وآله بالخبر.. وفي ذات يوم، بعد صلاة الفجر قال الرسول صلى الله عليه وآله: «معاشر النّاس أيّكم ينهض إلى ثلاثة نفر قد آلوا

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٦/ ص٢٦.

(٢) المصدر نفسه: ج٣٩/ ص١-٧.

(٣) المصدر نفسه: ج٣٩/ ص١٤.

(٤) المصدر نفسه: ج٤١/ ص٦٦-٦٧.

(٥) المصدر نفسه: ج٤١/ ص٦٦-٦٧.

(٦) المصدر نفسه: ج٤١/ ص٦٣.

باللات والعزى ليقتلونني وقد كذبوا ورب الكعبة» فلم يقم أحد، وكان الإمام علي عليه السلام مريضاً في داره، وعندما وصله الخبر «خرج كأنّه نشط من عقال» وتقدّم للرسول صلى الله عليه وآله قائلاً: «يا رسول الله أنا لهم سريّة وحدي» (السريّة: قطعة من الجيش وسمّيت بذلك لأنّها تسري ليلاً خفية).. وذهب الإمام علي عليه السلام لأداء مهمّته ... وانقطعت أخباره عن الرسول صلى الله عليه وآله.. وبعد ثلاثة أيام رجع الإمام عليه السلام ومعه أسيران ورأس، وأخبر الرسول صلى الله عليه وآله بالقصّة: حيث صادف عليه السلام الثلاثة متّجهين نحو المدينة، وعندما عرفت العصابة الإمام عليه السلام هجم عليه رئيس العصابة ودارت معركة حامية، وبعد جولة قصيرة استطاع الإمام عليه السلام القضاء على رئيس العصابة.. وعند ذلك استسلم الرجلان الآخران له وقالا للإمام: «...وصاحبنا المقتول كان يعدّ بألف فارس»!![1].

وهكذا كان الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام قمّة الجهاد.. والتّضحية.. والبطولة، ولذلك نزلت مجموعة كبيرة من الآيات القرآنية تتحدّث حول جهاد الإمام عليه السلام وتضحيته، وسنذكر هنا بعضها فحسب لضيق المجال:

قال تعالى: (إِنّ اللهَ يُحِبّ الّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنّهُم بُنْيَانٌ مّرْصُوصٌ)[2] نزلت هذه الآية في أمير المؤمنين وحمزة وعبيدة ومجموعة أخرى من المجاهدين[3].

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي) ـ أي يبذل ـ (نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ)[4] نزلت هذه الآية في الإمام عليه السلام عند مبيته في فراش الرسول صلى الله عليه وآله[5].

وقال تعالى: (مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ)[6] وقد نزلت هذه الآية أيضاً في الإمام علي عليه السلام[7].

بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الآيات نزلت متحدّثة عن جهاد الإمام وبطولته عليه السلام.

الزّهد

فقد كان الإمام عليه السلام يعيش حياة عادية جدًّا كحياة الفقراء بل أكثر تواضعاً منها.. فقد كان أكله لا يتعدّى خبز الشّعير الجاف ـ وكان في بعض الأوقات يكسر الخبز بركبته لخشونته ـ وبعض الملح أو اللبن فقط!!

يقول سويد بن غفلة: «دخلت على علي بن أبي طالب القصر فوجدته جالسًا وبين يديه صفيحة فيها لبن

(١) بحار الأنوار: ج٤١/ ص٧٤-٧٥.

(٢) سورة الصف: ٤.

(٣) بحار الأنوار: ج٣٦/ ص٢٤.

(٤) سورة البقرة: ٢٠٧.

(٥) بحار الأنوار: ج٣٦/ ص٤٠.

(٦) سورة المائدة: ٥٤.

(٧) بحار الأنوار: ج٣٦/ ص٣٢-٣٣.

خاثر (أي: غليظ) أجد ريحه من شدّة حموضته.. وفي يده رغيف أرى قشار الشعير في وجهه وهو يكسره بيده أحياناً فإذا غلبه كسره بركبته وطرحه فيه...

ثم يقول سويد: فقلت لجاريته: ويحك يا فضّة أما تتقين الله في هذا الشيخ ألا تنخلون له طعاماً مما أرى فيه من النخالة؟ (نخل الدقيق أي غربله وأزال قشوره).

فقالت: لقد تقدّم إلينا أن لا ننخل له طعاماً!»[1].

مع أنّه ﷺ كان يحكم على أكثر من (٥٠) دولة بما فيها إفريقيا وإيران وجميع الدول العربية!.

أمّا ملابسه فقد كانت أكثر من عادية.. كانت مرقّعة في كثير من جوانبها ـ يقول الإمام ﷺ: «لقد رقّعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها»[2].

ويقول أبو النوادر ـ وهو بياع الكرابيس[3] ـ: أتاني علي بن أبي طالب ﷺ ومعه غلام فاشترى منّي قميصي كرابيس فقال لغلامه: اختر أيّهما شئت، فأخذ أحدهما، وأخذ علي ﷺ الآخر فلبسه، ثم مدّ يده فقال: اقطع الذي يفضل من قدر يدي، فقطعته، وكفه (طواه) ولبسه، وذهب[4].

وأما منزله.. فلم تكن تجد فيه حتى ضروريّات أي منزل عادي، فقد كان كلّ ما في داره ﷺ ليلة الزّواج لا يتعدى الـ (١٣) شيئاً!!..

يقول الإمام ﷺ: "ما كان لنا إلَّا إهاب كبش (جلد خروف) أبيت عليه مع فاطمة ﷺ بالليل ونعلف عليها النّاضح (أي الجمل الذي ينقل عليه الماء) بالنهار»!!..[5].

ويقول سويد بن غفلة: دخلت على علي ﷺ يومًا وليس في داره سوى حصير رثّ؛ وهو جالس عليه، فقلت يا أمير المؤمنين: أنت ملك المسلمين، والحاكم عليهم وعلى بيت المال، وتأتيك الوفود وليس في بيتك سوى هذا الحصير؟..

قال ﷺ: "يا سويد، إنَّ اللبيب (العاقل) لا يتأثث في دار النقلة (الانتقال) وأمامنا دار المقامة (الآخرة) وقد نقلت إليها متاعنا ونحن منقلبون إليها عن قريب».

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٠/ ص٣٣١، وكشف الغمة: ج١/ ص١٦٣.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٣ ص٢٧٢.

(٣) الكرباس: هو نوع من الأقمشة.

(٤) أسد الغابة: ج٤/ ص٢٤.

(٥) بحار الأنوار: ج٤٠/ ص٣٢٣.

قال سويد: فأبكاني والله كلامه[1].

وقد كان الإمام عليه السلام يطعم الناس خبز البرّ (الحنظة) واللحم وينصرف إلى منزله ويأكل خبز الشعير (الجاف) والزّيت والخل!![2]..

وهكذا وبمنتهى البساطة كان يعيش أمير المؤمنين علي عليه السلام الحاكم على أكثر من خمسين دولة، بينما حكّام اليوم الذين يدّعون الإسلام يعيشون في قصور أسطورية صرفت عليها المليارات، وسيارات حديثة، وأموالهم تملأ البنوك الأجنبية، بينما أغلب الجماهير تعيش الفقر المدقع.

العبادة

فقد كان الإمام عليه السلام يصلي كثيراً، وكان كثيراً ما يُغمى عليه من شدّة الخوف من الله، فكان يصير كالخشبة اليابسة!!..

وفي ليلة الهرير[3] كانت الحرب بين جيش الإمام علي عليه السلام وجيش معاوية على أشدّها، وكانت الأيدي والأرجل والرؤوس تتطاير هنا وهناك.. في هذه الأثناء حان موعد صلاة الصّبح، فتقدّم الإمام عليه السلام وبسط له نطع (النطع: بساط من جلد) بين الجيشين ووقف الإمام عليه وبدأ بالصلاة ـ صلاة الصبح ـ وهو غير آبه بالسهام التي تتطاير حوله، إلى أن أكمل صلاته!![4].

عدل علي عليه السلام

أوّل شيء أوصى أمير المؤمنين عليه السلام به مالكاً الأشتر، الذي عيّنه والياً له على مصر، أن يكون محبًّا للرعية، محترماً لمشاعر الناس من أيّ فئة كانوا، سواء كانوا مسلمين أم من أهل الأديان الأخرى . ولا يخفى أنَّ في ذلك تثبيتاً لإنسانية الإسلام واحترامه لمشاعر الناس، وتقوية لبنية النظام والحكومة .

قال عليه السلام: (وأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، والْمَحَبَّةَ لَهُمْ، واللُّطْفَ بِهِمْ . ولا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً، تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ) .

ثمَّ أوصاه أن يعفو ويصفح عمَّن أساء واجترأ عليه، أو على خاصته، قال عليه السلام: (فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ وتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وصَفْحِهِ) .

---

(١) تذكرة الخواص: ص٦٨، وانظر بحار الأنوار: ج٦٧/ ص٣٢١.

(٢) بحار الأنوار: ج٤٠/ ص٣٢٧.

(٣) في حرب صفين اشتدت المعركة بين الطرفين بعد عدة أشهر من بدئها واستمرت المعركة إلى الليل.. وإلى الفجر وإلى الصبح، ولو استمرت الحرب إلى الظهر لانتصر جيش الإمام إلاّ أن خدعه معاوية «بالمصاحف» حالت دون ذلك وليلة الهرير هي تلك الليلة.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١/ ص٢٧.

ثمَّ دعاه إلى أن لا يميّز بين القريب والبعيد في عطاءاته من بيت المال؛ لأنَّ المسلمين سواءٌ في تناول الحقوق المالية من بيت المال، وقد عانى الناس من التمييز في العطاء أثناء العهد السابق، فكان ذلك من الأسباب التي دعتهم إلى الثورة على الخليفة الثالث.

قال ﷺ: (أَنْصِفِ اللهَ وأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ومِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ ومَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ، ومَنْ ظَلَمَ عِبَادَ الله كَانَ الله خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ) .

ثمَّ ذكّره بأن يكون هدفه وغايته إقامة العدل، وإحياء الحق، الغاية والهدف الذي من أجله أُرسل الأنبياء والرسل، حتى ينعم الناس بالعدالة والمساواة، فبالعدل فقط تقوم الأنظمة وتستمر، ويصير للحياة مفهومها ومعناها . أما الحياة في ظل حاكمٍ ظالم، فهي بمثابة السجن، قال ﷺ: (ولْيَكُنْ أَحَبَّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ) .

ثمَّ أوصاه بأن يكون جلّ اهتمامه جلب رضا العامّة؛ لأنَّ رضا العامة يعني ثبات النظام، وإيجاد الدرع الواقي له من كيد الأعداء والمتضرِّرين من وجوده، ومع رضا العامة لا قيمة لسخط الخاصة، فإنّ الخاصّة يمكن لك أن تتخلَّى عنهم . أمَّا العامة، فلا .

قال ﷺ: (وإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رضا الْعَامَّةِ، ولَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَئُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلاءِ، وأَكْرَهَ لِلإِنْصَافِ ... مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ . وإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، والْعُدَّةُ لِلأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الأُمَّةِ . فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ، ومَيْلُكَ مَعَهُمْ) .

ثمَّ دعاه لأن يختار لموازرته في إدارة شؤون البلاد، أشخاصاً تتوفَّر فيهم الخصال الطّيّبة الحميدة، التي يستدعي التحرُّك من خلالها تنشيط حركة البلاد سياسياً، وتقويتها اقتصادياً وحتّى عسكرياً .

قال ﷺ: (ولا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ ويَعِدُكَ الْفَقْرَ، ولا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الأُمُورِ، ولا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ ؛ فَإِنَّ الْبُخْلَ والْجُبْنَ والْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِالله) .

ثمَّ دعاه لأن يختار لوزارته طاقماً جديداً ممَّن لم يخدم الأنظمة الظالمة، وممَّن يثق بهم الناس، أُمناء على مستقبلهم وحياتهم، قال ﷺ: (إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، ومَنْ شَرِكَهُمْ فِي الآثَامِ، فَلا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً ؛ فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الأَثَمَةِ، وإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ) .

ثمَّ قال له بأنَّ الناس فيهم المحسن والمسيء، فلا تجوز المساواة بين الصنفين؛ لأنَّ في ذلك قطعاً لسُبُل الإحسان، وتقليلاً للفاعلين له، وتشجيعاً للمسيئين على الإساءة، وهذا خلاف المباني الإلهية والإسلامية؛ لأنَّ الله يأمرُ بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي .

قال ﷺ: (ولا يَكُونَنَّ المُحْسِنُ والمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لأَهْلِ الإِحْسَانِ فِي الإِحْسَانِ، وتَدْرِيباً لأَهْلِ الإِسَاءَةِ عَلَى الإِسَاءَةِ).

وإليك رسالته التي أرسلها إلى عامله على البصرة عبد الله بن حنيف الأنصاري عندما دعاه جماعة إلى وليمة في البصرة (أَمَّا بَعْدُ، يَابْنَ حُنَيْف: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلى مَأْدُبَة فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الأَلوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ(ما يوضع به الطعام). وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلى طَعَامِ قَوْم، عَائِلُهُمْ (محتاجهم) مَجْفُوٌّ(أي مطرود)، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضِمُهُ(المأكل) مِنْ هذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وَجهِهِ فَنَلْ مِنْهُ. أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُوم إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ; أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذلِكَ، وَلكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَع وَاجْتِهَاد، وَعِفَّة وَسَدَاد. فَوَالله مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً(فتات الذهب والفضة)، وَلاَ ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلاَ حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلاَ أَخَذْتُ مِنْهُ إِلاَّ كَقُوتِ أَتَان دَبِرَة(الدابة التي عقر ظهرها فقل أكلها)، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَهْوَنُ مِنْ عَفْصَة مَقِرَة(مرّة).) [1].

بلاغة علي ﷺ:

أما بلاغته وفصاحته فهو يعدّ سيّد البيان وبلاغة الكلام، وما نهج البلاغة إلّا شاهد حيّ على ذلك، فهو دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوق، وله خطب لم يذكر التاريخ مثلها كخطبة خالية من الألف وأخرى خالية من النّقط، ورغم هذا التقيد فكانت بمنتهى الفصاحة والبلاغة، وإليك ما قاله الشيخ محمد عبدة في مقدمة شرح نهج البلاغة: بعد فقد أوفى لي حكم القدر بالاطلاع على كتاب (نهج البلاغة) مصادفة بلا تعمل. أصبته على تغير حال وتبلبل بال، وتزاحم أشغال، وعطلة من أعمال. فحسبته تسلية، وحيلة للتخلية فتصفّحت بعض صفحاته، وتأمّلت جملا من عباراته. من مواضع مختلفات، وموضوعات متفرقات.

فكان يخيل إليّ في كلّ مقام أن حروبا شنّت وغارات شنّت وأنّ للبلاغة دولة، وللفصاحة صولة. وأنّ للأوهام عرامة، وللريب دعارة. وأنّ جحافل الخطابة، وكتائب الذّرابة، في عقود النظام، وصفوف الانتظام، تنافح بالصّفيح الأبلج، والقويم الأملج. وتمتلج المهج برواضع الحجج.. وأنّ مدبّر تلك الدولة، وباسل تلك الصولة، هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

بل كنت كلّما انتقلت من موضع إلى موضع أحسّ بتغيّر المشاهد. وتحوّل المعاهد، فتارة كنت أجدني في عالم يغمره من المعاني أرواح عالية. في حلل من العبارات الزّاهية، تطوف على النّفوس الزاكية. وتدنو من القلوب

---

(١) نهج البلاغة/ خطبة: ٤٥.

الصافية: توحي إليها رشادها. وتقوم منها مرادها. وتنفر بها عن مداحض المزال. إلى جواد الفضل والكمال.

وطورًا كانت تتكشّف لي الجمل عن وجوه باسرة، وأنياب كاشرة. وأرواح في أشباح النمور، ومخالب النسور. قد تحفّزت للوثاب، ثم انقضت للاختلاب، فخلبت القلوب عن هواها، وأخدت الخواطر دون رماها. واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء.

وأحيانًا كنت أشهد أنَّ عقلاً نورانيًّا، لا يشبه خلقًا جسدانيًّا، فصل عن الموكب الإلهي، واتّصل بالروح الإنساني. فخلعه عن غاشيات الطّبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى. ونما به إلى مشهد النور الأجلي. وسكن به إلى عمار جانب التّقديس. بعد استخلاصه من شوائب التلبيس.

وآنات كأنّي أسمع خطيب الحكمة ينادي بأعلياء الكلمة، وأولياء أمر الأمة، يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب. ويرشدهم إلى دقاق السياسة. ويهديهم طرق الكياسة، ويرتفع بهم إلى منصات الرئاسة ويصعدهم شرف التدبير، ويشرف بهم على حسن المصير ذلك الكتاب الجليل هو جملة ما اختاره السّيّد الشريف الرضي رحمه الله من كلام سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. جمع متفرقة وسمّاه بهذا الاسم (نهج البلاغة) ولا أعلم اسما أليق بالدلالة على معناه منه. وليس في وسعي أن أصف هذا الكتاب بأزيد ممّا دل عليه اسمه، ولا أن آتي بشيء في بيان مزيته فوق ما أتى به صاحب الاختيار كما سترى في مقدّمة الكتاب. ولولا أنّ غرائز الجبلة، وقواضي الذّمّة، تفرض علينا عرفان الجميل لصاحبه، وشكر المحسن على إحسانه، لما احتجنا إلى التّنبيه على ما أودع نهج للبلاغة، من فنون الفصاحة.

وما خصّ به من وجوه البلاغة، خصوصًا وهو لم يترك غرضًا من أغراض الكلام إلّا أصابه ولم يدع للفكر ممرا إلَّا جابه.

إلَّا أنَّ عبارات الكتاب لبعد عهدها منّا، وانقطاع أهل جيلنا عن أصل لساننا قد نجد فيها غرائب ألفاظ في غير وحشية، وجزالة تركيب في غير تعقيد، فربّما وقف فهم المطالع دون الوصول إلى مفهومات بعض المفردات أو مضمونات بعض الجمل. وليس ذلك ضعفًا في اللفظ أو وهنًا في المعنى وإنّما هو قصور في ذهن المتناول...[1].

(١) مقدمة الشيخ محمد عبدة في نهج البلاغة.

علم علي عليه السلام:

أمَّا علم علي عليه السلام فلا تتحمل العقول وصفه، ولا يُدرك كنهه، ولا يخطر ببال أحد، فكيف لا يكون كذلك وقد وصفه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: « أنا مدينة العلم، وعليّ بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب»[1]، وقوله عليه السلام: (علّمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم كلّ باب يفتح لي ألف باب)[2] وهو الذي صعد على منبر الكوفة، وقال كلمته المعروفة (سَلُونِي، وَلاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيءٍ إلاَّ أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ)[3] عن عمار بن ياسر رضي الله عنه، قال: (كنت مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه سائراً، فمررنا بواد مملوءة نملاً، فقلت: يا أمير المؤمنين! ترى أحداً من خلق الله يعلم عدد هذا النّمل؟ قال: نعم، يا عمار، أنا أعرف رجلاً يعلم كم عدده، وكم فيه ذكر، وكم فيه أنثى. فقلت: من ذاك الرجل؟ فقال: يا عمار أما قرأت في سورة يس وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين؟ فقلت: بلى يا مولاي، قال: أنا ذلك الرجل الإمام المبين).[4]

وعنه عليه السلام: «سلوني عن طرق السماء، فإنّي أعلم بها من طرق الأرض، سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّ بين جنبي علومًا كثيرة كالبحار الزّواخر »[5].

عن شرح بديعة بن المقري أنَّه جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام ثلاثة رجال يختصمون في سبعة عشر بعيراً. أوّلهم يدّعي نصفها وثانيهم ثلثها، وثالثهم تُسعها. فاحتاروا في قسمتها، لأنَّ في ذلك سيكون كسرًا (أي جزء من بعير). فقال عليه السلام: أترضون أن أضع بعيرًا منّي فوقها وأقسّمها بينكم، قالوا: نعم، فوضع عليه السلام بعيرًا بين الجمال، فصارت ثمانية عشر، فأعطى الأوّل نصفها وهو تسعة، وأعطى الثاني ثلثها وهو ستة، وأعطى الثالث تسعها وهو اثنان وبقي بعير له.[6]

جلس رجلان يتغذّيان، مع أحدهما خمسة أرغفة ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فلمّا وضعا الغذاء، بين أيديهما مرّ بهما رجل، فجلس وأكل معهما واستوفوا في أكلهم الأرغفة الثمانية، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم، فتنازعا بينهما وارتفعا إلى الإمام علي عليه السلام فقصّا عليه قصّتهما، فحكم لصاحب الثلاثة أرغفة درهمًا واحدًا، ولصاحب الخمسة أرغفة سبعة دراهم؛ لأنَّ الأرغفة الثمانية أربعة وعشرون ثلثًا، لصاحب الثلاثة أرغفة منها تسعة أثلاث (لأنَّ له ثلاثة أرغفة وكلّ رغيف ثلاثة أثلاث فيكون المجموع تسعة أثلاث)، أكل منها ثمانية

(١) الحاكم النيشابوري، المستدرك علي الصحيحين/ ج / ص ١٢٦.

(٢) بحار الأنوار – العلامة المجلسي / ج ٢٦ / ص ٢٩

(٣) «صحيح البخاريّ» ج ١، ص ٤٦؛ وج ١، ص ٢٤٠ و ٢٤١؛ و«مسند أحمد» ج ١، ص ٢٧٨؛ و«مسند أبي داود» ص ٣٥٦.

(٤) بحار الأنوار/ ج ٤٠ / ص ١٧٦.

(٥) ينابيع المودة: ٣ / ٢٠٨ وص ٢٢٣ وفيه من (سلوني قبل أن تفقدوني...) .

(٦) حسين علي الشفائي (١٩٩٠) (الحق المبين في قضاء أمير المؤمنين)دار كرم، دمشق: ١١٥ .

(لأنّ هناك أربعة وعشرين ثلثاً أكلها الثلاثة بالتساوي فكلّ واحد منهما أكل ثمانية) وأكل الضيف واحداً منها، ولصاحب الخمسة أرغفة منها خمسة عشر ثلثاً (لأنَّ له خمسة أرغفة وكلّ رغيف ثلاثة أثلاث فيكون المجموع خمسة عشر ثلثًا) أكل منها ثمانية وأكل الضّيف سبعة. أي أنَّ كلاً من الثلاثة أكل ثمانية أثلاث. فالأوّل أعطى للضيف ثلثًا واحدًا والثاني أعطاه سبعة أثلاث (والمجموع ثمانية أثلاث). وبما أنّ الضيف قد دفع لهم ثمانية دراهم، أي قيمة كلّ ثلث هو درهم واحد، وأنّه قد أكل ثلثًا واحدًا من الشخص الأول، لذا تكون حصّة هذا الشّخص درهمًا واحداً. وكذلك أكل من الثاني سبعة أثلاث لذا تكون حصّته سبعة دراهم.[1]

وأنّ علم علي عليه السلام بحر لا يولج، ومعين لا ينضب، وسرّ لا يعرف وهو سرّ الإمامة والإلهام الرّباني وسيشهد العالم بعلوم لعلي عليه السلام لم يصل عباقرة العصر لها، وهذه الأقوال والنّظريات للمثال لا للحصر.

علي عليه السلام في القرآن:

لقد رسم القرآن الكريم لعلي عليه السلام خطّين؛ الخط الصريح وهي النّصوص التي جاءت بعلي بن أبي طالب عليه السلام فكان سبب نزولها وإليك بعض آياته تعالى:

روى الحافظ الحاكم الحسكاني (الحنفي) في (شواهد التنزيل) قال: حدّثونا عن أبي بكر السبيعي (بإسناده المذكور) عن ابن عباس قال: ممّا نزل من القرآن خاصة في رسول الله وعلي وأهل بيته من سورة البقرة: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الجَنّة هُمْ فِيها خالِدُونَ) نزلت في عليّ خاصّة، وهو أول مؤمن، وأول مصلّ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله [2].

وروى مؤلّف كتاب (شمسية الأفكار) عن كتب العامّة في قوله تعالى: (الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ):

(إنَّها نزلت في علي بن أبي طالب، لما وصل إليه قتل حمزة سيّد الشهداء)[3].

وأخرج علي المتّقي الهندي (الحنفي) في الكنز، عن أبي ذر قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ببقيع الغرقد فقال صلى الله عليه وآله: (والذي نفسي بيده إنَّ فيكم رجلاً يقاتل النّاس من بعدي على تأويل القرآن، كما قاتلت المشركين على تنزيله وهم يشهدون أن لا إله إلا الله فيكبر قتلهم على النّاس، حتى يطعنوا عليًّا ولي الله، ويسخطوا عمله، كما سخط موسى أمر السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وكان خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار لله رضى). ثم أخرج في الكنز نفسه، عن أبي سعيد الخدري: أنّه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: أبو بكر وعمر؟

(١) محسن الأمين « أعيان الشيعة / دار التعارف: ٣٤٣ .

(٢) شواهد التنزيل، ج١/ ص ٩٠.

(٣) شمسية الأفكار/ ص٥٦.

قال ﷺ: لا، ولكنّه خاصف النعل، يعني علي[1].

وقال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ)[2] أخرج العلاّمة البحراني عن ابن شهر آشوب ـ من طريق العامّة ـ عن تفسير (مجاهد): إنّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين حين خلّفه رسول الله ﷺ بالمدينة، فقال: يا رسول الله أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال ﷺ: (يا علي أما ترضى أنْ تكون منّي بمنزلة هارون من موسى حين قال (يعني: موسى بن عمران لأخيه هارون): (أخلفني في قومي وأصلح).

فقال الله: (وأولي الأمر منكم).

قال (يعني: مجاهد): (هو) علي بن أبي طالب، ولّاه الله أمر الأمّة بعد محمد، وحين خلّفه رسول الله ﷺ بالمدينة، فأمر الله العباد بطاعته وترك خلافه)[3].

وهنالك إطار آخر رسمه القرآن الكريم لعلي ﷺ وهو انطباق الآية على شخصه الكريم فمثلاً قوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)[4] فهل هنالك شخص أعلم من علي بن أبي طالب فإذا أشادت هذه الآية الكريمة بأهل العلم فسيدهم علي دون أن يختلف اثنين في ذلك.

وعلى الإطار نفسه أشاد القرآن الكريم بالمجاهدين فقال عزّ من قائل: (فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)[5] ولا شكّ أنّ علياً ﷺ سيّد المجاهدين كما أشاد القرآن الكريم بالزاهدين وهل هنالك أزهد من علي بن أبي طالب، وقال عزّ من قائل: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) فلو تأمّلنا الآية لوجدتها مثالاً لعلي بن أبي طالب ﷺ، وكذلك لو تتبّعت القرآن لوجدته ينطبق على علي بن أبي طالب بكلّ آياته .

وصف الرسول ﷺ لعلي ﷺ:

لقد وصف رسول الله ﷺ أمير المؤمنين بمواطن عديدة لم يصف بها أحدًا من أصحابه، ويكفي قوله ﷺ: (أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِن مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي)[6] وقد وصف رسول الله أصحابه السّابقين وأشاد

---

(١) كنز العمال/ ج٦/ ص٣٩٠-٣٩١.

(٢) سورة النساء/ الآية: ٥٩.

(٣) غاية المرام/ ص٢٦٣-٢٦٤.

(٤) تفسير سورة الزمر/ الآية: ٩.

(٥) سورة النساء / الآية: ٩٥.

(٦) القمي، تفسير القمي، ج ٢، ص ١٠٩، ذيل سورة نور الآيات ٥٥-٦١؛ العياشي، تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٣٢ ذيل سورة مائدة، رقم ١٥٣؛ الشيخ الصدوق، الامالي، ص ٤٩١، المجلس ٦٣، ح ١٠؛ الشيخ الطوسي، الامالي، ص٢٥٣، المجلس ٩، ح ٤٥؛ المجلسي، بحارالانوار، ج ٣٨، ص ٣٣٤، ح ٧؛ أحمد بن حنبل، المسند، كتاب فضائل الصحابة، ج ٢، ص ٧٠٠ ح ٩٥٤؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب ٤: من فضائل علي، ح ٣٠/ ٢٤٠٤

بهم في موقف ولكن الرسول ﷺ أشاد بعلي عليه السلام في كلّ موقف وموطن بل جعله الشّخص الثاني من بعده لكلّ فضيلة ومنقبة، بل هو نفس رسول الله ﷺكما صرّح بذلك القرآن الكريم حيث إنَّ الرسول الأكرم ﷺعندما جاءه نصارى نجران وطلبوا منه المباهلة فإنَّه لم يأخذ معه إلا عليًّا وفاطمة والحسن والحسين، وقد أنزل الله في تلك المناسبة الآية المباركة (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ الله عَلَى الْكَاذِبِينَ) [1] فجعلت نفس علي نفس رسول الله ﷺ.

وكذلك من المُلاحظ من أحاديث الرسول ﷺبحقّ علي عليه السلام بأنَّه سرّ لا يدركه أحد، وسنام لا يصل إليه أحد كقوله ﷺ(يا علي لا يعرفك إلا الله وأنا، ولا يعرفني إلا الله وأنت، ولا يعرف الله إلا أنا وأنت).

أو قوله ﷺ (يا علي الناس من شجر شتّى وأنا وأنت من شجرة واحدة ..)[2] وقوله ﷺ (ثُمَ قالَ: أَنْتَ أَخِي وَوَصِيِّي وَوَارِثِي، لَحْمُكَ مِنْ لَحْمِي وَدَمُكَ مِنْ دَمِي وَسِلْمُكَ سِلْمِي وَحَرْبُكَ حَرْبِي، وَالإِيْمانُ مُخالِطٌ لَحْمَكَ وَدَمَكَ كَما خالَطَ لَحْمِي وَدَمِي، وَأَنْتَ غَداً عَلى الحَوْضِ خَلِيفَتِي)[3] وقد لاحظنا أمير المؤمنين انفرد في بعض المواقف الخاصّة لرسول الله ﷺكتغسيله وتكفينه وتجهيزه، وإذا تتبّعنا كتب السير والحديث لوجدنا أنَّ رسول الله ﷺيجعل عليًّا عليه السلام بمنزلة لا يضاهيه بها أحد، وقد وصف نفسه عليه السلام في بعض كلمات من خطبته في آخر أيّام خلافته وقال عليه السلام في موضع آخر يصف نفسه من رسول الله ﷺ((وقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهَّ ﷺبِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ والْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِه وأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِه، ويَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِه ويُمِسُّنِي جَسَدَه، ويُشِمُّنِي عَرْفَه، وكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيه، ومَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ ولَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ، ولَقَدْ قَرَنَ اللهَّ بِه ﷺمِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِه، يَسْلُكُ بِه طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، ومَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَه ونَهَارَه، ولَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُه اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّه، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِه عَلَماً، ويَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِه، ولَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاه ولَا يَرَاه غَيْرِي، ولَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلَامِ، غَيْرَ رَسُولِ اللهَّ ﷺوخَدِيجَةَ وأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ والرِّسَالَةِ وأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ، ولَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْه ﷺفَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ مَا هَذِه الرَّنَّةُ، فَقَالَ هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِه، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ ولَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ، وإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ).

---

(١) سورة ال عمران/ الآية: ٦١.

(٢) فضائل الخمسة من الصحاح الستة : ١ / ٢٠٧.

(٣) بحار الأنوار / ج ٩٩ / ص ١٠٦.

وللتوسع في شخصية أمير المؤمنين وما لاقاه من كثرة الفتن وتمزق الأمّة وما كان يعانيه من عدم إطاعة أهل الكوفة إليه فليراجع أمهات الكتب حيث كان يقول عليه السلام: "وَلَئِنْ أَمْهَلَ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ وَبِمَوْضِعِ الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَظْهَرَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا أَ شُهُودٌ كَغُيَّابٍ وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ أَتْلُو عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ عَجَزَ الْمُقَوِّمُ وَأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ الْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللَّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلَاثٍ وَاثْنَتَيْنِ صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ وَبُكْمٌ ذَوُو كَلَامٍ وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ لَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ وَاللَّهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى وَحَمِيَ الضِّرَابُ قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً. حقوق علي عليه السلام على الامة ..."[1].

حقوق الإمام علي عليه السلام

أوّلاً: حقّ الولاية والإمامة الحديث في هذا الجانب يطول ولكن للاختصار فإنَّ الآية الكريمة: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)[2] فقد جمع السيوطي ست وعشرون رواية من أصحاب الحديث بأنّها نزلت بحقّ علي عليه السلام حيث إنّه كان راكعًا، وجاء سائل فمدّ إليه يده وانتزع منها الخاتم، فنزلت هذه الآية وهي آية صريحة بولاية علي على الأمّة، ولعلّ رجوع الآخرين إليه دليل آخر على إيمانهم بأعلميّته وأولويّته بهذا الأمر، فقد ورد أن عمر بن الخطاب قال (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن)[3] كما أن يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في يوم الغدير (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهم وال من

(١) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام – أحمد الرحماني الهمداني – ص٦٢٧.

(٢) من سورة آل عمران نزلت بحق علي عليه السلام.

(٣) بحار الأنوار / ج ٤٠ / ص ١٤٩.

والاه وعادِ من عاداه)[1] وكان حسان بن ثابت موجود في ذلك اليوم فأنشد قائلًا:

يُناديهمُ يومَ الغَديرِ نَبيُّهُمْ بخُمٍّ وأسمِعْ بالرسولِ مُنادِيا
وقالَ: فمَنْ مَولاكم ووَلِيّكم؟ فقالوُا ولم يَبدُوا هُناك التعادِيا
إلهُك مَوْلانا وأنْتَ وَليّنا ولَنْ تَجِدن مِنّا لكَ اليومَ عاصِيا
فقال له: قُمْ يا عليّ فإنّني رَضيتُك مِنْ بَعدي إِماماًوهادِيا
فَمَنْ كُنْتُ مَولاه فَهذا وَلِيُّه فُكُونُوا لَهُ أنصارَصِدْقٍ موالِيا
هُناكَ دَعا: اللهُمَّ والِ وَلِيَّه وَكُنْ لِلّذي عادى عَلِيّاً مُعادِيا

مما لا شكّ فيه أنَّ عليًّا ﷺ من أهل البيت، بل أوّلهم، والله يقول في كتابه (إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[2] وفي هذا وغيره يقين لا يقبل الشك وعلم لا يقبل الريب بالولاية لأهل البيت ﷺ، وأنّ أوّلهم عليٌّ وآخرهم الحجّة عجل الله له الفرج، وقد وردت أحاديث بأسمائهم كما رواه الحنفي القندوزي في ينابيع المودّة (الجزء التاسع)، وإذا أردنا التّوسّع في ذلك فإنّ كتب التاريخ والحديث فيها أدلّة واضحة على ولايتهم.

ثانيًا:- ذكر فضائله ونشر مناقبه

عن آبائه الصادقين ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ الله تبارك وتعالى جعل لأخي علي بن أبي طالب فضائل لا يحصي عددها غيره، فمن ذكر فضيلة من فضائله مقرًّا بها غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، ولو وافى القيامة بذنوب الثقلين، ومن كتب فضيلة من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقي لتلك الكتابة رسم، ومن استمع إلى فضيلة من فضائله غفر الله له الذّنوب التي اكتسبها بالاستماع، ومن نظر إلى كتابة في فضائله غفر الله له الذنوب التي اكتسبها بالنّظر. ثم قال رسول الله ﷺ: النّظر إلى علي بن أبي طالب عبادة، وذكره عبادة، ولا يقبل إيمان عبد إلّا بولايته والبراءة من أعدائه[3].

الحقّ الثّالث: تعظيم شعائره وإحياء ذكره؛ فقد ورد عن الإمام الصادق ﷺ: « رحم الله شيعتنا خُلِقوا من فاضل طينتنا وعُجنوا بماء ولايتنا، يحزنون لحزننا ويفرحون لفرحنا الحق»[4] .

(١) بحار الأنوار / ج ٣٧ / ص/ ١٢٦.

(٢) سورة الاحزاب/ الاية: ٣٣.

(٣) مائة منقبة: ١٧٦ / ١٠٠، روضة الواعظين: ١١٤، مناقب الخوارزمي: ٢، كفاية الطالب: ٢٥٢، كشف الغمة ١: ١١٢، جامع الأخبار: ٥٤ / ٧٠، فرائد السمطين ١: ١٩، ميزان الاعتدال ٣: ٤٦٧، المحتضر: ٩٨، بحار الأنوار ٣٨: ١٩٦ / ٤.

(٤) شجرة طوبى (الحائري) : ج١، ص٣ .

الرابع: زيارة قبره عليه السلام

عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله إِذَا دَخَلَ الْحُسَيْنُ عليه السلام جَذَبَهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: أَمْسِكْهُ، ثُمَّ يَقَعُ عَلَيْهِ فَيُقَبِّلُهُ وَيَبْكِي، يَقُولُ: يَا أَبَتِ، لِمَ تَبْكِي؟

فَيَقُولُ: يَا بُنَيَّ أُقَبِّلُ مَوْضِعَ السُّيُوفِ مِنْكَ.

قَالَ: يَا أَبَتِ، وَأُقْتَلُ؟

قَالَ: إِي وَالله وَأَبُوكَ وَأَخُوكَ وَأَنْتَ.

قَالَ: يَا أَبَتِ، فَمَصَارِعُنَا شَتَّى؟

قَالَ: نَعَمْ يَا بُنَيَّ.

قَالَ: فَمَنْ يَزُورُنَا مِنْ أُمَّتِكَ؟

قَالَ: لَا يَزُورُنِي وَيَزُورُ أَبَاكَ وَأَخَاكَ وَأَنْتَ إِلَّا الصِّدِّيقُونَ مِنْ أُمَّتِي[1].

ولعل خير ما نختم به كتابنا كلمات مضيئة اقتبسناها من هدي الامام ونسأل الله التوفيق

- فِي تَقَلُّبِ اَلْأَحْوَالِ عِلْمُ جَوَاهِرِ اَلرِّجَالِ[2]
- عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَعْجِلُ الْفَقْرَ الَّذِي مِنْهُ هَرَبَ وَيَفُوتُهُ الْغِنَى الَّذِي إِيَّاهُ طَلَبَ فَيَعِيشُ فِي الدُّنْيَا عَيْشَ الْفُقَرَاءِ وَيُحَاسَبُ فِي الْآخِرَةِ حِسَابَ الْأَغْنِيَاءِ وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً وَيَكُونُ غَداً جِيفَةً وَعَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِي الله وَهُوَ يَرَى خَلْقَ الله وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ وَهُوَ يَرَى الْمَوْتَى وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى وَعَجِبْتُ لِعَامِرٍ دَارَ الْفَنَاءِ وَتَارِكٍ دَارَ الْبَقَاءِ.[3]
- "إِيَّاكَ وَ الْغَضَبَ فَإِنَّ أَوَّلَهُ جُنُونٌ وَ آخِرَهُ نَدَمٌ"[4].

هذا ومن الله العون والتوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

---

(١) كامل الزيارات، ص٧٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١٩/ ص ٢١٣.

(٣) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد / ج١٨/ ص ١٢١.

(٤) عيون الحكم و المواعظ: ٩٦، لعلي بن محمد الليثي الواسطي، المتوفى في القرن السادس الهجري، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٨ هجرية، قم/ إيران.

شهر شوال

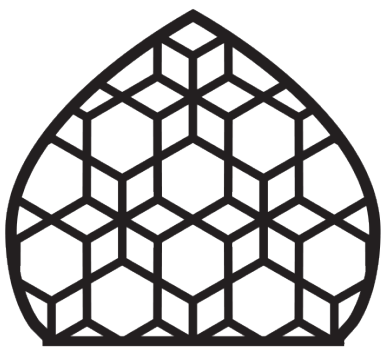

جامعة الإمام الصادق عليه السلام وبعض تلامذته

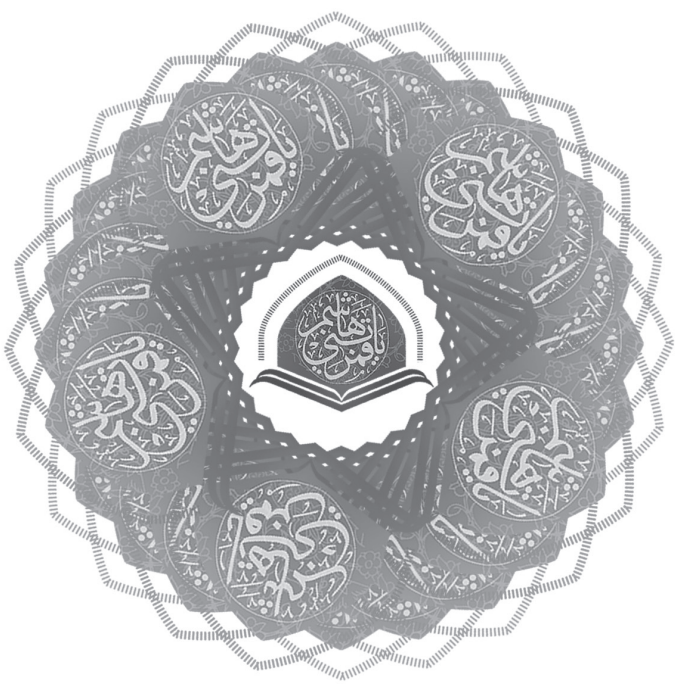

جامعة الإمام الصادق عليه السلام وبعض تلامذته

السيد أحمد الموسوي

ليس من الخروج عن الواقع والحقيقة، ولا من المبالغة إن وصفنا جامعة الإمام الصادق عليه السلام بأكبر وأهم جامعة إسلاميّة، فإنّها خلّفت ثروة علميّة كبيرة جداً، وخرّجت عدداً كبيراً من رجال العلم والثقافة، وأنجبت خيرة المفكّرين، وصفوة الحكماء والمتكلمين، والفلاسفة والفقهاء وعلماء الحديث، وأفذاذ العلماء حتى في الكيمياء كجابر بن حيّان، الذي له صيت دوي في الغرب لدى الكيماويّين.

وقد عدّت أسماء تلامذته عليه السلام وخرّيجو جامعته فكانوا أربعة آلاف رجل، وقيل عشرون ألفًا.

وقد صنّف الحافظ أبو العباس بن عقدة كتاباً جمع فيه رجال الصادق عليه السلام ورواة حديثه، وأنهاهم إلى أربعة آلاف[1].

كلام الطبرسي (رحمة الله عليه)

وقال الطبرسي في «أعلام الورى»: ولم ينقل عن أحد من سائر العلوم ما نقل عنه عليه السلام فإنّ أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرّواة عنه من الثقاة على اختلافهم في الآراء فكانوا أربعة آلاف إنسان[2].

وقال ابن شهر آشوب في مناقبه مثل ذلك[3].

ومهما كان، فإنّ جامعة الإمام الصادق عليه السلام كانت مصدرًا للعلوم، وينبوعًا يفيض على الأمّة الإسلامية بالمعارف الإلهيّة، وقد أغدقت على العالم الإسلامي بخدماتها الجليلة في بثّ تلك العلوم والمعارف والتعاليم القيمة، وكانت جامعته من أهمّ التّقدّم والازدهار العلمي والثقافي...

نعم، لو تسنّى لجامعة الإمام الصادق عليه السلام الظهور التام لأدّت رسالتها على أحسن ما يتطلّبه واقع المسلمين بل وغيرهم أيضًا، وما كانوا فيه من الحاجة إلى نشر التعاليم القيّمة في بثّ روح الأخوّة الإسلاميّة، والعدالة الاجتماعيّة، ومحو المعتقدات الفاسدة، والآراء الشاذّة الكاسدة.

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ج١/ ص٦٧.

(٢) اعلام الورى: ص٢٨٤.

(٣) المناقب: ج٤/ ص٢٤٧.

ولكن بمزيد الأسف الشديد لقد اتخذت السلطة الظالمة جميع تدابيرها لمحاربة تلك الجامعة الإنسانيّة، وتلك المدرسة الإسلاميّة الحقّة الواقعيّة.

ولِمَ هذه المحاربة اللاإنسانية الشديدة؟!.

لأنَّ شهرة الإمام الصادق ﷺ في العالم الإسلامي وحقيقته المباركة كانت باعثة في قلوبهم الوجل والخوف، وسالبة منهم القرار والنوم، من جراء نشاطه ﷺ العلمي وقوته الرّبّاني، ولهذا فقد كانت السلطة تضع الخطط التي تأمل بها الوصول إلى غلق أبواب تلك الجامعة وصدّ طريق تلك المدرسة ـ مدرسة الثقلين الكتاب والعترة ـ والقضاء على الإمام الصادق ﷺ بكلّ ما لهم من وسيلة.

وذلك لأنّ أنظار الناس أصبحت متّجهة إليه ﷺ ووفود رجال المسلمين وطلّاب العلوم كانوا يتسابقون إلى الحضور عنده ﷺ والاستماع منه، حتى كان ذكره ﷺ حديث الرّكبان، وكانت أندية العلم في العواصم الإسلاميّة تلهج بذكره وينتهي الاحتجاج في الاستشهاد بقوله ﷺ.

والحقّ والواقع والحقيقة أنَّ مدرسة الإمام الصادق ﷺ مدرسة الثقلين: الكتاب والعترة، كانت هي المدرسة الفكريّة الدّينية الوحيدة التي قد أنجبت خيرة المفكّرين، وإذا كانت هناك حقيقة يجب أن تقال فهي أنَّ الحضارة الإسلاميّة والفكر الإسلامي مدينان لهذه المدرسة الفكريّة الواسعة بالتّطوّر والرّقي.. ولعميده الإمام الصادق ﷺ بالمجد الثقافي، والعظمة العلميّة..

نعم، إنَّ مدرسة الإمام ﷺ ـ مدرسة الثقلين الكتاب والعترة ـ قد وجّهت الأمّة الإسلاميّة إلى قواعد الاجتهاد والاستنباط، ونقد الحديث ودراسته، وبعثت على النشاط في مجال التأليف، وتبويب الأحكام، فكانت ملتقى العلماء، وجامعاً لطلّاب العلوم رغم تلك المحاولات التي تبذل في طريق منع صيتها وشهرتها.

استقلالية مدرسة الإمام ﷺ

إنّ مدرسة الإمام الصادق ﷺ كان طابعها الذي طبعت عليه، ومنهجها الذي اختصّت به هو استقلالها الرّوحي والسّياسي، وعدم خضوعها لنظام السّلطة..، ولم تفسح المجال لمن سمّوا أنفسهم بولاة الأمر بأن يتداخلوا في شؤونها، أو تكون لهم يد في توجيهها وتطبيق نظامها، لذلك لم يتسنّ لذوي السّلطة استخدامها في مصالحهم الخاصّة، أو فرض التعاون معهم في شؤون الدّولة وكان ذلك من المستحيل.

فهي منذ نشأتها الأولى كانت تحارب الظالمين، ولا تركن إليهم، ولا ترتبط بهم بروابط الألفة، ولم يحصل بينها وبينهم انسجام بتاتاً، ولهذا كانت دائمًا عرضة للخطر، ولكنّها رغم كلّ الأخطار والمشاكل والصعوبات فقد صدت لتلك الهجمات التي وجهتها إليه الدولة قاصدةً محوها من صفحة الوجود..

ومهما كان فإنّ مدرسة الإمام الصادق ﷺ وجامعته كانت بعيدة عن التأثر بآراء الحكّام السياسيّين الذين كانوا يحمّلون إرادتهم على العلم والعلماء..

وقد بذل الدّوانيقي كلّ ما في وسعه لجلب رضا الإمام الصادق ﷺ والفوز بمسايرته له، ولكنّه لم ينجح... فسارت مدرسته ﷺ على استقلالها الرّوحي والسّياسي (وإلى الآن) ونالت الشهرة العظيمة، وخلّفت ذلك التراث العلمي العظيم النّفيس، والمجد العلمي الشّهير، والحضارة الإسلاميّة الناضرة مدينة لها بالتطوّر والخلود.

الجامعة والإنتاج العلمي الزّاخر

قد سبق أنّ خريجي جامعة الإمام الصادق ﷺ ورواة حديثه كانوا أربعة آلاف، وقيل عشرون ألفًا، وكانوا من مختلف الأقطار الإسلاميّة على اختلاف آرائهم ومعتقداتهم، ولا بأس هنا بالإشارة إلى بعضهم.

حَمَلة فِقهه ﷺ وخواصّ أصحابه

وأمّا حَمَلة فِقه الإمام الصادق ﷺ وخواصّ أصحابه الذين كانت لهم اليد الطولى في خوض معارك الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافية، ومحاربة أهل الإلحاد والزندقة والضّلالة، ومناظرة أهل العقائد الفاسدة، والآراء الشّاذّة، وفي شدّة الإنكار مقابل الظّلمة والجائرين، فكانوا كثيرين ولا مجال لنا أن نذكر أسماءهم في هذه العجالة، ولكن نذكر بعض المشهورين منهم نموذجاً، مع شيء عن حياتهم العلميّة:

١ ـ أبان بن تغلب الكوفي

أبان بن تغلب أبو سعد الكوفي: روى عن عليّ بن الحسين زين العابدين، والإمام الباقر، والإمام الصادق ﷺ.

وقال أبو جعفر الشيخ الطوسي رحمة الله عليه في الفهرست: أبان بن تغلب بن رياح أبو سعد البكري الجريري، ثقة جليل القدر، عظيم المنزلة في أصحابنا، لقي أبا محمّد عليّ بن الحسين، وأبا جعفر محمّد الباقر ـ وجعفر بن محمّد الصادق ـ ﷺ، وروى عنهم، وكانت له عندهم حظوة وقدم، وقال له أبو جعفر الباقر ﷺ: اجلس في مسجد المدينة وافت الناس فإنّي أحبّ أن يرى في شيعتي مثلك، وكانت له حلقة في المسجد.

وقال ياقوت الحموي: كان قارئاً لغويًّا، فقيهًا إماميًّا، ثقة عظيم المنزلة، جليل القدر، روى عن عليّ بن الحسين، وأبي جعفر الباقر، وأبي عبد الله الصادق ﷺ، وسمع من العرب، وصنّف غريب القرآن وغيره.

وقال الذهبي: أبان بن تغلب شيعي جلد صدوق، لكنّه مبتدع، فلنا صدقه وعليه بدعته، وقد وثقه أحمد بن حنبل، وابن معين، وروى عنه موسى بن عقبة، وشعبة، وحمّاد بن زيد، وابن عيينة، وجماعة..

وقوله: (لكنّه مبتدع)، افتراء منه وبهتان وإظهار لما في صدره من حقدٍ وبغضٍ على شيعة آل محمّد ﷺ،

وأبان بن تغلب لم يكن مبتدعاً، لكنّه كان متمسّكاً بالثقلين ـ كتاب الله وعترة نبيّه ﷺوكان من شيعة أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرّهم تطهيراً.

إنّ أبان كان يودّ القربى، عملاً بقوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى﴾[1].

وكان يقول: إنّ الكتاب والسنّة يدلّان، بل يصرّحان بمحبّة أهل البيت ومودّتهم وولايتهم كآية الولاية: ﴿إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يُقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾[2].

وآية المباهلة: ﴿قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم...﴾[3].

وآية التطهير: ﴿إنّما يُريدُ الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويُطهرّكم تطهيراً﴾[4]، وآيات أخرى.

وحديث المنزلة: (أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبوّة بعدي ـ إلاّ أنه لا نبيّ بعدي) وحديث الثقلين: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبدا...» ومئات الأحاديث الأخرى.

نعم، إنّ أبان بن تغلب وكلّ فرد من المتمسّكين بكتاب الله وعترة نبيّه ﷺقائلون ومعتقدون بأنّ عليّاً عليه السلام كان بعد رسول الله ﷺأفضل الناس وخير البريّة، لأنّه كان بمنزلة نفسه ﷺوكان منه ﷺبمنزلة هارون من موسى عليه السلام.

فكان عليّ عليه السلام أولى وأجدر وأحقّ بمقامه ﷺوخلافته، والله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺفي غدير خم أن ينصبه وليّاً وإماماً للأمّة الإسلاميّة من بعده ﷺوأنزل الله سبحانه وتعالى:

﴿يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس إنّ الله لايهدي القوم الكافرين﴾[5].

وبولايته وإمامته عليه السلام أكمل الله تعالى للمسلمين دينهم وأتّم عليهم نعمته، ورضي لهم الإسلام ديناً، قال سبحانه وتعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[6].

نعم، أصبح هذا القول المنطقي المطابق للكتاب والسنّة، المؤيّد بالعقل وعُرف العقلاء، بعقيدة الذّهبي وأمثاله بدعة!، جعلنا الله من المتمسّكين بكتابه وعترة رسوله ﷺ، وأعاذنا الله من الانحراف عن صراط أهل

---

(١) سورة الشورى: ٢٣.

(٢) سورة المائدة: ٥٥.

(٣) سورة آل عمران: ٦١.

(٤) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٥) سورة المائدة: ٦٧.

(٦) سورة المائدة: ٣.

البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً...

ومهما كان فإنّ أبان بن تغلب لا يرتاب في جلالة قدره وعظمة منزلته[1].

وقال الأزدي: كان غالياً في التشيع وما أعلم به في الحديث بأسًا، وخرّج حديثه مسلم في صحيحه، والترمذي، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة، هو (رضي الله عنه) ممّن أجمعوا على روايته وصدقه، واعترفوا بعلّو منزلته، فلا يضرّ قول من زاغ عن الحق في طعنه.

مؤلفاته:

ولأبان بن تغلب مؤلفات كثيرة منها:

١ ـ غريب القرآن، وهو أوّل تأليف في ذلك فصار أساساً لعلم اللغة، وقد ذكر شواهده من الشعر فجاء فيما بعد عبد الرحمن بن محمّد الأزدي الكوفي فجمع من كتاب أبان، وكتاب محمّد بن السائب الكلبي، وأبي ورق عطيّة بن الحرث فجعلهما كتاباً واحداً، وبين فيه ما اختلفوا فيه وما اتفقّوا عليه، فتارة يجيىء كتاب أبان مفرداً وتارة مشتركاً.

٢ ـ كتاب الفضائل.

٣ ـ كتاب معاني القرآن.

٤ ـ كتاب القراءات.

٥ ـ كتاب الأصول في الرواية على مذهب الشيعة[2].

٢: أبان بن عثمان الكوفي

أبان بن عثمان بن يحيى ابن زكريّا اللؤلؤي الكوفي، وكان في الكوفة تارة ويسكن البصرة أخرى، وقد أخذ عنه من أهل البصرة وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو عبد الله محمّد بن المثنى، وأبو عبد الله محمّد بن سلام الجمعي، وأكثروا الحكاية عنه في أخبار الشعراء والنسب والأيام، روى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، وأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام.

وما عرف من مصنّفاته إلاّ كتاب جمع فيه المبدء والمبعث، والمغازي، والوفاة، والسقيفة، والردّة، وله أصل

---

(١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ج١/ ص٩٣، وطبقات ابن سعد: ج٦ ص٢٥٠، وفهرست ابن النديم: ص٣٠٨، ومعجم الأدباء: ج١ ص٤، وميزان الاعتدال: ج١/ ص٤. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ج٢ ص٥٥ .

(٢) انظر ترجمته في: تهذيب الكمال: ج٢ ص٦ رقم ١٣٥، والجرح والعديل: ج٢ ص٢٩٦، وسير أعلام النبلاء: ج٣ ص٤٥٩، وج٤ ص٤٠٤، وتهذيب المقال: ج١/ ص٢٠٤، وفهرست الشيخ: ص١٧، ومعجم الأدباء: ج١ ص١٠٧، وبغية الوعاة: ص١٧٦، ورجال البرقي: ص٩، والطبقات: ج٦ ص٣٠٦، وميزان الاعتدال: ج١ ص٥، والنجاشي: ص١٠، ومجمع الرجال: ج١ ص١٦، ومعجم رجال الحديث: ج١ ص١٤٣ وغير هؤلاء كثيرون آخرون.

يرويه الشيخ الطوسي رحمة الله عليه عن عدّة من الأصحاب، وكان أبان من الستّة الذين أجمع العصابة على تصحيح ما يصحّ عنهم، والإقرار لهم بالفقه، وهم: جميل بن درّاج، وعبد الله مسكان، وعبد الله بن بكير، وحمّاد بن عيسى، وحمّاد بن عثمان، وأبان بن عثمان[1].

وقد روى عنه خلق كثير، منهم: الحسن بن علي الوشا، وعلي بن الحكم الكوفي، وفضالة بن أيّوب، والحسين بن سعيد، وصفوان بن يحيى، وعيسى الفراء، وجعفر بن سماعة وغيرهم[2].

٣ ـ بريد بن معاوية العجلي

بريد بن معاوية العجلي أبو القاسم الكوفي كان من أصحاب الإمام الباقر وابنه الإمام الصادق عليهما السلام وهو من حملة الحديث ومن رجال الفقه، وله منزلة عند أهل البيت عليهم السلام من الوثّاق وعلوّ القدر.

وورد مدحه في روايات صحيحة، كما أجمعت الشيعة على تصحيح ما صحّ عنه، والذي يظهر أنّ له منزلة سامية في نشر حديث أهل البيت عليهم السلام وأنّ خصومهم قد وضعوا أحاديث في ذمّه ليحطّوا من قدره ويصرفوا الناس عنه، ولكن الأحاديث الذامّة لم تقف في طريقه، أو تعرقل سيره المتواصل في نشر المذهب الحق، وبثّ الأحكام.

وهو من الستّة الذين عرفوا أنّهم أفقه الناس، وهم: زرارة بن أعين، ومعروف بن خربوذ، وبريد العجلي، وأبو بصير الأسدي، والفضل بن يسار، ومحمّد بن مسلم الطائفي، وأفقه هؤلاء الستة زرارة بن أعين (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين).

وقال الصادق عليه السلام: (زرارة بن أعين، ومحمّد بن مسلم، وبريد العجلي، والأحول، أحبّ الناس إليَّ أحياءً وأمواتاً)[3].

وروى بريد العجلي الحديث عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام وروى عنه داود بن يزيد بن فرقد، والحكم وإسماعيل ابنا حبيب، والقاسم بن عروة، ومنصور بن يونس، وعبد الله بن المغيرة، وجماعة[4].

٤ ـ جميل بن درّاج:

جميل بن دراج بن عبد الله، أبو علي النخعي الكوفي، من أصحاب الإمام الصادق وابنه موسى الكاظم

---

(١) اختيار معرفة الرجال: ص٣٧٥ .

(٢) انظر ترجمته في أحسن التراجم: ج١/ ص١٢٦ حيث ذكر ٥١ مصدراً لترجمته.

(٣) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ج٢/ ص٦١.

(٤) ترجم له كل من: الطوسي في الاختيار: ص٧٢، والشيخ في الفهرست: ص١٧، وضمن ترجمة زرارة: ص٣١٤، وفي مجمع الرجال: ج١ ص٢٧٩، والمعجم: ج٣ / ص٣٥٩.

عليه السلام، وهو من الستّة الذين أجمعوا على تصحيح ما يصحّ عنهم، توفي (رضي الله عنه) في أيام الإمام الرضا عليه السلام وكان كثير الحديث، فقيهاً، زاهداً، متعبداً، له مؤلفات. منها: كتاب اشترك هو ومحمّد بن حمران فيه، وله كتاب اشترك هو ومرازم بن حكيم فيه، وله أصل يرويه أبو جعفر الشيخ الشيخ الطوسي (رضي الله عنه) عن الحسين بن عبد الله.

روى عنه الحديث جماعة كالحسن بن محبوب، وصالح بن عقبة، وعبد الله بن جبلة، وأبو مالك الحضري، ومحمّد بن عمرو، وغيرهم.

وكان له أخ يقال له: نوح بن دراج، وكان قاضياً في الدولة العباسيّة، وقد اشتدت الملامة عليه من قبل أصحاب الصادق عليه السلام لأنّ القضاء من قبل الدولة يُعدّ مؤازرة لهم، وكان نوح من رواة حديث الصادق عليه السلام واعتذر أنّه لم يتول القضاء حتى سأل أخاه جميلاً[1].

٥ ـ مؤمن الطاق:

محمّد بن عليّ بن النعمان البجلّي الكوفي الملقب بمؤمن الطاق، وخصومه من مخالفي آل محمّد صلى الله عليه وآله لقّبوه بشيطان الطاق.

وهو من مبرزي أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ويُقال: إنّ أوّل من لقبه بشيطان الطاق هو أبو حنيفة، نعم لقبه خصومه بهذا اللقب لأنه (رضوان الله عليه) كان يفوق ويغلب عليهم[2] وهناك أحاديث كثيرة لا مجال لذكر جميعها.

وقد ذكره المرزباني في شعراء الشيعة، وأورد من شعره ما رواه عمّارة بن حمزة، وذلك أنّ المنصور الدوانيقي كان إذا ذكر مدح ابن قيس الرقيات لعبد الملك بن مروان تغيّظ منه وشقّ عليه، فقال عمّارة: يا أمير فيكم رجل من أهل الكوفة أجود ممّا قال ابن قيس.

قال: ومَن هو؟

---

(١) انظر ترجمته في الاختيار: رقم ٢١٣، ٢٠٢، ٤٦٨، ٨٠٥، وأحسن التراجم: ج١ ص١٢٤، فقد ذكر ٤٢ مصدراً لترجمته.

(٢) الكشي: ص٣٤٨ رقم ٦٥٠، وخلاصة الرجال: ص٢٧، وجامع الرواة: ج١ ص٢٨١، والوسائل: ج٢٠ ص١٨٣ رقم ٤٢٠، و معجم رجال الحديث: ج٦ ص٢٦٩ رقم ٤٠٣٢، و ص٢٧٧ رقم ٤٠٥٧ وص٢٧٨ رقم ٤٠٦٢، ورجال الشيخ ٢٠٩ و ٤٥.

قال: مؤمن الطاق، وأنشده:

يا مَن لقلب قد شفه الوجع ... يكاد مما عناه ينصدع

أمسى كئيباً معذّباً كمداً ... تظلّ فيه الهموم تصطرع

عن ذكر آل النبي إذ قهروا ... واللون مني مع ذلك ملتمع

قالت قريش: ونحن أسرته ... والناس ما عمروا لنا تبع

قالت قريش: منا الرسول فما ... للناس في الملك دوننا طمع

قد علمت ذلك العريب فما ... تصلح إلا بنا وتجتمع

فإن يكونوا في القول قد صدقوا ... فقد أقروا ببعض ما صنعوا

لأنّ آل الرسول دونهموا ... أولى بها منهموا إذا اجتمعوا

وإنهم بالكتاب أعلمهم ... والقرب منه والسبق قد جمعوا

ما راقبوا الله في نبيّهم ... إذ بعد وصل أهله قطعوا

ووصفه المرزباني بقوله: ابو جعفر محمّد بن عليّ بن النعمان... كان من الفصحاء البلغاء، ومن لا يطاول في النظر والجدال في الإمامة، وكان حاضر الجواب، فذكر له عدّة مناظرات مطوّلة ومختصرة، وكانت له الغلبة فيها[1].

وقال ابن النديم في ترجمته: أبو جعفر بن محمّد بن (عليّ بن) النعمان الأحول... من أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام ولقد لقي زيد بن علي زين العابدين وناظره على إمامة أبي عبد الله ـ الصادق عليه السلام ـ وكان حسن الاعتقاد والهدى، حاذقاً في صناعة الكلام، سريع الخاطر والجواب.

قال أبو خالد الكابلي:

رأيت أبا جعفر صاحب الطاق وهو قاعد في الروضة، وقد قطع أهل المدينة أزاره، وهو دائب يجيبهم ويسألونه فدنوت منه وقلت: إنّ أبا عبد الله نهانا عن الكلام.

فقال: أو أمرك أن تقول لي؟

فقلت: لا والله ولكنّه عليه السلام أمرني أن لا أُكلّم أحداً.

قال: فاذهب وأطعه فيما أمرك.

فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فأخبرته بقصّة صاحب الطاق.

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ج٢/ ص٧٠.

فتبسّم أبو عبد الله عليه السلام وقال: يا أبا خالد إنّ صاحب الطاق يكلّم الناس فيطير، وأنت إن قصّوك لن تطير.

علمه ونبوغه:

وكان مؤمن الطاق كثير العلم، متفوقاً في معارفه، قويّاً في احتجاجاته، تعددت فيه نواحي العبقرية والنبوغ، فكان عالماً في الفقه، عارفاً بالكلام، خبيراً في الحديث والشعر، وكان قويّ المعارضة، سريع الجواب، واضح الحجة، وكان مشتغلاً بالتجارة، ومعروفاً بالتشيّع والإخلاص لأهل البيت عليهم السلام وكان يتمتع بشخصيّة فذّة، يعترف له الناس بالفضل والعلم والنبوغ والتفوّق.

وقد كان عصره يقضي على أمثاله من مفكّري الشيعة بكبت الشعور والضغط، وكم الأفواه وتمويه الحقائق، ولكنّه (رضي الله عنه) لم يخضع لذلك الحكم الجائر فكان لايزال يجهر بالحق ويعلن بفضل عليّ عليه السلام، ويظهر تمسّكه بأبنائه الطاهرين عليهم السلام.

مؤلّفات مؤمن الطاق:

لا شكّ أنّ مؤمن الطاق كان من فرسان ميدان علم الكلام، ومن الأبطال الذين حملوا لواء التشيع ونصروه باللسان والقلم والمال والنفس، وتحمّلوا الأذى في جنب الله، وله مواقف في الدفاع عن أهل بيت رسول الله وعترته وآله الطاهرين (صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين) كما أنّه ألّف كتباً قيّمة في مختلف المواضيع، وقد ذكر منها الشيخ الطوسي وابن النديم له الكتب الآتية:

١ ـ كتاب الإمامة.

٢ ـ كتابة المعرفة.

٣ ـ كتاب الردّ على المعتزلة في إمامة المفضول.

٤ ـ كتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة.

٥ ـ كتاب إثبات الوصيّة.

٦ ـ كتاب افعل، لا تفعل.

وله كتاب المناظرة مع أبي حنيفة.

آراء ومناقشات حوله:

ومن هنا كانت تقوّلات ضد مؤمن الطاق من خصومه وخصوم آل محمّد صلى الله عليه وآله فقالوا: إنّه كان من المشبّهة، وتنسب إليه فرقة يقال لهم: شيطانيّة، من مذهبهم التشبيه، وإنّه كان يقول: إنّ الله تعالى إنّما يعلم الأشياء إذا قدرها والتقدير عنده الإرادة، والإرادة فعل، وأنّه كان يذهب إلى أنّ الإله على صورة الإنسان، ولا يسميه

جسماً، إلى غير ذلك من الإفك والافتراء والبهتان من التقولات التي نطق بها من لا يخاف الله، ولا يكون مذعناً بالبعث والحساب يوم القيامة ولا يبالي بالمؤاخذة يوم الجزاء، ولا يدري ما يقول...

إنّها لعمر الحق فرية، وتقوّل بالباطل، وليس بغريب اتهام مؤمن الطاق وأمثاله من المؤمنين الموحدين الذين آمنوا برسول الله وخاتم النبيّين محمّد صلى الله عليه وآله وعزّروه ونصروه واتّبعوا النور الذي أنزل معه[1] وتمسّكوا بعده صلى الله عليه وآله بالثقلين ـ كتاب الله وعترته أهل بيته ـ بما يخالف عقيدتهم المرضيّة عند الله، لأنّهم كانوا حرباً على ذوي الآراء الفاسدة، والعقائد الباطلة، فكانوا يُقيمون الدلائل على خصومهم أتباع بني أميّة وبني العباس، ويرغمونهم على الاعتراف بالخطأ.

إنّ تلك المناقشات كانت تدور في أندية الكوفة لغرض تشويش الأفكار والتلاعب بالعقول...

وكان مؤمن الطاق وساير خواص آل محمّد صلى الله عليه وآله قد بذلوا جهدهم في مقاومة أولئك الخصوم الذين كان مرامهم وغرضهم الفتك بالإسلام وأهله، فكان أهون شيء عليهم أن ينسبوا لأولئك الصفوة الأبرار ما يخالف عقائدهم الحقّة المرضيّة عند الله.

ويكفي في براءة مؤمن الطاق، وعلوّ منزلته وحسن عقيدته وصحّة عرفانه بالله سبحانه وتعالى ما ورد في مدحه والثناء عليه من أئمّة الهداة المهديّين عليهم السلام، وقد كان من أحبّ الناس إلى الإمام الصادق عليه السلام فقد صحّ عنه عليه السلام إنّه كان يقول: (أربعة أحبّ الناس إليَّ أحياءً وأمواتاً: يزيد بن معاوية العجلي، وزرارة بن أعين، ومحمّد بن مسلم، وأبو جعفر الأحول)[2].

فلا تضرّه تهجّمات أولئك القوم الذين ألقوا مقاليد أمورهم لأهوائهم النفسانيّة فاتهموه بما هو بريء منه براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام، ورموه بما لايليق بشأنه[3].

قال تعالى: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾[4].

٦ ـ هشام بن الحكم:

هشام بن الحكم الكندي، أبو محمّد البغدادي، كانت نشأته بالكوفة وواسط، وكان يدخل بغداد للتجارة، فاستقام بها بعد حين، ونزل قصر وضاح بالكرخ من مدينة السلام..

---

(١) اقتباس من سورة الأعراف: ١٥٧.

(٢) اختيار معرفة الرجال: ص١٣٥.

(٣) انظر ترجمته في: الاختيار: ص١٨٥ ـ ١٩١، والوسائل: ج٢٠ ص٣٣٧ رقم ١٠٨٨، النجاشي: ص٣٩٩ رقم ٦٧، والخلاصة: ص٦٧، والفهرست: ص١٥٧، ورجال الشيخ: ص٣٠٢ و ٣٥٩، وجامع الرواة: ج٢ ص١٥٨، وفهرست النديم: ص٢٢٤.

(٤) سورة النساء: ١١٢.

كان يتحول للتجارة وينتقل من بلد إلى آخر، وهو يرشد الناس ويدافع عن مذهب أهل البيت ﷺ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، ويناظر الزنادقة والملحدين ويفحمهم، فرجع كثيرون إلى التوحيد تسليماً لقوّة الحجّة وخضوعاً للحق، وهو من تلامذة الإمام الصادق ﷺ، ومن خواص الإمام الكاظم ﷺ.

نشأ هشام في الكوفة، وكانت جامعة الآراء وموطناً لاختلاف المذاهب التي استوطنتها، وقوى بها الكلام، وازدهرت أرجاؤها بحلقات العلم ورجال الفكر، فكانت هناك خصومات وجدل ونزاع بين أصحاب المذاهب المختلفة والآراء المتفرّقة والفرق المتعددة، وقد اتخذ كلّ فريق علم الكلام وسيلة للانتصار على خصمه، وذريعة لتأييد رأيه وتصحيح مذهبه.

وهشام بن الحكم كان من شخصيّات ذلك العصر، يمتاز بقوّة شخصيته التي جعلته مطمحاً لأنظار علماء عصره لتفوّقه ومهارته، وشدّة خصومته، وقوّة حجّته.

ويصفه ابن النديم بقوله: هشام بن الحكم من متكلمي الشيعة، ممّن فتق الكلام في الإمامة، هذّب المذهب والنظر، وكان حاذقاً بصناعة الكلام، حاضر الجواب، سُئل هشام عن معاوية: أشهد بدراً؟ قال: نعم، من ذلك الجانب[1]، أي من جانب المشركين.

ويقول الشهرستاني: هشام بن الحكم صاحب غور في الأصول، لا يجوز أن يغفل عن الزاماته على المعتزلة، فإنّ الرجل وراء ما يلزمه الخصم، ودون ما يظهره من التشبيه.

وقال الزركلي: هشام بن الحكم فقيه، متكلّم، مناظر، من أكابر الإماميّة... الخ.

ويقول الدكتور أحمد أمين المصري: أمّا هشام بن الحكم فيظهر أنّه أكبر شخصيّة شيعية في علم الكلام، وكان من تلاميذ جعفر الصادق ﷺ، وكان جدلاً قوي الحجّة، ناظر المعتزلة وناظروه، ونقلت في كتب الأدب له مناظرات كثيرة تدلّ على حضور بديهته وقوّة حجّته...[2].

صلته بالإمام الصادق ﷺ:

اتصل هشام بمدرسة الإمام الصادق ﷺ وأصبح من أبرز رجالها في الحكمة والكلام، والدراية والعرفان، والحديث، والفقه.

ويقال: إنّه كان قبل اتصاله بالإمام الصادق ﷺ في مدينة الإسلام والوحي ترك ذلك الرأي الجهمي، وقد اكتظ المجلس بوفود الأمصار وطلّاب العلوم، فرأى هشام هناك من هيبة الإمام الصادق ﷺ وروحانيّته،

---

(١) الفهرست: ص٢٢٣.

(٢) الإمام الصادق ﷺ والمذاهب الأربعة: ج٢ ص٨٠.

وسمع ما طرق سمعه من أجوبته لسائليه، وحسن بيانه وعذوبة ألفاظه وكلامه ما أفقده الاعتزاز بنفسه، وعرف عجزه من مقابلته في مسائله..

فألقى عليه السلام إلى هشام سؤالاً بما كان قد اختصّ به، فلم يستطع الجواب عنه، وعرف هناك الحق فاتبعه، والحق أحقّ أن يُتّبع.

فانقطع إلى الإمام الصادق عليه السلام فأصبح من خواصه، ومن أبرز رجال مدرسته وجامعته، فكان (رضوان الله عليه) من أشهر رجال العلم، ومن أبطال الحكمة والكلام، يمثل في مواقفه البطولة والجرأة الأدبيّة، كان يسير مع الحق أينما سارت ركائبه، وفاز بالتفوّق على مناوئيه بوضوح الحجّة، وساطع البرهان، وهذا من استجابة الله عزّ وجلّ دعاء الإمام الصادق عليه السلام بحقّه: «يا هشام لا زلت مؤيّداً بروح القدس»[1].

وقد خاف هارون العباسي من اتساع نشاط هشام رحمة الله عليه وتفوّقه على أكثر المفكّرين من رجال عصره، فحاول الفتك به والقضاء عليه، ولكن يحيى بن خالد البرمكي كان يدافع عن هشام، ويلطّف الجوّ... حتى تغير قلبه أيضاً على هشام لأسباب كانت هناك، فأعرض عن دفاعه، وجرى بحث الإمامة في مجلس البرمكي والرشيد ليسمع من وراء الستر، فاشتدت المناظرة، وكانت الغلبة لهشام، فغضب الرشيد وقال: إنّ لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف[2].

نعم، إنّ هشام كان شديد الإخلاص، قوي الإيمان، راسخ العقيدة، يدافع دائماً عن مذهب الحق ـ مذهب أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ـ وكان يتشدّد في مناقشاته للخلافات المذهبيّة، وتفنيد آراء المتكلّمين من سائر الفرق الإسلاميّة الذين تأثروا بانتقال الفلسفة اليونانيّة، وكان يخرج منتصراً في جميع مواقفه... وبذلك أصبح في خطر من قبل الدولة.. وقد عرف رحمة الله عليه بشدّة مناظرته ومحاورته في الإمامة، وانتصاره للعلويّين وهم خصوم الدولة وأهل الحق الشرعي.

عصر هشام رحمة الله عليه :

كان عصر هشام رحمة الله عليه من أزهر العصور في الكلام بجميع أصوله لكثرة الفرق، وجعل تلك الأصول الكلاميّة مبتنية على القواعد المنطقيّة، وكانت الرغبة ملحة في النظر والجدل، فكانت المجالس تعقد للمناظرة وتشدّ الرحال للمدارسة والاحتجاج ولاسيّما في الإمامة، لأنّها الأصل الذي يصح للخليفة ـ بالشكل المعهود ـ أن يستولي به على العباد والبلاد باسم الشريعة، ويصح له أن يكون الوليّ الذي تجب طاعته على الأمّة

---

(١) انظر: معالم العلماء لابن شهر آشوب: ص٨٦٢، وذكر تفصيله الخوئي في المعجم: ج١٩/ ص٢٧١ .

(٢) الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة: ج٢/ ص٨١.

الإسلاميّة شرعاً، أو يمنعه عن التصرّف في مقدّرات البلاد والقبض على رقاب العباد، ويأبى له من أن يكون الحجّة من الله إلى عباده.

فالملوك والسلطات الأمويّة والعبّاسيّة، وقفوا دون سيل الكلام في الإمامة لئلا يشيع وينتشر رأي الشيعة فيها وهو رأي حقّ منطقيّ يؤيّده الكتاب والسنّة والعقل والعرف، فألجموا الأفواه وحجّروا العقول، وسلبوا حرّية القول والرّأي والعقيدة، وساروا بالناس سيرة إرهاب وتهديد.

نعم، إنّ إثبات الإمامة في الأئمّة الاثنى عشر وإثبات الخلافة لهم هدم صريح لإمامة الأوائل ولعروش خلافة الأواخر.

ولقد كان هشام من مفاخر الأمّة الإسلاميّة، فقد جنّد نفسه لخدمة الحق والحقيقة، ونشر مبادىء الإسلام، وقد تصدّى للردّ على أعداء الدين، ورفع الغشاوة عن بعض العقول التي غشيها الشك والترديد وركبها الشطط وغلبها الغرور.

ولـمّا كان هشام رحمة الله عليه قد عرف بالتّفوّق والغلبة، وقوّة الحجّة، وسرعة الجواب و... نسبوه إلى ما لايليق بشأنه، ولا يتسق مع اعتقاده، لإنّ رأي العام في ذلك العهد كان من أنصار الخلافة الزّمنيّة، ولا تصغي العامة للحجج إذا خالفت الرّغبة فتوجّهوا إليه بتلك الطّعون الشائنة، والتي لاتمت بشيء من الحقيقة...

شيوخ هشام وتلامذته:

إنَّ هشام رحمة الله عليه أخذ علم الفقه والحديث والتفسير وغيرها عن الإمام الصادق ﷺ وكان ملازماً له منذ نشأته، وروى عنه أحاديث كثيرة في مختلف الأحكام.

وكان الإمام الصادق ﷺ يكرمه ويرفع من مقامه، وله أصل يرويه الشّيخ الطوسي رحمة الله عليه عن جماعة من الأصحاب.

ولـمّا ارتحل الإمام الصادق ﷺ إلى جوار ربّه، أصبح هشام من خواص الإمام موسى بن جعفر ﷺ وروى الحديث وأخذ عنه ﷺ علمًا جمّاً.

وأمّا تلامذة هشام فجمع كثير توجد رواياتهم عنه رحمة الله عليه في كتب الفقه والحديث، ومنهم:

النضر بن سدير الصيرفي الكوفي من تلامذة الإمام الكاظم ﷺ وكان من الثقاة المشهورين بالعدالة وصحّة الحديث[1].

ونشيط بن صالح العجلي الكوفي، عدّه الشيخ الطوسي رحمة الله عليه في رجاله من تلامذة الإمام الصادق

(١) انظر: أحسن التراجم: ج٢/ ص١٧٤، فقد ذكر ٣٢ مصدراً لترجمته.

والكاظم عليه السلام[1].

ويونس بن عبد الرحمن مولى آل يقطين، كان من أصحاب الكاظم، والرضا عليهما السلام، وله مؤلفات كثيرة، وكان ثقة عظيم المنزلة[2].

وغير هؤلاء ممّن لا مجال لذكرهم.

مؤلفات هشام رحمة الله عليه:

ولهشام رحمة الله عليه مؤلفات كثيرة منها:

١ ـ كتاب الإمامة.

٢ـ كتاب الدّلالات على حدوث الأشياء.

٣ ـ كتاب الرّدّ على الزّنادقة.

٤ ـ كتاب الرّد على أصحاب الاثنين.

٥ ـ كتاب الرّدّ على هشام الجواليقي.

٦ ـ كتاب الرّدّ على أصحاب الطبائع.

٧ ـ كتاب الشّيخ والغلام.

٨ ـ كتاب التّدبير.

٩ ـ كتاب الميزان.

١٠ ـ كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول.

١١ ـ كتاب اختلاف الناس في الإمامة.

١٢ ـ كتاب الوصيّة والردّ على مَن أنكرها.

١٣ ـ كتاب في الجبر والقدر.

١٤ ـ كتاب الحكمين.

١٥ ـ كتاب الرد على المعتزلة في طلحة والزبير.

١٦ ـ كتاب القدر.

---

(١) ترجمته في رجال الشيخ: ص٣٢، والنجاشي: ص٤٢٩ رقم ١١٥٣، وخلاصة الرجال: ص٨٦، وجامع الرواة: ج٢ ص٢٩٠.

(٢) ترجمته في النجاشي: ص٤٤٦ رقم ١٢٠٨، والكشي: ص٤٨٢ ح٩١٠ و...، الخلاصة: ص٨٩، والفهرست: ص٢١١، ورجال الشيخ: ص٣٦٤ و ٣٩٤، وجامع الرواة: ج٢ ص٣٠٦، والوسائل: ج٢٠/ ص٣٦٩، والفهرست للنديم: ص٢٧٦.

١٧ ـ كتاب الألفاظ[(١)].

أنموذج من مناظرات هشام

كان هشام بن الحكم يناظر أهل الكلام، ويردّ على الملاحدة والزنادقة، ويكاد المؤرّخون يجمعون على تفوّقه في المناظرة... وإليكم نماذج من مناظراته:

لا شريك لله تعالى

جاء إليه رجل ملحد فقال له: يا هشام أنا أقول بالاثنين وقد عرفت إنصافك ولست أخاف مشاغبتك.

فقام هشام ـ وهو مشغول بثوب ينشره ـ وقال: حفظك الله، هل يقدر أحدهما أن يخلق شيئاً لا يستعين بصاحبه عليه؟.

قال: نعم.

قال هشام: فما ترجو من اثنين؟ واحد خلق كلّ شيء أصح لك.

فقال الرجل: لم يكلمني أحد بهذا قبلك.

(١) الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة: ج٢/ ص٨٣.

شهر
ذي القعدة

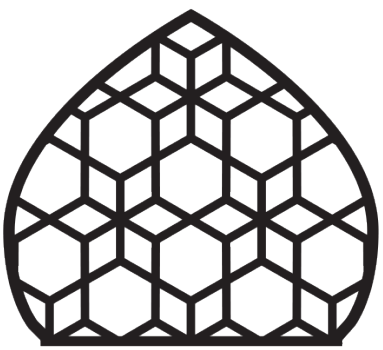

من حكم الإمام محمد الجواد عليه السلام

من حكم الإمام محمد الجواد عليه السلام

السيّد شبيب مهدي الخرسان

المقدّمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا ما بقي الليل والنهار، وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وعلى عليّ أمير المؤمنين، وعلى الحسن الزكي، والحسين الشهيد، وعلي السجاد، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلي الرضا، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن العسكري، والحجة المنتظر عليهم السلام.

أما بعدُ:

اختار الله تعالى أهل البيت الاثني عشر عليهم السلام؛ ليكونوا أئمّة وقادة للإنسانية؛ لما فيهم من خصائص مكّنتهم من ذلك، والإمام محمد الجواد عليه السلام من هذه العترة الطاهرة عليهم السلام، فهو الجواد في علمه وماله وأخلاقه، وفي مجالسه التي تنعقد بصورة مستمرة من قبله أو من قبل غيره فيدعونه فيكون بمنزلة قطب الرّحى فيها يجيب السائل، ويسكّتْ المهرّج الجاهل، ويدعو الناس إلى الطريق المستقيم، ويعلّمهم معالم الدين، ويردّ الشكوك والشبهات، ويفنّد الآراء الفاسدة وكلّ ما يُثار بدون وجه شرعي، فهو الإمام والقائد المفترض الطاعة في زمانه أرسى قواعد وأَسَّس مناهج في جميع نواحي الحياة، وفي كيفية الردّ على الغلاة والنّواصب، وتعريفهم للخاصّة والعامّة، يرجع إليها الطّالب، ويهتدي بها الضَّال.

ومن جملة كلماته وحكمه عليه السلام قوله: (من وثق بالله أراه السّرور ومَنْ توكّل عليه كفاه الأُمور، والثّقة بالله حِصْن لا يتحصَّن فيه إلّا مُؤمِن أمين، والتّوكّل على الله نَجاةٌ مِنْ كلّ سُوء وحِرْزٌ مِنْ كلّ عدو، والدّين عِزٌ، والعِلْمُ كَنْزٌ، والصَّمْتُ نُورٌ، وغاية الزّهد الوَرع، ولا هدم للدين مثل البدع، ولا أفسد للرجال مِن الطمع، وبالراعي تصلح الرعية، وبالدعاء تصرف البلية ومَنْ رَكَبَ مَرْكبَ الصّبر اهتدى إلى مضمار النّصر)[1]، وقسَّمنا هذا الدرس إلى ثلاثة مباحث:

وكل مبحث يحتوي على مطالب، فكان المبحث الأول: يحتوي على أربعة مطالب؛ والثاني على ثلاثة مطالب، والرابع على مطلبين، وشرحنا هذه المطالب بشكلٍ تفصيليّ وبيَّنَّا معنى مفرداتها، وعزّزناها بآيات

(١) كشف الغمة / ج : ٣ / ص : ١٣٨.

قرآنية وأحاديث صادرة عن النبي وأهل بيته صلّى الله عليهم أجمعين، وبحوادث تاريخية تكون شاهدًا عمليًا عمَّا نتحدّث عنه وأسوة يقتدى بها.

نبذة مختصرة

ولد الإمام محمد الجواد عليه السلام في التاسع عشر من رمضان المبارك سنة مائة وخمسة وتسعون للهجرة، وقيل في العاشر من رجب منها، وأمّه أم ولد يقال: لها سكينة المرسيّة، وقيل ريحانة وقيل الخيزران، وكانت من أهل مارية القبطية زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله أم إبراهيم، وأمّا كنيته فأبو جعفر بكنية جدّه الإمام الباقر عليه السلام، وألقابه: الجواد والقانع والمرتضى، وزوجته أم الفضل بنت المأمون، استشهد عليه السلام في بغداد في الخامس من ذي الحجة سنة مائة وعشرون للهجرة، ودفن عند قبر جدّه موسى بن جعفر عليهما السلام، فكان عمره الشريف خمس وعشرين سنة، فكانت مدّة خلافته وولايته سبع عشرة سنة، وكانت إمامته في أيّام المأمون، وقتل مسمومًا في أوائل خلافة المعتصم، وخلَّف من الولد اثنين: ابنه علي وهو الإمام بعده وموسى ومن البنات اثنتين أيضًا: فاطمة وإمامة.

قال الشاعر يزيد قدري في حقّ الإمام محمد الجواد عليه السلام:

على آلاء مولانا الجوادِ ... حماد حماد للمثنى حمادِ

علا بهما على السبع الشدادِ ... إمام هدىً له شرفٌ ومجدٌ

أقرّ به الموالي والمعادي ... إمام هدىً له شرفٌ ومجدٌ

عن الأَنواء في السنة الجمادِ ... تصوب يداه بالجدوى فتُغني

جرى في الجود منهلّ الغوادِ ... يبخل جود كفّيه إذا ما

عهدن أبرّ من سحّ العِهادِ ... فواضله وأنعمه غزار[1].

يتألف هذا الدرس من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: قول الإمام الجواد عليه السلام: (مَنْ وثق بالله أراه السّرور ومَنْ توكّل عليه كَفاه الأُمور والثّقة بالله حِصْنٌ لا يَتحصَّن فيه إلّا مُؤمن أمين والتّوكّل على الله نَجاةٌ مِنْ كلّ سُوء وحِرْز مِنْ كُلّ عَدُو).

يتألف هذا المبحث من أربعة مطالب:

---

(١) علي بن أبي الفتح الإربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ٣ / ١٦٤.

المطلب الأوّل: (من وثق بالله أراه السرور)

وَثَقَ[1]: وَثَقْتُ به أَثِقُ ثِقَةً: سكنت إليه واعتمدت عليه، وأوثقته شددته، والوَثاق والوِثاق اسمان لِما يُوثَق به الشيء، والوثقى تأنيث الأوثق . والميثاق عقد مؤكّد بيمين وعهد.

والسُّرُّ والسَّرَّاءُ والسُّرُورُ والمَسَرَّةُ، كُلُّه: الفَرَحُ ؛ الأَخيرة عن السيرافي . يقال: سُرِرْتُ برؤية فلان وسَرَّني لقاؤه وقد سَرَرْتُه أَسُرُّه أَي فَرَّحْتُه[2] .

الثّقة بالله وحسن الظّن به تعالى هو الّذي يُنجي من النار، (روي أنَّ عبدًا يُؤمَر به إلى النار، فيلتفت فيقول: يا ربّ، لم يكن هذا ظني بك، فيقول: ما كان ظنك بي ؟ قال: كان ظني بك أن تغفر لي خطيئتي، وتسكنني جنّتك، فيقول الله عز وجل: يا ملائكتي وعزّتي وجلالي وجودي وكرمي وارتفاعي في علوّي، ما ظنّ بي عبدي خيراً ساعة قط، ولو ظنّ بي ساعة خيراً ما روّعته بالنار، أجيزوا له كذبه وأدخلوه الجنة)[3].

وليشعر الإنسان نفسه بأنَّه مقصّر اتجاه ربّه مهما عمل وبلغ ما بلغ، فيخاف منه ولا يعتمد على عمله، فحسن الظّنّ بالله تعالى على قدر الخوف منه تعالى، ويرجو رحمة ربّه الّتي وسعت كلّ شيء ويضع عينه بعين الله الّتي ينظر بها إلى الجميع على حدٍّ سواء، عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال لأصحابه: (إن استطعتم أن يشتدّ خوفكم من الله، ويحسن ظنّكم به، فاجمعوا بينهما، فإنّما يكون حسن ظنّ العبد بربّه على قدر خوفه، فإنّ أحسن الناس بالله ظنًّا أشدّهم خوفاً، فدعوا الأماني منكم وجدّوا واجتهدوا، وأدّوا إلى الله حقّه، وإلى خلقه، فما (مع أحد) براءة من النار وليس لأحد على الله حجّة، ولا بين أحد وبين الله قرابة)[4] .

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزَّ وجلَّ ... فلا يتّكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي فإنَّهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم وأفنوا أعمارهم في عبادتي كانوا مقصّرين غير بالغين في عبادتهم كُنْه عبادتي فيما يطلبون عندي مِنْ كرامتي والنّعيم في جنّاتي ورفيع درجاتي العلى في جواري ولكن فبرحمتي فليثقوا وبفضلي فليفرحوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا، فإنَّ رحمتي عند ذلك تداركهم، ومني يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي، فإنَّي أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت)[5] .

مِنْ هنا ينبغي للمؤمن أنْ يعتمد على الله تعالى وتسكن نفسه إليه؛ لأنّه هو الخالق المبدع الّذي لا تفنى

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: ٥١٢.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ٤ / ٣٦١.

(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار: ٦٧ / ٣٨٩.

(٤) ميرزا حسين النوري، مستدرك الوسائل: ١١ / ٢٥٠.

(٥) الششيخ الكليني، الكافي: ٢ / ٦١.

خزائنه، فكلُّ ما يريده العبدُ موجودٌ عنده ومتمكّن منه بشرط أن يطيعه ولا يعصيه، بل من رحمة الله ورأفته حتَّى العاصين يعطيهم لحكمة هو يعلمها، والنبي ﷺ يبيّن فائدة في سكون النفس واطمئنان القلب، من خلالهما يمكن معرفة البِرّ والإثم إذا شُكَّ فيهما، فيكون معيار البِرّ حينئذٍ سكون النفس واطمئنان القلب ومعيار الإثم ما لم تسكن إليه النفس ولا يطمئن إليه القلب، قال النبي ﷺ: (البِرُّ ما سَكنت إليه النّفس، واطْمأنَّ إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النّفس، ولم يَطْمَئن إليه القلب، وإن أفتاك المفتون)[1]، والوثوق بالله تعالى له آثار ومِنْ آثاره الغنى حيث يقول رسول الله ﷺ قال: (مَنْ سرَّه أَنْ يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق مِنْه مِمَّا في يديه)[2]، ومِنْ آثاره القول المتقدّم للإمام الجواد عليه السلام حيث يقول إنَّ الوثوق بالله تعالى يدخل السّرور والفرح في قلب مَنْ وَثَق به. ولهذا على المؤمن أنْ يكون من أولياء الله وذلك من خلال تطبيقه لحديث النبي ﷺ حيث قال: (ثلاث خصال مِنْ صفة أولياء الله تعالى: (الثقة بالله في كلّ شيء، والغنى به عن كل شيء، والافتقار إليه في كلّ شيء)[3]، وكذلك يَثِق بما عند الله ويأس بما عند الناس، قال الإمام الباقر عليه السلام: (خير المال الثقة بالله واليأس مما في أيدي الناس)[4].

المطلب الثاني: (ومن توكّل عليه كفاه الأمور)

وَكَّلَ[5]: التّوكيل أَنْ تعتمِد على غَيْرك وتجعله نائبًا عَنْك، والوكيل فعيل بمعنى المفعول، قال تعالى: (وكفى بالله وكيلا) أي اكتف به أن يتولى أمرك ويتوكّل لك.

هذا معنى التّوكيل لغة، وأما معنى التوكيل شرعًا يبيّنه النبي محمد ﷺ بواسطة جبرائيل، عن أحمد بن أبي عبد الله، عن أبيه في حديث مرفوع إلى النبي ﷺقال: (جاء جبرئيل عليه السلام إلى النبي ﷺفقال: يا رسول الله إنَّ الله تبارك وتعالى أرسلني إليك بهديّة لم يعطها أحدًا قبلك، قال رسول الله ﷺ: قلت: وما هي ؟ قال: الصبر وأحسن منه ...، قلت: وما هو يا جبرئيل ؟ قال: إنّ مدرجة ذلك التّوكل على الله عزَّ وجلَّ، فقلت: وما التّوكّل على الله عزَّ وجلَّ ؟ فقال: العِلْمُ بأنَّ المخلوق لا يضر، ولا ينفع، ولا يعطي، ولا يمنع، واستعمال اليأس مِنَ الخلق، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله، ولم يرجَ، ولم يَخِفْ سوى الله ولم يطمع في أحد سوى الله فهذا هو التوكل)[6].

---

(١) محمد الريشهري، ميزان الحكمة: ٤ / ٣٥١١.

(٢) الفتال النيسابوري، روضة الواعظين: ٤٢٦.

(٣) أبي الفتح الكراجكي، كنز الفوائد: ٢٨٨.

(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة (آل البيت): ٩ / ٤٥١.

(٥) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: ٥٣١.

(٦) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار: ٢٦١.

قال الله تعالى: { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}[1]، عن علي بن سويد، عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: (سألته: عن قول الله عز وجل: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه"

فقال: التّوكّل على الله درجات منها أن تتوكّل على الله في أمورك كلّها، فما فعل بك كنت عنه راضيًا، تعلم أنّه لا يألوك خيرًا وفضلاً وتعلم أنّ الحكم في ذلك له، فتوكّل على الله بتفويض ذلك إليه وثق به فيها وفي غيرها)[2].

وعن معاوية بن وهب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (يا معاوية مَنْ أعطى ثلاثاً لم يحرم ثلاثا، مَنْ أعطى الدعاء أعطى الإجابة، ومَنْ أعطى الشكر أعطى الزيادة، ومَنْ أعطى التّوكل أعطى الكفاية، إنَّ الله عزّ وجلَّ يقول: "ومَنْ يتوكل على الله فهو حسبه، إنَّ الله بالغ أمره" ...)[3].

يبعث التّوكّل على الله في داخل الإنسان التقوى والقوّة، فيصير تقيًّا وقويًّا لو كاده ما في السموات والأرض لم يتمكّن مِنْهُ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (مَنْ أحبَّ أَنْ يكون أتقى الناس فليتوكل على الله)[4]، وقال أيضًا صلى الله عليه وآله: (من سرّه أنْ يكون أقوى الناس فليتوكّل على الله)[5]، وجاء في فقه الرضا[6] عليه السلام: (روي أنَّ الله عزَّ وجلَّ أوحى إلى داود عليه السلام: ما اعتصم بي عبد من عبادي، دون أحد من خلقي، عرفت ذلك مِنْ نِيَّته، ثمَّ، يكيده أهل السّماوات والأرض وما فيهنّ، إلّا جعلت له المخرج مِنْ بينهنّ، وما اعتصم عبد مِنْ عبيدي بأحد مِنْ خلقي دوني، عرفت ذلك مِنْ نِيَّته، إلّا قطعت أسباب السّماوات مِنْ يديه، وسخت الأرض مِنْ تحته، ولم أبالِ بأيّ واد هلك)، وجاء فيه أيضًا: (روي عن العالم عليه السلام أنَّه قال: يقول الله تبارك وتعالى: وعزّتي وجلالي، وارتفاعي في علوّي، لا يؤثر عبد هواي على هواه، إلّا جعلت غناه في قلبه، وهمّه في آخرته، وكففت عليه ضيعته، وضمنت السّماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء حاجته، وأتته الدنيا وهي راغمة . وعزّتي وجلالي، وارتفاعي في علوّ مكاني، لا يؤثر عبد هواه على هواي إلا قطعت رجاءه، ولم أرزقه منها إلّا ما قدرت له)[7] .

ينبغي أنْ يكون الإنسان في درجة مِنَ التّوكّل بحيث يرضى بما يأتيه مِنَ الله تعالى، ولا يخاف سِواه، وعَنْ أبي

---

(١) الطلاق: ٣.

(٢) الشيخ الكليني، الكافي: ٣/ ٦٥.

(٣) أحمد بن محمد بن خالد البرقي، المحاسن: ١ / ٣.

(٤) الشيخ الصدوق، الأمالي: ٣٨١.

(٥) الفتال النيسابوري، روضة الواعظين: ٤٢٦.

(٦) علي بن بابويه القمي: ٣٥٨.

(٧) علي بن بابويه، فقه الرضا عليه السلام: ٣٥٩.

عبد الله، عن أبيه، عن جدّه ﷺ قال: قال أمير المؤمنين ﷺ : (كُنْ لِما لا ترجو أرجى مِنْك لما ترجو، فإنَّ موسى بن عمران ﷺ خرج يقتبس لأهله نارًا فكلَّمه الله عزَّ وجلَّ ورجع نبيًا مرسلًا، وخرجت مَلِكة سبأ فأسلمت مع سليمان ﷺ، وخرجت سحرة فرعون يطلبون العزّ لفرعون فرجعوا مؤمنين)[1] .

فالإنسان الّذي يتوكّل على الله تعالى يسهّل له الأمور ويحرك الأشياء لصالحه، فيحصل عليها بما لا يجري على الخاطر وبدون نجوى ورجاء، بمعنى أنَّ الأمور تترتب وتتهيأ للمتوكّل من حيث لا يحتسب، فهذه قدرة الله الّتي سخّرها للمتوكلين عليه، و قهر بها الجبابرة والطواغيت، وأرغم بها أنوف الجاحدين والكافرين.

وهذا الشاعر يصوّر صدق التّوكّل على الله تعالى، فقال:

كم حازم ليس له مطمع * إلَّا من الله كما قد يجب

لأجل هذا قد غدا رزقه * جميعه من حيث لا يحتسب

قال لقمان ﷺ لابنه: يا بني، إنَّ الدنيا بحر عميق، وقد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان بالله، واجعل زادك فيها تقوى الله، واجعل شراعها التّوكّل على الله. فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك)[2] .

وللتوكّل آثارٌ منها: يزيل ما في النّفس والبدن من تأثيرات ويجعلها في سكينة واطمئنان، عن أبي عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (كفّارة الطيرة التوكّل)[3]، يعني أنَّ التوكّل على الله تعالى هو تفويض الأمور إليه كما تقدَّم، فيدفع الله تأثيرها في النّفس والبدن، وقال الإمام الصادق ﷺ: (إنَّ الله بعدله وقسطه جعل الرّوح والرَّاحة في اليقين والرِّضا وجعل الهمَّ والحزن في الشّك والسّخط)[4]. ومن آثاره اليقين، عن أبي عبد الله ﷺ قال: ليس شيء إلّا وله حدٌّ، قال: قلت: جعلت فداك فما حدُّ التّوكّل؟ قال: اليقين، قلت: فما حدّ اليقين؟ قال: ألّا تخاف مع الله شيئاً)[5]. عرَّف الإمام ﷺ التّوكّل باليقين واليقين من آثاره.

---

(١) الشيخ الكليني، الكافي: ٥ / ٨٤.

(٢) الشيخ الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية: ٤٩.

(٣) الشيخ الكليني، الكافي: ٨ / ١٨٩.

(٤) مولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي: ٨ / ١٨٧.

(٥) المصدر نفسه: ٨ / ١٨٦.

المطلب الثّالث: (والثّقةُ بالله حِصْنٌ لا يتحصّنُ فيه إلّا مؤمنٌ أمينٌ)

مَنْ يَثِقُ بالله ويَطْمئنُّ إليه ويسلّمُ له أمرَه يحصّنه ويحميه مِنْ كلّ آفة ودابة ومِنْ كلّ مَنْ يريد أنْ يضره أو يفتك به، ويسوّره بسوره المنيع الّذي لا يمكن خروقه أو عبوره، والثقة بالله سبحانه تحتاج إلى توفيق مِنَ الله تعالى وعمل مِنْ الشخص نفسه من تهيئة النّفس، والنّيّة الصّادقة، والتّقوى والورع عن معاصي الله تعالى، والعمل بما أوجب الله، وبها تنال المعالي وثمن لكلّ غالٍ، قال الإمام الجواد ﷺ: (الثّقة بالله ثمنُ لكلِّ غالٍ، وسُلّمٌ إلى كلّ عالٍ)[1]، وبها ينجي الإنسان نفسه، ويكفيه الله ممّن سواه، قال الإمام علي ﷺ: (يا أيّها الناس توكّلوا على الله وثقوا به، فإنّه يكفي ممن سواه)[2]، وقال الإمام الباقر ﷺ: (من هذا الذي سأل الله فلم يعطِه؟ أو توكّل عليه فلم يكفِه ؟ أو وثق به فلم ينجه ؟!)[3]، وقال لقمان – لابنه وهو يعظه –: (يا بني ثِقْ بالله عزَّ وجلَّ، ثمَّ سَلْ في الناس هل مِنْ أحَد وَثَق بالله فَلَمْ ينجِه ؟)[4]، وعن أبي جعفر ﷺ، قال: (وجدنا في كتاب علي بن أبي طالب ﷺ : أَنَّ رسول الله ﷺ قال وهو على منبره: (والله الذي لا إله إلا هو، ما أعطي مؤمن خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنّه بالله، ورجائه له، وحسن خلقه، والكف عن اغتياب المؤمنين، والله الذي لا إله إلّا هو، لا يعذب الله مؤمناً بعد الاستغفار والتوبة، إلّا بسوء ظنه بالله، وتقصير من رجائه الله، وسوء خلقه، واغتيابه المؤمنين، والله الذي لا إله إلا هو، لا يحسن ظنّ عبد مؤمن بالله، إلّا كان الله عند ظنّ عبده المؤمن، لأنَّ الله كريم بيده الخيرات، يستحيي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظّن والرّجاء، ثم يخلف ظنّه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه)[5] .

ثمَّ إنَّ للثّقة بالله لها آثار منها:

١ـ تقوي الأمل عند الإنسان، بل تصير أقوى أمل عنده، قال أمير المؤمنين ﷺ: (الثّقة بالله أقوى أمل)[6] .

٢ـ تنجي من الهلكة، قال الإمام الحسين ﷺ لإعرابي: (فما النّجاة من المهلكة ؟ فقال الأعرابي: الثّقة بالله)[7]، ثمَّ سكت الإمام ﷺ، فسكوته ﷺ هو إقرار منه بصحّة قول الإعرابي، أي الثّقة بالله تُنجي من الهلكة.

٣ـ تعدّ الثّقة بالله أفضل الأعمال، ولا يثق الإنسان بنفسه؛ لأنَّ الثقة بنفسه من أوثق فرص الشيطان، عن

---

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار: ٧٥ / ٣٦٤.

(٢) المصدر نفسه : ٧٥ / ٣٦٤.

(٣) المصدر نفسه: ٧٥ / ٣٦٤.

(٤) محمد الريشهري، ميزان الحكمة: ٤ / ٣٦٦٠.

(٥) الشيخ الكليني، الكافي: ٢/ ٧٢:.

(٦) علي بن محمد الليثي، عيون الحكم والمواعظ: ٤٠.

(٧) العلامة المجلسي بحار الأنوار، ٤٤ / ١٩٦.

الآمدي رفعه إلى أمير المؤمنين ﷺ أنّه قال: (الثّقة بالله أفضل عمل)[١].

وعنه ﷺ: (إياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها ... فإنَّ ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه)[٢].

٤ ـ مَنْ وثق بالله تعالى صان يقينه، عن أمير المؤمنين ﷺ: (مَنْ وَثق بالله صان يقينه)[٣].

٥ ـ الوثوق بالله تعالى يريح القلب، عن أمير المؤمنين ﷺ: (مَنْ وَثق بأنّ ما قدر الله له لن يفوته استراح قلبه)[٤]

المطلب الرابع: (والتّوكّلُ على الله نجاةٌ مِنْ كُلّ سُوء وحِرْزٌ مِنْ كُلّ عدو)

أمر الله تعالى المؤمنين بالتّوكل عليه، قال عزَّ وجلَّ: {إِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ }[٥] قال الشيخ الطوسي[٦]: (فالتّوكل على الله هو تفويض الأمر إليه للثقة بحسن تدبيره، وأصله الاتكال، وهو الاكتفاء في فعل ما يحتاج إليه.

بمن يسند إليه . ومِنْهُ الوكالة، لأنَّها عَقدٌ على الكفاية بالنيابة، والوكيل هو الْمُتّكِل عليه بتفويض الأمر إليه. وقوله: (إنَّ الله يُحِبُّ الْمُتوكلين) معناه يريد ثوابهم على توكّلهم وإسنادهم أمورهم إلى الله تعالى)، وقال الله تعالى على لسان موسى ﷺ: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِالله فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ}[٧]، جاء في تفسير هذه الآية في مجمع البيان[٨]: (أي: فاسندوا أموركم إليه إنْ كنتم مسلمين على الحقيقة، وإنَّما أعاد قوله (إنْ كنتم مسلمين) بعد قوله (إن كنتم آمنتم بالله) ليتبين المعنى باجتماع الصّفتين التّصديق والانقياد أي: إنْ كنتم آمنتم بالله فاستسلموا لأمره، وفائدة الآية بيان وجوب التّوكّل على الله عند نزول الشّدّة، والتسليم لأمره ثقة بحسن تدبيره، وانقطاعًا إليه)، وقال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ}[٩]، سأل الإمام الرضا ﷺ رجلاً عن قول الله: ("ومن يتوكّل على الله فهو حسبه" ؟ فقال ﷺ: التّوكّل درجات: منها أنْ تثق به في أمرك كله فيما فعل

---

(١) الشيخ هادي النجفي، موسوعة أحاديث أهل البيت ﷺ: ١٢ / ١٢٠.

(٢) نهج البلاغة: ٣ / ١٠٨.

(٣) علي بن محمد الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ: ٤٤٦.

(٤) المصدر نفسه:، ٤٣٨.

(٥) آل عمران: ١٥٩.

(٦) التبيان في تفسير القرآن: ٣ / ٣٢.

(٧) يونس: ٨٤.

(٨) الشيخ الطبرسي: ٥ / ٢١٧.

(٩) الطلاق: ٣.

بك، فما فعل بك كنت راضيًا وتعلم أنَّه لم يألك خيرًا ونظرًا . وتعلم أنَّ الحكم في ذلك له، فتتوكّل عليه بتفويض ذلك إليه . ومِنْ ذلك الإيمان بغيوب الله التي لم يحط علمك بها، فوكلت علمها إليه وإلى أمنائه عليها ووثقت به فيها وفي غيرها)[1] .

نفس التوكل فيه فوائد عظيمة يرتقي بها الإنسان إلى الكمالات وإلى الدرجات العالية ما لم يصل إليها غيره، ويقي من كثير من السّوء والأعداء وكيد الشياطين الّتي معها يجعل الفرد مرتاح البال؛ لأنَّه وصل إلى حالة اليقين التي يكون الفرد معها مرتاح الضمير، مطمئن القلب، وقوي الإرادة سكين الحال لا يخاف أحدًا ولا يغلب ولا يهزم، ويكون أتقى الناس، قال النبي محمد ﷺ: (من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكّل على الله)[2]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: (الثّقة بالله وحسن الظّنّ به حصن لا يتحصّن به إلاَّ كلّ مؤمن والتوكّل عليه نجاةٌ مِنْ كلّ سُوء وحِرْزٌ مِنْ كُلّ عَدُو)[3]، وسأل الحسن بن الجهم الإمام الرضا عليه السلام، فقال له: جعلت فداك ما حدّ التّوكّل؟ فقال لي: أنْ لا تخاف مع الله أحدًا)[4]، وقال رسول الله ﷺ: (مَنْ أحبَّ أَنْ يكون اتقى الناس فليتوكّل على الله)[5] .

وقال الإمام الباقر عليه السلام: (مَنْ توكّل على الله لا يُغلَب، ومَنْ اعتصم بالله لا يُهزَم)[6] .

وقال النّبي ﷺ: يقول الله عزَّ وجلَّ: ما مِنْ مَخلُوق يعتصم بمخلوقٍ دوني إلّا قَطعتَ أسبابَ السَّماوات والأرض مِنْ دونه فإنْ سألني لم اعْطِهِ، وإنْ دعاني لَمْ أَجِبْه وما مِنْ مَخلوق يَعتصِم بي دون خلقي إلّا ضَمِنت السَّماوات والأرض رزقه فإنْ سَألني أعطيته وإنْ دعاني أجبته، وإنْ استغفرني غفرت له)[7] .

كيف لا يتوكّل الإنسان على الله وهو القوي العزيز الجبار؟! بعد هذه العطايا والمزايا الّتي يحصل عليها المتوكّل، وهو بأمس الحاجة إليها في الدّنيا والآخرة، فمَنْ أراد أنْ يظفر بها حتَّى يحصل على نعيم الدّارين فليتلبَّس بالتّوكّل، فهو خصلة أرادها الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن، وهو أولى بها من غيره؛ ليكون عزيزًا كريمًا محترمًا فائزًا ناجحًا.

---

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ٤٤٣.

(٢) الفتال النيسابوري، روضة الواعظين: ٤٢٦.

(٣) ميرزا حسين النوري: مستدرك الوسائل: ١١ / ٢٥٠.

(٤) الشيخ الصدوق، الامالي: ٣١١.

(٥) الفتال النيسابوري، روضة الواعظين: ٤٢٥.

(٦) المصدر نفسه: ٤٢٥.

(٧) المصدر نفسه: ٤٢٥.

شهر
ذي الحجة

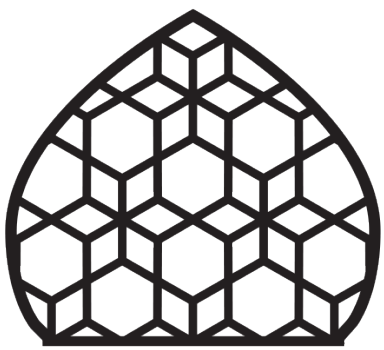

في ظِلالِ بيتِ فاطمة عليها السلام إضاءاتٌ تقويميّةٌ في المنهجِ الأسريّ

في ظِلالِ بيتِ فاطمة عليها السلام
إضاءاتٌ تقويميّةٌ في المنهجِ الأسريّ

د. زهراء نور الدين

المقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين أبي القاسم محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

أمّا بعد:

إنّ الانسان لا يفتأ محتاجًا قدوةً يقتدي بها، وعلمًا يأتّم به، ونورًا يستضيء عليه، وشجرة يستظل بمشتبك أغصانها ووارف ظلالها؛ ولا غرابة فهو المجبول على الاتباع والمستن بالاقتداء؛ فالعاقل من تخيّر لنفسه منهج العظماء والصالحين من قبله، ثمّ سار عليه واقتفى أثره. ولو تفحّصنا الأسر في التاريخ البشري فلن نجد خيرًا من أسرة سيّدة الزهراء، ولو فتّشنا البيوت فلن نتلمّس خيراً من بيت فاطمة؛ فهو مهبط الوحي ومختلف الملائكة، بيت النّبوّة والوحي، وأحكام رسالة السّماء، لا يعدوه بالتّقوى والفضل والرحمة وحسن السلوك بيت من البيوت.

ولِمَا تقدّم ذكرُه فقد عمدت إلى البحث في الملامح التّربوية لبيت فاطمة الزّهراء عليها السلام وبما يتّصل بسيرتها ومنهجها وسلوكها فيه، وللأسف فقد كانت جلّ مشاكل البحث هو قلّة الوثائق التاريخية في كتب المرويات التي تتناول سيرة الزهراء الأسريّة؛ فضلاً عن تكرار ذلك القليل من الأحاديث. إنّ أهمية السّيرة الأسرية للزهراء عليها السلام دفعتني إلى عمل استقراء شبه كامل لمتون كتب المرويّات وأمّهاتها أنقّب عن جواهر سيرتها الأسرية، وأبحث عن بصيص تربوي ورد عنها لم يُسلّط الضوء عليه في الكتب التي أُلِّفت عنها، وقد تطلّب ذلك جهدًا كبيرًا في البحث والاستقراء أثمر عن توثيق دقيق لتلك الرّوايات في أمّهات كتبها التي وردت فيها.

إنّ المرويّات الأسرية –إن صحّ التعبير– عن بيت فاطمة لمّا كانت نادرة وقليلة نسبة إلى عظيم منزلة الزهراء وعطائها الثّر؛ توجّب علينا أن نقف عليها جيّدًا، وأن نصيّرها معلقات تربوية تُخطّ بماء الذهب، وأن نتأمّل فيها ثمّ نستنطق دلالتها لنُخرجَ كنهها التّربوية الجمّة؛ فلا نمرّ على تلك المرويّات مرور الكرام، ينطقها اللسان ولا يتدبرها القلب ولا يعيها الفهم، ولقد ارتأيت في كتابة البحث أن أعرض له بحسب العناوين والإضاءات التربوية الآتية:

المرتكز المادّي في تشكيل الأسر

أكثر أسباب تأخّر الزواج شيوعاً في عالمنا المعاصر هو عدم التمكّن من توفير المتطلّبات المادّية له، إذ أضحى المال مرتكزا أساسيّا في إتمام الزواج لا يمكن للشباب من دونه أن يمارسوا حقهم في الاستقرار والارتباط السليم وتكوين الأسر.

وهذا كلّه مخالف لحال الزهراء عليها السلام في بساطة متطلّبات زواجها وقلّة مؤنته، إذ كان مهرها قيمة درعٍ حطمية لعليّ عليه السلام باعها ودفع ثمنها مهراً، وقد اختلفت الروايات في تحديد قيمته بين أربعمائة، وأربعمائة وثمانين، وخمسمائة درهم[1] ومهما كان مقدار المهر فهو بسيط جداً، لم يكفِ إلاَّ للقليل الشحيح من المتاع ابتاعوه لتكوين بيتهما، وهنا يوقفني استحضار الإشارات الآتية:

أوّلا: إنّ تقليل المهور واتباع السنة فيه لا بدّ من أن يُلقي بظلاله الطّيّبة على الزّوجين وأن يُحلَّ البركة فيهما وفي ذريّتهما فضلاً عن أنّه دليل حيٌّ على حسن إيمان الزّوجين والتزامهما بمبادئ الشّريعة السّمحة.

ثانياً: مكانة المرأة لا تقاس بمهرها؛ فالزّهراء سيّدة نساء العالمين وأفضلهنّ دينًا وعلمًا وخلقًا ومنزلة وحسبا، كان مهرها قليلاً حتّى عيّرها نساءُ قريش بخسّته، لذا لا يصحُّ اليوم أن نشترط في زيجات بناتنا تناسب مهورهنّ طرديًّا مع حسبهنّ وشرف عوائلهنّ أو جمالهنّ أو مستوى تعليمهنّ؛ فخير من هذا كلّه وأرفع منه قد كان في الزّهراء عليها السلام ولم يكن مهرها إلّا القليل.

ثالثاً: وفقًا للمراقبات المجتمعيّة كثيرًا ما يؤدّي علوّ المهر وكثرة متطلّبات العروس وأهلها إلى زراعة البغضاء بين الزّوجة وأهل زوجها الذين سيرون فيها امرأةً انتهازيّة تثقل كاهل ابنهم بما لا يطيق، وفتاةً جوفاء لا يشغلها إلَّا توافه الدّنيا وزبرجها، فيكون هذا بداية شرارة التوتر بين الطرفين؛ فتفتقد الفتاة محبّة أهلها الجدد واحترامهم، وقد يستتبع ذلك تدخّل أهل الزّوج في حياة العريسين سلبا لِمَا كان من إثارة ضغينتهم ابتداءً.

شظفُ العيش معراجُ المرأةِ

الزّواج لمَّا كان يستتبعه تكوين أسرة تشكّل الوحدة البنيويّة الرّئيسة في منظومة المجتمع؛ رغَّب الإسلام فيه وحثَّ عليه، ولمَّا كانت الشريعة الإسلاميّة السماويّة تصدّر عن مشرع حكيم خبير فقد جعلت للمتزوجين أجرًا عظيماً في إحسانهم وسعيهم إلى صون أسرهم، كما أنّها ضاعفت أجورهم في كثير من العبادات نسبة إلى أجر غير المتزوجين؛ لعلمها بديمومة انشغالهم في تنظيم أسرهم وبنائها، وتوفير احتياجاتها، حتّى أنّها –أي الشريعة السمحة– نفت أن يكون نبذ الزواج تبتّلا وعروجاً إلى الله تعالى، فعن عبد الصمد بن بشير قال: «دخلت امرأة

(١) ينظر: روضة الواعظين: ١٤٧، ١٤٨، وبحار الأنوار: ٤٣/ ١١٢.

على أبي عبد الله عليه السلام فقالت: أصلحك الله إنّي امرأة متبتّلة؛ فقال: وما التبتّل عندك؟ قالت: لا أتزوّج، قال: ولم؟ قالت: ألتمس بذلك الفضل، فقال: انصرفي فلو كان ذلك فضلاً لكانت فاطمة عليها السلام أحقّ به منك، إنّه ليس أحد يسبقها إلى الفضل»[1]، لذا فعلى المرأة أن تدرك تلك المكانة الرفيعة التي نالتها بالزواج وأن لا تتأسّى على حالها قبله، ولا يُداخلها الشيطان أنّها كانت أقرب إلى الله تعالى لتفرّغها وكثرة عبادتها آنذاك وأنّها فقدت شيئاً من مكانتها عند الله تعالى لانشغالها بأسرتها عن الانقطاع والتنفّل إليه.

وإذا كان إسهام الزوجة في بناء أسرتها وتربية أبنائها وتنظيم شؤونهم له أجر عظيم، فإنّ ذلك الأجر سيربو ويتضاعف إن كان مقروناً بشظف العيش وقلّة ذات اليد مع الصبر والاحتساب عند الله تعالى، بل سيكون منطلق العروج إليه والوصول إلى ساحة رضاه والاستئناس بلطفه وعنايته، ولولا أن كان هذا الطريق هو طريق ذات الشوكة من الجهاد بالنسبة إلى المرأة لمشقّته ووعورته، لولا ذلك لما اختاره الله تعالى لسيّدتنا ونبراسنا الزهراء عليها السلام.

لقد لاقت الحوراء الأنسية في بيت زوجيّتها أشدّ شظف العيش، وأمرّ صور الحياة، ولم يكن ذلك عائقاً لها أو مانعًا من العروج إلى ساحة الله تعالى، إذ تحمّلت الجوع مراراً وتكراراً لأيّام متتاليات لا يوجد في بيتها ما تسدّ به رمقها، وإن وُجِدَ تصدّقت به إلى مسكين ويتيم وأسير بحسب المشهور من سيرتها والثابت لدى المسلمين، وسأكتفي برواية واحدة هنا؛ طلباً للاختصار إذ نقل الشيخ الصدوق: «.. وأقبل عليّ بالحسن والحسين عليهما السلام نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وهما يرتعشان كالفراخ من شدّة الجوع، فلمّا بصر بهم النبيّ صلى الله عليه وآله قال: يا أبا الحسن، شدّ ما يسوءني ما أرى بكم، انطلق إلى ابنتي فاطمة، فانطلقوا إليها وهي في محرابها، قد لصق بطنها بظهرها من شدّة الجوع وغارت عيناها، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وآله ضمّها إليه وقال:

وا غوثاه بالله، أنتم منذ ثلاث فيما أرى! فهبط جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمّد، خذ ما هيّأ الله لك في أهل بيتك، قال: وما آخذ يا جبرئيل؟ قال: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}[2] حتّى إذا بلغ: {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا}[3]» [4]، إنّ ذلك الجوع الذي ضرب بيت الزهراء وتلك الصدقة والإيثار كان السبب في نزول سورة كاملة في فضلهما هي سورة الإنسان.

ولم يكن بيت الزهراء عليها السلام تتوافر فيه وسائل الراحة مطلقًا بل كان بسيطًا جدًا ليس فيه من مستلزمات الرّاحة

(١) الكافي: ٥/ ٥٠٩، وينظر: عوالي اللآلي: ٣/ ٣١١، وميزان الحكمة: ٢/ ١١٨٢.

(٢) الانسان:١.

(٣) الانسان: ٢٢.

(٤) الأمالي:٣٣٢، وينظر: روضة الواعظين: ١٦٣، والاحتجاج: ١/ ١٦٥.

الجسمانية شيء، حتّى أنّه «كان فراشهما إهاب كبش، يجعلان الصّوف إذا اضطجعا تحت جنوبهما»[1]!! وهنا دعوة للمرأة إلى إعادة النظر في التّكلّف في تأثيث المنزل وملئه بأفخم أنواع الأثاث ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، حتّى أنّ قسمًا مما يحشر في المنزل لا تحتاجه المرأة إلَّا نادرًا أو لا تحتاجه أصلاً فلا تحظى منه في الدنيا إلَّا عناء تنظيفه وما تحظى منه في الآخرة إلا الحساب، فالدّنيا في حلالها حساب وفي حرامها عقاب.

وكذا ملبس الزّهراء كان قديمًا متهرّئًا خلقا إذ أورد السيد ابن طاووس في حديث طويل: «...فلبست فاطمة شملة من صوف خلقانا، قد خيطت باثني عشر مكاناً من سعف النخل، فلما خرجت فاطمة ﷺ نظر إليها سلمان (رضي الله عنه) فوضّع يده على رأسه وهو ينادي: وا حزناه، إنّ قيصر وكسرى لفي السندس والحرير، وابنة محمّد عليها شملة من صوف قد خيطت باثني عشر مكاناً بسعف النخل»[2] !! ولم يكن ملبس الزّهراء هذا لينتقص من مكانتها شيئًا؛ إذ منزلة المرء تقاس بدينه وعلمه وخلقه، لذا سيّدتي الفاضلة لا تقيسي نفسك بمن أرادت أن تخلق لنفسها منزلة بكثرة ثيابها والتباهي بموضاتها وماركاتها وثمنها؛ فهذا نصيب من لا نصيب لها من شرف الخُلق والعلم والتقوى، أختيّة إنّ لكِ بدنا واحدًا فما حاجتك بعشرات الثّياب؟!، أختية حسبك الزهراء في هذا.

معونةُ المرأةِ زوجَها في الإنفاق

من خصوصيّة الأحكام الإسلامية أنّها فرضت نفقة الزوجة والأولاد على الزّوج، فلم يُلزم الإسلام المرأةَ الإنفاقَ على بيتها، ولم يفرض عليها العمل لإعالة أسرتها كما لم يحرم عليها ذلك في الوقت نفسه بل جعله مباحا لها، هذا على صعيد الأحكام.

ومن ثمّ تأتي الآداب والأخلاق الإسلاميّة المنسجمة مع طبيعة الفطرة الإنسانية السليمة لتحثّ المرأة على مساعدة زوجها في الإنفاق إذا ما تطلّب الأمر ذلك وإذا ما كانت متمكّنة منه، لقد روى الشيخ أبو جعفر محمّد الصدوق الآتي: «انطلق عليّ ﷺ إلى جار له من اليهود يقال له شمعون يعالج الصوف، فقال: هل لك أن تعطيني جزّة من صوف تغزلها لك ابنة محمّد بثلاثة أصوع من شعير؟ قال: نعم؛ فأعطاه، فجاء بالصوف والشعير، وأخبر فاطمة ﷺ فقبلت وأطاعت، ثمّ عمدت فغزلت...» [3] هذه سيّدة النساء على عظيم قدرها تعمد إلى العمل في بيتها أجيرةً تغزل الصوف مقابل ثلاثة أصوع من شعير!! تبغي بذلك عون أسرتها، على أنّ المتتبّع لسيرة الزهراء يُدرِك موجبات غناها فحسبها فدك وما كانت تدرّه من خيرات، ولكن لّما كانت الزهراء

---

(١) وسائل الشيعة: ٢١/ ٢٥١، وينظر: مكارم الأخلاق: ١٣١، ومسند الإمام الرضا:١/ ١٠٢.

(٢) الدروع الواقية: ٢٧٥، وينظر: بحار الأنوار: ٨/ ٣٠٣، وجامع أحاديث الشيعة: ١٦/ ٦٩٧.

(٣) الأمالي: ٣٢٩، ٣٣٠، وينظر: جامع أحاديث الشيعة: ١٧/ ٣٧٥.

ومثلها عليّ عليه السلام يصرفان مالهما كلّه في سبيل الله إلّا اللمم منه، احتاجًا بسبب ذلك أن تغزل الزهراء عليها السلام صوفًا لتسدّ بذلك جوعة أطفالها، على أنّ تتمّة الرواية تذكر أنّها بعد أن عجنت وخبزت أصوع الشعير الثلاثة جاء أهل السؤال واقفين على بابها فتصدّقت بأرغفة الشعير أيضًا!! .. الله يعلم حيث يجعل رسالته.

تحمّل أعباء المنزل يليق بالعظيمات

ممّا يتميّز به الإسلام هو تلك المكانة الرفيعة التي منحها المرأة والمنزلة السّامية التي خصّها بها، ولعلّ من أجلى الحقوق التي منحها الإسلام للمرأة إعفاؤها من أعمال المنزل وجعلها من واجبات الزوج، فليس للزوج أن يجبر زوجته على القيام بها وليس واجبًا على المرأة أداؤها.

ولّما كان الرجل يثقل عليه الجمع بين أعمال المنزل وبين عمله لتوفير احتياجات الأسرة المادّية، ولمّا كانت المرأة أدرى وألصق بثنايا بيتها من الرجل؛ شجّعت تعاليم الإسلام المرأة على مساعدة زوجها بأداء أعمال المنزل بعد إقرار وجوبها على الرجل، وجعلت قبال ذلك جزاءً عظيمًا لها، فعن أبي المفضل بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «سألت أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وآله: عن فضل النساء في خدمة أزواجهنّ، فقال صلى الله عليه وآله: ما من امرأة رفعت من بيت زوجها شيئا من موضع إلى موضع تريد به صلاحًا إلّا نظر الله إليها، ومن نظر الله إليه لم يعذّبه، فقالت أم سلمة (رضي الله عنها): زدني في النساء المساكين من الثواب بأبي أنت وأمي. فقال: يا أم سلمة، إنّ المرأة إذا حملت كان لها من الأجر كمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله (عزّ وجلّ)، فإذا وضعت قيل لها: قد غفر لك ذنبك فاستأنفي العمل، فإذا أرضعت فلها بكلّ رضعة تحرير رقبة من ولد إسماعيل»[1].

ومثل هذا الفضل لم يكن ليعدو الزهراء دون أن يكون لها السهم الأمضى منه، ويفوتها دون أن يكون لها النصيب الأكبر فيه، لذا صلة بهذا روي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال لرجل من بني سعد: «ألا أحدّثك عنّي وعن فاطمة الزهراء إنّها كانت عندي فاستقت بالقربة حتّى أثّر في صدرها، وطحنت بالرحى حتّى مجلت يداها، وكسحت البيت حتّى اغبرّت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتّى دكنت ثيابها؛ فأصابها من ذلك ضرّ شديد...»[2] لم يغرر الزهراء أنّها ابنة رسول الأمّة وزوجة وصيّه عن تأدية أعمال المنزل، وأنّها أعظم النساء شرفًا وحسبًا ودينًا، حين تتأمّل حياة الزهراء عليها السلام ستدرك جيّدًا أنّ: تحمّل أعباء المنزل يليق بالعظيمات!!.

---

(١) الأمالي: ٦١٨، وينظر: بحار الأنوار: ١٠٠/ ٢٥١، وجامع أحاديث الشيعة: ٢١/ ٣٨٨.

(٢) علل الشرائع: ٢/ ٢٦٦، وينظر: من لا يحضره الفقيه: ١/ ٣٢٠و٣٢١، ومكارم الأخلاق: ٢٨٠و٢٨١.

التحاكم إلى ذوي الخبرة ومشورتهم

كثيرا ما نتذّكر تصوّراتنا القديمة وما بنينا عليها من مواقف وقرارات وما نتج عنها من أفعال؛ فنتمنّى لو كنّا نملك عقل اليوم وخزين تجارب الحاضر لنصحّح شطط أفعالنا القديمة ونقوّم بعض أفكارنا وتصوّراتنا الماضية، وربّما يتمنّى بعضنا عودة عجلة الزّمان إلى الوراء ليصحّح ذلك كلّه أو حتّى بعضه ولاسيّما تلك القرارات التي ابتنى عليها مسيرُ حياتنا الحاضرة وتفاصيلُها، فما أقبح تلك القرارات والأفعال التي صدرت عن حداثة السنّ وقلّة التجربة وضعف الحكمة في مقتبل العمر.

إنّ حداثة التجربة وضعفها ليست بمثلبة في المرء وإنّما المثلبة تكمن في التعالي عن طلب المشورة ورفض النصيحة وروح التعالي التي كانت تعترينا، وتوهمنا جازمين بصحّة ما نعتقد به من أفكار وما نأتي به من أفعال.

ومن مآسي هذا العصر أنّ هناك ميل وتوجّه من الشباب المتزوّجين حديثًا إلى الانغلاق على أنفسهم ورفض نصيحة الأهل، تحت مسمّيات تربوية مغلوطة الفهم، نحو «خصوصيّة الأسرة» و «التصحيح الأسري الذاتيّ».

وهنا ينبغي التفريق بين إذاعة أسرار الأسرة وهتك خصوصيّتها من جهة، وطلب النصيحة والمشورة من جهة أخرى، فعلى الزوجين -ولاسيما المتزوجون حديثا- أن يُحسنا اختيار مَن يطلبون النصيحة والمشورة منه، وأن يتجنّبا في مشاكلهم واختلاف وجهات نظرهم إقحامَ المتطفّلين ومؤججي نار الفتن من الأرحام مهما كان توصيفهم الأسري قريبا فمثل هؤلاء ضرّهم أقرب من نفعهم.

ولنقتدي في ذلك بسيرة الزهراء وبعلها ﷺ، فعلى الرغم من أنّهما معصومان لا يفتقران ولا يحتاجان إلى النصيحة من غيرهما، نجدهما يتقاضيان عند أبيها رسول الله ﷺ ويطلبان حكمه في شأن جزئيات حياتهما فعن أبي عبد الله عن أبيه ﷺ قال: «تقاضى عليّ وفاطمة إلى رسول الله ﷺ في الخدمة، فقضى على فاطمة بخدمة ما دون الباب، وقضى على عليّ ما خلفه. قال: فقالت فاطمة: فلا يعلم ما داخلني من السرور إلا الله باكفائي رسول الله ﷺ تحمّل رقاب الرجال»[1] ومما لا شكّ فيه أن هذا لم يصدر عن خلاف بينهما ولا عن جهل بالحكم وإنّما استئناس بحكم رسول الله ﷺ المدرك لديهما مسبقًا والحاضر في علمهما، إذ هما يعطيان للأجيال درسًا في طلب المشورة من أهلها ثمّ تقبّلها والمسرّة بها.

الحنو على الزوج إكسيرُ المودّةِ

بعض النساء كالأطفال يرين الرجل قادرًا على أيّ شيء ومستعدًّا لتحمّل الصّعاب والمشقّات دائمًا، وأنّ العطف والحنو عليه ليس من الواجبات عليها لقوّة الرّجل وصلابته، والأمر خلاف ذلك، فعلى الرّغم من أنّ

(١) قرب الإسناد: ٥٢، وينظر: وسائل الشيعة: ٢٠/ ١٧٢، وبحار الأنوار: ٤٣/ ٨١.

الرّجل أقوى من المرأة وأقدر على نحوٍ عام في تحمّل المشقّات والصّعاب، وعلى الرغم من أنّ المرأة أحوج منه إلى ذلك بحسب طبيعة خلقتها النّاعمة، إلّا أنَّ الرجل يبقى عطشًا ومفتقرًا إلى العطف والحنو عليه، وإلى الكلمة الطّيبة التي تقدّر عمله وتبدي الأسى على تعبه وإجهاده المستمرَّينِ.

وعلى المرأة الفاضلة –وهذا ديدنها– أن لا تشقّ الحياة عل زوجها بكثرة طلباتها ومتطلّباتها مقتدية بنبراسنا الأسري فاطمة الزهراء عليها السلام التي كانت تؤثر زوجها على نفسها بل حتّى على بنيها عطفا وحنوا عليه واستحياءً من الله تعالى أن تكلّف زوجها ما لا يقدر عليه، إذ روي «عن أبي سعيد الخدري قال: أصبح علي عليه السلام ذات يوم، فقال لفاطمة عليها السلام: يا فاطمة هل عندك شيء[تغذينيه]، قالت: والذي أكرم أبي بالنبوّة ما أصبح اليوم عندي شيء أغذيكه، وما كان عندي شيء منذ يومين إلا ما كنت أوثرك به على نفسي وعلى هذين –تعني الحسن والحسين عليهما السلام–، قال: فهلا كنتِ ذكرتِ ذلك لي، فأبغيكم شيئا؟ قالت: إني لأستحي من الله أن أكلفك ما لا تقدر عليه، ولا تجده»[1]، إنّ الاقتداء بالزّهراء على هذا النحو من العطف على الزوج والحنو عليه وإيثاره على النفس ممّا لا شكّ أنّه يخلق مودّة كبيرة في قلب الزوج؛ فتضحى الزوجة أميرة في قلب زوجها لا يدانيها شيء، فالناس عبيد الإحسان، والتودّد إليهم نصف العقل.

بشاشةُ الوسطِ الأسريّ

مهما اعترت الحياة من صعوبات ومهما واجه الإنسان من تحدّيات ومهما لقي الزوجان من منغِّصات، فحري بالزّوجين أن لا يعكسا ذلك على بيتهما، وأن يخلقا سلامة الوسط ولين المحيط الذي ينشأ فيه أطفالهما، فالبيئة المنزليّة المتوتّرة المتشنّجة بيئة موبوءة تهدّد أمن الأطفال النفسيّ واستقراره الداخليّ وتظهر نتائجها مبكّرا في سلوكيات الطفل متمثّلة بعصبية الطفل الزّائدة وتعنيف من يصغره سنًّا وانطوائه أو فرط حركته أحيانًا.

إنّ من واجبات الزّوجين الحرص على التظارف وإشاعة روح البشاشة في البيت، فمن شأن ذلك زيادة التوادد بينهما وإضفاء روح السلام على بيتهما مقتدين بذلك ببيت فاطمة وعلي عليهما السلام، فعلى الرغم من قلّة الوثائق التأريخيّة التي تتناول خصوصيّات بيت الزهراء إلّا أنّي وقفت على الرواية الآتية التي تُظهر روح البشاشة والظرافة بينهما «عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: تماريا عليّ وفاطمة، أيّهما أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله؟!! فوافق ذلك أن خرج رسول الله صلى الله عليه وآله فجاء بجلت فأعطاه فاطمة عليها السلام، فضحك عليّ، فقال: ما أضحكك يا عليّ؟! قال: تمارينا أيّنا أحبّ إليك فقضيت لها عليّ، فقال نبيّ الله صلى الله عليه وآله: إنّي لأجد لها لطافة الولد، وأنت

(١) شرح الأخبار: ٢/ ٤٠١، وينظر: بحار الأنوار: ٣٧/ ١٠٣.

أحبّ إليّ منها.» [(١)]، وواضح من سياق الرواية وألفاظها أنّ مقام التماري –وهو الجدال– بينهما مقامُ التلطف والتوادد، وموضوع تماريهما هو طلب الفوز بمحبّة الأكمل والأقرب إلى الله أي النبيّ محمّدﷺ.

فاعليةُ الحجاب في تحقيق الاستقرار الأسريّ

يُعدّ حجاب المرأة من أجلى عوامل استقرار الأسرة؛ فعندما يرى الزوج أنّ زوجته قد التزمت بالحجاب الشرعيّ وحرصت عليه وعلى تفاصيله الدقيقة والتحفت العفّة رداءً وقورًا ستنساب الطمأنينة إلى نفسه، وينفذ الأمن الأسريّ إلى قلبه، ثمّ تعمُّ الثقة بينهما ولاسيّما وإن كان الرجل عفيفًا قد حفظ نفسه من مختلف صور الاختلاط الذميمة؛ فيكونا سويّة مثالاً للحشمة وتجسيدًا لمفهوم الحجاب الإسلاميّ الذي يتعدّى ستر الجسد إلى ضبط جميع ثنايا الاختلاط بين الجنسين بإطار متّزن.

إنّ تهتّك علاقات الوالدين مع الجنس المخالف تحت تسمية «الارتقاء الاجتماعيّ» وتحت مفهوم «متطلّبات العصر الحديث» قد أدّى إلى صدوع كبيرة لا يمكن رتقها في بعض الأسر غير المحافظة، بل قد أدّى إلى نهاية أسر أخرى بانفصال الأبوين وضياع الأبناء، ومما لا شكّ فيه أنّ هذا الفعل أشدّ خطورة على الأسرة حين يقع من الأم، بحسب الأعراف الاجتماعيّة السائدة التي قد تتغاضى عن الرجل ما لا تتغاضاه عن المرأة.

وحري بالمرأة أن تضع فاطمة الزهراء ﷺ مثالا يحتذى في حجابها وعفّتها وحشمتها ووقارها، إذ لم يكن حجاب الزهراء مفهوما مضافا إلى شخصها بل قد تأصّل وتجذّر في شخصها حتّى أضحى أصلا من أصول شخصيّة الزهراء، فما ذُكِرَت الزهراء إلّا وحضر مفهوم الحجاب والستر الإسلاميّ، ولا غرابة في ذلك فهي تلك المرأة التي لم تشغلها أهوال المطلع –وهي العالمة بشدّة تلك الأهوال وعظيم مشهدها– عن سترها وحيائها، حتّى تذكر الروايات أنّه « دخل رسول الله ﷺ ذات يوم على فاطمة وهي حزينة فقال لها: ما حزنك يا بنية؟ قالت : يا أبة ذكرت المحشر ووقوف الناس عراة يوم القيامة، فقال: ... يبعث الله إليك جبرئيل في سبعين ألف ملك فيضرب على قبرك سبع قباب من نور، ثم يأتيك إسرافيل بثلاث حلل من نور فيقف عند رأسك فيناديك: يا فاطمة بنت محمّد قومي إلى محشرك؛ فتقومين آمنة روعتك، ... فيناولك إسرافيل الحلل فتلبسينها»[(٢)] إنّ هذه الرواية تبيّن شدّة تشبّث الزهراء بسترها وعظيم حيائها حين لم يشغلها هول المطلع عنهما.

وما أشدّ التفاتها الى سترها حين تستقبح أن تُحمل جنازتها على سريرٍ وقد أبدى كفنُها بعضا من تفاصيل بدنها؛ فتعزو إلى أسماء بنت عميس أن تصنع لها نعشا يوضع على سرير الجنازة يزيد في ستر بدنها عند حملها

---

(١) الأصول الستة عشر: ٢٩.

(٢) بحار الأنوار: ٨/ ٥٣، وموسوعة أحاديث أهل البيت: ٢/ ٤٤٤.

إلى قبرها، وذلك بعد أن وصفت أسماء النعش لها بحسب الرواية المعروفة[1] إنّ حادثة النعش هذه تكشف عن مسألتين، الأولى: ضرورة التفات المرأة المسلمة إلى تفاصيل حجابها في جميع الأحوال وعدم عذر المرأة في التسامح فيه في بعض المحافل على نحو ما نرى من بعض النسوة في مجالس الفرح والأعراس فضلا عن حال المصيبة التي قد تُذهِلُ طائفة من النساء عن حجابهن. الثانية: ضرورة أن يكون حجاب المرأة وملبسها فضفاضا غير مبدٍ لتقاسيم الجسد، فإذا لم ترتضِ الزهراء تجسّد البدن بعد الموت فقطعا أنّها أشدّ رفضا له حال الحياة.

ومهما كان حجاب المرأة مستوفيًا للشروط الشرعيّة فلن يغني عن ضرورة تجنّب الإسفاف في مخالطة الرجال، وفي هذا الموضوع نستحضر تلك المقولة المنسوبة إلى الزهراء والتي جاء في روايتها: «عن عليّ عليه السلام أنّه قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله: أيّ شيء خير للمرأة؟ فلم يجبه أحد منّا، فذكرت ذلك لفاطمة عليها السلام فقالت: ما من شيء خير للمرأة من أن لا ترى رجلاً ولا يراها، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله فقال: صدقت، إنّها بضعة منّي»[2]، وقد يُشكَلُ على الرواية أنّ بعض الموارد تستلزم رؤية الرجال نحو حجّ بيت الله الحرام فضلا عن أنّ سيرة الزهراء تدلّ على أنّها كانت ترى رجالا من غير محارمها –وسيأتي بيان ذلك– فأجيب على ذلك: هذا صحيح والرواية لم تُحرّم رؤيةَ المرأةِ الرجالَ أو العكس، وإنّما الرواية أقرّت أصلا مفاده أنّ «عدم الاختلاط خير من الاختلاط بين الجنسين» وهذا ممّا لا شكّ فيه لدينا.

بعد هذه الروايات المبيّنة عظيم عناية الزهراء بحجابها سندرك مغزى الرواية الآتية: « إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: يا معشر الخلائق غضّوا أبصاركم ونكّسوا رؤوسكم حتّى تمرّ فاطمة بنت محمّد، فتكون أول من يُكسَى..» [3] فما الآخرة إلاّ تمثّلات لأفعالنا وأحوالنا في الدنيا، ولمّا كانت الزهراء على ذلك النحو من الحفاظ على حجابها وسترها في الدنيا فحري بجزائها أن يكون على هذا النحو المتمثِّل بغضّ الخلائق بصرهم احتراما لسترها، ولتتيقّن المؤمنات الحافظات لسترهن أنّ الله سيجزي منهجهن المتحفّظ بما يبدي رفعتهن في الآخرة بين الخلائق، فلا تلتفتي أختيّتي المؤمنة إلى استصغار المتهتّكات اليوم بحجابك وطريقة ملبسك؛ فالعاقبة للمتّقين.

أثرُ علم الأم في بناء الأسرة ونشأة الأبناء

ممّا لا شكّ فيه أنّ علم الأم وتعلّمها له الأثر البالغ في صلاح حال الأسرة ونشأة الأبناء؛ لأنّ الأم الجاهلة تهدم وتُسيء من حيث تحسب أنّها تبني وتُحسن، ثمّ إنّ العلم الذي يكون سبباً في صلاح الأسرة وصلاح الفرد لا تلازم حتميّ بينه وبين الشهادة الأكاديميّة العالية بل ربّما نجد العكس في بعض الأسر التي

(١) ينظر : دعائم الإسلام: ١/ ٢٣٢، ٢٣٣، ووسائل الشيعة: ٣/ ٢٢٠، ٢٢١.

(٢) دعائم الإسلام: ٢/ ٢١٥، وينظر: جامع أحاديث الشيعة: ٢٠/ ٢٦٤.

(٣) دلائل الإمامة: ١٥٣، وينظر: بحار الأنوار: ٢٤/ ٢٧٤.

تنصرف الأم فيها إلى التعلّم انصرافًا كاملاً يبعدها عن رعاية الأبناء وتعاهد تربيتهم ومتابعة أحوالهم فيكون تعلّم الأم وبالاً على الأسرة، إنّ علامة العلم حسنُ بناء شخصيّة حامله، يقول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «خير العلوم ما أصلحك»[1].

إنّ العلم الحقيقيّ للمرأة هو ذلك العلم الذي يملؤها تواضعاً واتّزانًا لا تكبّرًا وتشدّقًا بالقول على عادة أنصاف المتعلّمات والمتعلّمين، وهو العلم الذي يصرف المرأة إلى الإيثار ونقل علومها لأبنائها ثمّ قرن علومهم بحسن التربية والأخلاق، لا العلم الذي يحملها على إهمال بيتها وأسرتها، وهو العلم الذي يزيدها من خالقها قربا لا العلم الذي يزيدها عن الدين بعدا.

وهنا قد يُطرح السؤال الآتي: كيف للمرأة أن تتعلّم وأن تكون في الوقت نفسه أمّا صالحة ملتفتة إلى شؤون أسرتها؟ والإجابة هي الآتي: إنّ طريق العلم طريق صعب ولكنه حلوٌ عذب؛ فمن أرادت أن تحظى علما فعليها أن تجد وتجتهد وتبذل مزيدا من الجهد؛ لتوازن بين متطلّبات تعلّمها وبين تربية أبنائها وتنظيم أسرتها، ثمّ لتضع تربية الأبناء وصلاح أسرتها مقدّما على طلب علمها فلا نفع في علمها إن أدّى إلى ضياع الأسرة وانحراف الأبناء.

على أنّ المرأة لا يصرفها شيء عن العلم إلّا إرادتها وعزيمتها وضعف همّتها، فأكبر الأسر تتمكن سيّدتها من إيجاد ثلاث ساعات يوميا -في الحد الأدنى- لتبذلها في طلب العلم، إنّ ضياع الساعات أمام التلفاز أو الأنترنيت أو الثرثرة الجوفاء أو التبضّع والتجوّل في الأسواق العصريّة (المولات) والحدائق العامّة أضحت سمة العصر... من أرادت العلم وصلاح أسرتها عليها الابتعاد عن الهامشيّات والثانويّات الذميمة التي تستهلك الوقت.

وتُخطئ من تحسب وتظنّ أنّ العلم كماليّ لا أساسيّ في بناء الأسرة؛ فالزوج والزوجة إنْ اتّصف كلاهما بالعلم الحقيقيّ استقرّ حال أسرتهما وقلّت الاختلافات والخلافات بينهما وسادت روح التفاهم وما تستتبعه من وئام لديهما، وخير مثال على ذلك سيّدتنا فاطمة الزهراء وبعلها أمير المؤمنين عليه السلام، إذ روى الشيخ الصدوق بسند متّصل بيحيى بن سعيد القطان أنّه قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في قوله عزّ وجلّ: {مَرَجَ البَحرَينِ يَلتَقِيانِ(١٩) بَينَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(٢٠)}[2]، قال: عليّ وفاطمة عليهما السلام بحران من العلم عميقان، لا يبغي أحدهما على صاحبه»[3]، فهما بحران واسعان من العلم لا يظلم أحدهما الآخر ولا يبغي على صاحبه، ويقول الإمام

(١) غرر الحكم: ٤٩٦٢.

(٢) الرحمن: ١٩، ٢٠.

(٣) الخصال: ٦٥، وينظر: روضة الواعظين: ١٤٨.

الباقر عليه السلام في معرض حديثه عن معاني اسم (فاطمة): «والله لقد فطمها الله بالعلم وعن الطمث في الميثاق»[1].

إنّ المتتبّع حياة الزهراء عليها السلام يجد آثار العلم واضحة، وما (مصحف فاطمة) إلّا دليل على سعة علومها وعظيم معارفها التي أخذتها عن بيت الوحيّ والنبوّة، ففيه تفاصيل كثير من الأمور «حتّى أنّ فيه الجلدة ونصف الجلدة وثلث الجلدة وربع الجلدة وأرش الخدش»[2] ولولا الظالمون لتمكّنت البشرية من الانتفاع بعلوم الزهراء المبثوثة في مصحفها.

وأجد أنّ مصحف مولاتنا فضلا عمّا فيه من علوم جمّة، فيه (رمزيّة الكتابة والكتاب) فالسيّدة الزهراء عليها السلام في نفسها لم تحتج إلى توثيق علومها بمصحف؛ فهي المعصومة التي لا يطرأ عليها النسيان لتفتقر إلى التوثيق الكتابي، ولكنها بأبي وأمي أرادت أن تورّث علومها لبنيها لينتفعوا مما علمها الله فيه ويعلّموا غيرهم، وهذه قضيّة مهمّة كنت قد أشرت إليها ضمنا أوّل حديثي، ألا وهي (توريث العلوم) وحرص الأم على نقل علومها إلى أبنائها.

ويرتبط بعلم الزهراء وتعلّمها ما ورد «عن أبي عبد الله عليه السلام قال : جاءت فاطمة عليها السلام تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بعض أمرها فأعطاها صلى الله عليه وآله كريسة، وقال: تعلّمي ما فيها..»[3] ويبدو من سياق الرواية أنّ الزهراء عليها السلام كانت تجيد القراءة والكتابة فيدفع لها النبيّ كريسة صغيرة ثمّ يأمرها أن تتعلّم ما فيها من حديثه فلو لم تجد القراءة للقّنها الحديث شفاها، إنّ قضية إجادة الزهراء الكتابة في ذلك العصر مسألة مهمّة جدّا، فنظام الكتابة العربيّة آنذاك كان بالغ الصعوبة لخلوّه من النقط إذ كانت أغلب الكلمات المختلفة تكتب على نحو متشابه، نحو: بنت، نبت، تُبتُ، يَبُتُّ، بيت.. الخ كلّها تكتب بصور واحدة لخلو النظام الكتابي من النقط، وهذا ما يفسّر أمّيّة العرب آنذاك وندرة من يجيد القراءة والكتابة منهم؛ ففهم النصّ مرهون بفطنة القارئ وحذاقته في معرفة الكلمة من سياق النصّ الذي وردت فيه.

تعبُّدُ الأم في المنزل وإضاءاته لدى الأولاد

حين أوصت الشريعة الإسلاميّة بترك الأولاد في السنين السبعة الأولى من أعمارهم[4] كانت إحدى أهم الحكم والأسباب وراء ذلك، أنّ الأطفال يكتسبون معارفهم الأولى وعاداتهم وأنماط سلوكهم في سنوات عمرهم المبكرة بوساطة التقليد والمحاكاة للمحيطين بهم، أمّا النصح والإرشاد فضلاً عن أشكال الثواب

(١) الكافي: ١/ ٤٦٠، وينظر: مرآة العقول: ٥/ ٣٤٤.

(٢) بصائر الدرجات: ١٧٠، ١٧١، وينظر: الكافي: ١/ ٢٤٠.

(٣) الكافي: ٢/ ٦٦٧، وينظر: وسائل الشيعة: ١٢/ ١٢٦.

(٤) وتأديبهم في السبعة الثانية ومصاحبتهم في السبعة الثالثة.

والعقاب التربوي؛ فأغلبه لا يناسب إدراكاتهم الأولى.

لذا فأفعال الأم وطبيعة تعاملها معهم ومع المحيطين وسلوكياتها المختلفة الأخلاقية والتنظيمية والإدارية والقولية وغيرهنّ كلّها تترك أثرًا بالغًا في نشأة الطفل، ونحن نخصّ الأم بالذّكر لأنّها أقرب المحيطين إليه وأكثرهم قضاءً للوقت معه وأشدّهم احتكاكًا به، فكان ما تتركه فيه من أثر أكبر من غيرها بلحاظ ذلك.

إنّ عبادة الأم في منزلها ولاسيّما الصلاة والدعاء والمناجاة يترك أثرًا بالغًا في نشأة الطفل، ولاسيّما إن كان ذلك مقرونًا بالمحافظة على العبادات وأوقاتها متّصفًا بحسن الأداء والخشية والرهبة والرغبة حال القيام به، إذ كلّ هذه المطالب يظهر أثرها على الأم عند الممارسة العباديّة، ولمّا كان الطفل شديد الملاحظة والالتقاط والفضول وإن لم يبدُ عليه ذلك أحيانًا؛ فستترك جميع تلك الأمور أثرها فيه وفي حَبْكِ تفاصيل شخصيّته.

إنّ فاطمة الزهراء عليها السلام «كانت إذا قامت في محرابها زهر نورها لأهل السماء كما تزهر نور الكواكب لأهل الأرض»[1] ولا شكّ أنّ من تزهر لأهل السماء فحري بها أن تزهر لأهل بيتها ولبنيها؛ فيصيبهم نور تعبّدها وإشراقة مقامها وبركة وجودها.

وقد يحرمنا الشيطان نعمة الانتفاع بهذا المطلب حين يرمي في قلوبنا مقولة: أين أنا من مقام الزهراء عليها السلام؟!! وأنّى لي أن أزهر على أهل السماء؟! هذا مقام لا يناله إلا المقربون؛ فأجيب: إنّ مقام الزهراء لن نتمكّن من أن نناله أبدًا ولم تنله غيرها قط، ولكن الاقتداء بها قائم بل مفروض علينا، وإنّ المؤمنين والمؤمنات الحقيقيين يزهرون لأهل السماء أيضا، كلّ يزهر بحسب مقامه، ولا شكّ أنّ نور الزهراء لا يدانيه نورُ من هو دونها، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ المؤمن ليزهر نوره لأهل السماء كما تزهر نجوم السماء لأهل الأرض»[2].

حين اضطلعت بالتفكير في أثر عبادة الأم على الأطفال استحضرت في ذهني رواية قيام الزهراء ليلها بالعبادة ودعائها لجيرانها، وقلت في نفسي لا شكّ أنّ ذلك كان يترك أثرًا في نفوس أطفالها، ثمّ حين أردت توثيق الرواية في كتب الحديث وجدت أنّ من يرويها ابنها الحسين عن الحسن عنها عليهما السلام فتبسّمت لذلك، فكون الرواية قد انتهت سندا إلى ابنيها عليهما السلام ولم يروها زوجها أو أبوها أو زوجات أبيها أو جاريتها ممن كانوا مطّلعين على حال الزهراء؛ يعضّد هذا المطلب ويؤكّده، ولا بأس أن أورد الرواية مسندة، روى الشيخ الصدوق قائلا: «حدّثنا عليّ بن محمّد بن الحسن القزويني المعروف بابن مقبرة قال: حدّثنا محمّد بن عبد الله الحضرمي قال: حدثنا جندل بن والق قال: حدّثنا محمّد بن عمر المازني عن عبادة الكليبي عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن عليّ بن الحسين عن فاطمة الصغرى، عن الحسين بن عليّ، عن أخيه الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: رأيت

(١) علل الشرائع: ١/ ١٨١، وينظر: الأمالي: ١٧٥، ومعاني الأخبار: ٦٤.

(٢) المؤمن: ٢٩، وينظر: الكافي: ٢/ ١٧١، وبحار الأنوار: ٦٤/ ٦٤.

أمي فاطمة ﷺ قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة ساجدة حتّى اتّضح عمود الصبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أمّاه لم لا تدعون لنفسك كما تدعون لغيرك؟ فقالت يا بني: الجار ثمّ الدار»[1]، والدروس التربويّة في الرّواية لا تقم على حدّ التعبّد وقيام الليل كلّه بل تتعدّى ذلك إلى سماحة النّفس وإيثار الآخرين وتقديمهم على النفس ومحبّة الخير لهم، وحين ينشأ الطّفل محاطًا بمثل هذا التعبّد والتهجّد والمحبّة والإيثار لا شكّ أن يكون عظيمًا من العظماء في قلبه وفعله.

السعي إلى الارتقاء بمكانة الطفل المستقبلية

لاشكّ في أنّ العظماء والناجحين كانوا أبناء نساء فاضلات جهدن في تربية أبنائهنَّ، ولاسيما في السنوات المبكرة من العمر حين تتجذّر اللبنات الأولى في شخصيّة الإنسان وتظهر الخطوط العامة من طباعه وميوله، إنّ حذاقة الأم وجهدها في التربية قد يحوّلان طفلها من طفل فاشل إلى شخص عالم مبتكر، فأديسون كان قد أخرجه معلموه من المدرسة الابتدائية وأرسلوا برسالة إلى أمّه يخبرونها أنّ ابنها لا يستطيع أن يواكب مستوى تعليم زملائه لضعف قدراته العقلية، ولكن أمه كانت سيدة ذكية مثابرة حريصة عليه، فأخبرته أن الرسالة تقول إنّهم قد أخرجوه من المدرسة لشدّة ذكائه الذي لا يناسبه مستوى التعليم في المدرسة!! ثمّ أخذت على عاتقها تعليمه مفردات منهج أقرانه في المدرسة، فأضحى بعد حين عالمًا يشار إليه بالبنان، ولم يكتشف أمر الرسالة إلا بعد وفاة أمّه حين وجدها في درج قديم لوالدته!!.

حري بالمرأة أن تحرص من السنوات الأولى على مكانة ابنها التي سيحصدها بعد عقدين من الزمان أو أكثر، وأن لا تكتفي بالتمنّي في استحصال ابنها على المراكز المرموقة اجتماعيًّا وسلوكيًّا ووظيفيًّا وغيرهنَّ، بل أن تتخذ الخطوات الأولى اللازمة لذلك، والتي قد تتمثّل بمتابعة مذاكرته وإعطائه دروسًا جانبيّة في العلوم الدينيّة التي يحتاجها وتعليمه لغة ثانية تنفعه وشجّه في الدورات التنمويّة القريبة من منزله وغيرهنَّ من المهارات والعلوم النافعة، فضلا عن الاهتمام بالجانب الخُلقي له والذي من دونه لن ينفعه التمتّع بعلوم الدنيا كلّها.

انظروا إلى السيدة فاطمة ﷺ فعلى الرغم من أنّ ابنيها معصومان، وهي تعلم الفيوضات الإلهية على مقام من اتّسم بتلك المنزلة نراها تحرص وتسعى إلى أن يتّصف أبناؤها بصفات خير البشر أبيها محمّد ﷺ، لقد جاء في الروايات: «أنّ فاطمة أتت بابنيها الحسن والحسين إلى رسول الله ﷺ قالت: هذان ابناك فورّثهما شيئا، قال: أمّا الحسن فإنّ له هيبتي وسؤددي، وأمّا الحسين فإنّ له جرئتي وجودي»[2]، وهنا أسلّط الضوء على حقيقتين:

---

(١) علل الشرائع: ١/ ١٨٢، وينظر: وسائل الشيعة: ٧/ ١١٣، ودلائل الإمامة: ١٥٢.

(٢) روضة الواعظين:١٥٦، وينظر: مناقب آل أبي طالب: ٣/ ١٦٥، وبحار الأنوار: ٤٣/ ٢٦٣.

الأولى- إنّ فاطمة عليها السلام لم تأتِ إلى النبيّ تطلُب ميراثا ماليّا لابنيها، فمن الجليّ لها وهي سليلة بيت الوحيّ والأحكام أنَّ الأحفاد لا يرثون من جدّهم شيئًا طالما هناك أحد أولاد المورّث حيّ حال موت المورِّث، فلن يرثا شيئًا طالما أن الزهراء كانت حيّة حال وفاة النبيّ، ولكنها بأبي وأمي جاءت تطلب صفات النبيّ وسجاياه لابنيها فهي الحريصة على زرع فضائل الأخلاق فيهما؛ ليقاربا بذلك رفيع منزلة جدّهم النبيّ صلى الله عليه وآله.

الثانية- إنَّ قول النبيّ أنّه ورّث أوّلهما الهيبة والسؤدد وثانيهما ورّثه الجرأة والجود، لا يعني خلو أحدهما من صفتي أخيه الأخرتين، فالأئمّة عليهم السلام كلّهم حازوا أعلى مراتب الشرف وأحمد منازل الصفات، لا يفترقون في ذلك، والدليل على ذلك أنّ الإمام الحسن عُرِف بعد ذلك بكريم آل محمّد، وأحسب أنّ تقسيم النبيّ سجاياه بينهما كناية عن حظوتهما بسجاياه معا.

مراعاة خصوصيّة الطفولة

للطفولة خصوصيّاتها وأحكامها، ومن خصوصيّاتها الميل الدَّائم الى اللعب واللهو والعبث بل حتّى التّشاجر والتّنازع والتّخاصم والعناد، وكثيرا ما لا تتحمّل الأم عبث أبنائها وعنادهم بل قد تحسب أنّ ذلك منقصة فيهم، فتعمد إلى تعنيفهم، وهنا تكون المشكلة، فعبث الأطفال وعدم إطاعة الأوامر في السني الأولى من العمر ليست بمشكلة متجذّرة بل هي من مقتضيات مرحلة منتهيّة بلا شكّ من عمر الطفل، على حين أنّ تعنيف الطفل سيترك أثرًا سلبيًّا لا يغادر شخصيّته في المراحل القادمة.

وهنا نجد أنّ مولاتنا الزهراء عليها السلام لم تكن تؤنّب طفليها أو تعاقبهما على عبثهما وصراعهما مع بعض، إذ روي أنّ الحسنين عليهما السلام كانا مع جدّهما صلى الله عليه وآله ولمّا أتى بهما منزل فاطمة عليها السلام: «فأقبلا يصطرعان، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: هي يا حسن، فقالت فاطمة عليها السلام : يا رسول الله، أتقول: هي يا حسن وهو أكبر منه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هذا جبرئيل يقول: هي يا حسين»[1]، فهذان طفلا بيت النبوّة يلعبان فيصطرعان، ولم يمنعهما جدّهما ولا أمّهما من ذلك؛ إذ هذه مقتضيات مرحلة الطفولة.

وفي مقام آخر نجد أنّهما يمتنعان من العودة مع أمّهما إلى دراهم، ويبقيان عند جدّهما فلا تجبرهما الزهراء عليها السلام على العودة معها، فعن «أبي عبد الله الصادق جعفر بن محمّد، عن أبيه محمّد بن علي الباقر، عن أبيه (عليهم السلام)، قال: مرض النبيّ صلى الله عليه وآله المرضة التي عوفي منها، فعادته فاطمة سيّدة النساء عليها السلام ومعها الحسن والحسين عليهما السلام، قد أخذت الحسن بيدها اليمنى، وأخذت الحسين بيدها اليسرى، وهما يمشيان وفاطمة بينهما حتّى دخلوا منزل عائشة، فقعد الحسن (عليه السلام) على جانب رسول الله صلى الله عليه وآله الأيمن، والحسين عليه السلام على جانب رسول الله صلى الله عليه وآله الأيسر، فأقبلا

(١) كتاب سليم بن قيس:٢٧٥، و قرب الإسناد: ١٠١، وبحار الأنوار: ٣٧/ ٧٥.

يغمزان ما يليهما من بدن رسول الله ﷺ، فما أفاق النبيّ ﷺ من نومه، فقالت فاطمة للحسن والحسين: حبيبي، إنّ جدكما قد غفا، فانصرفا ساعتكما هذه ودعاه حتّى يفيق وترجعان إليه، فقالا: لسنا ببارحين في وقتنا هذا فاضطجع الحسن على عضد النبيّ ﷺ الأيمن، والحسين على عضده الأيسر فغفيا...» [(١)].

الترفّقُ في القول مع الصغير

في الرواية المذكورة آنفا طالعنا طريقة خطاب السيدة الزهراء عليها السلام لابنيها حين تخاطبهما سوية بقولها: «حبيبَي إنّ جدّكما قد غفا»، فما أعذب لفظ (حبيبَي) في فم والدة رؤوم رحوم كفاطمة عليها السلام، وما أعظم الأثر الذي تتركه الكلمات الطيبة في نفسيّة الطفل وشخصيّته وما أشدّ نفعها معه.

ولو كان هناك ما هو أفضل من القول اللّين في استمالة النفوس لأوصى الله تعالى به نبيّه موسى وهارون عليهما السلام إذ قال: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(٤٤)}[(٢)]، فإن كان الكلام اللّين الطيب له ذلك الأثر الذي قد يمضي في نفوس أعتى طغاة الأرض فلا شكّ أنّه أمضى في قلب الحدث وأعملُ فيه.

إكرام الأبناء والرأفة بهم

إنّ الإشارة التربويّة البارزة في تنشئة الأطفال في القرآن الكريم هي قوله تعالى على لسان عزيز مصر مخاطبا زوجته في أمر يوسف عليه السلام: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ}[(٣)]، فكان إكرام المثوى لائقًا بتربية طفل صغير تُعِدُّه السماء ليكون نبيًّا عظيمًا له ملك مصر وأهلها.

وما يؤكِّد أهميّة مبدأ الإكرام في تربية الطفل قول النبيّ الأكرم ﷺ: «أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم؛ يُغفَرُ لكم.»[(٤)] فقدّم إكرام الأولاد على إحسان آدابهم لَمَّا كان إكرامهم هو المقدّمة المثلى لتهيّئة الطفل إلى استقبال ما يُغرس فيه من الآداب الحسنة والقيم الفضلى.

إنّ قول خيرة النساء لابنيها عليهما السلام بعد وفاة نبيّ الرحمة ﷺ: «أين أبوكما الذي كان يُكرمكما ويحملكما مرّة بعد مرّة، أين أبوكما الذي كان أشدّ الناس شفقة عليكما؛ فلا يدعكما تمشيان على الأرض؟ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون،

---

(١) الأمالي: ٥٢٩، وينظر: مدينة المعاجز: ٣/ ٢٧٣، وبحار الأنوار: ٤٣/ ٢٦٧.

(٢) طه: ٤٣، ٤٤.

(٣) يوسف: ٢١.

(٤) وسائل الشيعة: ٢١/ ٤٧٦، وينظر: مكارم الأخلاق: ٢٢٢.

فُقِدَ والله جدّكما وحبيب قلبي، ولا أراه يفتح هذا الباب أبدا ولا يحملكما على عاتقه كما لم يزل يفعل بكما»[1] قد أشارت فيه إلى نهج رسول الله ﷺ في إكرام ابنيها عليهما السلام.

ولو تمثّلنا مصاديق إكرام الطفل لكانت الرأفة به والشفقة عليه أبرز تلك المصاديق على ما هو واضح من الرواية المذكورة آنفًا، ولا شكّ أنّ الزهراء كانت في غاية الشفقة على طفليها على نحو ما لمسناه من الروايات في الموضوعات المتقدّمة ذات الصلة، وكان من موارد شفقتها بأطفالها أيضا ما روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إنَّ فاطمة (صلوات الله عليها) كانت تمضغ للحسن ثم للحسين عليهما السلام وهي صائمة في شهر رمضان»[2].

إشراك الأطفال في المحافل الهامّة

بعض الأهل يُقحمون الأطفال في جيع المحافل والمناسبات والأحداث العامّة على الرغم من أنّ فيها ما لا يناسبهم، وبها ما لا تُراعى فيه نقاء فطرتهم، والبعض الآخر من الأهل يحجب الأطفال تمامًا عن أغلب المجريات والمحافل والقضايا من حولهم، وهذا ضرره كبير أيضا؛ لأنّه سيحرم الأطفال من اكتساب الخبرة اللازمة والسلوكيات الاتباعيّة الصحيحة والانخراط الاجتماعيّ السليم.

لذا وجب على الأهل أن يوازنوا بين الأمرين ويشركوا أولادهم في بعض المحافل العامّة والاجتماعات العائليّة الكبيرة على النحو الذي يُسهم في تركيز القيم الصحيحة في أذهان الأطفال، وتُنقَلُ لهم تجارب الآباء وخبراتهم في مواجهة الحياة، فتلك السيّدة فاطمة عليها السلام قد اصطحبت ابنيها إلى مسجد أبيها ﷺ بعد وفاته وهي ترفع راية المناهضة والثورة على الذين جافوا حكمَ الله تعالى بعد وفاة نبيّه ونادموا أهواء أنفسهم المضلّة، ورد «عن أبان عن أبي هاشم قال: لما أُخرِج بعليّ عليه السلام؛ خرجت فاطمة عليها السلام واضعة قميص رسول الله ﷺ على رأسها آخذة بيدي ابنيها، فقالت: ما لي ومالك يا أبا بكر تريد أن تؤتم ابني وترمّلني من زوجي، والله لولا أن تكون سيّئة ...»[3]، وهنا قد يقال: إنّ الزهراء قد أخرجت الحسنين(عليهما السلام جميعا) لرمزيّتهما؛ فهما ولدا رسول الله ﷺ، وفي هذا وجه كبير من الصحّة ولكنه لا يمنع أبدا أنّها أرادت أيضا أن تُطلعهما مبكّرا على الباطل وصولاته، وتعلّمهم عدم النكول إليه بل مواجهته ومجابهته.

الصدقةُ حصنُ الأسرةِ القويم

مهما أجهد الأبوان أنفسهما في تربية أبنائهما فيبقى احتمال انحراف الأبناء وشططهم عن جادة الصواب قائما؛ لذا ترى العقلاء من الآباء يخشون أن لا تؤتي شجرتهم أكلها، إذ ليس لكلّ زارع ثمر، فالفلاح حتّى وإن

(١) روضة الواعظين: ١٥٠، وينظر: مناقب آل أبي طالب:٣/ ١٣٧، وبحار الأنوار: ٤٣/ ١٨١، ١٨٢.

(٢) الكافي: ٤/ ١١٤، وينظر: وسائل الشيعة:١٠/ ١٠٨، وجامع أحاديث الشيعة: ٩/ ٢٢٦.

(٣) الكافي:٨/ ٢٣٨، وينظر: بحار الأنوار: ٢٨/ ٢٥٢، ومرآة العقول: ٢٦/ ١٨٣.

حرث الأرض وأجاد اختيار البذور وسقى نبته واعتنى به سيبقى احتمال فساد زرعه قائم لديه؛ فلا يمكنه الجزم بناتج زرعه.

وهكذا الآباء فبعد أن يحرزوا تربية أولادهم ويأخذوا بأسباب صلاحهم ويوفروا بيئة سلامتهم، سيبقون مشفقين من ضياع جهدهم لسبب خارجي أو طارئ من الأسباب ولاسيّما وأنّ الأولاد ليسوا نتاج تربية الأبوين فحسب، وإنّما تشترك عوامل أخرى في ذلك، نحو المدرسة والأصدقاء والزملاء والمعلمين وغيرهم.

لذا يبقى الوالدان يفتقران إلى عناية الله تعالى بنشأة أبنائهم، وخير طريقة لضمان ذلك هي الصدقة على نيّة ذلك فضلا عن الدعاء، فحديث «داووا مرضاكم بالصدقة»[1] معروف ومشهور ومجرّب، ولأنّ أخطر أنواع المرض وأشدّها أثرًا في النفوس وفتكًا في الحياة هو مرض القلوب الذي يترك آثاره على السلوك ويرديها؛ لذا احتجنا أن ندفعه بالصدقة، قال تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا}[2]، على أنّ الصدقة لا تداوي مرض قلوب الأبناء بل حتّى الوالدين إن استحصلت شروطها من طيب مصدرها فلا تكن مالاً حرامًا، ثم لا يتبعها منى ولا أذى، ويؤتى بها بنيّة التقرّب لله تعالى لا رياءً.

إنّ التصدّق والصدقة من أبرز ملامح البيت الفاطميّ، إذ كان هذا البيت ملجأ المساكين وكهف اليتامى ومقصد الأسارى، حتّى أن صدقته تفوق الإدراك، فأيّ بيت يطوي أيامه الثلاثة صائما ثمّ يتصدّق برغيف خبز واحد يمتلكه لإفطاره ولا يمتلك غيره لثلاثة أيام متواليات؟!!

ولقد روي أنّه «جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فشكا إليه الجوع، فبعث إلى بيوت أزواجه فقلن: ما عندنا إلّا الماء، فقال: من لهذا الرجل الليلة؟ فقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: أنا له يا رسول الله وأتى فاطمة فقال لها: ما عندك؟ فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، لكنا نؤثر ضيفنا، فقال عليّ ﷺ: نوّمي الصبية وأطفئي المصباح، فلمّا أصبح عليّ ﷺ غدا على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فلم يبرح حتّى أنزل الله: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[3].»[4] وفي الرواية ثلاث نكات، هي:

الأولى- تلطّف الزهراء في الرجل الفقير وإيثارها إياه على أبنائها، ثمّ جميل وصفها له بـ(الضيف)، ولم تسمّه سائلا.

الثانية: تنويمهم الأطفال وإطفاء المصباح، كي لا يعرف السائل أنّهم لا يملكون غير هذا الطعام فيدبُّ إليه

---

(١) الكافي: ٤/ ٣، وينظر: ثواب الأعمال: ١٣٩.

(٢) البقرة: ١٠.

(٣) الحشر: ٩.

(٤) وسائل الشيعة: ٩/ ٤٦٢، وينظر: الأمالي: ١٨٥، وحلية الأبرار: ١/ ٢١٣.

الحرج، بل دخل عليهم والأطفال نيام والمصباح مطفأ فأكل في الظلمة، ولعلّه حسب أنّ الطعام كثير وأنّ أمير المؤمنين يوآكله على المائدة.

الثالثة– نزول آية مباركة فيهم لِمَا علمه الله من حاجة فيهم إلى الطعام المتصدّق به، فضلا عن تلطّفهم الصنع في تنويم الأطفال وإطفاء المصباح، واستحضار نيّة القربى الخالصة إليه؛ فكانوا مثالا لمن يئد شُحّ نفسه فيفز بمقام الفلاح.

ملامح سلوك الأبناء في الأسرة

الأسرة ليست آباءً فقط، وواجبات ملقاة على عاتقهم فحسب، بل هي أبناء أيضا وواجبات من نوع آخر يضطلعون بها، فالمؤسّسة الأسريّة تضمّ واجبات وحقوق موزّعة على الآباء والأولاد سويّة.

والزهراء عليها السلام ابنة قبل أن تكن أمّا وقد أدّت واجبها الابنوي على أتمّ وجه حتّى وصفت بأنّها أم أبيها، إذ أجلى ما يُلحظ على سيرة الزهراء هو عطفها الشديد على أبيها على نحو ما نرى من عطف الأم على ابنها؛ فلقد «دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على فاطمة فقدّمت له كسرة يابسة من خبز شعير فأفطر عليها ثمّ قال: يا بنيّة هذا أوّل خبز أكل أبوك منذ ثلاثة أيام، فجعلت فاطمة تبكي ورسول الله يمسح وجهها بيده»[(١)]، فهي تبكي لجوعه على نحو بكاء الأم الرحوم بابنها إذا ما جاع أيامًا.

وكانت الزّهراء عليها السلام ممرّضة أبيها التي ضمدّت جراحه وغسلت دمه بعدما أصيب في معركة أحد، فعن سهل بن سعد الساعدي قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد وكسرت رباعيته، وهشّمت البيضة على رأسه، وكانت فاطمة بنته عليها السلام تغسل عنه الدم وعليّ بن أبي طالب عليه السلام يسكب عليها بالمجن، فلما رأت فاطمة عليها السلام أنّ الماء لا يزيد الدمّ إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقته حتّى إذا صار رمادًا ألزمته الجرح فاستمسك الدم»[(٢)].

وكانت تعتني بشؤونه وتفاصيلها الدقيقة حتّى نراها على كثرة نساء أبيها صلى الله عليه وآله هي من تعدّ له الغسول ليغسل رأسه، جاء في بحار الأنوار: "لّما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من غزوة الأحزاب ودخل المدينة ضربت له ابنته فاطمة غسولا فهي تغسل رأسه، إذ أتاه جبرائيل.... "[(٣)]، فهي ابنة لا تتوانى عن خدمة أبيها ولا تحتسب في ذلك كثرة خادميه غيرها. وكانت عليها السلام شديدة التأدّب معه وعظيمة الاحترام إليه؛ «فإذا دخل عليها قامت إليه فرحبّت به، وقبّلت يديه»[(٤)] على أفضل ما يُرحب به الزائر وخير ما يحترم به الوالد. لقد كانت الزهراء عليها السلام

---

(١) مناقب آل ابي طالب: ٣/ ١١٣، وينظر: بحار الأنوار: ٤٣/ ٤٠.

(٢) بحار الأنوار: ٢٠/ ٣٢، وينظر: الغدير: ٧/ ٢٠٥، وأضواء على الصحيحين: ٣٤٧.

(٣) بحار الأنوار: ٢٠/ ٢٧٢، وينظر: مناقب آل أبي طالب: ١/ ١٧٢.

(٤) الأمالي: ٤٠٠، وينظر: حلية الأبرار: ١/ ١٨٨، والأنوار البهية: ٥٧.

تعتني حتّى بكلماتها مع أبيها؛ فتخرج تلك الكلمات من ثغرها مكلّلة بشذا أدبها العالي وبليغ معانيها، فنراها حين يأمرها رسول الله ﷺ بإطعام سبطيه، تجبه ببالغ الأدب قائلة: «ما في منزلي إلا بركة رسول الله»[1].

خاتمة

فاطمة الزهراء ﷺ نبراس الأمّة ومشعل الاقتداء، وحريّ وبالأسرة على نحو عام وبالمرأة على نحو خاصّ أن يقتفوا منهجها التربويّ وسلوكها الأسريّ وأن يحرصوا على تلك الإضاءات التربويّة الّتي وصلتنا عنها؛ فعلى الرّغم من قلّة الواصل إلينا وعدم حفظ كثير من سيرة الزهراء الأسريّة التي نفتقر إليها بجزئياتها وتفاصيلها والتي نحن بأمسّ الحاجة إليها، أقول على الرّغم من ذلك فإنّ هذا القليل النفيس يشكّل ملامح منهج تربويّ متكامل لا يمكن لمن أراد صلاح أسرته أن يتخطّاه أبدا.

(١) مناقب الإمام أمير المؤمنين: ١/ ٥٨، وينظر: بحار الأنوار: ٥٣/ ٢٥٢.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الاحتجاج، لأبي منصور أحمد بن علي الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، تعليق وملاحظات: السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف١٩٦٦م.
- الأصول الستة عشر، لعدة محدثين (ق ٢)، دار الشبستري للمطبوعات، ط٢، قم ١٤٠٥ هـ
- أضواء على الصحيحين، لمحمد صادق النجمي (معاصر)، مؤسسة المعارف الإسلامية، ط١، ١٤١٩هـ.
- الأمالي، لأبي جعفر محمد بن علي المعروف بالشيخ الصدوق(ت٣٨١هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة ؛ قم، ط١، ١٤١٧هـ.
- الأنوار البهية، لشيخ عباس القمي (ت١٣٥٩هـ)، تحقيق : مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط١، ١٤١٧هـ.
- بحار الأنوار، للشيخ محمد باقر المجلسي(ت١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٤٠٣ هـ.
- بصائر الدرجات، لمحمد بن الحسن بن فروخ (ت٢٩٠هـ)، تصحيح وتعليق وتقديم: الحاج ميرزا حسن كوچه باغي، منشورات الأعلمي – طهران، ١٤٠٤هـ.
- ثواب الأعمال، لأبي جعفر محمد بن علي المعروف بالشيخ الصدوق(ت٣٨١هـ)، تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، ط٢، قم ١٣٦٨ش.
- جامع أحاديث الشيعة، لسيد البروجردي (ت١٣٨٣هـ)، المكتبة العلمية، قم، ١٣٩٩هـ.
- حلية الأبرار، لسيد هاشم البحراني (ت١١٠٧هـ)، تحقيق: الشيخ غلام رضا مولانا البروجردي، مؤسسة المعارف الإسلامية ، قم، ط١، ١٤١١هـ.
- الخصال، لأبي جعفر محمد بن علي المعروف بالشيخ الصدوق(ت٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، قم ١٤٠٣هـ.
- الدروع الواقية، لسيد علي بن موسى بن طاووس لف : السيد ابن طاووس(ت٦٤٤هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط١، قم ١٤١٤هـ.
- دعائم الإسلام، لأبي حنيفة القاضي النعمان بن محمد المغربي(ت٣٦٣هـ)، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣م.

- دلائل الإمامة، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (الشيعي)(ق٤)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة، قم ١٤١٣هـ.
- روضة الواعظين، لمحمد بن الفتال النيسابوري، (ت ٥٠٨هـ)، تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، قم(د. ت).
- شرح الأخبار، لأبي حنيفة القاضي النعمان بن محمد المغربي(ت٣٦٣هـ)، تحقيق: السيد محمد الحسيني الجلالي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط٢، قم ١٤١٤هـ.
- علل الشرائع، لأبي جعفر محمد بن علي المعروف بالشيخ الصدوق(ت٣٨١هـ)، تقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف الأشرف ١٩٦٦ م.
- عوالي اللآلي العزيزية في الأحاديث الدينية، لمحمد بن علي بن إبراهيم الأحسائي (ت نحو ٨٨٠هـ)، تحقيق: الحاج آقا مجتبى العراقي، ط١، قم ١٤٠٣هـ.
- غرر الحكم و درر الكلم من كلام الامام علي بن ابي طالب، جمع عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد الامدي ، طبعة صيدا ١٩٣٠م.
- الغدير، لشيخ الأميني(ت١٣٩٢هـ)، دار الكتاب العربي، ط٤، بيروت، ١٩٧٧م.
- قرب الإسناد، لأبي العباس عبد الله بن جعفر الحميري(ت٣٠٤هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط١، قم، ١٤١٣هـ.
- الكافي، لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني(ت٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق : علي أكبر الغفاري، مطبعة حيدري، ط٥، طهران، ١٣٦٣ش.
- كتاب سليم بن قيس، لسليم بن قيس الهلالي الكوفي (ت٧٦هـ)، تحقيق : محمد باقر الأنصاري الزنجاني، ط١، إيران ١٤٢٢هـ.
- مدينة المعاجز، لسيد هاشم البحراني (ت١١٠٧هـ)، تحقيق: الشيخ عزة الله المولائي الهمداني، مؤسسة المعارف الإسلامية قم، ط١، ١٤١٣هـ.
- مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، للشيخ محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ)، دار الكتب الإسلامية، ط٢، ١٤٠٤هـ.
- مسند الإمام الرضا، رواية داود بن سليمان الغازي(ت٢٠٣هـ)، تحقيق: محمد جواد الحسيني الجلالي، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ط١، إيران ١٤١٨هـ.

- معاني الأخبار، لأبي جعفر محمد بن علي المعروف بالشيخ الصدوق(ت٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، قم ١٣٧٩.
- مكارم الأخلاق، لرضي الدين أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، منشورات الشريف الرضي، ط٦، ١٩٧٢ م.
- من لا يحضره الفقيه، لأبي جعفر محمد بن علي المعروف بالشيخ الصدوق(ت٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، قم (د.ت).
- مناقب آل أبي طالب، لمشير الدين محمد بن علي بن شهرآشوب (ت ٥٨٨هـ)، تصحيح وشرح ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٩٦٥م.
- مناقب الإمام أمير المؤمنين، لمحمد بن سليمان الكوفي(ت نحو ٣٠٠هـ) تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، ط١، ١٤١٢هـ.
- موسوعة أحاديث أهل البيت، للشيخ هادي النجفي(معاصر)، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، بيروت ٢٠٠٢م.
- المؤمن، لحسين بن سعيد الكوفي (ق٣)، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، ط١، قم، ١٤٠٤هـ.
- ميزان الحكمة، لمحمد الريشهري(معاصر)، مطبعة دار الحديث، ط١، ١٤١٦هـ.
- وسائل الشيعة، لمحمد بن الحسن الحر العاملي (ت١١٠٤هـ)، تحقيق : مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، قم ١٤١٤هـ.

القصيدة

أم البنين
وقربة العباس عليهما السلام

الشاعر وهاب شريف

يا قربةً لدموعِ نهري ... من جودها أضْرمْتُ فجريِ
حلـــــــمُ الترابيـــــــّن يو ... قدهُ الندى برمادِ ذعري
وبـــــــشارةُ الآتيـــــــن يحْـ ... ـرسُها الأسى ويصيحُ مُرّي
يا قربةً قدحتْ فمَ الْـ ... ـغيمات واشتعلتْ بصدري
ولسوءِ حظّ سهامِها ... للآن من عينيَّ تجري
أَنَا منذُ أنْ شاطرْتُ نحْـ ... ـوَكِ ظامئِي شاطرْتُ شطري
أَنَا أُمّهُ وهْوَ اتّجا ... هي كلّما كابرْتُ قهْري
يا وِرْدَ أربعةٍ لأَجْـ ... ـلِ فراشةٍ من فوق جمرِ
ويقولُ عني اللائمو ... نَ: سكبْتُهُمْ همْ كلُّ عمري
لا بلْ سكبْتُ على الثرى ... خجلي أُزيّنُ فيه عذري
أَنَا نخلةٌ بغزيرِ ذا ... كرتي مشيتُ أطيحُ تمري
حزّمْتُ كلَّ خسائري ... سلّمْتُ للعباس أمري
منهُ استمدَّ الجودُ ما ... يكفي لنُعْمى قيْدَ قفرِ
معَ بدرهِ ابتدأتْ تلا ... وةُ ليلةٍ أخرى لقدْرِ
واعْشوْشبتْ لتفزَّ منْ ... ألمٍ وقيعةُ يوم بدرِ
لكنّها اسْتَحيتْ وقا ... متُهُ الصفاءُ على الممَرِّ
يا وجهَهُ الوضّاح ما انْـ ... ـقَطَعتْ - يتمتمُ - كفُّ عصري
سحبُ الهموم تناسلتْ ... وصداهُ في الآفاق يسري
يتلألأُ العباسُ وهْـ ... ـوَ يبثُّ يا أمّاهُ أدري

أَنَا بسمةُ الأملِ البهيِّ عَلَى شفاه اليُتْمِ أجري
مدنٌ من الطفِّ الطريـ ـقُ سقيْتُها من ماءِ صبري
أَنَا كفُّ عبد الله ما سقطتْ ولكنْ كنتُ ظهري
في أُمّةٍ ما أثقل الْـ ـبلوى على ملكوت فقري
ولقدْ حملتُ جبالَها وإباءَها أَنَا نسْلُ غُرّي
فلمنْ إذنْ إنْ لمْ أُقَدَّ مْ كفّتي في كفّ حُرّيِ
يتناسلُ الصبحُ الذي في الطين من فخرٍ لفخرِ؟
ولمنْ إذنْ إنْ لمْ تُقَطَّ ـعْ ضفّتي في نهر سِفْري
يتكاثرُ الأطفالُ في الـ ـصلواتِ شلاّلات سُمْرِ؟
لعيونهمْ تتزاحمُ الْـ أطيافُ من زرقٍ لخضْرِ
كتبَ الضيائيّونَ من نهرين من عطشٍ وشذْرِ
أحلى صباحٍ في مَهَبّ الغيم من أمطار ذكْري
أَنَا لمْ أؤثّثْ حزنَهُمْ كي يحزنوا أَنَا كنتُ نحري
وكثيفَ قتْلي لمْ أُطا لبْ جفْنَ معصيةٍ بثأْري
أَنَا نبضُ هذا الماءْ محْـ ـورهُ دمي ودموع قبري
الأرضُ منْ حرّيتي دارتْ ونامتْ عند حجْري
وترعرعَ الأحرارُ حوْ لَ الطفِّ صاروا مسْتقرّي
وبلابلُ التسبيحِ تقْـ ـنتُ كلّما مرّتْ بثغري
أُمّي ومنذ طفولةٍ تز هو بنا وتقولُ: ذخري
وأبي عليُّ الأرضِ في شريانِنا سرٌّ بسِرّي
وحسينُ آيُ اللهِ مذ رتّلْتُ ما أطْبقْتُ عشري
يا ضوْءَ إيماني بهِ كفراً بهِمْ بالظلمِ كفْري
أضرمْتُ عُودي من غدي ليكونَ في إصلاح شمري